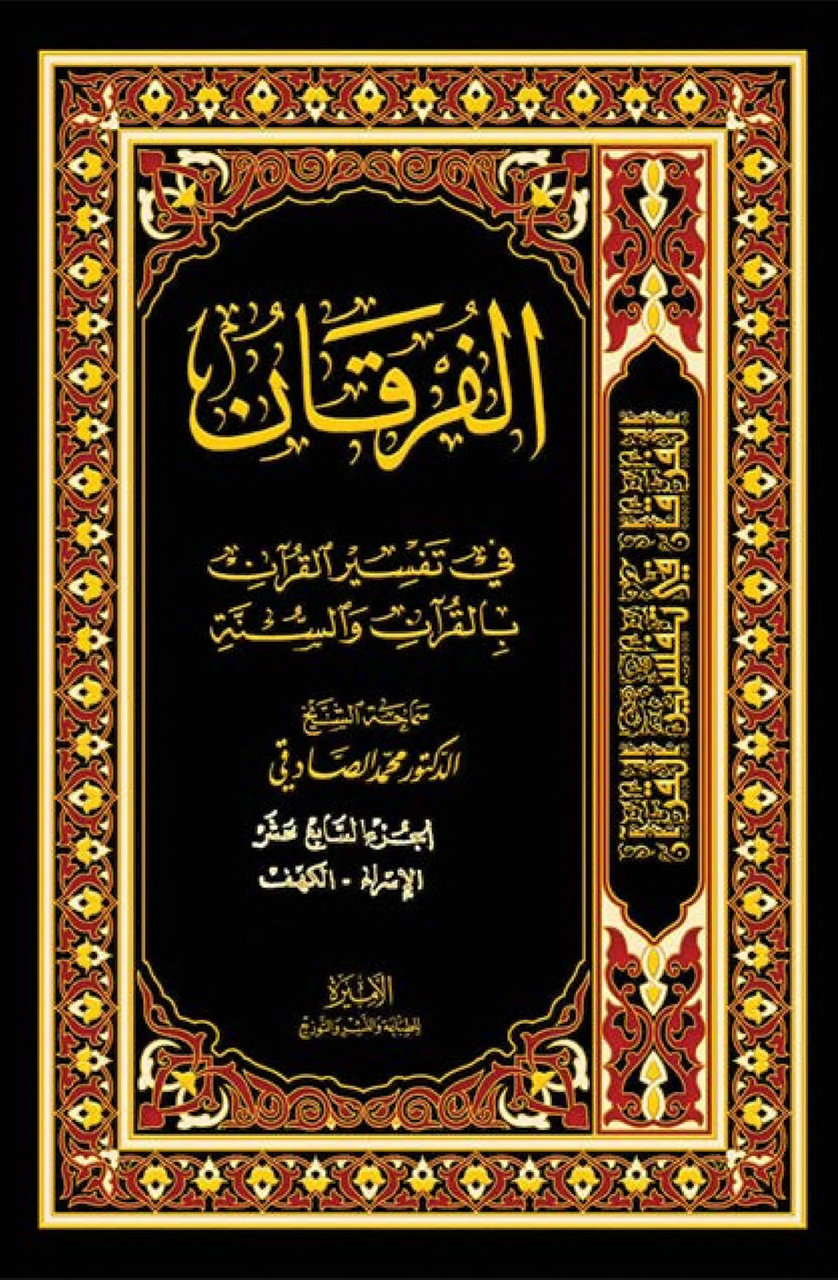

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسنة
سماحة الشيخ
الدكتور محمد الصادقي
الجزء السابع عشر
الإسراء - الكهف

الفرقان
في تفسير القرآن
بالقرآن والسُّنة

الفرقان

في تفسير القرآن

بالقرآن والسُّنة

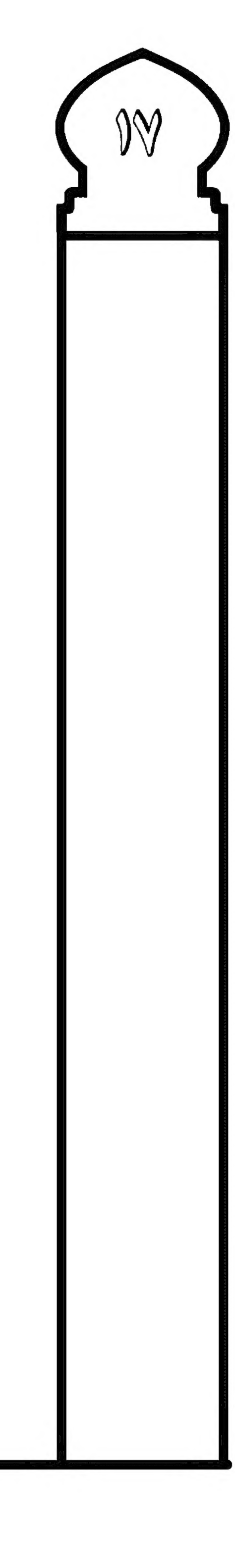
الجزء السابع عشر

سورة الإسراء

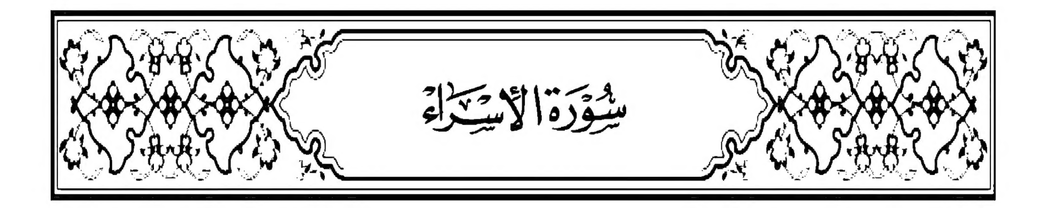


سماحة الشيخ

الدكتور محمد الصادقي



سُورَةُ الإسْرَاء



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾

سورة مثلثة الأسماء: الأسرى - بني إسرائيل - سبحان: تتبنى الرسالة الإسلامية بمقتضياتها ومخلفاتها كقاعدة أصيلة، بأصولها الثلاثة، وما تتضمنه من ملاحم وبشارات وإنذارات مثلات، بدايتها ﴿سُبْحَٰنَ﴾ لتأكيد

وتوطيد الرحلة المعراجية المنقطعة النظير، ونهايتها ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[(١)] تسبيح يضرب إلى الحمد فإنه تسبيح بالحمد وبينهما متوسطات! وفي السورة قيلات خمس: إنها مكية إلا آيات: اثنتين أو ثلاث أو خمس أو ثمان[(٢)] ولا توحي هذه أو تلك بمدنيتها ولا تلمح إذ نزلت نظائرها في المكيات، ثم هي بين دالة على مكيتها أو غير دالة على مدنيتها فقد تكون مكية كلها كما يقتضيه طبع الألفة والتأليف.

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾:

هنا إجمال عن الرحلة المعراجية إلى أقصى أعماق الفضاء، وفي التكوير إجمال أخصر مما هنا: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[(٣)] ثم ينجم تفصيلها في النجم: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٤)] مثلث بارع رائع عن هذه الرحلة الرهيبة الخارقة، يفسر بعضها بعضاً وينطق بعضها على بعض، مهما اختلفت فيها الروايات فلتعرض على القرآن لكي تنحو نحو القرآن.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١١١.

(٢) مدنيتان كما في روح المعاني هما ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ [الإسراء: ٧٣] ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ [الإسراء: ٧٦] وعن بعضهم إضافة: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ...﴾ [الإسراء: ٦٠] ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ...﴾ [الإسراء: ٨٠] وعلّ الإخراج أو منه الإخراج إلى المدينة فهي مكية إذ تنبئ عن مستقبل، وعن الحسن ألا ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ...﴾ [الإسراء: ٣٣] ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ...﴾ [الإسراء: ٣٢] ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ...﴾ [الإسراء: ٥٧] ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ [الإسراء: ٧٨] ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ...﴾ [الإسراء: ٢٦] وعن مقاتل ألا ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ [الإسراء: ٧٣] ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ...﴾ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ...﴾ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى...﴾ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ...﴾ [الإسراء: ١٠٧] وآية الاستفزاز تشهد أنها مكية كآية الإدخال وسواهما لا تشهد أنها مدنية. وعن قتادة والمعدل عن ابن عباس إلا ثماني هي ﴿وَإِن كَادُوا۟...﴾ إلى ﴿وَقُل رَّبِّ...﴾.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٣.

(٤) سورة النجم، الآية: ٧.

﴿سُبْحَٰنَ﴾ خير بداية تتلو خير ختام ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تبدأ بها سورة السبحان الأسرى - بني إسرائيل، كأليق حركة نفسية نفيسة تتسق مع واقع الاسراء وجوه اللطيف، وأحرى حالة روحية حيث يبلغ صاحبها إلى الأفق الأعلى المبين.

و﴿سُبْحَٰنَ﴾ عَلَم للتسبيح منحصر في الله ومنحسر عن غير الله، فإنه التنزيه المطلق[١]، فليختص بالنزيه المطلق، وليس مطلق التنزيه حتى يشمل من سوى الله من الكاملين، وإن في أعلى قمم الكمال حيث الفقر ذواتهم، والنقص كيانهم فأنى لهم سبحان مطلق! والله تعالى ذاته سبحان وصفاته سبحان وأفعاله سبحان، وهي هنا: سبحان ذاته أن يعرج إليها عبده أي عروج كان، في المكانة أو في المكان، فإنه مكن المكان فليس له مكان، وحد الحدود والجهات فليست له حدود وجهات، وهو المُنهي للنهايات والمغيي للغايات، فسبحان ذاته أن يكون منتهى العروج لعبده بأي معنى كان، اللهم إلا قمة المعرفة الممكنة بالله:

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾[٢]! ثم وسبحان أفعاله أن يعجز عن معراج عبده بجسمه وروحه إلى سماواته ليريه بعض آياته، كما يهرف به من لا يعرف قدرته تعالى على كل شيء.

وسبحان صفاته عن أن يضن ويبخل عن هذه المكرمة الغالية لأول العابدين وسيد الخلق أجمعين، فسبحانه سبحانه سبحانه عن أي رين وشين في هذا البين.

ثم و﴿سُبْحَٰنَ﴾ تتكفل - ككل - بيان سلبية الصفات غير اللّائقات بجناب عزّه، كما «الحمد» بيان للثابتات اللائقات بحضرة قدسه.

---

(١) تفسير روح المعاني ج ١٥ ص ٣ في العقد الفريد عن طلحة قال: سألت رسول الله ﷺ عن تفسير سبحان الله فقال: تنزيه لله تعالى عن كل سوء.

(٢) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

﴿ٱلَّذِىٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلًا . . .﴾ :

﴿أَسۡرَىٰ﴾ من «السُّرى»: سير الليل - ولكنه مضمَّن معنى الرفعة والعلو فسراةُ كل شيء أعلاه، كسراة النهار: ارتفاعه، رفعة حسية أو معنوية: ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيًّا﴾[1] رفيعاً عظيماً هو المسيح عليه السلام كما السر وشجرة مستقيمة رفيعة، وقد تجمع «السرى» بين الرفعتين كما في سرى الرسول ﷺ سرى أرضية إلى القدس في سفرة جوية، ثم سماوية إلى الأفق الأعلى مكانة ومكاناً.

وإذا كانت السرى سير الليل فلماذا هنا ﴿لَيۡلًا﴾ وكما في ثانية ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[2] وثالثة ﴿فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾[3] ومن ثم في رابعة تأتي دون ليل ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾[4]؟؟.

نقول: إن جمع الليل إلى السرى إذا كان مع عدم جمعه سيان كما في سرى موسى فالليل لمزيد الإيضاح[5]. أم ولكي يعرف أنها في ليلة واحدة لا ليال. وإذا - لا - كما في لوط: ﴿بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾ قسم من الليل يؤمن فيه عن ملاحقة قومه، لا كله أو أية قطعة منه حيث الخطر حادق والعدو حاذق، فلهذه وتلك.

أم لهذه وسواها من نكات كما في الإسراء يجمعها:

١ - دلالة على أن السرى كانت في ليلة واحدة حيث الوحدة لائحة من تنكير ﴿لَيۡلًا﴾ لا في ليال، حيث السرى وحدها أعم من ليلة أو ليال.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الدخان، الآية: ٢٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٨١.
(٤) سورة الشعراء، الآية: ٥٢.
(٥) كما في ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ [النحل: ٥١]. قصداً إلى أن نفي الاثنينية كإثبات الوحدة مقصود، دون أن يكون النفي هامشياً.

٢ - وإشارة إلى أنها كانت في قطع من ليلها دون تمامه، حيث القطعة مشار إليها بالتنكير ﴿لَيْلًا﴾ كما الوحدة، فاستغراق الليل يقتضي «الليل» لا «ليلاً».

و٣ - إفادة للتعظيم حيث كانت ليلة العروج وكانت الاثنين وما أدراك ما الاثنان؟ إنه ﷺ ولد يوم الاثنين وبعث الاثنين، وعرج به الاثنين وخرج من مكة مهاجراً الاثنين ودخل المدينة الاثنين، وارتحل إلى رحمة ربه الاثنين، اثنينات ست تعم حياته، فسلام عليه يوم ولد ويوم بعث ويوم عرج ويوم هاجر ويوم مات ويوم يبعث حياً، ثم وهو هو الثاني في الكون والكيان بعد الحضرة الإلهية، فالله هو الأول في مثلث الذات والأفعال والصفات، وأحمد هو الثاني، وأين أول من ثان بون بين الوجوب وأرقى الإمكان:

زاحمدتا أحد يك ميم فرقست همه عالم در آن يك ميم غرقست

وما هو موقف الباء في «بعبده» بعد أن «أسرى» متعد بالإفعال؟

هل إنها المزينة؟ ولا تعرف إلا في خبر ليس! أم لتأكيد التعدية أن سُرى عبده إنما هي منه تعالى تماماً لا ومن عبده؟ ولا يعهد هكذا تأكيد! وآياتها الاخرى في إسراء لوط بأهله وموسى بقومه لا يناسبها تأكيد! أم أن مفعولها الأول محذوف كالذي عرج به كسفينته الفضائية «البراق» والذي صاحبه كجبريل[1] إذا فما هو المفعول الأول في نظيرتها ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ...﴾ ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي...﴾ ولا يناسبها محذوف في لوط وموسى! أم إن سرى وأسرى بمعنى وهما متلازمتان[2] مع الفرق أن أسرى لأول الليل وسرى لآخره[3] وقد كان سرى الرسول في الثلث الأوّل من الليل؟ - احتمالات: آخرها أولها وأولها آخرها وبينهما متوسطات.

(١) كما عن ابن عطية.
(٢) كما عن أبي عبيدة.
(٣) وقال الليث: أسرى لأول الليل وسرى لآخره.

ولماذا «بعبده» دون «محمد» أو «رسوله - نبيه»؟ علّه لأن «محمداً» دون وصف العبودية أو الرسالة لا يحمل ما يتحمل هكذا معراج، ولا يذكر حين يذكر إلا للتعريف الاسمي بالرسول النبي.

ثم هذا العروج لم يكن رحلة رسالية، وإنما عبودية تتبنّى كما له في نفسه حيث ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ... لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ...﴾[1] فالرحلة من الرب إلى الخلق رسالة، ومن الخلق إلى الرب تكملة العبودية في ذاته لتكميل الرسالة.

ثم العبودية تزيل حجب النور وحجب الظلمة والرسالة هي هي من حجب النور، وهو في مقام الدنو والتدلي يتخلى عن الحجب كلها ويتحلى بحلية العبودية في أعلى قممها ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[2] دون نبيه أو رسوله، وحياً سَرِيّاً سِرِيّاً يخصه دون سواه فسُرى المعراج تقتضي سُرى العبودية.

ومن ثم ما أحلى صيغة «عبده» وصبغته وصياغته أن لو لم تكن هنالك رسالة، لم تكن هنا لأول العابدين صيغة أجدر من «عبده». ثم لا نجد في القرآن «عبدنا» و«عبده» إلا لصاحب المعراج[3] اللهم إلا لداود وأيوب وزكريا ونوح ولكنه في زكريا في ظل رحمة ربك: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[4] وفي داود تسلية لصبره: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾[5] وفي

(١) سورة النجم، الآيات: ٨-١٨.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٣) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ [الأنفال: ٤١] ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف: ١] ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١] ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ﴾ [الحديد: ٩].

(٤) سورة مريم، الآية: ٢.

(٥) سورة ص، الآية: ١٧.

أيوب كذلك ذكرى لكي يصبر: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ...﴾[١]. وفي نوح تصبراً على طول المدة ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾[٢].

فليس إذاً «عبده» إلا محمد ﷺ كأنه هو عبده لا سواه، لأنه جامع مجامع العبودية فهو ﴿أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾[٣] كما وأنه هو رسوله لا سواه، كما تلمح لها آياتهما وتأتي في طياتها.

ثم و«عبده» تقريراً في مقام الإسراء إلى الدرجات العلى، ولكي لا تنسى هذه الصفة في زهوة الرحلة الفضائية وزهرة المعراج، وليس لينساه الرسول ﷺ ثم ولا يلتبس مقام العبودية بمقام الألوهية كما التبس في العقائد المسيحية.

وأخيرا «عبده» توحي بأن هذه السُّرى كانت بجزئيه: روحه وجسمه، دون تقسم فلم يقل بروح عبده أو بجسمه حتى يهرفه الهارفون ويخرفه الخارفون: إن المعراج كان روحياً، أو برزخياً في رؤياه أم ماذا؟

وإنما ﴿بِعَبْدِهِۦ﴾ فصاحب المعراج هنا «عبده» وفي النجم «صاحبكم» ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾[٤] وفي التكوير هو رسول كريم: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾﴾[٥].

أترى بعد أن «صاحبكم» «عبده» «رسول» هي فقط روحه، وهو ما صاحبنا - فقط - بروحه، وما رسالته - فقط - في روحه، وما عبوديته - فقط - بروحه، إن هذه إلا هرطقة هراء والله منها براء - فـ «سبحانه سبحانه سبحانه من قيلات هي ويلات على الحق المبين فأين - تذهبون[٦] -

(١) سورة ص، الآية: ٤١. (٢) سورة القمر، الآية: ٩.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٨١. (٤) سورة النجم، الآية: ٢.
(٥) سورة التكوير، الآيات: ١٩-٢٣.
(٦) وما في دعاء الندبة «وعرجت بروحه» غلط من الناقل والمنقول عنه والصحيح «وعرجت به» =

ولماذا «ليلاً» لا نهاراً، أم مزدوجاً، والنهار أبين للناظرين وأبعد إنكاراً للناكرين؟ عله لأن الليل هنا كان نهاراً هناك ولكي يرى من آيات ربه وضح النهار، أم عله لأن الليل أهدأ وأوقع لسرى المعراج، وناشئته هي ﴿أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾[1] وأية ناشئة طوال حياته ﷺ أنشأ وأنشط من ناشئة المعراج فلتكن ليلاً، ولا يحول الليل ولا أليل منه ظلمة دون رؤيته آيات ربه الكبرى بما أراه الله.

والسُّرى المعراجية تتبنى عروج الرسول إلى أعلى الآفاق المعرفية، قبل أن تتبنى اعجازها، ولم يكن عروجه إلى عمق الفضاء بالسرعة ما فوق الضوئية أو علها الجاذبية التي تفوق الزمان لم يكن بالذي يرى فيصدق بما يرى، اللهم إلا بما خبرهم بما رآه في سراه ما فوق الأرضية إلى القدس من عير أم ماذا[2] فقد كان سرى الرسول سُرّى سَرِيّاً سِرِيّاً إلا فيما انبأ به ربه بما أنبأ والله أعلم بسراه.

= كما في نسخة ثانية جعلها المحدث القمي فرعاً، والفرع أصلاً. فأصله لا أصل له وفرعه هو الأصل! وقد يشبه أصله ما يروى عن عائشة «ما فقدت جسد رسول الله ولكن أسري بروحه» كما في الدر المنثور عنها - فقد كذبت مرتين: إن الإسراء كان قبل أن يتزوجها بزمان فإنها قبل الهجرة بسنة وزواجها بعدها بزمان، وإن الاسراء كان من المسجد الحرام لا بيت عائشة أم أي بيت، ثم وأحاديثنا متظافرة بالمعراج الجسماني والروحاني معاً دون تبعيض (راجع ج ٢٦ - ٢٣ - الفرقان ص ٤١٤ - ٤١٥) وقد وافق عائشته زميلها معاوية في نكران المعراج الجسماني ومعاوية كان يومئذ كافراً.

(١) سورة المزمل، الآية: ٦.

(٢) في روضة الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أسري برسول الله ﷺ أصبح فقعد فحدثهم بذلك فقالوا له: صف لنا بيت المقدس، قال: فوصف لهم وإنما دخله ليلاً فاشتبه عليه النعت فأتاه جبرئيل فقال: انظر هاهنا فنظر إلى البيت فوصفه وهو ينظر إليه ثم نعت ما كان من عير لهم فيما بينهم وبين الشام ثم قال: هذه عير بني فلان يقدم مع طلوع الشمس يتقدمها جمل أورق أو أحمر، قال: وبعثت قريش رجلاً على فرس ليردها، قال: وبلغ مع طلوع الشمس، قال قرطة بن عبد عمرو: يا لهفاً أن لا أكون لك جذعاً حين تزعم أنك أتيت بيت المقدس ورجعت من ليلتك» (نور الثقلين ٣: ١٠٢).

ثم ﴿لَيْلًا﴾ توحي بوحدة المعراج اللهم إلا أن يهرف بتكراره في نفس الليلة ولم يخلد بخلد قط، فالروايات الناقلة لتكراره تؤول أو تطرح[(١)] وروحه القدسية كانت عارجة دوماً إلى مقام قاب قوسين أو أدنى اللهم إلا فيما تضطره رسالته ببلاغه وخلطه بالمرسل إليهم، حيث الرسالة - على قدسيتها - من حجب النور، وعله ﷺ كان يغان على قلبه ويستغفر ربه في كل يوم سبعين مرة من حجب النور.

﴿. . . مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

منطلق المعراج مسجد هو أفضل المساجد في الأرض أم في الكون كله وقد جاء ذكره في الذكر الحكيم (١٥) مرة بكل تبجيل وتجليل ثم المسجد الأقصى وهو أقصى المساجد إلى المسجد الحرام نجده مرة واحدة هي هاهنا بمواصفة واحدة: ﴿بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾.

ومهما اختلفت الروايات أن مبدأ المعراج بيت عائشة[(٢)] أم بيت أم هاني[(٣)] أم المسجد الحرام[(٤)] فنص القرآن يؤيد ثالث ثلاثة فلا محيد عنه.

---

(١) كما أورده القمي عن محمد بن الحسن الصفار بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «عرج بالنبي مائة وعشرين مرة. . .».

أقول: وعلها إلّا واحدة عروج روحي له ﷺ وقد كانت حياته بهذا المعنى معارج.

وفي الكافي بإسناده إلى علي بن أبي حمزة قال: سأل أبو بصير أبا عبد الله عليه السلام فقال وأنا حاضر: جعلت فداك كم عرج برسول الله ﷺ؟ فقال: مرتين (تفسير البرهان ٣: ٤٠٢)

أقول: علّ المرتين هما كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ [النجم: ١٣-١٤] «حيث الرؤية المعراجية كانت مرتين لا أصل المعراج!

(٢) كما نصت روايتها عن الدر المنثور «ما فقدت جسد رسول الله ﷺ ولكن أسري بروحه» كذبة مزدوجة!

(٣) ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه، وأخرجه الحاكم والبيهقي عنه ورواه النسائي باختصار من رواية عوف عن زرارة بن أوفى عن ابن عباس.

(٤) تفسير القمي بإسناد عن أبي مالك الأزدي عن إسماعيل الجعفي قال كنت في المسجد =

وأما منتهى سرى المعراج هنا، فهل هو المسجد الأقصى الذي في القدس؟ وهناك مسجد الكوفة أقصى منه وعله أفضل! وبركات الله في المسجد الحرام أقدم من القدس وأكمل! وعرض المعراج في هذه الآية الخاصرة نصاً والحاصرة تقتضي التصريح بنهاية المعراج وغايته: السدرة المنتهى في الأفق الأعلى، دون متوسطه الأرضي فحسب، الأقصى الذي في القدس! ثم ما هي ﴿ءَايَٰتِنَآۚ﴾ في القدس التي لم يرها الرسول ﷺ في البيت الحرام؟ هل هي قبور الرسل الإسرائيليين؟

وليست من آيات الله، وإنما الرسل هم آيات الله وقد أراهم الله إياه إذ أخذ ميثاقهم ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ...﴾[1] وأراه إياهم إذ أمران يسألهم: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾[2] ثم الآيات التي أريها هي آيات ربه الكبرى في عمق الفضاء ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ... لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[3] فهذه الرؤية كانت في الأقصى التي في السماء عند السدرة لا التي في الأرض[4].

= قاعداً وأبو جعفر عليه السلام في ناحية فرفع رأسه فنظر إلى السماء مرة وإلى الكعبة مرة ثم قال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ...﴾ [الإسراء: ١] وكرر ذلك ثلاث مرات ثم التفت إلي فقال: أي شيء يقولون أهل العراق في هذه الآية يا عراقي! قلت: يقولون أسري به من المسجد الحرام إلى البيت المقدس فقال: ليس كما يقولون، ولكنه أسري به من هذه إلى هذه وأشار بيده إلى السماء وقال: ما بينهما حرم (نور الثقلين ٣: ٩٨) ومن حديث مالك بن صعصعة مطولاً: إن المسجد الحرام مبدأ المعراج متفق عليه. أقول: قد يعني هذه الأرض - وطبعاً من المسجد الحرام - وإلى هذه: عمق المعراج عند سدرة المنتهى - وما بينهما حرم: ما بين المسجد الحرام والأقصى الذي في السماء حرم - أو ما بين الأقصى في الأرض والأقصى في السماء حرم أم ماذا؟.

(١) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٤٥.

(٣) سورة النجم، الآيات: ١٤-١٨.

(٤) وفيه أيضاً عن سالم الحناط عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن المساجد التي لها الفضل فقال: المسجد الحرام ومسجد الرسول ﷺ قلت: والمسجد الأقصى جعلت فداك، =

فلقد نرى أن المسجد الأقصى، أقصى المساجد في مطلق الكون من المسجد الحرام، ومنتهى المعراج عند السدرة المنتهى، إذ ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾(١) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾(٢) بعدما ﴿دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾(٣) دنواً واقتراباً من العلي الأعلى! هذا هو المسجد الأقصى الذي بورك حوله بركات معنوية معرفية.

وأخرى سواها أمثالها، فمن الأولى ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾(٤) ومن الأخرى جنة المأوى وما ينحو نحوها من آيات ربه الكبرى.

فـ «الأفق المبين - الأفق الأعلى - سدرة المنتهى - جنة المأوى» في التكوير وفي النجم - والبيت المعمور(٥) في «الطور» علّها كلها تعابير عدة

= فقال: ذلك في السماء أسري إليه رسول الله ﷺ فقلت: إن الناس يقولون: إنه بيت المقدس؟ فقال: مسجد الكوفة أفضل منه. ومما يدل على وجود مسجد الكوفة حينذاك ما رواه القمي في تفسيره بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام في حديث فضل مسجد الكوفة: «. . . حتى أن رسول الله ﷺ لما أسري به قال له جبرئيل: تدري أين أنت يا رسول الله ﷺ؟ أنت مقابل مسجد الكوفان قال: فاستأذن لي ربي حتى آتيه فأصلي فيه ركعتين. . .» (المصدر ٣: ١٣٠)، وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني في حديث أم هاني مطولاً (الكشاف ج ٢ ص ٥٠٥).

(١) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٣) سورة النجم، الآيتان: ٨، ٩.

(٤) سورة النجم، الآيات: ١٣-١٥.

(٥) للبيت المعمور مصاديق أخرى كالكعبة المشرفة ويقابله المسجد الأقصى في السماء السابعة فهو أيضاً البيت المعمور كما في نور الثقلين ٥: ١٣٦ عن علي عليه السلام كما وهو منزل القرآن (٥: ٦٢٤) عن الصادق عليه السلام وفي الدر المنثور عن شعب الإيمان عن النبي ﷺ قال: البيت المعمور في السماء السابعة أقول: وأحاديث الفريقين مجمعة على أنه في السماء السابعة، فليكن هو المسجد الأقصى في السابعة، عمر قبل عروج النبي ثم زادت عمارة بعروجه، ثم ومن البيت المعمور بيت قلب الرسول ﷺ كما مضى عن علي عليه السلام فإنه أشرف منزل للقرآن (راجع ج ٢٧ ص ٣٥٣ - ٣٥٤ من الفرقان).

عن منتهى المعراج: المسجد الأقصى، وقد يسمى الذي في القدس بالمسجد الأقصى لمحاذاته الأقصى الأولى، وقد زاره الرسول ﷺ في رحلته المعراجية[1] إذاً فالمسجدان معنيان بـ ﴿ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ فالذي في السماء أصل وغاية، والذي في الأرض ممر إليه وليس غاية.

وأية بركة عظمى وآية كبرى خير من الجنة المأوى. وما رآه في الأفق الأعلى من آيات ربه الكبرى![2] ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾: رؤية للمكون بقلبه بما لا فراق له ورؤية لكائناته ببصره لمتَّسع مملكته.

---

(١) ثواب الأعمال عن علي عليه السلام عن النبي ﷺ أنه قال في وصية له: . . . إني لما بلغت بيت المقدس في معراجي إلى السماء. . . (نور الثقلين ٣: ١٢٢) ومن الملاحظ في الروايات التي تنقل مروره في معراجه بالقدس أنها كلها تقول بيت المقدس ولا مرة واحدة: المسجد الأقصى.

(٢) تفسير القمي في حديث المعراج من لفظ رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام . . . فكشط لي عن سبع سماوات حتى رأيت سكانها وعمارها وموضع كل ملك منها . . . وأما السادس لما أسري بي إلى السماء جمع الله لي النبيين فصليت لهم ومثالك خلفي «نور الثقلين ٣: ١٠٢» ومن الآيات التي أريها الرسول ﷺ عترته المعصومون واحداً بعد واحد كما في عيون أخبار الرضا عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ في حديث المعراج عن العترة. . . يا محمد لو أن عبداً عبدني حتى ينقطع ويصير كالشن البالي ثم آتاني جاهداً بولايتهم ما أسكنته جنتي ولا أظللته تحت عرشي يا محمد أتحب أن تراهم؟ قلت: نعم يا رب! فقال عز وجل: ارفع رأسك فرفعت رأسي فإذا أنا بأنوار علي وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد وموسى بن جعفر وعلي بن موسى ومحمد بن علي وعلي بن محمد والحسن ابن علي والحجة بن الحسن القائم في وسطهم كأنه كوكب دري قلت: يا رب من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الأئمة وهذا القائم الذي يحل حلالي ويحرم حرامي وبه أنتقم من أعدائي وهو راحة لأوليائي وهو الذي يشفي قلوب شيعتك من الظالمين والجاحدين والكافرين. . . (نور الثقلين ٣: ١١٩) وفي الدر المنثور (٤: ١٥٣ - أخرج ابن عدي وابن عساكر عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ لما عرج بي رأيت على ساق العرش مكتوباً: «لا إله إلا الله محمد رسول الله أيدته بعلي»!. ومنها النبيون والملائكة الذين صلوا وراءه في البيت المعمور: كما رواه القمي بإسناده إلى أبي جعفر عليه السلام قال: كما أسري برسول الله ﷺ إلى السماء فبلغ البيت المعمور وحضرت الصلاة فأذن جبرئيل وأقام فتقدم رسول الله ﷺ فصف الملائكة والنبيون خلف محمد ﷺ (المصدر ١٣٠).

وترى لماذا ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ لا كلها لكي تستكمل الرؤية وتكمل الضيافة والإضافة؟... الجواب في النجم: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[١] فـ «من» تبعيض عن كل الآيات و«الكبرى» هي جل الآيات، فقد اصطفى الرب لمصطفاه كبرى الآيات ومصطفاها، وكفته رؤية الكبرى عما سواها: كبرى الآيات كياناً كالنبيين والملائكة الكروبيين وكوناً كسائر الآيات العظيمة الكونية ومنها سائر خلق الله في سائر العوالم من سكان السماوات وعمارها[٢].

أترى أن غاية المعراج فقط ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ لا إثبات رسالته أيضاً كآية من آيات ربه؟ ومن ثم فـ «من» تبعض هذه الرؤية، في حين أري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين.

إن الملكوت هي حقيقة المُلك وماهية تعلق الكون بالله تعالى، وللملكوت درجات كما للملك درجات، وكما أن أهل المُلك والملكوت درجات فلكلٍّ درجة تخصه دون سواه، أو تعمه ومن معه في درجته، وصاحب المعراج أري الكبرى من درجات الملكوت: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ وإبراهيم وأضرابه ممن دون صاحب المعراج أري درجات أدنى منها، فإنه ﷺ: ﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾[٣]: كل ما يمكن أن يبان، و﴿بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[٤]: أعلى الآفاق المعرفية أماهيه لحد ما لها من سباق.

ثم إن من الملكوت ما ترى إذ ينظر إليها، للناس كل الناس: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[٥] ﴿قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾[٦].

---

(١) سورة النجم، الآية: ١٨.
(٢) مضى تحت الرقم ٢ ص ٧.
(٣) سورة التكوير، الآية: ٢٣.
(٤) سورة النجم، الآية: ٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.
(٦) سورة المؤمنون، الآية: ٨٨.

ومنها ما يختص بالمخلصين من عباد الله كإبراهيم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ. . .﴾[1] إن أفول الآفلين دليل لا مردَّ له على الفقر المطلق للكون وحقيقة تعلقه بالله، إراءة ومعرفة على مدرجة إبراهيم الخليل عليه السلام.

ومنها ما يخص صاحب المعراج حيث دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى، إذ تخطى الكون بملكه وملكوته، بعدما اكتمل الرؤية والمعرفة فيهما وبهما، وأُري من آيات ربه الكبرى بصراً وبصيرة، ثم أراه ربه نفسه بأرفع درجات المعرفة الممكنة حيث دنا بالعلم[2] وتدلى بالتجاهل عن نفسه «ولولا أن روحه ونفسه كانت من ذلك المكان لما قدر أن يبلغه»[3] وكما قال صلى الله عليه وآله وسلم: «قربني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى»[4] «فلم يزل عن موضع ولم يتدل ببدن»[5] «وكان بالمكان الذي قال له جبرئيل لما أسري به إلى السماء: «تقدم يا محمد! فقد وطئت موطئاً لم يطأ ملك مقرب ولا نبي مرسل. . .»[6] فأين ملكوت من ملكوت! وأين رؤية من رؤية وأين معرفة من معرفة! فلم يدن أحد ما دناه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ولا جبريل الذي صاحبه في شطر من سراه[7].

---

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ٧٥، ٧٦.

(٢) الاحتجاج للطبرسي عن موسى بن جعفر عن آبائه عن الحسين بن علي عليه السلام قال: .

(٣) تفسير القمي بإسناده إلى الصادق عليه السلام أوّل من سبق إلى بلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وذلك أنه أقرب الخلق إلى الله.

(٤) تفسير روح البيان ج ٩: ٣١٩ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وفي الدر المنثور (٤: ١٥٨): أخرج الخطيب عن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لما أسري بي إلى السماء قربني ربي تعالى حتى كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى لا بل أدنى. . .».

(٥) الاحتجاج للطبرسي في آية التدلي عن موسى بن جعفر عليه السلام.

(٦) تفسير القمي عن الصادق عليه السلام.

(٧) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى عبد السلام بن صالح الهروي عن علي بن موسى الرضا عليه السلام عن آبائه عن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث طويل يقول في آخره: =

إنه لم تكن سرى المعراج إلا تشريفاً للرسول محمد ﷺ وللملائكة وسكان السماوات ولكي يريه ﷺ ما أراه[١] ويوحي إليه ما أوحاه.

﴿إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾:

ترى من هو السميع البصير هنا؟ ثم ما هي الصلة بين السميع البصير والرحلة المعراجية؟

قد يكون هو صاحب المعراج، فلأنه سميع يسمع الوحي الخاص في السدرة بأذن قلبه ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[٢] ويسمع محادثات الملأ الأعلى بسائر أذنه، كما يبصر من آيات ربه الكبرى ببصره ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾[٣] ويبصر ربه ببصيرته، ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[٤] لهذا وذاك أسري به، حيث يسمع ما لا يسمعه غيره بسمعيه، ويبصر ما لا يبصره غيره ببصريه.

= فلما انتهيت إلى حجب النور قال لي جبرئيل: تقدم يا محمد! إن هذا انتهاء حدي الذي وضعه الله لي في هذا المكان فإن تجاوزته احترقت أجنحتي لتعدي حدود ربي جل جلاله فزج بي زجة في النور حتى انتهيت إلى حيث ما شاء الله عز وجل في ملكوته فنوديت: يا محمد أنت عبدي وأنا ربك فإياي فاعبد وعلي فتوكل فإنك نوري في عبادي ورسولي إلى خلقي وحجتي في بريتي» (نور الثقلين ٣: ١٢٥).

وفي أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما عرج برسول الله ﷺ انتهى جبرائيل به إلى مكان فخلى عنه فقال له: يا جبرئيل! تخليني على هذه الحال؟ فقال: امضه فوالله لقد وطئت مكاناً ما وطئ بشر وما مشى فيه بشر قبلك (نور الثقلين ٣: ١٢٩).

(١) في كتاب التوحيد للصدوق بإسناده إلى يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى ابن جعفر عليه السلام لأي علة عرج الله نبيه إلى السماء ومنها إلى سدرة المنتهى ومنها إلى حجب النور وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان ولكنه عز وجل أراد أن يشرف ملائكته وسكان سماواته ويكرمهم بمشاهدته ويريه من عجائب عظمته ما يخبر به بعد هبوطه وليس ذلك على ما يقول المشبهون سبحان الله وتعالى عما يشركون (نور الثقلين ٣: ٩٩).

(٢) سورة النجم، الآية: ١٠.

(٣) سورة النجم، الآية: ١٨.

(٤) سورة النجم، الآية: ١٣.

وقد «لا» حيث الرسول وإن كان سميعاً بصيراً ولكن «هو» الفاصل هنا توحي بالحصر، ولا حصر في السمع المطلق وبصره إلا في الله، وإن دخل في ضمنها رسول الله، فلأن الله سميع بصير يجعل رسوله سميعاً في معراجه بصيراً، بما يسمع من تطلبه، ﴿رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾[١] ويبصر من تأهله لهذه الرحلة المقدسة.

ثم ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ لله ليستا مثلهما في سواه فـ «لم يزل الله عز وجل ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور، فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور...»[٢] «هو سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة، بل يسمع نفسه ويبصر بنفسه، ليس قولي: «إنه يسمع بنفسه ويبصر بنفسه أنه شيء والنفس شيء آخر ولكن أردت عبارة عن نفسي إذ كنت مسؤولاً، وإفهاماً لك إذ كنت سائلاً، وأقول: يسمع بكله لا أن الكل له بعض ولكن أردت إفهامك والتعبير عن نفسي وليس مرجعي في ذلك إلا إلى أنه السميع البصير، العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى»[٣].

فلقد «سمي ربنا سميعاً لا بجزء فيه يسمع به الصوت لا يبصر به، كما أن جزءنا الذي نسمع به لا يقوى على النظر، ولكن أخبر أنه لا تخفى عليه الأصوات، ليس على حد ما سمينا نحن، فقد جمعنا الاسم بالسميع واختلف المعنى، وهكذا البصر لا بجزء به ابصر كما أنا نبصر بجزء منا لا ننتفع به في غيره، ولكن الله بصير لا يجهل شخصاً منظوراً إليه، فقد جمعنا الاسم واختلف المعنى»[٤].

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٤.

(٢) أصول الكافي بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام (نور الثقلين ٣: ١٣٣).

(٣) التوحيد للصدوق عن أبي عبد الله عليه السلام (نور الثقلين ٣: ١٣٤).

(٤) المصدر عن الرضا عليه السلام وفيه بإسناده إلى محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت:=

وهكذا تكون صفات الله الحسنى كافة، مجردة عما لمن سواه من حدود وقيود، ما يجب سلبها عن الله، إذ تختص بمن سواه.

ترى ولماذا يوصف ربنا بالسميع البصير دون الثلاثة الأخرى: اللامس - الشام - الذائق؟ عله لأنها تختص بحواسها الثلاث دونهما حيث يعمان حسيهما بعضويهما ودونهما من السمع والبصر المجردين، ثم السمع والبصر من كيفيات العلم دون الثلاثة الأخرى الخاصة بالحس، حيث لا ذوق ولا شم ولا لمس وراء الحس.

فمن الأسماء ما يخصه لفظياً كمعناه: الرحمن - الخالق... ومنها ما يخص خلقه فيها: المريض - النائم - الذائق - اللامس - الشام... ومنها ما نشارك ربنا في لفظه دون معناه: العالم - القادر - الحي - الموجود - السميع - البصير.

والضابطة العامة في أسمائه أن تجرد عن معاني الخلق وصفاته إلى ما يخصه إلهاً ليس كمثله شيء.

ثم هذه الرحلة المنقطعة النظير للبشير النذير التي تفوق كل زمان ومكان رحلة مختارة من اللطيف الخبير، وهي آية عجيبة من آيات الله، ليريه من آياته الكبرى، مهما كانت آية - في هامشها - للمرسل إليهم، تفتح القلب على آفاق عجيبة في الكون، وتكشف عن الطاقات المخبوءة في كيان هذا الإنسان، والاستعدادات الخارقة المنقطعة النظير التي يتهيأ بها لاستقبال الفيض المطلق من السميع البصير إنه لطيف خبير.

= جعلت فداك يزعم قوم من أهل العراق أنه يسمع بغير الذي يبصر ويبصر بغير الذي يسمع؟ قال: فقال: كذبوا وألحدوا وشبهوا تعالى الله عن ذلك، إنه سميع بصير، يسمع بما يبصر ويبصر بما يسمع، قال: قلت: يزعمون أنه بصير على ما يعقلونه؟ قال: فقال: تعالى الله - إنما يعقل ما كان بصنعة المخلوق وليس الله كذلك.

﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾﴾:

كتاب موسى هو التوراة ولماذا هنا الكتاب بدل التوراة؟ عله لمحة من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ بما كتب فيه وفرض عليهم. كما الكتاب ككل هو كل ما يثبت ويُثبِت. وهل أوتيه موسى هدى لبني إسرائيل دون سواهم؟ وهو ثالث أولي العزم من الرسل حيث تعم شرائعهم كافة المكلفين من الجنة والناس أجمعين، فكيف اختصت هدى موسى بعض الناس: بني إسرائيل.؟

هذه الرسالة العظيمة كسواها من أولي العزم الخمسة الذين دارت عليهم الرحى[1] تشمل المكلفين أجمع: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ...﴾[2] ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى...﴾[3] فرسالة موسى وهداه بكتابه هي للناس كل الناس، وإلى فرعون وملئه: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[4] استكبروا مجرمين إلا جماعة من ملئه السحرة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[5] وإلا رجل من آل فرعون سوى السحرة: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ...﴾[6].

وعل تركيزه هذه الرسالة العامة على بني إسرائيل في الكثرة المطلقة من مواردها، لأنهم كانوا هم أضعف المستضعفين في الأرض، والرسالات الإلهية تقصد المستضعفين أولاً لتخليصهم، ثم المستكبرين لإبعادهم عنهم

---

(١) راجع ج ٢٦ - الفرقان - ص ٧٣ في ضوء آية أولي العزم.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٧٥.
(٥) سورة طه، الآية: ٧٠.
(٦) سورة غافر، الآية: ٢٨.

ومن ثم هداهم أنفسهم - ثم من سواهم وهم القلة القليلة في تاريخ الرسالات.

ونرى في مثلث الدعوة للرسالات أن الزاوية الأولى هي القاعدة، ثم الثانية للإبقاء على هذه القاعدة ثم الثالثة لعموم الدعوة ثم وتأثير الدعوة في الأولى أولاً وفي الثالثة ثانياً وفي الثانية ثالثاً، كما في سحرة موسى ورجل من آل فرعون.

ثم السنة الرسالية تقتضي تركيزها على قوم الرسول أولاً ثم منهم إلى سواهم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[١] ثم أهل بلده ولا سيما الألد منهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٢] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[٣] ولا شك أن الرسالة المحمدية عالمية كما تنص عليها آياتها وتدلنا عليه غاياتها.

فموسى وكتابه هدى لبني إسرائيل أولاً[٤] ولفرعون وملئه ثانياً، ولسائر الناس أخيراً.

﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا﴾:

هل المخاطبون هنا هم بنو إسرائيل؟ وغيابهم في ﴿لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يقتضي غيابهم هنا «ألا يتخذوا»! أم للمسلمين المخاطبين متناً في وحي القرآن؟ وما هي الصلة بين هدى موسى وكتابه وألا يتخذ المسلمون من دون الله وكيلاً؟ وهدى موسى تختص أمته!.

المخاطبون هنا هم بنو إسرائيل الحضور زمن الخطاب وعلى طول

(١) سورة الشعراء، الآية: ٢١٤.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٧.
(٣) سورة يس، الآية: ٦.
(٤) فضمير الغائب في «جعلناه» كما يرجع إلى كتاب موسى كذلك إلى موسى، فموسى بكتابه وكتاب موسى هدًى دون انفصال.

الزمن بعده فإن رسالة موسى منذ بزوغه كانت هدى لبني إسرائيل السابقين على الدعوة الإسلامية، ألا يتخذوا هم ولا تتخذوا أنتم من دون الله وكيلاً.

والانتقال من الغيبة إلى الحضور دأب يدأبه القرآن بمناسبات شتى.

وهل تُختصر رسالة موسى وتُحتصر في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ وفي كتاب موسى أحكام أصلية وفرعية شتى؟.

أقول: ككل كلا، وأما كأصل يركز عليه الكل فبلى حيث الآلهة (العدة المعدة) والوكالات الأخرى كانت في بني إسرائيل سنة دائبة، فلذلك أصبحت ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ كأنها هدى موسى كلها لبني إسرائيل، فإن عليهم أن يتبنوها لهداهم ككل، دون أن يتفلت أصل من الشريعة عنها أو فرع.

ثم ولا تختص شرعة موسى بهذه الأصالة، فإنها تعم الشرايع كلها فإن الوكالات في أمر التكوين والتشريع ككل، وفي سائر الوكالات كأصل إنما هي لله سبحانه وتعالى عما يشركون.

تأتي الوكالة بمختلف صيغها سبعين مرة في الذكر الحكيم، محتصرة الربوبيات في الله تعالى: أن له الحكم لا سواه: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾(١).

٢ - وسعة العلم: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾(٢).

٣ - والرحمة العامة: ﴿هُوَ الرَّحْمَٰنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾(٣).

٤ - والهداية: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾(٤).

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٦٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٣) سورة الملك، الآية: ٢٩.

(٤) سورة إبراهيم، الآية: ١٢.

٥ - والنصرة: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(١).

٦ - والعزة.

٧ - والحكمة: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾(٢).

٨ - والمانع عن الضرر: ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٣).

٩ - وعن سيطرة الشيطان: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٤).

١٠ - وفي كل ما عند الله: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾(٥).

١١ - وفي رجوع الأمر كله إليه: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ﴾(٦).

١٢ - وفي سعة القدرة: ومطلق المُلك والملك: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾(٧).

ففي هذه الأمور تكوينياً وتشريعياً ينحصر التوكل على الله منحسراً عن سواه(٨). فلا توكل إلا على الله ولا اتكالية في الأمور على الله أو سواه، ولا توكيل في وكالة غير الله إلا ناقصاً ينحو نحو وكالة الله.

حيث الاتكال على أي كان يعني تخلي الإنسان عن أية محاولة فيما

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٠.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٤٩.
(٣) سورة المجادلة، الآية: ١٠.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٥) سورة الشورى، الآية: ٣٦.
(٦) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٧) سورة النساء، الآية: ١٣٢.
(٨) راجع ج ٢٩ - الفرقان - ص ٢١٧ على ضوء الآية: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المُزمّل: ٩].

يتكل فيه، والبطالة في أي أمر للإنسان فيه حول وقوة محظور، حتى وإن كان على الله، كمن لا حراك له في الحصول على رزقه ويتكل على الله.

ثم التوكل على غير الله فيما يتوكل فيه دون اتكال يعني أن غير الله كاف وليس به أياً كان، وإنما يتوكل على الله، ولا يعني توكيل غير الله لا توكلاً عليه ولا اتكالاً، وإنما مساعدة لك فيما لا يسعه حولك أم قوتك، ثم عليكما موكلاً ووكيلاً التوكل على الله فيما لا تقدران عليه أو تقدران! ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ف ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ تعم الوكالتين:

١ - فيما يختص بالله كما مضى في آياته.

٢ - في كل أمر يعمله لك متعاملاً معك غير الله، أن تراه مستقلاً في حوله وقوته عن الله، أم غير مفتقر في بلوغ الغاية إلى الله وحتى فيما يبلغه الإنسان دون حاجة ظاهرة إلى سواه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾[(١)] عله علة الأمرين:

١ - إن الله حمل نوحاً والمؤمنين معه.

٢ - وإنه جعل ذريته ومن حمل معه هم الباقين.

والشكور هي المبالغ في الشكر حسب المكنة والاستطاعة كالعبد الشكور حيث يشكر في غاية العبودية، وهي البالغ في الشكر بمقتضى الرحمة: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[(٢)] وأين شكور من شكور! على أن ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[(٣)] ولقد كان نوح صباراً شكوراً أن عاش قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، قوماً كفوراً وهو صبار شكور!

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٢٣.
(٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝٣﴾:

﴿ذُرِّيَّةَ﴾ منصوبة على الاختصاص، أفهذه الذرية هم - فقط - بنو إسرائيل؟ إذ ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وهم محط الدعوة الموسوية؟ وليسوا هم - فقط - ذرية من حملنا، ولا تخصهم الدعوة الموسوية، وهم ذرية ممن حملوا مع نوح لا ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ﴾! أم هم بنو الإنسان من ذرية نوح طيلة الرسالة الموسوية؟ حيث ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[1]: فإن بني الإنسان كافة بعد نوح هم - فقط - من ذرية نوح؟ وكما يروى عن الرسول ﷺ[2] ولكنهم ذرية نوح، لا ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ وقد حمل معه من ذريته ومن آمن بـــه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾[3] فلو كانوا هم - فقط - ذرية نوح كان «ومن ذرية نوح» كـ ﴿مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ﴾ فذرية آدم هم - فقط - ذرية آدم، وذرية من حملنا مع نوح هم من ذريته وسواهم ممن حملوا معه: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[4] واللمحة المستفادة من ﴿مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ دون «ممن» تطارد احتمال أن بني الإنسان كافة بعد نوح إنما هم من ذريته. ﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ كانوا عُقماً! والرواية تُحمل على المصداق الأوضح الأعرف، وآية ﴿الْبَاقِينَ﴾ لا تعني ذريته الأولاد فحسب، وإنما من ركب سفينة النجاة: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[5] يا ترى هم فقط ولده وبعضٌ منهم لم يكن من أهله ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٢) في الدر المنثور (٤: ١٦٢) أخرج ابن مردويه عن عبد الله بن زيد الأنصاري رضي الله عنه، قال قال رسول الله ﷺ: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣] ما كان مع نوح إلا أربعة أولاد: حام وسام ويافث وكوش فذاك أربعة أولاد انتسلوا هذا الخلق.

(٣) سورة مريم، الآية: ٥٨.

(٤) سورة هود، الآية: ٤٠.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٧٦.

صَٰلِحٍ﴾[١] والمؤمنون القلة الذين ركبوا معه قد نجوا، فأهله هنا هم كل من حُمِل معه، وهم كلهم ذريته ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[٢] دون الهالكين: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾[٣] فالأولون هم أهله وذريته والآخرون هم الهالكون وإن كانوا من ذريته[٤].

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

قضاء صارم بفساد عارم إلى بني إسرائيل طول التاريخ الاسرائيلي منذ البداية في الأرض مرتين تصحب أخراهما ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

١ - فما هو القضاء؟

٢ - وما هو الكتاب؟

٣ - وأين هي أرض الإفساد؟

٤ - وما هما المرتان؟ والعلو الكبير؟

٥ - ومن هم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ حيث يجوسون في الأولى خلال الديار، ويسوؤون وجوههم في الثانية؟.

إن القضاء ككل - هي فصل الأمر، وقد يختلف الأمر بفصله حسب اختلاف التعلقات: قضاه - فيه - عليه - له - به - إليه - منه - بين.

وهي بين فصل الأمر تكويناً أو تشريعاً أو فعلاً أو تحويلاً لبناٍ:

---

(١) سورة هود، الآية: ٤٦.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٧٧.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٦٦.

(٤) فلو كان أهله وذريته - فقط - من نسله لكان الآخرون الهالكون هم الكافرون مع المؤمنين القلة الذين حملوا معه!.

﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾(١) تكويناً - ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(٢) تشريعاً - و﴿أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَيَّ﴾(٣) فعلاً - و﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾(٤) أجلاً للموت وهو من فعل الله، ثم القضاء فيه: في القضية التي تقتضيها - وعليه: على المحكوم فيها، وله: المحكوم له - وبه: بالحكم المقضي، ومنه - من القاضي، وبين: بين المتقاضيين - سواءً في التكوين أو التشريع أو فعل وأجل.

وأما القضاء إليه: رابع الأضلاع لمربع القضاء - فقد ينحصر في تحويل أمرٍ تكويناً كالأجل: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾(٥) أو تحويل لنبإٍ فصل محتوم إيحاءً، من مخلفات السيئات: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾(٦) وقطع الدابر هذا من مخلفات أعمال قوم لوط المفسدين، حيث جزاهم الله بما أفسدوا، أو هو تحويل نبإٍ فيه تهويل كما هنا: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ...﴾ الحكم الفصل الإنباء إليهم في الكتاب:

التوراة فلا هو تشريعي ولا تكويني، وإنما قضاء علمي من أهم الملاحم التاريخية المنقطعة النظير يوحى إلى البشير النذير! وهل الكتاب هنا - فقط - التوراة حيث سبق ذكرها في ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾؟ أم كل كتابات الوحي الإسرائيلي؟ أو كل ما كتبه الله من كتاب قبل القرآن؟ نجد نبأ القضاء على مطلق الإفساد بالمهدي عليه السلام وأصحابه في عديد من كتابات الوحي: في العهد العتيق والجديد وسواهما وقد يأتي نبأه في ختام البحث.

(١) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٨.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٥) سورة يونس، الآية: ١١.
(٦) سورة الحجر، الآية: ٦٦.

وأرض الإفساد هي الأرض كلها، دون اختصاص بالقدس أو فلسطين، حيث الصيغة الخاصة به هي «الأرض المقدسة»: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾(١) أم ولا أقل «أرضاً» حتى تخص جانباً من الأرض: ﴿ٱقۡتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطۡرَحُوهُ أَرۡضٗا﴾(٢) ﴿وَأَوۡرَثَكُمۡ أَرۡضَهُمۡ وَدِيَٰرَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُمۡ وَأَرۡضٗا لَّمۡ تَطَـُٔوهَاۚ﴾(٣) أم «أرضكم» أو «أرضنا» أو «أرضهم» حتى تدل على اختصاص، دون «الأرض» والقائل هو الله خالق السماوات والأرض، لا إنسان الأرض الذي يسكن جانباً منها فيعني من «الأرض» سكناه أو ما يملكه منها أم ماذا؟

فصيغة الأرض من صائغها الله ليست لتعني إلا الأرض كلها، أم والأرضين السبع: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ﴾(٤) اللهم إلا بقرينة حاضرة تخصها، وليست هنا فلا اختصاص، فهما إذاً إفسادان في المعمورة كلها.

وهل المرتان هما - بعد - قتل زكريا ويحيى عليه السلام(٥)؟ وقتل كل نبي إفساد! وفي أنبياء إسرائيل من هم أهم وأعظم منهما! فإذ يعني الإفساد قتل نبي فلماذا ﴿مَرَّتَيۡنِ﴾ دون «آلاف المرات»؟ وقد كانوا يقتلون في يوم سبعين نبياً أم ما زاد أو نقص!.

فليكن الإفساد أن في الأرض شاملين كل المعمورة: إفساداً في الأنفس

(١) سورة المائدة، الآية: ٢١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٩.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٥) ولم يرد فيه رواية في التفاسير الأثرية للفريقين إلّا روايات عن بعض الأصحاب أو التابعين أو المفسرين دون أي دليل اللهم إلا ما رووه عن علي عليه السلام كما في الدر المنثور ٤ : ١٦٣ - أخرج ابن عساكر في تاريخه عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله: ﴿لَتُفۡسِدُنَّ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَّتَيۡنِ﴾ [الإسراء: ٤]، قال: «الأولى قتل زكريا عليه السلام والأخرى قتل يحيى» وهي على كونها رواية يتيمة لا توجد في كتب أحاديثنا مردودة بما ذكرناه في المتن.

قتلاً وإضلالاً، وفي الحرث والنسل: اقتصادياً، ثقافياً - أخلاقياً - سياسياً وحربياً أم ماذا، حيث يجعل المعمورة خربة بائرة لا تليق جوّاً للحياة الإنسانية السليمة.

إن التاريخ الإسرائيلي على طوله هو تاريخ الفساد والإفساد، كما في تلمودهم[١] إلا بعض ما كان زمن سلطات الرسالات الاسرائيلية السامية كموسى ويوسف وداود وسليمان وأضرابهم، ففي الأكثرية الساحقة زماناً ومكاناً وإنساناً كانوا مفسدين ليل نهار، لا مرتين ولا آلاف فلا يحصيها إلا الله! ولكن الإفساد - كما الإصلاح - العالميين لا يتيسران إلّا في منظمة وسلطة وقيادة قوية، ولكي تعلو كافة النشاطات المضادة من حكومات وشعوب.

والصهاينة المجرمون كانوا - وقبل سنين - شذاذ الآفاق متفرقين في البلاد، ليست لهم دولة أو دويلة، فما كانوا يستطيعون الإفساد في الأرض، حيث كانوا تحت مختلف السلطات.

ولأول مرة في تاريخهم شكلت دويلة في فلسطين بما تآزرت الطاقات من شراذمة الآفاق والاستعمار الشرقي والغربي، وبما تساهلت أو ساعدت

(١) واليهود اليوم هم الذين يديرون العالم كما يشاؤون، يقوم الفيلسوف منهم فيحرك العالم بما يختلقه، جاء في التلمود وهو ملخص دين اليهود تفسيراً للتوراة: «إن الله فرقنا في الأمم لأنه يعلم أننا شعبه وأبناءه وأن العالم، الإنساني كله خدم لنا، والإنسان كله برزخ بيننا وبين البهائم نستعملهم للتفاهم بيننا وبين الحيوانات، فعلينا أن نجعلهم متشاكسين متقاتلين متعادين ونتدخل في سياساتهم ونجعلهم في حرب وخلاف دائمين لنربحهم في ضعفهم، ونزوج بناتنا لعظمائهم ونتدخل وندخل في كل دين لنفسده على أهله وتكون لنا السيادة على هذا الإنسان الذي سخره الله لنا».

ولقد عملوا ما أملوا ويلغوا ما أملوا حيث أسسوا البلشفية في روسيا ومنهم لينين، وماركس الألماني الذي هو أصل البلشفية يهودي. ورؤساء جماهير أمريكا كلهم من اليهود أو عملائهم، وكذلك كفار الغرب والشرق الطواغيت وزعماء مستسلمين من المسلمين هم من عملائهم كما نراهم اليوم يعملون لصالح الصهيونية العالمية.

دويلات عربية حتى احتلت فلسطين لحد غربي نهر الأردن وكما يروى عن النبي ﷺ: «يقاتل بقيتكم الدجال على نهر الأردن، أنتم شرقي النهر وهم غربيه»[١].

فلقد اختلقت دويلة العصابات الصهيونية منذ زهاء أربعين سنة، ثم احتلت بلاداً أخرى ضمتها إليها بعد سنين بما فيها القدس، ثم أخيراً أعلنت أن القدس عاصمة إسرائيل، ثالوث منحوس من إفسادهم العالمي الأول، انطلاقاً من فلسطين، وإطلاقاً إلى المعمورة كلها وحتى متى؟ لا ندري.

هذه هي المرة الأولى من إفسادهم مرتين، وطبعاً بلا علو كبير - على علوه - فإن كبيره للثانية، وفي الأولى يساعدها أو ينضم إليها أو يستجيبها ويحرضها سائر سواعد الكفر والفساد في المعمورة، لا سائر اليهود والنصارى وسواهم من الكفار والملاحدة والمشركين فحسب، بل، وممن يتسمون المسلمين وأيضاً: من دويلات خليجية أماهيه التي هي ويلات على الإسلام والمسلمين العائشين تحت نيرهم، وكما نراهم يساعدون البعث الكافر ضد إيران المسلمة التي رفعت ولأول مرة في تاريخ الإسلام - راية الجمهورية المجيدة الإسلامية، فجند الكفر جنوده من مشارق الأرض ومغاربها على الحدود العراقية الايرانية ولكي يربح صِدام صدام على هذه الجمهورية المباركة وتتخلص من حكم الإسلام الصارم[٢].

---

(١) الطبقات ٧: ٤٢٢ عن السكوني قال رسول الله ﷺ أقول: الدجال هنا هو إسرائيل شر دجال طول التاريخ، ونهر الأردن بين فلسطين والأردن، ونرى الآن أن غربي النهر محتل إسرائيلياً والمسلمون في شرقيه، ولم يسبق لحد الآن في التاريخ الاسلامي احتلال الأراضي الغربية لنهر الأردن من قبل غير المسلمين إلا قبل سنين من قبل الدجال الإسرائيلي ومن الطريف جداً صدق الصفة الخاصة للدجال المعروف في قائد الحرب الإسرائيلي بـ(موشي دايان) فإنه ممسوح العين.

(٢) لقد جاءتنا أنباء موثقة من جيشنا الباسل الإسلامي في المحمرة: خونين شهر، وسواها من الحدود الإيرانية العراقية أن المساعدات في شتى الحاجيات الحربية تأتي للعراق من =

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾﴾:

وعد الأولى هو موعد الانتقام منهم في المرة الأولى من إفسادهم العالمي، حيث تشمل زبانيته مشارق الأرض ومغاربها، وعلنا نعيش الآن في وعد الأولى، في بداية قضينا فيها على المكية الجبارة في إيران، وأخذنا في محاربة المستعمرين شرقيين وغربيين فأرسلوا علينا ذنباً من أذنابهم أحمق وأشرس عملائهم «صدام».

يا ترى من هم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ غيرنا ومن يلحق بنا ويستجيبنا من المسلمين الغيارى الأحرار؟ هل هم بعدُ بخت النصر الوثني مع جنوده الوثنيين أم هم من خيرة عباد الله الصالحين؟.

إن هذه الصيغة سائغة لعباد الله الخصوص، مصوغة لمن يختصون عبوديتهم وعبادتهم بالله دون سواه، ففي العباد المعصومين نجد هكذا فرادى كـ ﴿عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾[١] و﴿عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾[٢] و﴿عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾[٣] و﴿نُوحٍ﴾[٤] وكـ «عبده» الرسول الأعظم محمد ﷺ كما هنا، وجماعات: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾[٥].

= (١٠٦) دولة، وأن المحاربين في خطوط النار ضد الجمهورية الاسلامية الآن من (٢٥) دولة شرقية وغربية، نقل لي جماعة من هؤلاء أننا أسرنا في المحمرة (٣٥) منهم وكانوا من (١٧) دولة كمصر والأردن والسعودية والمغرب وأمريكا وانكلترا وروسيا وفرنسا وإسرائيل...، وأن المحاربين الأردنيين في الجبهات بلغوا زهاء ٤٠,٠٠٠ نفراً، وهكذا يجند الكفر جنوده ضد جمهوريتنا، اللهم انصرنا عليهم بالمهدي وآبائه الطاهرين عليهم السلام.

(١) سورة مريم، الآية: ٢.
(٢) سورة ص، الآية: ١٧.
(٣) سورة ص، الآية: ٤١.
(٤) سورة القمر، الآية: ٩.
(٥) سورة ص، الآية: ٤٥ - ٤٧.

ثم ونجد ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ فيمن دون المعصومين صيغة مختصرة منقطعة النظير تخص هؤلاء المبعوثين مرتين لدحر السلطات الصهيونية، طالما «عبادي» يعمهم وسواهم من المكرمين: ﴿يَـٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾[1] ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾[2].

وكما في مثلث العباد «عبادنا» هم المصطفون: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[3] حيث السابق بالخيرات من العباد هم «عبادنا» والظالم لنفسه «عباد الشيطان» والمقتصد بين ذلك عوان. ونحن لا نجد في الطول التاريخي والعرض الجغرافي الإسلامي ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ خيراً من المسلمين الثوار الإيرانيين بمن يلحق بهم ويستجيبهم من سائر المسلمين في هذه المعركة المصيرية بين مطلق الإسلام ومطلق الكفر، اللهم إلا بعضاً ممن كانوا مع الرسول ﷺ وعلي والحسين عليهما السلام أم من ذا؟ ولكنهم عاشوا قبل المرتين من الإفسادين العالميين، ونحن نعيش المرة الأولى منهما، فلنكن نحن ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وقد يعبِّر عنهم الرسول ﷺ بإخوانه فوق أصحابه! في قوله ﷺ: «اللهم لقني إخواني»[4]. . . . .

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآيتان: ١٧، ١٨.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٤) البحار ٥٢: ١٢٣ - ٨ ير بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ، ذات يوم وعنده جماعة من أصحابه: «اللهم لقني إخواني» مرتين - فقال من حوله من أصحابه: أما نحن إخوانك يا رسول الله؟ فقال: لا - إنكم أصحابي وإخواني قوم في آخر الزمان آمنوا ولم يروني لقد عرفنيهم الله بأسمائهم وأسماء آبائهم من قبل أن يخرجهم من أصلاب آبائهم وأرحام أمهاتهم، لأحدهم بأشد بقية على دينه من خرط القتاد في الليلة الظلماء، أو كالقابض على جمر الغضاء أولئك مصابيح الدجى، ينجيهم الله من كل فتنة غبراء مظلمة».

وفيه (١٢٢) ٤ - ج عن أبي حمزة الثمالي عن أبي خالد الكابلي عن علي بن الحسين عليه السلام =

«ويا ليتني قد لقيت إخواني»[١] وهم رفقاؤه ﷺ [٢] «الواحد منهم له أجر خمسين منكم»[٣].

ولئن قلت إن هؤلاء حسب النص يبعثون ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا﴾ وأني لكم أنكم في زمن وعد الأولى وعقابها وإفساد هذه المرة بعد لم يشمل المعمورة كلها حتى يحين حين وعدها.

عله لأن المرة الأولى بادئة منذ زمن، ولأن في وعدها يبعث ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وتصدق هذه الصيغة لأول مرة علينا، فلنكن نحن هم، وإلا فليقل ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ كذا وكذا حتى لا يشملنا، ثم البعث آخذ فينا موقعه لما قطعنا ذنباً طويلاً من أذناب إسرائيل «الشاه» ونعيش الآن قطع أذناب أخرى حتى نصل إلى صاحب الأذناب «إسرائيل».

= قال: تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر من أوصياء رسول الله ﷺ والأئمة بعده. يا أبا خالد! إن أهل زمان غيبته القائلون بإمامته، المنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان، لأن الله تعالى ذكره أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله ﷺ بالسيف، أولئك هم المخلصون حقاً وشيعتنا صدقاً والدعاة إلى دين الله سراً وجهراً، وقال: انتظار الفرج من أعظم الفرج».

وفيه (١٢٥) ١٢ - ك: عن الصادق عليه السلام عن آبائه قال قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي! واعلم أن أعظم الناس يقيناً قوم يكونون في آخر الزمان لم يلحقوا النبي وحجب عنهم الحجة فآمنوا بسواد في بياض».

(١) (١٣٢) ٣٦ - جاء، بإسناده عن عوف بن مالك قال قال رسول الله ﷺ ذات يوم: «يا ليتني قد لقيت إخواني...».

(٢) المصدر (١٢٩) ٢٥ غط بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: طوبى لمن أدرك قائم أهل بيتي وهو مقتد به قبل قيامه يتولّى وليّه ويتبرّأ من عدوه، ويتولى الأئمة الهادية من قبله، أولئك رفقائي وذوو ودّي ومودتي وأكرم أمتي علي (و أكرم خلق الله عليّ).

(٣) الغيبة للطوسي (٢٩٠) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: سيأتي قوم من بعدكم الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم قالوا: يا رسول الله ﷺ نحن كنا معك ببدر وأحد وحنين ونزل فينا القرآن؟ فقال: إنكم لو تحملتم لما حُمِّلوا لم تصبروا صبرهم.

فكما أن إسرائيل تفسد في الأرض بأذنابه، بخيله ورجله، برجاله ورجّاله من مشارق الأرض ومغاربها، فليكن الانبعاث في ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ نابعاً منا نابغاً كأصل، ومستأصلاً كل الفساد بمن يستجيبنا من مسلمي المعمورة الأحرار.

لهؤلاء الثوار الأماجد حسب النص مثلث من الميزات: ١ - ﴿بَعَثْنَا...﴾ ٢ - ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ ٣ - ﴿أُوْلِى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ والنتيجة: ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾ حيث يحققون الوعد: ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾!.

والبعث الرباني ولا سيما في جمعية الصفات «نا» يعني بعثاً ربانياً إيمانياً صامداً صارماً كالبعثات الرسالية. فالبعث الصهيوني في الإفساد العالمي يتطلب بعثاً ربانياً يكافئه في الإصلاح العالمي: بعث عتيد فيه بأس شديد!، ومن قبل تأذن الله نوعية هذا البعث: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]: سلسلة من عباد الله الصالحين في حلقات متواصلة متفاضلة طول التاريخ الإسرائيلي لمن يسومهم سوء العذاب، ثم ويختص ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ بأخلصهم في هذا البين وأشدهم بأساً حيث يقضي بهم على الإفسادين العالميين.

فمن هؤلاء الخصوص؟ هم «قوم يبعثهم الله قبل خروج القائم فلا يدعون وتراً لآل محمد إلا أخذوه[2] قتلوه[3] وتفجرة هذه البعثة المظفرة علّها من قم فـ «هم والله أهل قم»[4] بمن يقودهم من رجله القائد الأعظم

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

(٢) تفسير البرهان عن العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام والوتر بفتح الواو وكسره: الفرد أو ما لم يتشفع والذَّحل أو الظلم فيه هو المقصود هنا.

(٣) تفسير نور الثقلين ٣: ١٨ عن روضة الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ...﴾ [الإسراء: ٥].

(٤) تاريخ قم تأليف حسن بن محمد القمي نقلاً عن جماعة من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام =

الخميني نصره الله وكما يروى عن الإمام الرضا عليه السلام: «رجل من أهل قم...»[(١)].

هؤلاء هم الأولون في وعد الأولى، ثم الآخرون في وعد الثانية «هم القائم عليه السلام وأصحابه»[(٢)].

ف ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ يقتسمون إلى من ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ ومن ثم من ﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا﴾[(٣)] وكما الإفساد الثاني أقوى وعلوه أعلى من الأول وأشجى، كذلك ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ فيه هم أحق وأحرى، كما أن قائدهم المهدي عليه السلام إمام لقائد المرة الأولى ولكافة المكلفين - اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.

ثم لا نجد البعث في آياته إلا بعث الرسل أو بعث الأموات فالثاني تكويني والأول تشريعي يعم المرسلين دون سواهم، اللهم إلا من ينحو منحاهم كطالوت: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾[(٤)] ثم اللهم إلا من يسومهم سوء العذاب دوماً وأخيراً إلا ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ أخصاء ثم لا بعث إلا رسالياً إلا في الغراب: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[(٥)] خارجاً عن الشرعة التشريعية.

وذلك البعث أياً كان، رسولياً أو رسالياً في غير الرسل يتضمن حركة قوية صارمة تقضي على الحياة العارمة، فكما بعث الأموات يحييهم، كذلك

= قالوا: كنا حضوراً عنده عليه السلام فتلا: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ...﴾ [الإسراء: ٥] قلنا: جعلنا فداك من هؤلاء؟ قال: هم والله أهل قم.

(١) يأتي تفصيل هذا الحديث.

(٢) نور الثقلين عن تفسير العياشي عن حمران عن أبي جعفر الباقر عليه السلام.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٧.

(٥) سورة المائدة، الآية: ٣١.

ذلك البعث يحيي ميت البلاد، ويحرر مستضعفي العباد عن سلطان الطواغيت بصورته العامة المستمرة بـ «من يسومهم» والخاصة بالمرتين بـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾.

ثم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ هي كـ ﴿بَعَثْنَا﴾ تخصهم دون سواهم! وكذلك ﴿بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ إذ لا نجدها إلا في الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[1] أم في بأس الله: ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[2] اللهم إلا فيما يدعيه من لا يصدّقون: ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾[3] وقد تبين أن بأسهم بائس أمام بأس سليمان عليه السلام وأخيراً من يحذّر المخلفون من الأعراب عنهم: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ. . .﴾[4] وهذا هو البأس الشديد لأعداء الإسلام منقطع النظير في التاريخ وعله بأس اليهود في المرتين[5]، يقابله بأس شديد من ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ بأس شديد ببأس شديد، وأين شديد من شديد، ثم لا نجد شديداً للمصلحين في تاريخ الرسالات أم للمفسدين إلا هذا وذاك.

فهذا المثلث المجيد، المنقطع النظير بزواياه، يقضي على الصهاينة المجرمين، حيث يجوسون خلال الديار.

﴿. . . فَجَاسُوا۟ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾:

فالجوس هو الطلب باستقصاء في تردد حتى يتوسط المطلوب، وهؤلاء المؤمنون الأشداء يطلبون أولئك المفسدين في المرة الأولى باستقصاء وتردد خلال ديارهم وسائر الديار، داراً بعد دار ليجازوهم ما أفسدوا ويستأصلوهم

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٢) سورة النساء، الآية: ٨٤.
(٣) سورة النمل، الآية: ٣٣.
(٤) سورة الفتح، الآية: ١٦.
(٥) راجع سورة الفتح الجزء ٢٦ من الفرقان على ضوء آية البأس الشديد.

ما وجدوهم، ونحن هم إن شاء الله! حيث لا ندع وتراً لآل محمد ﷺ إلّا أخذناه أو قتلناه، والصهيونية العالمية بمن معها من كفرة البلاد أو مسلميهم المستسلمين، هم كلهم وتر لآل محمد ﷺ ونحن - بإذن الله - سوف نطأ ما فيها ومن فيها بلا تهيب! وإننا في هذه المرة ندخل المسجد الأقصى منتصرين وكما في آية الانتصار الثاني ﴿وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ...﴾[1]!

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ۝٦ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ۝٧﴾:

هذه الآيات من الملاحم الغيبية الثانية انباء هاماً عن آخر الزمن، حيث الظلم والفساد يعم المعمورة كلها على سلطة عالية صهيونية عالمية وعملائها وأذنابها في مشارق الأرض ومغاربها، ومن ثم يقضي على هذه السلطة بفرقة ثانية هي أسنى وأسمى من الأولى من ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وهم القائم عليه السلام وأصحابه وتتحقق الدولة الأخيرة الإسلامية العالمية وإلى يوم القيامة.

إن لقيام صاحب الأمر شرطين أساسيين سلباً وإيجاباً كما هما لهذه الدولة الإسلامية بـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ قبلها، فالسلبي هو سلب الحق والعدل عن المعمورة بمن يعيشون في الأرض فساداً، والايجابي هو تحصُّل ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ تبلوراً من مسلمي المعمورة المجاهدين المناضلين، ولكي يحصل جند المهدي الأصلاء العشرة آلاف، وأصحاب ألويته الثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً حيث يقودون ألوية الدولة المهدوية وهم من أقسام مملكته في كل المعمورة.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.

عمال الناحية السلبية لتأسيس هذه الدولة هي الصهيونية العالمية وأضرابها وكما في المرة الأولى، وعمال الناحية الإيجابية لها هم خيرة من ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ كما في الأولى، أشداء خيرين وجاه أشداء شريرين.

وكما أن الصهيونية العالمية تعمل وتتعامل في عيث الإفساد العالمي في المرتين هاتين - وعلى طول الزمن - فضرورة المكافحة الإسلامية تقتضي النضال المكافح المتغلب من مسلمي المعمورة تبلوراً في ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في المرتين هاتين - وعلى طول الزمن - لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1] وإذا الأرض فسدت حيث ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ يستضعفون ولا يناصرهم أمثالهم من مسلمي البلاد، فعليهم أن يثوروا ويفوروا جميعاً ولكي يجوسوا خلال الديار ويسوؤوا وجوههم، ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾.

فهناك على طول الخط ﴿مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ بعثاً إلهياً إلى يوم القيامة، ثم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في مرتي الإفساد العالمي، كما - علّنا - نعيش الآن أولاهما وتتلوها الثانية بقيام صاحب الأمر صلوات الله عليه.

وأنباء وملاحم السلطة الصهيونية في غلبهم وأنهم سيغلبون وفيرة عن الرسول ﷺ وأهل بيته الكرام، نستعرض هنا منها نماذج: قال ﷺ: «لتقاتلن اليهود فلتقتلنهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا يهودي فتعال فاقتله»[2] وهذا يشمل مرتي الوعد في إفساديهم العالميين.

وقال ﷺ: «تقاتلكم اليهود فتسلطون عليهم حتى يقول الحجر يا مسلم هذا اليهودي من ورائي فاقتله»[3].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٢) صحيح مسلم ج ٨ ص ١٨٨ والبخاري ٢: ١٧١.
(٣) سنن الترمذي ص ٣٢٥.

وقال علي عليه السلام: «ثم ليستعملن عليكم اليهود والنصارى حتى تنفوا - يعني إلى أطراف الأرض - ثم لا يرغم الله إلا بآنافكم ثم والله ليبعثن الله رجلاً منا أهل البيت يملؤها عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[١].

ولا واقع لهذه الملحمة طول التاريخ الإسلامي لمثناه الاستثمار والاستعمار اليهودي النصراني إلا عند احتلال فلسطين بما تناصرا وتعاضدا - وتخاذل المسلمون - حيث نفي الفلسطينيون إلى أطراف الأرض، ومن ثم سائر المسلمين بين منفيين عن أراضيهم أو عن سلطاتهم الإسلامية، عائشين تحت السلطة الصهيونية الصليبية، ثم السلطة الإسلامية عليهما مرتان أخراهما هي العالمية الكبرى الدائبة، كما الإفساد الثاني عالمي، وهذه الخطبة تبشر بالثانية، وسائر ما ننقله من الملاحم شاملة لهما[٢]. أو تخص الثانية[٣].

وكما الآيات الأولى أنذرت بالمرة الأولى في الإفساد العالمي ثم بشرت أن ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ يجوسون خلال الديار كذلك هذه الثانية تنذر أشد من الأولى وتبشر ببشارة فوقها.

إنذارات وتبشيرات جزاءً وفاقاً والعاقبة للتقوى: فمربع الإنذار:

---

(١) الكنى للدولابي ج ٢ ص ١٥٧ عن شيخ من النخع سمعت علياً عليه السلام يقول وهو على المنبر: . . .

(٢) ومنها إضافة إلى ما مضى في الرقم (١ و٢) ما رواه أحمد في مسنده (٢: ٤١٧) عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر أو الشجر يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله. . .».

(٣) في الفائق (٢: ٢١٩ - غر) خطب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فذكر الدجال وقتل المسيح له قال: «فلا يبقى شيء مما خلقه الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء لا شجر ولا حجر ولا دابة فيقول يا عبد الله المسلّم هذا يهودي فاقتله إلا الغرقدة فإنها من شجرهم فلا تنطق، وترفع الشحناء والتباغض وتنزع حمة كل دابة حتى يدخل الوليدة في فم الحنش فلا يضره».

١ - لتفسدن، ٢ - ثم رددنا . . . ٣ - وأمددناكم . . . ٤ - وجعلناكم . . .

ومربع: ١ - فجاسوا، ٢ - ليسوؤوا وجوهكم، ٣ - وليدخلوا المسجد، ٤ - وليتبروا . . .

هذا مربع التبشير بفضل الله ورحمته، فترى كيف يضيف الله إلى نفسه ثالوثاً من الإنذار؟ عله حتى لا يقال أنهم غالبون على أمر الله حيث يكرون على ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ المبعوثون من الله، ذلك بأن الله لا يحول دون ثالوثهم جبراً عليهم في حولهم وحيلهم حيث الدار دار الاختيار وليس الإجبار، ومجرد أنه لا يحول بينهم وبين كرتهم هذه يسمح بهذه الإضافة ﴿رَدَدْنَا . . .﴾ وكما في أضرابها: ﴿أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَـٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾[2] ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾[3] إرسال وجعل تكويني في اختيار دون إجبار[4] لا

(١) سورة مريم، الآية: ٨٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) فإذ لا مؤثر في الوجود إلا الله فكل أثر وتأثير فيه إذن من الله، فإن كان خيراً فالإذن في مثلث: التشريعي - التكويني توفيقاً والتكويني في الجزء الأخير من العلة التامة، وإن كان شراً فإلا خير فقط، بعدما قدم المكلف كل حوله وقوته ولم يبق من مقدمات فعله إلا إذنه تعالى تكويناً، فإن لم يأذن إذا أصبح المكلف مسيراً مجبوراً في ترك الشر، وإن أذن حيث يجعل المكلف مجبوراً في فعل الشر كان ظلماً، والعدل العوان بين ذلك هو أن يكون إذنه تعالى بعد تكملة مشيئة المختار بما قدم من مقدمات اختيارية، فهو تعالى يأذن هنا كجزء من أجزاء العلة التامة، وما دام الفعل مسنوداً إلى اختيار من الفاعل وإن كان واحداً بالمائة من مقدماته يعتبر ذلك الفعل اختيارياً، وإن كان العقاب والثواب حسب درجات الاختيار فإن أفضل الأعمال أحمزها.

فإذ ينسب الله شراً إلى نفسه لا يعني إلا سلباً وإيجاباً: أنه لم يحل بين العبد وشره ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٦] وإنه أذن له أخيراً في فعله تكويناً لا ينافي الاختيار، فليس الله فاعلاً لشره ولا معاوناً له شريكاً في شره. وإنما لم يمنع إجباراً وأذن له اختياراً: أذن في اختياره السوء أن يتحقق ما يريده باختياره السوء، ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

تشريعي حيث الأمور كلها راجعة إلى الله وصادرة عنه، وكما يليق بساحة قدسه دون تغلب لأحد على الله لا في خير ولا في شر.

إن الإمهال الإلهي لعمال الإفساد امتهان واستدراج للمفسدين وامتحان للمؤمنين: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1].

وتلكم الكرة الأخيرة على ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ علها ليست لأنهم يتساهلون في نضالهم. وإنما لتقللهم في عِدتهم وعُدتهم، وتعلل من تتوجب عليهم نصرتهم من مسلمي البلاد من ناحية، ثم من أخرى الانتفاضة العامة من الصهيونية المتبقية خلال الديار، بمن يستجيب لهم من سائر الكفار، حيث يجند الشيطان جنده ويحزب حزبه للمرة الثانية والأخيرة ويضاف إلى الإفساد العالمي من الصهيونية العالمية علو كبير، حيث الإفساد في الأرض مرتان والعلو مرة واحدة وهي في الثانية: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ لا علوين، وهو في الإفساد الثاني، إذ هم فيه ﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾!.

وترى كيف بإمكان اليهود هذان الإفساد أن العالميان والعلو العالمي في الأخير، وهم مضروب عليهم بالذلة والمسكنة؟ وهل الدولة القوية والسيطرة العالمية بعدُ ذلة ومسكنة، وهم ممدود لهم بأموال وبنين وهم بعدُ أكثر نفيراً؟! والله تعالى يعد المسلمين في تصريحة قاطعة: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾[2]؟.

بلى! إنهم مضروب عليهم بالذلة حيث ما ثقفوا إلّا بحبل من الله وحبلٍ من الله، و﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ ولكن شريطة تحقيق شروطٍ من الله وكما قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ... وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١١.

ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا... وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ... كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾(١).

فهناك ذلة بترك الحبلين ومسكنة على أية حال لكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، فلو أنهم تمسكوا بالحبلين لزالت عنهم الذلة والمسكنة تماماً، أو أنهم تمسكوا بحبل واحد وكما هم متمسكون الآن بحبل من الناس(٢) لزالت عنهم الذلة على حدّ تمسكهم وتماسكهم مع بعض، ثم المسكنة هي حالة الاحتياج وإن كانوا في غنًى ظاهرية اقتصادياً وكما هم لزامهم هذه الحالة وإن ملكوا ثروات العالم.

ثم المسلمون المخاطبون «لن يضروكم» إنما هم المخاطبون بسابقة الآيات الصابغة لهم بصبغة: ١ - ألا يطيعوا الكفار ٢ - ويعتصموا بحبل الله جميعاً وهو الاعتصام بالحبلين جميعاً ٣ - ويتقوا الله حق تقاته ٤ - ويعتصموا بالله ٥ - وتكن فيهم أمة داعية آمرة ناهية ٦ - ولا يتفرقوا!.

وأما المسلمون المستسلمون أمام الاستعمار الكافر، التاركون للحبلين، أم ماذا؟ مما خوطبوا به في هذه الآيات فلا يصدق لهم «لن يضروكم»

(١) سورة آل عمران، الآيات: ١٠٠-١١٢.
(٢) وإن كان حق التمسك بحبل من الناس أن يتبنى حبلاً من الله، ولكن لحبل من الناس متحللاً عن حبل الله أثره وجاه تارك الحبلين تماماً.

فالمتمسك بحبل واحد وإن كانوا هوداً يتغلب على تارك الحبلين وإن كانوا مسلمين، وكما انتصرت إسرائيل على المسلمين العرب المستسلمين حيث انتكس هؤلاء عن حقيقة إسلامهم وتمسك اليهود بحبل من الناس فيما بينهم أنفسهم بتدعيم الوحدة بينهم وسائر المستعمرين شرقاً وغرباً، فلم يكن ذلك الانتصار وتأسيس دويلة العصابات، وتلكم الانتكاسة من المسلمين العرب إلا جزاءً وفاقاً لأولاء وهؤلاء والله من وراء القصد فـ ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ...﴾[1].

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ كرة للصهيونية العالمية على ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾: رجوعاً عليهم بتغلب أشد من الأولى وأنكى، حيث العِدة والعُدة لهم في هذه المرة أقوى: ﴿وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾: منهم، ومنكم في المرة الأولى وليس إمدادهم بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيراً حيث تسببا رد الكرة عليهم، إلا مسارعة لهم في إساءة وجوههم: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2] وإلا إملاء لهم ليزدادوا إثماً: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3].

كما وأن جعلهم أكثر نفيراً في حربهم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ ليس إلا إملاء لهم وإملالاً، وكل ذلك امتهاناً لهم، وامتحاناً لـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ ولأنهم قلّوا وأولئك كثروا، وأنهم تخلى عن مناصرتهم مسلمو البلاد، وأولئك تماسكوا أكثر من المرة الأولى و﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[4].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٣.
(٢) سورة المؤمنون، الآيتان: ٥٥، ٥٦.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.
(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ١٩٦، ١٩٧.

ثم ورد الكرة عليهم لا يعني القضاء الحاسم على ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ وإنما قضاءً ما لردح قليل من الزمن، حيث العلو الكبير يختصهم فلا يبقي لهؤلاء الأكارم إلا علواً دون الكبير، حفاظاً على كَيانهم، وتحلُّلاً عن السيطرة الإسلامية على المعمورة كلها، عكس ما مضى في المرة الأولى، حيث الجوس في البلاد ما عنى القضاء الحاسم على الصهيونية، فلذلك تراها تنبو بعد ذلك وتنمو حتى ترد الكرة عليهم.

ثم ﴿لِيَسُـٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ في وعد المرة الآخرة، راجع إلى ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ مهما قضى نحبه البعض منهم وخلفه آخرون من أجناسهم دون أشخاصهم، فهذه الدولة الحقة التي يؤسسها ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في المرة الأولى سوف تبقى ومن ثم تضعف برد الكرة ردحاً من الزمن، وتتصل بالدولة الأخيرة المهدوية وكما يشير إلى ذلك باقر العلوم عليه السلام: «كأني بقوم قد خرجوا بالمشرق يطلبون الحق فلا يعطونه ثم يطلبونه فلا يعطونه فإذا رأوا ذلك وضعوا سيوفهم على عواتقهم فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يقوموا ولا يدفعونها إلا إلى صاحبكم قتلاهم شهداء أما أني لو أدركت ذلك لاستبقيت نفسي لصاحب هذا الأمر»[1].

---

(١) غيبة النعماني ص ١٤٥ - أبو خالد الكابلي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام.
وفي ج ١٣ ص ٢٢١ ملحقات إحقاق الحق شرح لآية الله العظمى المرعشي باب يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي سلطانه: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه أقول: وعلّهم هؤلاء الثوار المخلصون الذين يعبّدون الطريق للمهدي عليه السلام ويناسب الثورة المباركة الإسلامية في إيران.
رواه جماعة من الأعلام منهم الحافظ وابن ماجة القزويني في سنن المصطفى ج ٩ ص ٥١٩ والعلامة الحمويني في فرائد السمطين مخطوط والحافظ نور الدين علي بن أبي بكر في مجمع الزوائد ج ٧ ص ٣١٨ مكتبة القدسي بالقاهرة والعلامة السيوطي في الحاوي للفتاوي ص ٦٠ ط القاهرة والعلامة أبو عبد الله محمد بن عثمان البغدادي في المنتخب من صحيحي البخاري ومسلم ص ١٨٣ مخطوط والعلامة النابلسي في ذخائر المواريث ج ١ ص ٢٩٢ مكتبة القدسي بمصر والعلامة النبهاني في الفتح الكبير ج ٣ ص ٤٢٠ ط مصر والعلامة القرطبي في التذكرة =

وقد ينطبق تماماً على ثورتنا الإسلامية المجيدة المظفرة في إيران حيث قمنا ثلاث قومات[1] وفي الثالثة أقمنا الجمهورية المباركة الإسلامية بقيادة القائد الأعظم نائب الإمام السيد روح الله الخميني أطال الله بقاه، وسوف لا ندفع هذه الراية المظفرة إلا إلى صاحبنا صاحب الأمر الحجة بن الحسن المهدي صلوات الله وسلامه عليه وستأتيكم روايات كهذه وأوضح في انباء وملاحم غيبته إن شاء الله تعالى.

وقد يناسبها ما يروى عن الرسول ﷺ حيث يفسر آية الكرة بقيام القائم عليه السلام، ويفسر ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ بسلمان الفارسي ومن كان مثله ممن يوالي القائم بحقيقة المعرفة[2] وعل دمج المرتين ببعض هنا وهناك يشير إلى قلة

= ط مصر والحافظ الكنجي الشافعي في البيان في أخبار آخر الزمان ص ٣١٤ ط النجف والعلامة ابن حجر الهيثمي في الصواعق ص ٩٨ ط عبد اللطيف بمصر والعلامة المولى علي المتقي الهندي في منتخب كنز العمال المطبوع بهامش المسند ج ٦ ص ٢٩ الميمنية بمصر والعلامة الشيخ عبد النبي بن أحمد القدوسي الحنفي في سنن المهدي ص ٥٧٢ مخطوط.

(١) القيام الأول - في هذا الوجه - كان في الثاني عشر محرم الحرام - ١٥ خرداد ١٣٤١ حيث سقط من جرائه عشرات الآلاف من القتلى، والثاني في عام ١٣٥٦ حين استشهد نجل نائب الإمام السيد مصطفى الخميني واستشهد الآلاف، والثالث حين انتقل نائب الإمام من النجف إلى باريس واضطر محمد رضا بهلوي إلى تسليم الأمر إليه ثم يبقى هو على عرشه دون أية مسؤولية، ولكن الإمام لم يقبل منه حتى ثار الثورة الثالثة حيث فر الشاه ومن ورائه رئيس وزرائه وأسست الجمهورية الإسلامية بقيادة نائب الإمام روح الله الخميني.

(٢) كما في تفسير البرهان ٢: ٤٠٦ - أبو جعفر محمد بن جرير في مسند فاطمة بإسناده إلى محمد ابن خلف الطاهري عن زادان عن سلمان - في تعريفه ﷺ بالأئمة الاثني عشر، ثم محمد بن الحسن الهادي المهدي الناطق القائم بحق الله ثم قال: يا سلمان إنك مدركه ومن كان مثلك ومن تولاه بحقيقة المعرفة قال سلمان فشكرت الله كثيراً ثم قلت يا رسول الله ﷺ! وإني مؤجل إلى عهده ثم قال يا سلمان اقرأ ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا . . . ﴾ [الإسرَاء: ٥] ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ . . . ﴾ [الإسرَاء: ٦] قال سلمان: فاشتد بكائي وشوقي ثم قلت: يا رسول الله بعهد منك فقال: إي والله الذي أرسل محمداً بالحق مني ومن علي وفاطمة والحسن والحسين والتسعة وكل من هو مني ومعنا وفينا، إي والله يا سلمان وليحضرن إبليس وجنوده وكل من محض الإيمان محضاً ومحض الكفر محضاً حتى يؤخذ بالقصاص والأوتار والأثوار ولا =

الفصل بينهما، وأن الأولى: إفساداً أو إصلاحاً، لتعبيد الطريق إلى الثانية، اللهم عجل لنا الثانية بما تعبِّده في الأولى.

﴿... إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا...﴾:

في هذه الفترة من الكرة. ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ﴾ «دون إفساد وعلو» ﴿أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ حيث لا يُقفى عليكم إن أحسنتم فأصبحتم عدولاً مسلمين، أم بقيتم هوداً مستسلمين، ﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ﴾ وأفسدتم في الأرض بعلو كبير ﴿فَلَهَا﴾ حيث ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ لكم بمرصاد صارم ف ﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾.

إنه ليست الحسنى بالتي تحسن حالة طائفة فحسب دون أخرى، أو السيئة تسيء جماعة دون آخرين، فالضابطة العامة التي لا تتغير في الدنيا والآخرة، والتي تجعل عمل الإنسان كله له دون سواه، بكل ثماره ومخلفاته، وتجعل الجزاء ثمرة طبيعية للعمل، أنها ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ دونما استثناء.

﴿... فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾:

وعد الآخرة، وما يدريك ما وعد الآخرة؟ إنها ليست الآخرة في الأخرى. بل هي الآخرة من مرتي الإفساد في الدنيا: الأرض كلها، حيث تجمع الصهيونية العالمية بين الإفساد والعلو الكبير العالمي بأذنابها الكفار أمّن ذا؟؟ من بني الإنسان المتخلفين عن شرعة الله، إذ تتذرع بثالوثها لتجعل الأرض فاسدة كاسدة لا تصلح فيها حياة إنسانية إلا على تخوف وحذر. ثم لا يطول فسادهم العالمي إلا ردحاً من الزمن حيث تتفجر الجماعات البشرية

= يظلم ربك أحداً وتحقق تأويل هذه الآية: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ [القَصَص: ٥].

بـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في وجه الظلم والطغيان، وليحققوا مثلثاً من النكال والإصلاح: ليسوؤوا وليدخلوا - وليتبروا!.

وهذه هي المرة الثانية والأخيرة من دولة الباطل حيث يقضى عليها بالمهدي عليه السلام وأصحابه - وعلى طول الخط - كما قضي عليها بأضرابهم ردحاً من الزمن، وعلّ الدولتين متصلتان على فترة في ضعف بينهما للأولى وهنا أوامر ثلاثة يحققها زعيم الدولة الإسلامية الأخيرة بأصحابه الأكارم «فبه يملأ الله الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً».

﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾: كما أسأتم وجوه الإنسانية وأفسدتم وجه الحياة، ف ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ من تبقّى من المرة الأولى ومن يستحصل حتى المرة الثانية من أضرابهم وهم أقوى وأهدى سبيلاً، هؤلاء الأكارم مبعوثون مرة ثانية بأمر الله أن يواجهوهم في وجوههم كل الوجوه وبكل الوجوه، استئصالاً لنائرتهم، واسوداداً لوجوههم وسيادة لوجوه المؤمنين وإشراقة دائبة لا تنقضي.

﴿لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ﴾ قتلاً وتشريداً وتنكيلاً وتذليلاً، وليس قتل الإبادة فقط - إذ يتبقى منهم جماعة لا حيلة لهم ولا حول ولا قوة، عائشين حياة الذل والعداء فيما بينهم: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(١) وهذه لليهود، ولا يعني سعي الفساد منهم إلا لحد المرة الثانية من إفساديهم العالميين، وسائر إفسادهم لهذا الحد، حيث هم كإخوانهم النصارى لا قوة لهم في هذه الدولة: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾(٢) فالطائفتان باقيتان على قلة من عِدة

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٤.

وعُدة إلى يوم القيامة، عائشتان العداوة والبغضاء فيما بينهم، ولكنهم تساء وجوههم في إفسادهم الثاني، فلا تضر عداءهم بينهم الدولة الإسلامية العالمية.

وبعدما ساءت وجوههم وشاهت وانهارت شوكتهم وعلوهم الكبير:

٢ - ﴿وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾: يدخل ﴿عِبَادٗا لَّنَآ﴾ المسجد الأقصى دخولاً لا خروج عنه، حيث يصبح مقراً لزعيم الدولة الإسلامية القائم المهدي عليه السلام ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ﴾ حيث ﴿فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ﴾، وأين مرة من مرة؟! فأول مرة من مرتي الإفساد التي - علّنا - نعيشها الآن سوف ندخل المسجد الأقصى ونبقى فيه مسيطرين ردحاً من الزمن، ثم نخرج فنرجع إليه زمن المهدي عليه السلام مرة ثانية وعلى طول الخط اللهم عجل فرج صاحب الأمر.

٣ - ﴿وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾ والتبر هو الإهلاك الكبير حيث لا يبقي ولا يذر وتراً من المفسدين وليس هو هلاك عمال الفساد فحسب، فإنه هلاك فسادهم أيضاً: تبارهم بفسادهم ومن تبار العمال: ﴿وَكُلّٗا ضَرَبۡنَا لَهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَۖ وَكُلّٗا تَبَّرۡنَا تَتۡبِيرٗا﴾[(١)] ومن الأعمال: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[(٢)] وهؤلاء هم العاكفون على أصنام لهم.

وتبار الصهيونية في هذه المرة بالمهدي عليه السلام وأصحابه هو تبار استئصال لهم بفسادهم وعلوهم الكبير، هلاك كبير لعالين وعلوٌّ كبير، فـ ﴿مَا عَلَوۡاْ﴾ كما يعني علوهم[(٣)] كذلك يعني أشخاصهم في علوهم استئصالاً للشرور والشريرين.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٣٩.

(٣) و«ما» هنا مصدرية تؤول مدخولها إلى المصدر «علوّهم» والنتيجة ليتبروا علوهم - وكذلك هي موصولة: ليتبروا الذين علوا في الدرجة التي علوا - تتبيراً وهما معاً هنا معنيان: تتبيراً =

فقد يستأصل الشر بآثاره والشرير باق يجدده، وقد يستأصل الشرير والشر باق بمخلفاته، ﴿وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟﴾ ليس تتبيراً لأحدهما والآخر باق وإنما ﴿تَتْبِيرًا﴾ مستأصلاً للشر والشرير معاً بحيث لا يجدد أبد الآبدين ودهر الداهرين، وكذلك تكون ثورة المهدي عليه السلام ودولته.

ثم هؤلاء الصهاينة المجرمون بمن معهم من أوتارهم وأذنابهم وأحزابهم، إنهم يقتسمون في تبارهم أقساماً، فمنهم من يقتل ومنهم من يتوب، ومنهم عوان بين ذلك: لا يقتل ولا يتوب، وإنما يستأصل شره وإفساده، فلا يبقى عداؤهم إلا فيما بينهم كما مضت آية إلقاء العداوة بين اليهود وإغرائها بين النصارى إلى يوم القيامة، ثم لا يعودون ولن إلى إفساد عالمي:

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾:

فالرحمة المرجوة لهم تشمل رحمة الغفران بالإيمان، ثم رحمة الإبقاء لهم بلا إيمان ولا إفساد، فإن عادوا في الإفساد عاد لهم التبار الهلاك هنا ثم في الآخرة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾: سجناً يحصرهم.

الفصل بين الإفسادين:

وترى هل الفصل بين الإفسادين بالدولة الإسلامية طائل أم ماذا؟

عله طائل لمكان ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ...﴾ حيث توحي بالتراخي ثم لا تراخي للإفساد الثاني لمكان «فـ»: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ...﴾ فبين الوعدين بون متراخ للدولة الإسلامية الأولى التي

= لهم على علوهم ولفسادهم.

وانما «ما» دون «من» وذوو العقول يتطلبون «من»؟ لأمرين: إن المصدرية هنا معنية كما الموصولة فلتكن «ما» وأنهم أراذل لحد البهائم بل هم أصل فلا يستحقون «من» الخاص بذوي العقول.

نعيشها، والدولتان متصلتان على فترة قصيرة حيث الإفساد الثاني، فيها فتور للدولة الأولى، وقوة للإفساد الثاني أقوى من الأول، وكما يستفاد من أحاديثنا حول الإفسادين والدولتين.

وترى كيف تجتمع الدولة الإسلامية الأولى مع الإفساد العالمي الثاني في فترته القصيرة؟

إنها تبقى لحد الحفاظ على أصل كيانها، ولكي تستحصل البقية الباقية من جنود المهدي عليه السلام وأصحاب ألوية.

وكما أن دولة المهدي عليه السلام أقوى وأسمى وأشمل دولة إلهية طول تاريخ الرسالات كذلك أصحاب ألويته هم سلالات وحصالات الرسالات، من أنبياء وأولياء وأصحاب الرسل وأفضل من تربى في حجور الرسالات.

فمن الرسل داود وسليمان ودانيال أم من ذا؟

ومن أصحاب الرسل يوشع وصي موسى وشمعون وصي عيسى عليه السلام ومن أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم سلمان الفارسي ومالك الأشتر النخعي وأبو دجانة الأنصاري أم من ذا؟

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[1] وهم خمسة وعشرون رجلاً.

ومن هم وكم هم من قوم عيسى؟ لا ندري...

ثم ومن هم وكم هم من أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم علهم أو أنهم أكثر الأمم، ويستحصلون طول الرسالة الإسلامية حتى قيام القائم عليه السلام.

وقد يكون قائد ثورتنا الإسلامية السامية في إيران منهم ومن أفاضلهم بعد أنبيائهم وأئمتهم.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٥٩.

وحيث اللواء لغوياً هو قائد الجيش ومتصرف اللواء، فهؤلاء الثلاثمائة والثلاثة عشراً هم قواد الجيش ومتصرفو ألوية الدولة الإسلامية، «فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر أمره»[١].

وأصول الجيش بداية هذه الدولة هم عشرة آلاف، قلوبهم كزبر الحديد يعطى لكل واحد منهم قوة أربعين رجلاً، ثم اللاحق الملتصق بهم لا ندري عدتهم وعدتهم، ولكنهم كمجموع - هم دون ريب - أقوى جيش في تاريخ الرسالات والإنسان عدة وعدة إيمانية وحربية عادلة، اللهم اجعلنا منهم.

أنباء الدولة الإلهية وأبنائها في الكتاب:

عل الكتاب في ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني عامة التوراة لا خاصتها، فهي كعامة تشمل العهد العتيق كله، بما فيه كتابات الوحي التوراتي بتوراتها كأصل وبسائر أسفارها كفروع لها، أم وكتابات الوحي الإنجيلي أيضاً أصولاً وفروعاً، حيث الشرعة التوراتية والإنجيلية شرعة واحدة اللهم إلا شذراً مما في الإنجيل من تحليل للبعض مما حرم على

(١) بحار الأنوار ٥٢ : ٢٨٣ ج ١٠ - ك: السناني عن الأسدي عن سهل عن عبد العظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى...

وفي سفينة البحار ٢ : ٧٠٣ عن عبد العظيم الحسني قال قلت لمحمد بن علي بن موسى عليه السلام إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً فقال: يا أبا القاسم ما منا إلّا قائم بأمر الله عز وجل وهاد إلى دينه ولكن القائم الذي يطهر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها عدلاً وقسطاً هو الذي يخفي على الناس ولادته ويغيب عنهم شخصه ويحرم عليهم تسميته وهو سمي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكنيه وهو الذي تطوى له الأرض ويذل له كل صعب يجتمع إليه أصحابه عدة أهل بدر ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض وذلك قول الله عز وجل : ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البَقَرَة: ١٤٨] فإذا اجتمعت له هذه العدة من أهل الإخلاص أظهر أمره فإذا كمل له العقد وهو عشرة آلاف رجل خرج بإذن الله عز وجل فلا يزال يقتل أعداء الله حتى يرضى الله عز وجل ...».

إسرائيل من محرمات ابتلائية مؤقتة، أو يعني الكتاب مطلق كتابات الوحي قبل القرآن.

ومما تبقّى من هذه الأنباء هي التي تؤكد قيام صاحب الأمر استئصالاً لجذور الظلم والطغيان ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾[1] ما جاء في زبور داود مراراً وتكراراً كما في تصريحة قرآنية: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ۝١٠٥ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ۝١٠٦ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ۝١٠٧﴾[2].

و﴿عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ هنا، هم من ﴿عِبَادًا لَنَا﴾ ها هنا حيث يرثون الأرض بعد إفسادها الثاني، والزبور هو زبور داود عليه السلام فإنه بعد الذكر: «التوراة» حيث تذكر نفس البشارة بشتى العبارات، ولقد كتب الله تعالى هذه البشارة الإسرائيلية من عتيقها وجديدها.

ففي الزبور ٣٧: ١ - ٣٤ - تتكرر هذه البشارة كالتالي:

«فإن الأشرار يُستأصلون وأما الذين يرجون الرب فإنهم يرثون الأرض (١٠)... أما الآثمة فيعاقَبون وذرية المنافقين تُستأصل (٢٩). والصديقون يرثون الأرض ويسكنونها إلى الأبد (٤٣) انتظر الرب واحفظ طريقه فيرفعك لترث الأرض عند استئصال المنافقين تنظر (٣٤)».

والآية الأخيرة بشارة لداود أنه من ورثة الأرض في الدولة الحقة الأخيرة وقد يكون من الثلاثمائة والثلاثة عشر أصحاب الألوية ويحق له!.

القائم في اشعياء تصطلح في ملكه السباع:

كما في (اشعياء ١١: ١ - ١٠): ويخرج قضيب من جذريسي وينمي

---

(١) ارجع إلى كتابنا (رسول الإسلام في الكتب السماوية) من ٢٥ - ٢٧٠ - تجد فيه تفاصيل ما جاءت في كتابات الوحي منذ خمسين قرناً.

(٢) سورة الأنبياء، الآيات: ١٠٥-١٠٧.

فرع من أصوله (١) ويستقر عليه روح الرب روح الحكمة والفهم وروح المشورة والقوة وروح العلم وتقوى الرب (٢) ويتنعم بمخافة الرب ولا يقضي بحسب رؤية عينيه ولا يحكم بحسب سماع أذنيه (٣) بل يقضي للمساكين بعدل ويحكم لبائسي الأرض بإنصاف ويضرب الأرض بقضيب فيه ويهلك المنافق بنفس شفتيه (٤) ويكون العدل منطقة حقويه والحق حزام كشحيه (٥) فيسكن الذئب مع الحمل ويربض النمر مع الجدي ويكون العجل والشبل والمعلوف معاً والأسد يأكل التبن كالثور (٦) ويلعب المرضع على حجر الأفعى ويضع الفطيم يده في نفق الأرقم (٨) لا يسيئون ولا يفسدون في كل جبل قدسي لأن الأرض تمتلئ من معرفة الرب كما تغمر المياه البحر (٩) وفي ذلك اليوم أصل يسيء القائم راية للشعوب إياه تترجى الأمم ويكون مثواه جيداً (١٠).

هذه الآيات تفسرها التي سلفت من الزبور، دالة على أن القضيب من جذريسي أبي داود ليس هو داود، فإن داود من أصحاب ألويته في دولته، ثم ولم يعهد اصطلاح البهائم وامتلاء الأرض من معرفة الرب واستئصال الشر في أي زمن رسالي على طول الخط ولا أي ملك إلهي، اللهم إلا ما وعدناه ونرجوه زمن «القائم» من جذريسي حيث ينتسب من ناحية الأم إلى يسي أبي داود عليه السلام ويضرب الأرض بقضيب فيه حيث يقوم بالسيف في آخر الزمن!.

وفي (اشعياء ٦٥: ١١ - ٢٥) - تنديد شديد ببني إسرائيل لإفسادهم ويهددهم بالتبار وانتقال دولتهم إلى «عبيدي» وهم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في الإسراء:

«وأنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي الذين يهيئون المائدة لجدٍّ ويعدون المزوج لمناه (١١) فأعينكم للسيف وتجثون جميعكم للذبح. لأني دعوت ولم تجيبوا. تكلمت ولم تسمعوا وصنعتم الشر في عينيَّ وما لم أشأ إياه آثرتم (١٢) لذلك هكذا قال السيد الرب: ها إن عبيدي يأكلون وأنتم تجوعون. عبيدي يشربون وأنتم تعطشون (١٣) عبيدي يفرحون وأنتم

تحزنون. عبيدي يرنِّمون من طيب القلب وأنتم تصرخون من كآبة القلب وتولون من انكسار الروح (١٤) وتخلفون اسمي لمختاريَّ ويقتلك السيد الرب ويدعو عبيده باسم آخر (١٥) فالذي يتبارك بهذا الاسم على الأرض يتبارك بآله الحق والذي يقسم به على الأرض يقسم بآله الحق لأن المضايق الأولى قد نُسيت وسُتِرت عن عينيَّ (١٦) لأني ها أنا ذا أخلق سماوات جديدة وأرضاً جديداً فلا تُذكر السالفة ولا تخطر على البال (١٧) بل تهلّلوا وابتهجوا إلى الأبد بما أخلق فإني ها أنا ذا أخلق أورشليم ابتهاجاً وشعبها سروراً (١٨) وابتهج بأورشليم وابشر بشعبي ولا يُسمع فيها من بعدُ صوت بكاءٍ ولا صوت صراخ (١٩) لا يكون هناك طفل أيام ولا شيخ لم يستكمل أيامه لأن الصبي يموت وهو ابن مائة سنة والخاطئ يلعن وهو ابن مائة سنة ويبنون بيوتاً ويسكنون فيها ويغرسون كروماً ويأكلون ثمرها (٢١) لا يبنون ويسكن آخر ولا يغرسون ويأكل آخر لأن أيام شعبي كأيام الشجر ومختاريَّ يتمتعون بأعمال أيديهم لا يتبعون باطلاً ولا يلدون للرعب لأنهم ذرية مباركيّ الرب وأعقابهم معهم قبل أن يَدعوا أجيب وفيما يكلمون أستجيب (٢٤) الذئب والحَمَل يرعيان معاً والأسد كبقر يأكل التبن. أما الحية فالتراب يكون طعامها، لا يضرون ولا يفسدون في جبل قدسي (٢٥)».

هذه الإنباءات هي آتية في أنباء الإسلام للدولة المهدوية حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة[1]، وكما أجمل عن نبئها في آيات الإسراء - تأمل.

وفي (دانيال ١٢ : ١ - ٣): وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس

---

(١) في أحاديثنا: ينزل المهدي إلى بيت المقدس - تخرج له الأرض أفاليذ - أفلاذ كبدها - تصطلح في مكة السباع - أقل الأعمار مائة سنة حتى أن الرجل ليرى مائة نسمة من نسله - يستأصل الفساد عن الأرض.

وهناك انتقالان من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل - انتقال الشريعة بمحمد ﷺ وانتقال الملك بالمهدي من آل محمد ﷺ (راجع رسول الإسلام في الكتب السماوية).

العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمة إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان ينجو شعبك كل من يوجد مكتوباً في الكتاب (١) وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي (٢) ويضيء العقلاء كضياء الجلد والذين جعلوا كثرين أبراراً كالكواكب إلى الدهر والأبد (٣)..

وفيها تصريحة الرجعة العامة وكما في الصادقي عليه السلام [1] ثم في الآية (١٣) «وأنت اذهب إلى الانقضاء وستستريح وتقوم في قرعتك إلى انقضاء الأيام» وعلّها إشارة إلى كونه كداود من أصحاب ألوية الإمام المهدي عليه السلام الثلاثمائة والثلاثة عشر رجلاً.

أنباء وملاحم غيبته في الروايات الإسلامية:

من خطبة قصيرة لعلي أمير المؤمنين عليه السلام حول مستقبل الفتن:

«فتن كقطع الليل المظلم، لا تقوم لها قائمة، ولا ترد لها راية، تأتيكم مزمومة مرحولة، ويحفزها قائدها، ويجهدها راكبها، أهلها قوم شديد كلَبهم، قليل سلَبهم، يجاهدهم في الله قوم أذلة عند المتكبرين، في الأرض مجهولون، وفي السماء معروفون، فويل لك يا بصرة عند ذلك من جيش من نقم الله لا رهج له ولا حس، وسيبتلي أهلك بالموت الأحمر والجوع الأغبر»[2].

ويروى عن جعفر بن محمد عليه السلام «... وأهل مدينة تسمى الزوراء. تبنى في آخر الزمان يستشفون بدمائنا ويتقربون ببغضنا يوالون في عداوتنا ويرون حربنا فرضاً وقتالنا حتماً»[3].

---

(١) عنه عليه السلام يرجع من الأموات من محض الإيمان محضاً من محض الكفر محضاً.

(٢) الخطبة ١٠١ من نهج البلاغة للسيد الشريف الرضي له عن علي عليه السلام.

(٣) ج ٢ ص ٥٦٧ سفينة البحار للمحدث القمي نقلاً عن بحار الأنوار للمجلسي. له والزوراء هي بغداد.

و«لما رجع أمير المؤمنين عليه السلام من وقعة الخوارج اجتاز بالزوراء فقال: إنها الزوراء فسيروا وجنبوا عنها فإن الخسف أسرع إليها من الوتد في النخالة»[١].

ومن خطبة له عليه السلام «... لكأني أنظر إلى ضليلٍ قد نعق بالشام وفحص براياته في ضواحي كوفان، فإذا فغرت فاغرته واشتدت شكيمته، وثقلت في الأرض وطأته، عضت الفتنة أبناءها بأنيابها، وماجت الحرب بأمواجها، وبدا من الأيام كلوحها، ومن الليالي كدوحها، فإذا أينع زرعه وقام على ينعه، وهدرت شقاشقه، وبرقت بوارقه، عقدت رايات الفتن المعضلة، وأقبلن كالليل المظلم والبحر الملتطم، هذا - وكم يخرق الكوفة من قاصف، ويمر عليها من عاصف، وعن قليل تلتف القرون ويحصد القائم ويحطم المحصود»[٢].

وعل القرون الثانية هي القرون الإسلامية في دولة المهدي عليه السلام وقبيلها بـ ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ التي نعيشها، فالقائم عليه السلام يحصد ما زرعته الصهيونية العالمية من إفساد المعمورة، ويحطم ما حصدته - اللهم عجل فرجه وسهل مخرجه.

وقد تروى عنه عليه السلام غرة قد تنطبق على ثورتنا الإسلامية المجيدة ضد فورة العمالة الصدامية الصهيونية.

في حديث سلسلة الذهب[٣] أنه قال عليه السلام: «أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين جوانحي علماً جماً، فسلوني قبل أن تشغر برجلها[٤] فتنة

---

(١) ج ٢ ص ٥٦٧ سفينة البحار للمحدث القمي نقلاً عن بحار الأنوار للمجلسي. له والزوراء هي بغداد.

(٢) من الخطبة ١٠٠ نهج البلاغة للسيد الرضي عن علي عليه السلام.

(٣) تفسير نور الثقلين ٣: ١٣٩ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدّه قال قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبته: ...

(٤) شغر الكلب برجلها ليبول بال أم لم يبل، وشغر الرجل رجله للنكاح - شغرت الأرض لم يبق =

شرقية تطأ في خِطامها[١]، ملعون ناعقها ومولّيها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها، فكم عندها من رافعة ذيلها يدعو بويلها دجلة أو حولها، لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها، فإذا استدار الفلك قلتم مات أو هلك، وبأي واد سلك[٢] فعندها توقعوا الفرج وهو تأويل هذه الآية: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ. . .﴾ والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ليعيش إذ ذاك ملوك ناعمين، ولا يخرج الرجل منهم في الدنيا حتى يولد لصلبه ألف ذكر، آمنين من كل بدعة وآفة والتنزيل، عاملين بكتاب الله وسنة رسوله، وقد اضمحلت عليهم الآفات والشبهات».

= بها أحد يحميها ويضبطها فهي شاغرة، والشغر الإخراج والبعد، وشغر البلد بعد من الناصر، وأرض شاغرة، لا تمنع من غارة أحد لخلوها والتفرقة فيها، وشغرت الناس برجلي علوت الناس.

(١) الخطام كخطاب موضع الزمام من أنف البعير أم ماذا.

(٢) سفينة البحار ٢: ٧٠٢ عن عبد العظيم الحسني عن أبي جعفر عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: للقائم منا غيبة أمدها طويل كأني بالشيعة يجولون جولات النعم في غيبته يطلبون المرعى فلا يجدونه إلا فمن ثبت منهم على دينه لم يقس قلبه لطول أمد غيبة إمامه فهو معي في درجتي يوم القيامة. . .».

وفيه عن أبي خالد الكابلي قال قال لي علي بن الحسين عليه السلام: يا أبا خالد! ليأتين فتن كقطع الليل المظلم لا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه أولئك مصابيح الهدى وينابيع العلم ينجيهم الله من كل فتنة مظلمة كأني بصاحبكم قد علا فوق نجفكم بظهر كوفان في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً جبرئيل عن يمينه وميكائيل عن شماله وإسرافيل أمامه معه راية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد نشرها لا يهوي بها إلى قوم إلا أهلكهم الله عزّ وجلّ ».

وفي نفس المصدر عن أبي الحسن الرضا عليه السلام عن آبائه قال قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والذي بعثني بالحق بشيراً ليغيبن القائم من ولدي بعهد معهود إليه مني حتى يقول أكثر الناس: ما لله في آل محمد من حاجة ويشك آخرون في ولادته، فمن أدرك زمانه فليتمسك بدينه ولا يجعل للشيطان عليه سبيلاً بشكه فيزيله عن ملتي ويخرجه من ديني فقد أخرج أبويكم من الجنة من قبل وأن الله عزّ وجلّ جعل الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون».

الفتنة الشرقية:

علها أو أنها الفتنة الصهيونية الشرق أوسطية البادئة من إسرائيل في احتلال فلسطين والقدس، المتعلقة بحبل من الناس النسناس شرقياً وغربياً.

ومن أذنابها العملاء الفتنة الصدامية العفلقية من بغداد وما حولها، كما نعيشها الآن.

«تشغر برجلها - تطأ في خطامها».

فتنة شاغرة بأرض شاغرة من مفتتنين شاغرين، وكأن أصلها إنسانة مجنونة تتخبط في مشيتها، حيث تمشي مكبة على وجهها، إذ ترفع هذه الإنسانة الحيوانة برجلها، وبدل أن تطأ في أرضها تطأ في عرضها - في خطامها: أنفها الذي هو موضع زمامها، فلا تتمنع من غارة أحد لأرضها لخلوها ممن يحميها والتفرقة فيها.

ترفع برجلها لتحتل أرضاً أو أراضٍ أخرى، فإذاً هي بوطئها خطامها تثبت في موضعها وتحتل أرضها ويُهتك عرضها، ولأنها رفعت رجلها إلى غير حقها، متخبطة في وطأتها، ماشية مكبة على وجهها، فلا تطأ وتذل إلا أنفها، فتبتلى بخماسية لعنتها:

«ملعون ناعقها ومُوليها وقائدها وسائقها والمتحرز فيها».

كأن «ناعقها» الذي ينعق ويعربد لهذه الفتنة هو صدامها الصهيوني البعثي حيث أخذ يعربد لحرب وحشية شعواء عشواء على الجمهورية الإسلامية لصالح الصهيونية العالمية، كأنحس ذنب عميل من أذنابها، يرعد ويبرق ولا يحرق إلا نفسه، و«موليها» الذي يوليها ويتولاها كأصل لها هي نفس الصهيونية في إسرائيل ثم سواها، حيث تتولى هذه الحرب بأرذل وأطول أذنابها في البداية، ثم إلى أذنابها الشرقية والغربية الأخرى.

وعل «قائدها» هو الامبريالية الأمريكية حيث تقود هذه الفتنة لصالح الصهيونية، وهي هي من عمالها الأقوياء، ومن ثم الإمبريالية السوكيتية أم ماذا؟.

و«سائقها» الذي يسوقها هو العمالة البعثية العفلقية بناعقها «صدام» حيث تسوق هذه الفتنة الشاغرة العارمة في جِنَّة وتخبط، ثم «المتحرز فيها» تحرز الحفاظ على كيانه من بأس الثورة الإسلامية وتحرز الفرار عن بأس البعث الصدامي، علّها عديد من دويلات الخليج وأضرابها التي هي ويلات على الإسلام، والمتحرزين فيها من شيوخ الخليج وملوكها إلا شذراً حيث يقدمون بالعِدَّة والعُدَّة، تقوية لمطلق الكفر أمام مطلق الإسلام.

«فكم عندها من رافعة ذيلها» فتن جزئية هامشية عند الفتنة الأم، ترفع ذيلها فراراً دون قرار لتنجو من بأسها وبؤسها ولات حين فرار إذ:

«يدعو بويلها»: الفتنة الأم وذرياتها «دجلة أو حولها» فدجلة «بغداد» عاصمة الفتنة الزوراء «أو حولها» من بلاد عراقية ثم دويلات من الخليج «يدعو بويلها» إذ ينادي بكافة وسائل النداء الإعلام مستصرخة مستغيثة قوات الكفر أجمع ف «لا مأوى يكنها ولا أحد يرحمها» حتى لا يبقى كن ولا راحم من جنود الشيطان لهذه الفتنة إلّا مخذولة مرذولة، حيث ﴿عِبَادًا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدًا مَّفۡعُولًا﴾ فلا تبقى لهم باقية، فهنالك تتم الدولة الإسلامية مسيطرة على دويلات الكفر في ويلات لها وويلات.

ثم يستدير الفلك برد الكرة عليهم فاستضعاف هذه الدولة الكريمة ردحاً من الزمن، فيجيء وعد الآخرة ليسوؤوا وجوههم: «فإذا استدار الفلك» وأصبح الياس بالشدة جارفاً لحدٍّ: «قلتم مات» صاحب الأمر «أو هلك بأي وادٍ سلك» وإذا هو موجود هنا وقريب منا فكيف لا ينصرنا «فعند ذلك

توقعوا الفرج»: النهائي الذائب، بعد الفرج البدائي الذاهب...[(١)].

ويروى عن الإمام الرضا عليه السلام ما - عله - يشير إلى هذه الفتنة «ولا بد من فتنة صماء صيلم يسقط فيها كل وليجة وبطانة وذلك بعد فقدان الشيعة الثالث من ولدي»[(٢)] والفتنة الصدامية - كذنب للفتنة الصهيونية - هي أصم فتنة طول تاريخ الفتن حيث لا أذن لها يسمع الحق أو يستمع إليه، صماء عن كل قائل إلا قولة الصهيونية عمالةً مجنونة لصالحها، والصيلم: المستأصل الشديد، هي الفتنة التي تنحو منحى استئصال الحق عن بكرته. ورغم أنها «صماء صيلم» يسقط فيها كلٌّ من لها من «وليجة» هو «المتحرز

---

(١) أقول: قد رويت هذه الخطبة بصورة أخرى كما في البحار ٥٢: ٢٧٢ ج ١٦٧ - وبإسناده عن إسحاق يرفعه إلى الأصبغ بن نباتة قال سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول للناس: سلوني قبل أن تفقدوني لأني بطرق السماء أعلم من العلماء وبطرق الأرض أعلم من العالم، أنا يعسوب الدين، أنا يعسوب المؤمنين وإمام المتقين، وديان الناس يوم الدين - إلى قوله - ألا أيها الناس سلوني قبل أن تفقدوني فإن بين جوانحي علماً جماً فسلوني قبل أن تشغر برجلها فتنة شرقية وتطأ في خطامها بعد موتها وحياتها وتشب نار بالحطب الجزل من غربي الأرض. رافعة ذيلها تدعو يا ويلها لرحله ومثلها فإذا استدار الفلك قتلتم مات أو هلك بأي واد سلك فيومئذ تأويل هذه الآية ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ...﴾ [الإسراء: ٦].

هنا تضاف شب نار بالحطب الجزل من غربي الأرض، مساعدات حربية غربية تؤجج نيران الحرب في هذه الفتنة الشرقية تجنيداً لمطلق الكفر من شرق الأرض وغربها ضد مطلق الإسلام.

والحطب الجزل هو اليابس الغليظ العظيم منه والكثير وكأنه الأسلحة الفتاكة التي يؤتى من الغرب تقوية لهذه الفتنة الشرقية.

و«رافعة ذيلها» علها الطائرات الحربية، وهي تدعو يا ويلها من مدفعيات جبارة من الجمهورية الإسلامية الإيرانية. وفي سير الأعلام ٢: ٢٩٧ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أما أول أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب ورواه مثله عنه صلى الله عليه وآله وسلم في مختصر التذكرة ١٣٢ ومستدرك الحاكم ٤: ٤٥٨ وفي الأخير: تبعث نار تسوق الناس من مشارق الأرض إلى مغاربها» أقول: ونرى صدق هذه الإنباءات حيث ظهرت نار وفتنة شرقية صهيونية صدامية.

(٢) سفينة البحار ج ٢ ص ٧٠٣ باب ما جاء عن الرضا عليه السلام في ذلك يج - يج ٣٨ ك عن أحمد ابن زكريا قال قال لي الرضا عليه السلام أين منزلك ببغداد؟ قلت: الكرخ - قال أما أنه أسلم موضع ولا بد من فتنة...

فيها» و«بطانة» هو «ناعقها ومموليها وقائدها وسائقها» ثم لا تبقى إلا ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ في دولتهم الإسلامية المباركة!.

ويروى عنه عليه السلام أيضاً في قائد الدولة المظفرة الإسلامية قبل المهدوية العالمية - نائب الإمام الخميني نصره الله: «رجل من أهل قم يدعو الناس إلى الحق، تجتمع معه قوم كزبر الحديد، لا تزلهم الرياح العواصف ولا يملون من الحرب، ولا يجبنون وعلى الله يتوكلون والعاقبة للمتقين»[(١)].

«رجل» تتبناه كافة البطولات والرجولات الإسلامية «من أهل قم» تبنته هذه الحوزة المباركة حيث الأهلية هنا هي أهلية تلكم الرجولة لا الولادة «يدعو الناس إلى الحق» إذ خذله مخالفوه وحملته - لا فحسب لفظاً باللسان، وإنما بالأنفس والنفائس ويسيول الدماء «تجتمع معه قوم كزبر الحديد» وهم علّهم ﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ المبعوثون لاستئصال الفساد العالمي الصهيوني الأول: «لهم مربع الطاقات الجبارة: ١ - «لا تزلهم الرياح العواصف» التي تعصف شرقاً وغرباً حيث هم مؤمنون حقاً والمؤمن كالجبل الراسخ لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف ٢ - «ولا يملون من الحرب» حيثما بلغت بهم نائرتها ٣ - «ولا يجبنون» من استشهاد أم ماذا؟ ٤ - ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[(٢)] دون سواعد شرقية أو غربية أو مساعدات من هنا وهناك:

﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[(٣)]: الدولة العاقبة لدولتهم - الأخيرة في دول التاريخ - للمتقين[(٤)] وهم أولاء بتأسيسهم دولة الحق بزعامة نائب

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٤٤٦.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(٤) العاقبة في هذه الآية صفة لمحذوف هي الحياة أو الدولة، تعني الحياة أو الدولة الأخيرة في عالم التكليف للمتقين، وليست الحياة الآخرة فحسب وإن كانت منها:

المهدي عليه السلام الخميني يعبّدون الطريق لدولته المباركة العالمية التي تبقى مع الزمن حتى القيامة الكبرى.

وقد تعني معناه خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول فيها:

«لا بد من رحى تطحن فإذا قامت على قطبها، وثبتت على ساقها بعث الله عليها عبداً عسفاً: (عنيفاً) خاملاً أصله، يكون النصر معه، أصحابه الطويلة شعورهم، وأصحاب السبال، سود ثيابهم، أصحاب رايات سود، ويل لمن ناواهم يقتلونهم هرجاً، والله لكأني أنظر إليهم وإلى أفعالهم، وما يلقى من الفجار منهم والأعراب الجفاة، يسلطهم الله عليهم بلا رحمة، فيقتلونهم هرجاً على مدينتهم بشاطئ الفرات البرية والبحرية جزاءً بما عملوا وما ربك بظلام للعبيد»[1].

والعبد العسف: العنيف ضد الظلم الخامل أصله علّه هو نائب الإمام الخميني حيث كان خاملاً طول عمره، وبدا اشتهاره وبدأ منذ قيامه، وأصحابه الطويلة شعورهم أصحاب السبال كما نرى الكثير من الانقلابيين معه كذلك... ولعل الرايات السود هي التي ترتفع عند موته أو استشهاده حيث يرفعها أصحابه وينتصرون في حربهم ضد الكفر حتى يحققوا أمر الله ﴿فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾! وقد يعنيه ما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ... إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء وتشريداً وتطريداً حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخير فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملؤوها جوراً فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»[2].

(١) البحار ٥٢: ٢٣٢.

(٢) سنن المصطفى ص ٥١٧ حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا معاوية بن هشام ثنا علي بن صالح عن يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم عن علقمة عبد الله قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذ أقبل =

قيام البهلوي من قزوين من علائم ظهور المهدي عليه السلام:

من الملاحم المروية عن الرسول صلى الله عليه وآله في تفصيل علامات ظهور المهدي عليه السلام «. . . فعندها يتكلم الرويبضة - فقال سلمان: وما الرويبضة يا رسول الله صلى الله عليه وآله، فداك أبي وأمي؟ قال: صلى الله عليه وآله يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى تخور الأرض خورة فلا يظن كل قوم إلا أنها خارت في ناحيتهم فيمكثون ما شاء الله ثم ينكتون في مكثهم فتلقى لهم الأرض أفلاذ كبدها. . . فهذا معنى قوله: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[1] [2].

والرويبضة علها لا معنى لها في لغة ولذلك لم يفسرها الرسول صلى الله عليه وآله هنا إلا بعنوان مشير: «يتكلم. . .» وهي هي «رضا بهلوي» باختلاف ترتيب حروفها، ولا ينافيه ما فسره هو صلى الله عليه وآله في رواية أخرى بـ «الرجل التافه»[3] فإنه حقاً تافه.

= فتية من بني هاشم فلما رآهم النبي صلى الله عليه وآله اغرورقت عيناه وتغير لونه قال: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه فقال. . .

أقول: وهذا الحديث يواطىء ما مر عن الإمام الباقر عليه السلام في نقل غيبة النعماني ص ١٤٠ مع بعض الزوائد هناك، ولعل الرايات السود هي رايات عزاء الحسين عليه السلام في ١٢ محرم ١٥ خرداد ٤١ حيث قاموا لأخذ حق الإسلام من الشاه المعدوم واسترجاع المرجع الديني الأعلى من السجن فلم يكن إلا قتلاً ذريعاً فيهم.

(١) سورة محمد، الآية: ١٨.

(٢) تفسير القمي بإسناده عن عبد الله بن عباس، قال حججنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله حجة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثم أقبل إلينا بوجهه فقال: ألا أخبرك بأشراط الساعة وكان أدنى الناس منه يومئذ سلمان؟ فقال: بلى يا رسول الله فقال صلى الله عليه وآله. من أشراط الساعة. . . إلى أن قال. . .».

(٣) كما في البحار ٥٢: ٢٤٥ ح ١٢٤ في بإسناده عن ابن نباتة قال سمعت علياً عليه السلام يقول: إن بين يدي القائم سنين خدّاعة يكذب فيها الصادق ويصدق فيها الكاذب ويقرب فيها الماحل (وفي حديث) وينطق فيها الرويبضة» قال الجزري في حديث أشراط الساعة «وأن ينطق الرويبضة في أمر العامة - قيل وما الرويبضة يا رسول الله؟ فقال: الرجل التافة ينطق في أمر العامة. =

وعن محمد بن الحنفية قال قلت له: - الإمام علي عليه السلام - قد طال هذا الأمر حتى متى - إلى أن قال -: أنى يكون ذلك ولم يقم الزنديق من قزوين فيهتك ستورها، ويكفر صدورها، ويغير سورها، ويذهب ببهجتها من فر منه أدركه ومن حاربه قتله، ومن اعتزله افتقر، ومن تابعه كفر حتى يقوم باكيان: باك يبكي على دينه وباك يبكي على دنياه»(١) والزنديق هو البهلوي(٢) وقد كان قيامه من قزوين وصدقت عليه الافتعالات.

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «يخرج بقزوين رجل اسمه اسم بنيٍّ يسرع الناس إلى طاعته المشرك والمؤمن يملأ الجبال خوفاً»(٣)

و«بني» تصغير «ابن» هو «رضا» بُنيَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الامام الرضا عليه السلام.

وعن أبي عبد الله عليه السلام في استعراض علائم الظهور «وشمول أهل العراق خوف لا يكون معه قرار»(٤).

وفي كلام لعلي أمير المؤمنين يتحمل الإيحاء إلى الحالة الموجودة بيننا بين البعثية الصدامية الكافرة.

قال عليه السلام: «لا يقوم القائم حتى تفقأ عين الدنيا وتظهر الحمرة في السماء وتلك دموع حملة العرش على أهل الأرض، وحتى يظهر فيهم قوم

= أقول: فالرويبضة إذاً تصغير الرابضة العاجز الذي ربض عن معالي الأمور وقعد عن لبها وزيادة التاء للمبالغة.

ثم أقول: ما أجمل الجمع بين المعنى من الرويبضة: التافة - ورضا بهلوي حسب تأليف حروفها!.

(١) بحار الأنوار الطبعة الجديدة ج ٥٢ ص ٣١٢ ح ٦١ غط الفضل عن ابن أبي نجران عن محمد بن سنان عن أبي الجارود عن محمد بن بشر عن محمد بن الحنفية.

(٢) في مجمع البحرين: الزنديق هو البهلوي:

(٣) بحار الأنوار... ص ٢١٣ غط ردي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال...

(٤) البحار ٥٢: ٢٢١ ج ٨٥ شا. الحسين بن زيد عن منذر الجوزي عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول. يزجر الناس قبل قيام القائم...

لا خلاق لهم يدعون لولدي وهم براء من ولدي، تلك عصابة رديئة لا خلاق لهم، على الأشرار مسلطة وللجبابرة مفتنة، وللملوك مبيرة، يظهر في سواد الكوفة، يقدمهم رجل أسود اللون والقلب، رث الدين، لا خلاق له، مهجن زنيم عتل، تداولته أيدي العواهر من الأمهات من شر نسل لأسقاها الله المطر في سنة إظهار المتغيب من ولدي صاحب الراية الحمراء والعلم الأخضر، أي يوم للمخيبين بين الأنبار وهيت.

ذلك يوم صيلم الأكراد والشراة، وخراب دار الفراعنة، ومسكن الجبابرة، ومأوى الولاة الظلمة، وأم البلاء وأخت العار، تلك ورب علي يا عمر بن سعد بغداد، ألا لعنة الله على العصاة من بني أمية وبني فلان الخونة الذين يقتلون الطيبين من ولدي ولا يراقبون فيهم ذمتي، ولا يخافون الله فيما يفعلونه بحرمتي...»[(١)].

---

(١) عن أبي عبد الله عليه السلام ٢٢٦ ج ٩٠ في بإسناده عن عمر بن سعد عنه عليه السلام...
ومن الطريف جداً خطاب الامام عليه السلام أخيراً لعمر بن سعد جد صدام عامل هذه الفتنة وعميلها، بعدما يصف عصابة البعث العفلقي التي يقودها صدامها، ثم يصفه لعنة الله عليه بسواد اللون والقلب - وقد جمعهما - وأنه رث الدين مهجن زنيم عتل تداولته أيدي العواهر من الأمهات من شر نسل، ثم وعداً بيوم صيلم الأكراد والشراة وخراب دار الفراعنة مسكن الجبابرة ومأوى الولاة الظلمة وأم البلاء وأخت العار تلك ورب علي يا عمر بن سعد! بغدادا!:
وفي ج ١٣ ص ٣١٤ ملحقات إحقاق الحق عن العلامة المولى علي المتقي الهندي في كنز العمال ج ٧ ص ٢٦١ طا حيدرآباد الدكن روى عن علي عليه السلام في خطبة له «وليكونن من يخلفني في أهل بيتي رجل يأمر بأمر الله قوي يحكم بحكم الله وذلك بعد زمان مكلح مفصح يشتد فيه البلاء وينقطع فيه الرجاء، ويقبل فيه الرشا فعند ذلك يبعث الله رجلاً من شاطئ دجلة لأمر حزبه - يحمله الحقد على سفك الدماء قد كان في ستر وغطاء فيقتل قوماً وهو عليهم غضبان شديد الحقد حران في سنته بختنصر يسومهم خسفاً ويسقيهم سوط عذاب وسيف دمار ثم يكون من بعده هنات وأمور مشتبهات إلا من شط الفرات إلى النجفات باباً القطقطانيات في آيات وآفات متواليات يخدش شكاً بعد يقين يقوم بعد حين يبني المدائن ويفتح الخزائن ويجمع الأمم ينفدها شخص البصر وطمح النظر وعنت الوجوه وكشف البال حتى يرى مقبلاً مدبراً =

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾

للقرآن زهاء أربعون أسماً[(١)] . . . .

= فيا لهفي على ما أعلم رجب شهر ذكر رمضان تمام السنين شوال يشال فيه أمر القوم ذو القعدة يعتقدون فيه ذو الحجة الفتح من أوّل العشر إلا أن العجب كل العجب بعد جمادى ورجب جمع الشتات وبعث أموات وحديثات هونات هونات بينهن موتات رافعة ذيلها داعية عولها معلنة قولها بدجلة أو حولها -

ألا إن منا قائماً عفيفة أحسابه سادة أصحابه ينادى عند اصطلام أعداء الله باسمه واسم أبيه في شهر رمضان ثلاثاً بعد هرج وقتال وضنك وخيال وقيام من البلاء على ساق وإني لأعلم إلى من تخرج الأرض ودائعها وتسلّم إليه خزائنها ولو شئت أن أضرب برجلي فأقول: اخرجي من هاهنا بيضاً ودروعاً كيف أنتم يا بن هنات إذا كانت سيوفكم بأيمانكم مصلتات ثم رملتم رملات ليلة البيات ليستخلفن الله خليفة يثبت على الهدى ولا يأخذ على حكمه الرشا إذا دعا دعوات بعيدات المدى دامغات للمنافقين فارجات عن المؤمنين ألا إنّ ذلك كائن على رغم الراغمين والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبيين وآله وأصحابه أجمعين بن المنادي:

وأخرجه مثله في كنز العمال المطبوع بهامش المسند ج ٦ ص ٣٥ ط الميمنية بمصر.

(١) وهي: القرآن - الفرقان - الكتاب - الذكر - الحديث - التنزيل - الموعظة - الشفاء - الهدى - الحبل - الرحمة - الصراط المستقيم - الحكم - الحكمة - الحكيم - المحكم -=

هذا أكثرها ذكراً[١] واشتهاراً، وأغزرها معنى وازدهاراً إذ يعني جملة ما تعنيه هي تفصيلاً، وهو يعني في مختلف معانيه: الجمع - الطهارة - التطهير - القراءة - الإبلاغ - الرؤية - اقتراب المغيب: معان سبعة كالسماوات السبع والأرضين السبع وأيام الأسبوع السبعة، حيث يشمل بمعانيه جملة وتفصيلاً الأزمنة والأمكنة ومن فيهما.

فإنه طهارة - فتطهير - وقراءة وإبلاغ - ورؤية لما يمكن أن يُرى بصراً وبصيرة، وجمع لما لم يجمعه غيره من كتابات واقتراب لاغتراب غيره من كتابات كما إنه من آيات اقتراب الساعة ونبيه نبي الساعة.

وترى لماذا هنا وفي عديد غيرها ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ حيث توحي بأن هناك قرآناً أو قرائين أخرى، وفي عديد أخرى «القرآن» والقرآن هو القرآن؟

لأن «قرآن» من الله هو جنس المقرو بالوحي كتاباً على المكلفين، شاملاً كتابات الوحي كلها، وأفضلها هذا القرآن، فقد يعرف بـ «هذا» ليدل على حاضره دون غابره، و«هذا» في موارده كلها يتضمن ميزة أو ميزات له عن سائر القرآن[٢] وقد تدل على عمومه لسائر الوحي:

= الروح - البيان - التبيان - المبين - الفصل - النجوم - القصص - البصائر - المثاني - النعمة - البرهان - البشير - النذير - القيم - المهيمن - الهادي - النور - الحق - العزيز - الكريم - العظيم - المبارك - بلاغ - سبيل - حياة

(١) نجده (٧٠) مرة اثنتان منهما قرآن الفجر: صلاة الفجر - واثنتان: قرآنه: قراءته - والباقي هذا القرآن.

(٢) ك ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧] ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١] ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٨] ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ . . .﴾ [النمل: ٧٦] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ . . .﴾ [سبإ: ٣١].

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ...﴾[١] ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٢].

إذاً فلا بدَّ من تعريف به ليميزه عن غيره بـ «هذا» أو «العظيم» ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[٣] أو تعريف اللام عهداً إلى حاضره حيث يخاطبهم به: ﴿وَإِن تَسْـَٔلُواْ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ ...﴾[٤] أو بضمير يعرفه: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ...﴾[٥] أو وصف: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ﴾[٦] أم ماذا من إشارة تميزه عن سواه ويختص ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ هنا بما يعرفه أنه ﴿يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ من قوامات الوحي وقيامات صاحب الوحي والمكلفين به.

و«قرآن» مع كل ذلك علم لهذا القرآن، لم يسم به غيره من قرآن وإن كان يشمله جنسه، وهو أفضل وأكثر أسماء القرآن.

ثم هنا هادٍ ومهدي ومهدي له وبشارة لمن يهتدي وإنذار على من لا يهتدي، فالهادي هو القرآن حيث الهدى طبيعته وحالته وصياغته لأعلى قمم الهدى، دون إبقاءٍ على هدى ممكنة إلا وهو يهدي لها غير قاصر ولا ضنين.

والمهدي هو على الإطلاق كل مكلف بحاجة إلى هدى، وبإمكانه أن يهتدي بلا حدود من زمان أو مكان أو أقوام وأجيال فإنه هدى الله والهدى الإلهية في القرآن كاملة شاملة.

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٨٧.
(٤) سورة المائدة، الآية: ١٠١.
(٥) سورة يونس، الآية: ٦١.
(٦) سورة الحجر، الآية: ١.

والمهدي له، وترى لماذا «له» دون «إليه» أم دون جار كـ ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾؟... ثم «التي» بحذف الموصوف المتردد بين عديد كـ: الطريقة - الشريعة - الملة - الرسالة - الولاية أم ماذا؟ ولا يحذف الموصوف الا المعلوم لحد لا يحسن ذكره بل ويحسن حذفه؟.

نجد الهداية في القرآن في هذا المثلث، وليس «يهدي له» إلا هنا لكتاب الله، وفي أخرى لله: ﴿قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ﴾[1] [2] ثم لا ثالث لهما، فإنما الله وكتاب الله يهدي له لا سواه، فلتكن «الهداية له» خاصة بالله بقرآنه المبين.

ثم الله وإن كان يهدي بالقرآن من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم: ﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾[3] هداية إياه وهداية إليه، إلا أن أياً منهما لا يشمل مطلق الهدى، والهداية له تشمله كله، فالهداية «إلى» دلالة إلى الهدى الآفاقية البعيدة عن المهدي إذ هي خارج ذاته، أو الأنفسية البعيدة عنها كالآفاقية لمن احتجب عن نفسه بعيداً[4]، والهداية إياه إيصال إلى المقصود آفاقية وأنفسية أو يقارب الإيصال لمكان القرب بين المهدي

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

(٢) ومن الطريف أن ﴿يَهۡدِي لِلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] الخاصة بالله تتوسط ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] لغير الله أولاها ﴿شُرَكَآئِكُم﴾ [يونس: ٣٤] سؤال تعنّت، وأخراها لكافة الهداة إلى الحق حيث تجمعهم ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥] فليس تغيير صيغة الهداية مجرد تفنّن التعبير وإنما لخصوص المعني من «له» و«إليه».

(٣) سورة المائدة، الآيتان: ١٥-١٦.

(٤) لأن «إلى» توحي لفصل بين المهدي والمهدى إليه، والهدى الأنفسية ليست بعيدة عن المهدي.

والمهدي له لحد الاتصال[١]. والهداية له تشمل الإيصال والدلالة إلى الأنفسية والآفاقية قريبة وبعيدة، دلالة إلى ما في النفس من هدى العقل والفطرة أم ماذا؟ وإيصالاً إلى حقها وواقعها، ودلالة إلى ما في الآفاق تكويناً وتشريعاً وإيصالاً إليها فالهداية له - إذاً - أتم وأطم من الهداية إليه وإياه[٢] فما ألطفه التعبير عن الهداية المطلقة بـ «يهدي إياه» وعن الدلالة المؤثرة وسواها بـ «يهدي إليه» وعن مجموع الهدايات بـ «يهدي له» الشاملة لكافة مراحل الهداية مستغرقة لها كلها! ولأن هذه الآية هي الفريدة في نوعها للهداية الشاملة فلتشمل الهدى كلها، دلالة وإيصالاً للهدى أنفسية في هداية العقل والفطرة، وآفاقية في هداية التكوين والتشريع، فالقرآن نسخة كاملة للهدى كلها حيث يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام.

إنه هدى للكافرين كما للمؤمنين دلالة، وهدى للمتقين في مزيد الدلالة ثم الإيصال إلى حق الهدى، ثم وهو هدى للإنسان وأضرابه آفاقياً وأنفسياً.

وأما «التي» بحذف الموصوف فللإيحاء بإطلاق المهدي له، دون خصوص الملة أو الطريقة أو الرسالة أو النبوة أو الولاية أماهيه؟[٣].

فإنه هدى بكل بنودها ومتطلباتها للإنسان وأضرابه كأفضل ما يمكن وأكمله في عالم الفطرة والعقل، وفي التنسيق بين ظاهر الإنسان وباطنه وبينه

(١) حيث الهداية إياه توحي إلى وحدة عريقة بين المهدي والمهدى له دون فصل بينهما، أما حقيقاً ما الإيصال ويشارفه كالقريب القريب.

(٢) حيث الهداية له، واللام للاختصاص أعم من الدلالة الخاصة والإيصال الخاص إلى مادة الهدى آفاقية وأنفسية، فالهداية إياه هي «له» والهداية إليه كذلك «له» كما الهداية الآفاقية والأنفسية كلاهما «له» وإن كانت «له» مراتب عدة.

(٣) كالسبل والآيات الآفاقية والانفسية (٣) والأخلاق (٤) والحياة (٥) وأحكام الفطرة والعقل (٦) والايمان (٧) والإسلام (٨) والتقوى (٩) والزهادة (١٠) والمعرفة والمعجزة (١١) مواد الهداية التي تدعو إليها كتابات الوحي، فكل هذه الموصوفات تصلح أن تكون للتي هي أقوم دون إبقاء على مادة من الهدى إلّا وهي تشملها.

وبين ربه في علاقة المعرفة والعبودية - وبينه وبين الناس في علاقة العشرة، وفي كافة زوايا الهدى ومتطلباتها وتنسيقاتها ومخلفاتها الحاضرة والمستقبلة.

﴿لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ فكتابات الله كلها قويمة قيِّمة لا عوج فيها ولا قصور، ولكنها مؤقتة زمناً، محدودة بالمتطلبات المرسومة لزمنها، والاستعدادت لطالبيها فيها، وأما القرآن فهو يهدي للتي هي أقوم: قيمة وقوامة واستقامة وقياماً[١] منذ بزوغه ما طلعت الشمس وغربت، فشمسه لا تغرب وما يحتاجه المهتدون به لا يعزب، فلا يقعد عن هدايته، ولا يفشل عن استقامته ولا ينقص عن قيمته وقوامته لأنه كتاب الزمن كله.

ف ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ من غيرها على الإطلاق قواماً وقياماً: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا...﴾[٢] فيه كافة القوامات والقيامات لحد القيامة الكبرى، لا أفول لشمسه ولا انقطاع لشرعته، لا كتاب بعد كتابه ولا رسالة بعد رسالته، حيث الأقوم يتطلب ختام الوحي بوحيه.

فهذه الآية إجمال عن مثلث الخاتمية: شريعة ورسالة وكتاباً، نجد تفاصيلها في آيات أخرى، والتي هي أقوم يشمل هذا المثلث وما معها من ملة وطريقة وولاية، والولاية المطلقة للقرآن ونبيه وأهل بيته هي أقوم الولايات طول الرسالات الإلهية، وهي كلها على هامش الولاية الإلهية[٣].

---

(١) فالأقوم تتحمل كونها من القوام والقيامة والقيمة، والقرآن يهدي للتي هي أقوم في مثلثه دون اختصاص بأحدها.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦١.

(٣) في تفسير العياشي عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير الآية قال: «يهدي إلى الولاية» أقول: وهي تشمل الولايات كلها ومنها ولاية الأئمة التي هي ثالث مراتبها بعد ولاية الله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم وقد يفسر بولاية الإمام بياناً لثالث مصاديقها لأنه مختلف فيها حتى يلحق بولاية الرسول، ومن ذلك ما في حديث سلسلة الذهب، يرويه ابن بابويه بإسناده عن عياش=

ثم القرآن ليس ليهدي للتي هي أقوم هداية المعرفة والإيصال إلى الحق إلا لمن اتخذه دليلاً بحق وكما عن الإمام علي عليه السلام: «أيها الناس إنه من استنصح الله وفق، ومن اتخذ قوله دليلاً هدي للتي هي أقوم»: دليل المعرفة والعمل الصالح ثم يبشره:

ومراتب الهدى القرآنية آخذة من العلمية إلى العقيدية إلى العملية التطبيقية. والأخيرة هي المبشر لها ﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

ومراحل العلم القرآني «على أربعة أشياء على العبارة والإشارة واللطائف والحقائق فالعبارة للعوام والإشارة للخواص واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء»[1].

ومراتب عقيدة اليقين ثلاث: علم اليقين - عين اليقين - حق اليقين.

ومراتب العمل تنحو مراتب العلم واليقين. كلما ازداد ازداد وكلما نقص نقص.

والدلالة القرآنية ثلاث: دلالة التعبير في مراتبها، ثم دلالة الاهتداء، ثم الإيصال إلى المطلوب: الصراط المستقيم... ومما توحيه آية الأقوم أن هذا القرآن هو المتن الأعلى للإسلام وما سواه من أحاديث ليست إلا على هامشه إن وافقه فليكن متناً متيناً مكيناً في الحوزات العلمية الإسلامية وفي كافة الحقول.

= ابن يزيد مولى زيد بن علي، قال حدثني أبي قال حدثني موسى بن جعفر... وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: الإمام منا لا يكون إلا معصوماً وليست العصمة في ظاهر الخلقة فيعرف بها فلذلك لا يكون إلا منصوصاً فقيل له: يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! فما معنى المعصوم؟ فقال: هو المعتصم بحبل الله وحبل الله هو القرآن لا يفترقان إلى يوم القيامة فالإمام يهدي إلى القرآن والقرآن يهدي الإمام وذلك قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وروي تفسيره بالإمام بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً.

(١) سفينة البحار يرويه الإمام الحسين عن أبيه علي أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن التي هي أقوم في هدي القرآن إعجازها، حيث الآية الرسالية فيه أقوم الآيات إذ تعيش الزمن ويعيشها الزمن دون حاجة إلى آية أخرى.

ومنها السياسة القرآنية التي تقود دولة عالمية على طول الزمن كما يقودها القائم المهدي عليه السلام في آخر الزمن.

ومنها الحقوق القرآنية التي تحلق على كافة الحقوق طول التاريخ، وتكفي معونة الحياة المتوسعة المتداخلة المتشابكة المتشاكسة.

ومنها الملاحم الغيبية والإنباءات المستقبلة التي توقظ النُّوَّم وتنبه النابهين كي يكونوا على أهبة وحذر لبناء المستقبل المجيد للدولة الإسلامية.

ومنها الاقتصاد القرآني وقد تكفي حلاً لمشكلة الاقتصاد العضال آية وحيدة منه ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١].

ومنها ومنها وقد تحدى القرآن فيما تحدى الإنس والجن ﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[٢]: طول الزمان وعرض المكان.

﴿وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾:

يبشر من آمن بالله واليوم الآخر وما بينهما على ضوء القرآن، ويعملون الصالحات التي تصلح نتيجة للإيمان وتصلح الحياة كل الحياة على ضوء القرآن، يبشرهم قدر ما اهتدوا به وآمنوا وعملوا الصالحات ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾: لا ناقصاً عما قدموا فإنه عجز وبخل، ولا مساوياً مواتياً له فإنه مثل بمثل، وليس الله مثلاً لنا حتى يؤاتينا في ثواب أعمالنا، وإنما فضلاً وإحساناً: ﴿أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أكبر مما قدموا وإن كان تسمية الثواب أجراً فضلاً

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٨.

عن ﴿كَبِيرًا﴾ هو أيضاً أجر كبير ولطف غزير، حيث العبد لا يستحق بإيمانه وعمله الصالح أجراً من ربه، إذ لا يعود نفعه إلا إليه لا إلى ربه، إذاً فأصل الثواب فضل وتسميته أجراً فضل وصفته كبيراً، فضل، مثلث الفضل في قول فصل.

ثم القرآن لمن لم يتخذه دليلاً لا يزيده إلا خساراً، ولا سيما الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإن كانوا مؤمنين بالله، حيث الإيمان بالله دون الآخرة لا يلزم المؤمن به بما يلتزم به المؤمن بآخرته من عمل الصالحات، ومجرد الإيمان بالله دون عمل لا ينفع حتى إذا كان إيماناً بالآخرة أيضاً:

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾﴾:

لا يؤمنون بالحياة الآخرة ودلائلها في القرآن واضحة وفي الآفاق والأنفس لائحة! والإعتاد هو التهيئة، والعذاب الأليم يشمل ذوقه يوم الدنيا في المعيشة الضنك وفي البرزخ بوجه آكد، ثم في القيامة واقع لأليم العذاب: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ...﴾[(١)]: عذابات معتدة في مثلث الحياة بما قدمته أنفسهم.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾:

تأنيب بهوى الإنسان العجول الجهول التارك لهدي القرآن حيث يدعو بالشر دعاءه بالخير فشتان شتان بين هدي القرآن وهدي الإنسان، حيث يهوى بعجلته فيهوي في هواة الضلال جهلاً له أو جهالة بمصادر الأمور ومصائرها، فاستعجالاً بالشر فيما يأتي خيره باستمهال!.

والدعاء هي الطلب في مقال أو حال أو فعال، فقد يدعو ربه بالشر[(٢)]

---

(١) سورة طه، الآية: ١٢٤.

(٢) الباء في هذا الاحتمال للتعدية حيث المفعول به فيه الله أو الرسول أم غيرهما. ودعاؤه =

دعاءه بالخير: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(١) كنضر بن الحارث وقد أجيب دعاؤه فضرب عنقه، ولو كانت هذه سنة دائبة لقضي عليهم باستعجالهم: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُم بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾(٢).

أو يدعو رسولاً - يكذبه - بالشر لو أنه صادق: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾(٣) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾(٤) ﴿يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾(٥).

ف «لا تدعوا على أنفسكم لا تدعوا على أولادكم لا تدعوا على أموالكم لا توافقوا الله ساعة فيها إجابة فيستجيب لكم»(٦).

و«اعرف طريق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك»(٧).

وعلى الإنسان الذي يريد خيره أن يتطرق إليه بما يقدمه من خير على إمهال دون استعجال، حيث الخير يخلف الخير كما الشر يأتي بالشر، ولكنما الإنسان العجول الجهول قد يطلب خيره بالشر طلبه بالخير فيما هو حقاً خير، أو يطلب ما يظنه خيراً وهو شر بالشر: شراً على شر أو يطلب ما يراه شراً بالشر فهو في مثلث الشر(٨).

= مفعول مطلق نوعي أي يدعو... دعاءه بالخير بالشر. مدعوه الذي يحصل بسبب الخير يدعوه بالشر».

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ١١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الرعد، الآية: ٦.
(٥) سورة النمل، الآية: ٤٦.
(٦) الدر المنثور ١٦٦ - أخرج أبو داود البزار عن جابر رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.
(٧) نور الثقلين ٣: ١٤١ عن مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام:...
(٨) الباء هنا للسببية أي يدعو بسبب الشر وواسطته دعاءه بسبب الخير أو بدل دعائه بالخير، أو =

فالمستعجل برزقه الذي لا محالة آتيه بعمله قد يطلبه بالشر: سرقة أو احتكاراً أو بخساً في المكيال أم ماذا؟ رغم أنه لا يصله إلا ما قدر له بعمله، وإذا ناله زائد عليه بشره فلا يناله في فائدة له إلا فاسدة كاسدة.

ولكنما الإنسان المهدي بهدي القرآن كل دعائه خير ويدعوه بخير، وفيما يجهل خيره يحتاط متروياً مستشيراً عقله وعقلاء غيره، متكلاً إلى ربه على كل حال، في كل حل وتر حال، وإذ يدعو ربه فيما يظنه أو يراه خيراً فإنما يطلبه بتأديب دون إصرار وتأكيد.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ فعجلة الإنسان بطبعه وخلقته، دون أن يعدَّ لها فيعدِّلها إلى الأصلح متأنياً، هو الباعث الأهم لدعائه بالشر دعائه بالخير لحد كأن البواعث الأخرى لا موقع لها مع ما لها من مواقعها، وما هي الصلة بين عجلة الإنسان ودعائه بالشر دعائه بالخير؟ إنها تسرُّع الشر وسهولة الدعاء به، وتأني الخير وصعوبة الدعاء به فبدل أن يطلب مطلوبه الخير بالخير يطلبه بالشر استعجالاً.

وفي مربع الطلب: شراً بشر - خيراً بخير - خيراً بشر - شراً بخير نرى العجلة لائحة في مقدمات الشر إلى خير أم إلى شر[1] وأما الخير إلى الخير فلا تأنيب فيه، والخير إلى شر كتظاهر المنافق بالزهادة حتى يكيد كيده، ففيه أشد تأنيب ولكنه لا تشمله الآية حيث تعاكسها ولا استعجال فيه.

و«الإنسان» هنا هو نوعه: من آدم وذريته[2] «وكان» حالة هذا النوع في كينونته العجل: فقد ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾[3]

= كدعائه بالخير فـ «دعاءه» هنا منصوب بنزع الخافض وفي الاحتمال الأول مفعول مطلق نوعي.

(١) فالأول على كون دعائه بالخير مفعولاً مطلقاً نوعياً والثاني منصوباً بنزع الخافض كدعائه - أي يطلب الشر بالشر كأنه يدعو بالخير.

(٢) فلو كان المقصود هنا آدم لقال آدم فإنه علم له، ولو كان ذريته لقال بنو آدم، وأما الإنسان أو البشر فهو يشمل هذا الجنس من آدم أبي البشر ومن سائر البشر.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٣٧.

وعل العجل هنا لآدم «لما خلقه الله نفخ فيه من روحه وثب ليقوم قبل أن يتم خلقه فسقط فقال الله عزّوجلّ : ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[1] ثم ولذريته منيُّهم الذي يعجل حيث يدفق بعجل لحد سمي عجلاً، وهذه العجلة التي تتبنّى خلق الإنسان ليست إلا لحكمة عجلة سيره في مسيرة كماله، ولكنه يعكسها في دعاء شره أو دعائه بالشر دعائه بالخير.

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾﴾:

الليل والنهار آيتان من آيات الله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ...﴾[2] حيث يدلان بتخالفهما واختلافهما تلو بعض دائباً دون تخلف، يدلان على أن خلقهما مدبر باختيار وحكمة قاصدة، كما وأن الليل في تحوله إلى نهار آية للحياة بعد الموت: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾[3] فإن سلخ النهار من الليل يواطي سلخ الروح من البدن، ثم رجع النهار خلفه كرجع الروح إلى البدن حذو النعل بالنعل، إذاً فالليل والنهار آيتان تدلان على المبدإ والمعاد، وفي كل حكمة تقتضيه الحياة سكناً وابتغاءً من فضل الله فالليل للراحة والسكون الجمام، والنهار للسعي والكسب والقيام[4].

وترى أن آية الليل الممحوة وآية النهار المبصرة هما الشمس والقمر،

---

(١) نور الثقلين ٢ : ١٤٢ عن تفسير العياشي عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام . . . وفي الدر المنثور: ١٦٦ - أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن عساكر عن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: أوّل ما خلق الله من آدم عليه السلام رأسه فجعل ينظر وهو يخلق ويقيت رجلاه فلما كان بعد العصر قال: يا رب! اعجل قبل الليل فذلك قوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١] وأخرجه ابن أبي شيبة عن مجاهد مثله.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٣) سورة يس، الآية: ٣٧.

(٤) راجع ج ٣٠: ١٨ من الفرقان تفسير الآية ٩ - ١١ من سورة النبأ.

فإنهما آيتان في هاتين الآيتين: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ. . .﴾[1] كما وأن إضافة الآية إليهما تقتضي اختلافها عنهما وأنهما آيتان فيهما؟ فالمذكور هنا كالمذكور هناك آيات أربع! أم ترى أنهما الليل والنهار أنفسهما، فإن آية الليل القمر ليست ممحوة دائباً، وإنما عند الخسوف المطلق وآخر الشهر، وآية النهار الشمس هي مبصرة بجعلها شمساً لا أن الشمس جعلت مبصرة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ. . .﴾[2] على أن الشمس أيضاً تكسف كما القمر يخسف، فلا يختصه المحو ويختصها الأبصار، وأن المذكور في الآية: ﴿ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ آية الليل هي الليل وآية النهار النهار!. أو يقال إن آية الليل كلا القمر والليل، وآية النهار كلا الشمس والنهار[3] فالليل ممحو مظلم، وقمره لا يكفي نوراً وإن كان نوراً، على أن نوره ليس نوراً إلا زهاء ثلث الشهر مع ما يمحوه خسفاً مطلقاً.

ولكن آية النهار بشمسها ونفس النهار مبصرة وإن أظلته السحاب فانمحى قرصها، فالنهار لا ينمحي، إلا إذا كسفت وما أقله كما الخسف للقمر فليعنِ - إذاً - من كل آية مجموع الآيتين: الليل والقمر - الشمس والنهار.

أو يقال: لأن الآية هي العلامة فالمراد بمحو آية الليل جعل ظلمتها مشكلة لا يفهم معناها ولا يعلم فحواها لما استأثر الله تعالى بعلمه عن المصلحة المستسرة في ذلك، وحقيقة المحو طمس أثر الشيء من قولهم:

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٧.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٣) فالمراد - إذاً - من الآية جنسها ليلاً ونهاراً حتى تشمل الآيتين في كل منهما، أو أن آية الليل تعني كلاً على حدة واستعمال اللفظ في أكثر من معنى واحد سائغ في القرآن حيث المشكلة الفعلية فيه ليس لله الذي له مقام جمع الجمع في العلم والقدرة.

محوت الكتاب إذا طمست سطوره حتى يشكل على القارئ ويخفى على الرائي.

ثم وإبصار آية النهار أن جعلها مكشوفة القناع مبينة الأبصار على خلاف آية الليل إذ جعلها مشرجة الغلاف بهيمة الأطراف.

وقد يعنى الجميع بتأويل أن القمر جعل ممحواً بالنسبة للشمس لا مطلقاً، فالشمس تبصَر وهي أيضاً تبصِر بضوئها، والقمر يبصر ولا يبصر فإنه نور وليس ضوءاً وقد يعنيه ما تظافر في الأخبار(١) ثم الليل ممحو بظلامه

---

(١) تفسير البرهان ٣: ٤١٠ - العلل ابن بابويه بإسناد متصل إلى يزيد بن سلام أنه سئل رسول الله ﷺ . . . فما بال الشمس والقمر لا يستويان في الضوء والنور؟ قال: لما خلقهما الله عز وجل أطاعا ولم يعصيا شيئاً فأمر الله عز وجل جبرئيل أن يمحو القمر فمحاه فأثر المحو في القمر خطوطاً سوداء ولو أن القمر ترك على حاله بمنزلة الشمس لم يمح ولما عرف الليل من النهار ولا النهار من الليل ولا علم الصائم كم يصوم ولا عرف الناس عدد السنين والحساب وذلك قول الله عز وجل : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ . . .﴾ [الإسراء: ١٢].

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام فمحونا آية الليل قال هو السواد الذي في جوف القمر ورواه مثله عن أبي الطفيل عن الإمام علي عليه السلام فقال له ابن الكوا: فما هذا السواد في القمر؟ قال: أعمى سأل عن عمياء أما سمعت الله يقول: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] فذلك محوها.

وفي الاحتجاج للطبرسي رواه مثل الأخير عن الأصبغ بن نباتة قال قال ابن الكوا لأمير المؤمنين:

وفي الدر المنثور ٣: ١٦٦ - أخرج ابن حاتم وابن مردويه بسند واه عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ في حديث فأرسل جبرئيل فأمر جناحه على وجه القمر وهو يومئذٍ شمس ثلاث مرات فطمس عنه الضوء ويقي فيه النور فذلك قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ﴾ أقول: نتفهم هذا الحديث إلا - وهو يومئذٍ شمس ثلاث مرات - وفيه أخرج البيهقي في دلائل النبوة وابن عساكر عن سعيد المقبري أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ عن السواد الذي في القمر فقال: كانا شمسين فقال: قال الله: ﴿. . . فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ . . .﴾ فالسواد الذي رأيت هو المحو وأخرج مثله ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن الأنباري في المصاحف عن علي عليه السلام في الآية: قال: هو السواد الذي في القمر أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام في الآية قال: كان الليل والنهار سواء فمحى الله آية الليل فجعلها مظلمة وترك آية =

وعدم ضوء الشمس، والنهار مبصر بضوئها: «وجعل شمسها آية مبصرة لنهارها وقمرها آية ممحوة من ليلها وأجراهما في مناقل مجراهما وقدر مسيرهما في مدارج درجهما ليميز بين الليل والنهار بهما وليعلم عدد السنين والحساب بمقاديرهما»(١).

﴿لِتَبْتَغُوا... وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾:

كأن ابتغاء فضل من الله، ومعرفة عدد السنين والحساب كلاهما من مخلفات آية الليل والنهار وإن كان فضل الله يبتغى في الأكثر نهاراً، ولكنه لا يخص المادي منه حتى يختص النهار، فالمعنوي منه أهم وأكثره بالليل، وإن كان الليل حسب الأصل وأكثرياً للسكن والنهار للنشور ولكن: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ

= النهار كما هي أخرج ابن عساكر عن علي بن زيد ﷺ قال: سأل ابن الكوا علياً ﷺ عن السواد الذي في القمر قال: هو قول الله تعالى: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾.

أقول: حاصل ما قد يصدق من هذه المجموعة أن الشمس والقمر في بدأية خلقهما كانا نيرين كبعض مع اختلافهما في الحجم - حيث المحو هو محور النور لا الجرم - فمحا الله القمر من ضوئه حتى أصبح نوراً وجعل الشمس ضياءً: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥] فقد كانت شمساً دون هذا الضياء وكان قمراً دون هذا النور، فضياء الشمس ونور القمر مجعولان.

وقد ينافي محو القمر هكذا أن نوره مكتسب من ضوء الشمس ولا نور له من نفسه كما يقول العلم، إلا أن جعل القمر نوراً منيراً ينافيه: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١] ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٦] ولم يثبت اكتساب نور القمر من ضوء الشمس علمياً قانونياً لا يتخلف ولئن ثبت كان معنى محو القمر محو الأكثر من نوره الآن اكتساباً من الشمس إذ كان بالإمكان أن يجعله الله بحيث يكتسب من الشمس نوراً تواطىء نور الشمس، إلا أن هذا لا يسمى محواً اللهم إلا إذا كان القمر بحيث يكتسب نوراً من الشمس تواطيها ثم الله محاه، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا، وقد يكون كيان نور القمر مما سكت الله عنه حيث احتمال هكذا محو في آية المحو لا يعد والاحتمال حيث الظاهر أن آية الليل هي الليل وآية النهار النهار، وكون القمر نوراً لا ينافي في أنه يكسبه من الشمس أم ماذا؟.

(١) في نهج البلاغة عن علي أمير المؤمنين عليه السلام...

يَسْمَعُونَ﴾[١] ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢] وهذا جعل ثان ينوب الأول شيئاً ما عند الحاجة وفيما لزم عكس الأمر وإن كان الالتزام بالأول أحرى وأصلح لراحة الإنسان، اللهم إلا في تهجد الليل فضلاً روحياً.

كذلك ومعرفة السنين والحساب من مخلفات آية الليل والنهار، لا إحداهما ولا النهار فحسب، بل قد يكون الليل بآيته أحرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٣] ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ﴾[٤] ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[٥] أترى بعدُ أن الليل بآيته لا حساب له ولا حسبان، وهما زميلان متضائفان في الحسبان؟!

فلو كان الليل والنهار بآيتيهما سرمديين لم يُعلم عدد السنين والحساب، ولكن خِلفة الليل والنهار علم لهما ولليوم، وسبعة اليوم للأسبوع، ومنازل القمر لأيام الشهر، واثني عشر الشهر للسنة، فمحو آية الليل تدريجياً حيث قدره منازل هلالاً وبدراً ومحاقاً، وابصار آية النهار، أنهما متعاونان في معرفة عدد السنين والحساب، كما أن محو القمر حيث لا يضيء كالشمس يميّز الليل عن النهار.

وترى ما هو الفارق بين علم عدد السنين والحساب، وعدد السنين من الحساب؟

عل الفرق بالعموم المطلق فإن عدد السنين حساب وليس كل حساب

---

(١) سورة الروم، الآية: ٢٣.
(٢) سورة القصص، الآية: ٧٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٦.
(٥) سورة الرحمن، الآية: ٥.

عدد السنين، فإنه هنا عدد في السنة شهوراً وفصولاً وأسابيع وأياماً وساعات، فالحساب لما دون السنة فعلم عدد السنين - وطبعاً القمرية - والحساب في أجزائها من مخلفات محو آية الليل وإبصار آية النهار.

فالليل والنهار بآيتيهما آيتان كونيتان تشيان بدقة الناموس الذي لا يصيبه خلل بأية علل فهما دائبتان حتى القيامة الكبرى ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ في كتابي التكوين والتدوين، دون إجمال أو تعطيل.

فكل شيء هو من خلق الله فهو من آيات الله، والله ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[١] ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ﴾[٢] ﴿... وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[٣] ﴿نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٤] ﴿... لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٥] ﴿... لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[٦].

والشيء في ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ هو كل شيء تكويناً أو تشريعاً ومن الأشياء المفصلة أعمال الإنسان وأقواله وعقائده ونياته، حيث هي مفصلة في عنقه ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا﴾[٧].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٤.
(٤) سورة يونس، الآية: ٢٤.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ٥.
(٦) سورة التوبة، الآية: ١١.
(٧) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ...﴾:

«الطائر» هو كل ما يطير أياً كان من شخص أو شيء أو عمل أو تفكير أم ماذا؟ ثم الطائر البخت والحظ والنصيب، والجاهلية كانت ولحد الآن تهرف بما لا تعرف أن الذي قُدِّر لكل إنسان هو تقديره وبخته الذي قدره الله له يطير إليه دون رباط له بعمله، أو يستطير إليه خير أو شر من عمل غيره، أو إنه يشارك في حظه عمله وعمل غيره، أم ماذا مما يلحق الإنسان نصيباً من خير أو شر يطير إليه من غيره، ربه أو خلقه، أو وأخيراً، إذا كان عمل

كل إنسان له خيراً وعليه شراً، فعمله أياً كان يطير عنه إلى الفناء فلا حجة تبقى عليه حتى تلزمه وتلجمه يوم القيامة.

والقرآن يطارد في طيات آيات هذه الغلطة الماردة ويُلزم عمل كل إنسان في عنقه كما هنا ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[1].

يحصر الطائر مبدئياً بما مع الإنسان: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]: تفألنا بكم شراً يطير منكم إلينا فأنتم شؤمنا وبؤسنا! ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْۚ أَئِن ذُكِّرْتُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[3].

ومن ثم يحصره جزاءً بما عند الله: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[4] ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5] ثم لا حالة ثالثة للطائر رغم ما يزعم! فالعمل أياً كان ومن أي إنسان إنما طائره معه وعند الله، لا يجاوزه إلى من سواه ولا إليه من سواه ولا إنه مقدر مسير عليه، ولا إنه يطير عنه إلى الفناء دون أن يبقى حجة له أو عليه، فإنما طائره في عنقه ثم عند الله.

إذاً فتسميته العمل طائراً ليست إلا مسايرة التعبير عن العمل[6] بما يطير إلى غير العامل، أو استطارة من تقدير مسيّر من الله! أو استطارة عن العامل

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٢) سورة يس، الآية: ١٨.
(٣) سورة يس، الآية: ١٩.
(٤) سورة النمل، الآية: ٤٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٣١.
(٦) وكان العرب يتيمنون بطيران الطائر إلى اليمين ويتشاءمون بطيرانه إلى اليسار، ولذلك جعل الطائر اسماً لمطلق ما يتمنى به ويتشاءم ثم استعمل في مطلق سبب الخير والشر من الأعمال والأقوال والعقائد.

إلى الفناء! اللهم إلا استطارة إلى الآفاق من أرضها وأعماق فضائها، حيث الأمواج الصوتية والصورية طائرة عن الإنسان إلى الآفاق وهي على ما هي عليه ملزمة في عنقه، نسختان عينيتان من مربع الأعمال يستنسخها الله في الآفاق وفي الأنفس، وسيريهما الله يوم يقوم الأشهاد: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] فمن هذه الآيات الآيات العينية من الأعمال المسجلة في الأنفس والآفاق وشره علّه هو الشر المستطير: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾[2] فإن شر الآخرة المستقبل هو استمرار لشر الدنيا المستطير الماضي، فشر الآخرة ثابت حيث ينتج عن شر الأولى المستطير. وحقيقة الاستطارة من صفات ذوات الأجنحة: البعثة على الطيران، فشر الدنيا منبعث من قبل الله للطيران إلى مسجلات الكون آفاقية وأنفسية، تيارات الشر وطياراته يوم الدنيا وإلى أعماق البرزخ والقيامة.

فالقرآن يصدق من صيغة الطائر هذه السائغة التي صاغها الله، ويكذب ذلك الثالوث الخاطئ من استطارة الأعمال: من الله تقدير التسيير إلى العمال، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[3] أو منه إطارة منك إلى سواك، أو منه إليك بنفسه أو إنتاجه، أو من الإنسان ككل إلى الفناء، كلا ثم كلا إلا إلزاماً للعمل وعهدته في عنقه[4] ثم إطارة إلى كتاب الآفاق، فآية الطائر تصريحة بما بعدها أن الأعمال ملزمة في ذوات العمال وعهدتهم: ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ إيحاءً ثنائياً يكسح خرافات الأوهام، ثانيهما أن كل عمل فإنما هو على عهدة

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الإنسان، الآية: ٧.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٤) فإن قال: في ذاته - لم يدل على عهدته - وإن قال: في عهدته لم يدل على تسجيله في ذاته بصوريته.

عامله بخيره وشره في عاجله وآجله، كما وأنه مسجل بصورته الصوتية والصورية في ذاته، فالعنق عبارة عن الذات حيث الكيان الحيوي للإنسان به أكثر مما سواه، وعبارة عن العهدة، فإلزام طائر الإنسان في عنقه إيحاء بهما جميعاً، فالعمل الزائن في العنق كالقلائد والأطواق، كما العمل الشائن كالأغلال والأوهاق هما لزام عنقه مهما كانا خفيين يوم الدنيا، فإن الله يخرجهما يوم الأخرى كتاباً يلقاه منشوراً.

ثم والطائر تلويحة باستطارة نسخة عينية من الأعمال إلى كتاب الآفاق ثم نجد تصريحتها في آيات تحدث الأرض أخبارها.

﴿أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ وعل إلزامه طائره يوحي بكون طائره لزام ذاته ككل، و﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ بأن ما يلزم ذاته هو على عهدته، فهو لازمه لا يفارقه، لا يمكنه أن يتخلص عنه أو يتملص منه، لا نفس العمل ولا مخلفاته، فهو كالطوق في عنقه بإلزامه إياه والحكم عليه به.

فلئن اختص هذا الإلزام بعهدة العمل دون نفسه لكان التعبير «ألزمنا طائره» دون ﴿أَلْزَمْنَٰهُ﴾ ولو اختص بإلزام العمل دون عهدته لقال: «في ذاته» دون ﴿فِى عُنُقِهِۦ﴾ فثنائية الإلزام لا محيد عنها في هذا الإجمال، وكما تفصلها: ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ... ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ حيث الأولى لزام عمله، والأخيرة لزام عهدته يجمعهما: «خيره وشره معه حيث كان لا يستطيع فراقه حتى يعطى كتابه يوم القيامة بما عمل»[(١)] ف «يذكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه حتى كأنه فعله تلك الساعة»[(٢)] ف «أعمال

(١) نور الثقلين ٣: ١٤٤ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الثاني وأبي عبد الله عليهما السلام.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٤٤ عن تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر الثاني وأبي عبد=

العباد في عاجلهم نصب أعينهم في أجلهم»[1].

وفي القرآن آيات مفصلات في بقاء العمل وعهدته[2] وفي الحديث تفسيرات وتأويلات للطائر[3].

فلا تعني ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ سعادته وشقاوته، فإنهما ليستا بمقدرتين إلا حسب سعيه، تقدير اختيار دون إجبار[4] كما لا تعني انعدام عمله ولا سواه مما خرفوا له أو هرفوه، اللهم إلا ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[5]! وما يروى عن الرسول ﷺ أن طائره هو سعادته أو شقاوته بأعمالهما ليس ليعني إلا ما تعنيه الآية من إلزام العمل الملتزم بالاختيار دون إلزام الإجبار، ﴿وَمَا رَبُّكَ

= الله عليه السلام في الآية: : إلى أن قال: فلذلك ﴿يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]:

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام من كلماته القصار (٦):

(٢) فالآيات في ﴿كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدّثر: ٣٨] لإلزام العهدة، والآيات في انعكاس الأعمال في نفس الإنسان وفي الآفاق لإلزام نفس العمل في الآفاق والأنفس (راجع سورة الزلزلة والقارعة من الفرقان):

(٣) نور الثقلين ٣: ١١٤ في تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلّم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: قدره الذي قدر عليه أقول: يعني قدر الاختيار حسب ما اختار من أعمال لا قدر الإجبار حتى يسير على قدره:

(٤) في الدر المنثور ٤: ١٦٧ - أخرج ابن مردويه عن حذيفة بن السيد رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول في حديث تفصيل خلق الإنسان في الرحم: : ثم يقول الملك يا رب أشقي أم سعيد فإن كان سعيداً نفخ فيه بالسعادة في آخر أجله وإن كان شقياً نفخ فيه بالشقاوة في آخر أجله ثم يقول: اكتب أثرها ورزقها ومصيبتها وعملها بالطاعة والمعصية فيكتب من ذلك ما يأمره الله به ثم يقول الملك يا رب ما أصنع بهذا الكتاب؟ فيقول: علقه في عنقه إلى قضائي عليه فذلك قوله: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] -
أقول: «أشقي: : وان كان شقياً» يوحي بالشقاوة الآجلة بعد التكليف بالاختيار كما في السعادة، وكتابة الشقاوة والسعادة هي كتابة التقدير لما يتقدره المكلف، وكتابة عمل الطاعة والمعصية تعني تقديريهما كذلك، وأنهما سيلزمان في عنقه إبقاء لهما وعهدة عليه:

(٥) سورة النجم، الآية: ٣٩.

بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾[(١)] فلا قضاء أزلياً يحتم على الإنسان سعادة أو شقاء إلا بما يحتِّمه الإنسان على نفسه كما يحتمه اختياراً دون إجبار.

وترى أن ﴿طَٰٓئِرَهُۥ﴾ يختص عمله بجوارحه؟ أم وقوله فإنه من عمله الطائر، أم وعقيدته ونيته فإنهما من أعمال الجوانح كما تلكما من الجوارح؟ وهما أيضاً طائرتان؟

إن الطائر كطائر يعمها كلها[(٢)] فإنه يحاسب بها كلها ولا سيما طائر العقيدة فإنها تُحَصَّل يوم يقوم الأشهاد كما يحصَّل غيرها: ﴿وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾[(٣)].

ولا يعني التحصيل هنا إلا تكريس ما في الصدور كتاباً يقرأ تفهماً دون سماع أو إبصار، تحصيلاً لعقائد أو أفكار ونيات هي من طائر الصدور: ﴿قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٩﴾ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾[(٤)]: فيا للإنسان من نفسه مسجلة تسجل مثلث القول والفعل والسريرة كما قال أو فعل أو أسر، ومهما غفل - لطول الأمد - عما نوى أو اعتقد أو قال أو اعتمل كشف عنه غطاءه يومئذ ليرى ما فعل: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾[(٥)]: بصر العين للمعاينة، وبصر السمع للاستماع، وبصر البصيرة لدرك ما نوى أو اعتقد!.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٢) فالعمل إذ قورن بالقول والعقيدة دلت قرينته على أن العمل بالأركان فقط، وإذا أطلق دون قرينة شمل قرينيه، وأما الطائر الموحي إلى كيان العمل إثباتاً مصدقاً، أو نفياً في مثلثه، فهو طائر اللسان والجوارح، والفكر والعقيدة دون إبقاء:

(٣) سورة العاديات، الآية: ١٠.

(٤) سورة آل عمران، الآيتان: ٢٩، ٣٠.

(٥) سورة ق، الآية: ٢٢.

فإنسان القرآن شاشة تلفزيونية ومسجلة للصوت والصورة والسيرة والسريرة وكتاب للصور والأصوات والسريرات:

﴿... وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾:

ولماذا «نخرج له» لا نخرجه؟ إن «له» هنا توحي بأن هذا الإخراج ليس إلا لعامله شهادة عينيه فجزاءً وليس لله فإنه يعلمه قبل الإخراج وهو الذي ألزمه في عنقه! ولماذا «نخرج... كتاباً» دون «نخرجه كتاباً» عله كيلا يتوهم أن الطائر يجعل كتاباً يوم القيامة ولم يكن[1] فإنما الكتاب هو الطائر والفرق بين نشأتيه أنه في الأولى خفية مغفول عنها، وفي الأخرى ظاهرة محتج بها: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

نخرج ما ألزمناه من طائره في عنقه، نخرجه عنه يوم القيامة كتاباً... لم يكن ليمحى بما اندرست أوراقه حيث بلت ورمدت أعضاء الإنسان وهي أوراق هذا الكتاب! حيث استنسخه العلي القدير: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3] كتاب يحير عقول المجرمين: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[4] وهو من أظهر الصحف المنشورة ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾[5] الصحيفة الذاتية المسجلة فيها أعماله!.

---

(١) فإن الإخراج المركب يوحي بأن الحالة الثانية تختلف عن الأولى، والإخراج غير المركب دليل الوحدة الحقيقية بين الطائر والكتاب.

(٢) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

(٤) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٥) سورة التكوير، الآية: ١٠.

إن مثلث كتاب الأعمال هو كتاب الله بما استنسخه وسجله ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا...﴾ وهو كتاب الإنسان نفسه بما عمله: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾:

هذا كتاب نفسه إذ سجله الله في نفس عامله، يقرؤه كما هو حيث ينشر كما صدر حالاً أو مقالاً أو افعالاً، قراءة تفهم الحال فكرياً وعقيدياً كأنه فكره أو اعتقده في الحال، وقراءة سماع المقال كأنه قاله في الحال، وقراءة رؤية الأعمال كأنه عملها في الحال[1] وأوراق الكتاب هي نفسه في مثلث الأسطر التي استنسخها الله، وكفته نفسه حسيباً عليه حيث تكبتها بحجتها العينية الحاذرة الحاضرة: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا﴾ كما عملوا ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ فلو كان هذا الكتاب ما يحبر بقلم أم ماذا؟

لم يكن نفس العامل، فلم يكن نفسه فيه حسيباً، ولا يكفي الكتاب المجر بقلم يحكي عن طائره حكاية وضعية، لا يكفي عليه حسيباً إذ له نكرانه حيث لا يشهد شهادة عينية كافية وليس ليقرؤه إلا من تعلم القراءة قبلها.

وإن كتاب النفس المنشور بما ينشره الله يقرأ بنفس اللغة التي صدرت لغة الحال والمقال والأفعال، دون حاجة إلى ثقافة أخرى سوى التفهم والسمع والبصر، ثم هناك كتاب آخر يؤاتيه هو الأرض بفضائها[2] وكتاب ثالث هو ما يكتبه الكرام الكاتبون[3] ورابع هو ما

(١) فـ «نفسك» هنا مجموع الروح والجسم حيث هما يشهدان الشهادة العينية في المثلث المذكور.

(٢) كما تدل عليه آيات الزلزلة ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤]....

(٣) عله يدل عليه مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الانفطار: ١٠-١٢] راجع نفس المصدر ويعني الكتاب هنا أيضاً ما سجله الله بعماله الكرام الكاتبين في أنفس المكلفين والجو الذي يعيشون فيه، أو أن كتابهم عنا علمهم بأعمالنا بما علمهم الله كما قد يوحى به ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

يتلقاه الشهود[١] أشهاد أربعة ومتوافقة ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[٢] وإن كان ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[٣]: دون حاجة إلى الثلاثة الآخرين ولكن لتحيط بك الشهود نفسياً وأفقياً فلا تبقى لك أيّة عاذرة!.

في كتاب النفس نجد لسان المقال وجوارح الأفعال كما الجوانح تشهد بما كانوا يعملون إلقاء يوم يقوم الاشهاد كما شهدت تلقياً: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾[٤] ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٥] ختماً على الأفواه صداً عن تكلم الألسن اختياراً كما تشاء نكراناً لما قالته أو عملته الجوارح وتفتحاً لأقوال الألسن المخرجة عنها يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً، فالألسن المنفصلة عن ألسن القائلين تتكلم بما تكلمت طوال التكليف، فشهادة الألسن على أصحابها قد تكون اختياراً، ولا يختار المجرم كلاماً على نفسه، أو إجباراً وهو بعيد غاية البعد عن الشهادة الحق من القدير الرحيم، على أن الأفواه مختوم عليها فلا كلام أياً كان من الألسن في الأفواه، وإنما الشاهد عليه هو لسانه المنفصل المخرج، أن تنقل الألفاظ عن اللسان إلى غير اللسان فيشهد بما قال: كمسجلات سجلت فيها ما قالت شهادة عليهم كما تشهد الأيدي والأرجل

---

(١) تدل عليه آيات شهادة الشهود المبعوثين يوم يقوم الأشهاد كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النحل: ٨٩] ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الزمر: ٦٩-٧٠].

(٢) سورة غافر، الآية: ٥١.

(٣) قد تكون الباء في ﴿بِنَفْسِكَ﴾ [الإسراء: ١٤] زائدة للزينة كما يقال، وقد تكون للتعدية السببية أن نفسك سبب الشهادة والحساب عليك.

(٤) سورة النور، الآيتان: ٢٤، ٢٥.

(٥) سورة يس، الآية: ٦٥.

شهادات عينية عادلة: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

فالجلود تعم جوارح الإنسان بما فيها سمع الأذن وبصر العين، كما وقد تشمل كل جسم الإنسان حيث هو جلد لروحه، والسمع هو سمع القلب كما البصر بصره وإن كانا يشملان سمع الأذن وبصر العين، ومن الجلود الألسن كما هما منها، فالإنسان بكله، بروحه وجسمه كتاب لمثلث الأعمال، شاهدة عليه يوم يقوم الاشهاد.

﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

ضوابط ثلاث تضبطها هذه الآية لا محيد عنها ولا مناص:

١ - إن الاهتداء والضلالة تنحصران نفعاً وضراً بأصحابهما وتنحسران عن سواهما، فـ ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[2] دون رهانة بما لم تكسب أو كسبت غيرها، فالعمل الطائر - رغم زعم الجاهلية - كما لا يطير عن عامله إلى الفناء، كذلك لا يطير عنه بتبعته إلى سواه، وإنما التبعة الفردية تربط كل إنسان بنفسه: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[3].

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ١٩-٢٣.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٠٨.

ترى إذا اختصت الضلالة والهدى بمن ضل واهتدى، فكيف يؤمر المهتدون أن يهدوا، ويُنهى الضالون أن يضلوا؟

الجواب: إن الحصر هنا نسبي يعني - فقط - نفي انتقال الهدى والضلالة بآثارهما إلى غير أصحابهما، كما تعنيه آية الطائر، ولا يعني عدم بث الهدى أم ماذا؟

٢ - ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ إن الهدى والضلالة هما لزام أصحابهما، ما من أحد يحمل أو يتحمل حمل أحد ولا يحمله ولو كان ذا قربى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾[1] وإن وزرت كمثلها أو تزيد إذا أضلت غيرها، ولكنها ليست لتخفف في حمله حِمل التي ضلت بإضلالها: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾[2] فهؤلاء المضللون يحملون وزري ضلالهم وإضلالهم: أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم دون أن ينقص من أوزار من ضلوا بهم شيء: ﴿لِيَحْمِلُوٓا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾[3] ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُ كِفْلٌ مِّنْهَا...﴾[4] [5].

تعني هذه الضابطة فيما تعني أن أولاد الكفار - الصغار - لا يعذبون بكفر

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨.

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: ١٢، ١٣.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٤) سورة النساء، الآية: ٨٥.

(٥) حديثه متظافر وراجع تفسير آية الوزر في ج ٢٧ سورة النجم من الفرقان، ترى فيه حوارين حول آية السعي والوزر جواباً عما ربما يسأل حولها.

آبائهم[1] كما أن أولاد المؤمنين لا يثابون بإيمانهم، وإن كانوا جميعاً من أهل الجنة، لطفاً بهم حيث لم يذنبوا، وعطفا زائداً بآباء مؤمنين. حيث الاجتماع لهم بأولادهم الصغار حظوة لهم ورحمة[2] ومختلف الحديث حول العذاب[3] واللّاعذاب معروض على الآيات الناكرة لعذابهم، حيث ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ثم وبالموت ينقطع التكليف فلا يكلفون بشيء في الأخرى[4].

وترى القاعدة الفقهية (الدية على العاقلة) هل تعرقل قطعية هذه الضابطة، وهي من العمومات الآبية عن التخصيص؟

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٦٨ - أخرج قاسم بن أصبغ وابن عبد البر عن أنس ﷺ قال: سألنا رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين قال: هم خدام أهل الجنة.
أقول: لماذا خدامهم وليسوا منهم كما هم؟ لأنهم لم يعملوا أعمالهم فليسوا في درجاتهم وخدمتهم لأهل الجنة لا تكلف فيها وهي رحمة لهم وأولاء.
وفيه وأخرج ابن سعد واحمد وقاسم بن أصبغ وابن عبد البر عن خنساء بنت معاوية الضمرية عن عمها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: النبي في الجنة والشهيد في الجنة والمولود في الجنة والوئيد في الجنة.

(٢) راجع ج ٢٧ من الفرقان تفسير الآية ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ تجد فيه بحثاً فصلاً حول الموضوع.

(٣) في الدر المنثور ٤ : ١٦٨ بإسناده إلى الصعب بن جثامة ﷺ قال قلت يا رسول الله ﷺ إني قضيت في البنات من ذراري المشركين؟ قال: هم منهم -.
أقول تطرده آية الوزر وأمثالها، ولا يصلحه المروي عنه ﷺ فيما أخرجه ابن عبد البر في التمهيد بسند ضعيف عن عائشة قالت سألت خديجة ﷺ رسول الله ﷺ عن أولاد المشركين فقال: هم مع آبائهم ثم سألته بعد ذلك فقال: الله أعلم بما كانوا عاملين ثم سألته بعدما استحكم الإسلام فنزلت: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] فقال: هم على الفطرة أو قال: في الجنة.
أقول: وهذه فرية وقحة على الرسول أنه حكم على خلاف العقل والعدل أن أولاد المشركين معهم، دون سناد إلى وحي، ولم يكن الرسول يحكم إلا بوحي، ولا حتى بعقله المنير الذي فاق العقول فكيف يحكم بما يخالف العقل والوحي معاً وحتى إذا كان السؤال قبل نزول آية الوزر فليصبر حتى يحكم الله، أو يحكم بما نزلت قبل من آيات تنص بعدل الله وفضله أم على أقل تقدير يحكم بعقله!.

(٤) فالروايات القائلة أنهم يمتحنون بما يكلفون يوم القيامة مؤولة أو مضروبة عرض الحائط.

الجواب أن لا ذنب للقاصر حتى يؤخذ به عاقلته، ثم وغض النظر عن الدية إجحاف على صاحب الحق، والقاصر لا يملك الدية، وإن ملكها فالعاقلة أحرى بتأدية الدية، إذ كان عليه تربية القاصر والحفاظ عليه كيلا يجني جنايته، فإذا وقعت الجناية كان أقل ما يؤخذ عليه العاقلة - الدية، فالعاقلة إذاً وازرة وزر نفسها!.

أو أن الدية ليست وزر الجناية، إنما هي بحكم الله على العاقلة - كما عليه نفقة القاصر، حفاظاً على حق المجني عليه، ولا أحق هنا من العاقلة ولاية له على القاصر.

أو أن الدية جامعة الأمرين دون أن يكون هناك وزر على القاصر، اللهم إلا وزراً على العاقلة بما له ولاية، وهذا الجمع أجمل.

ثم ترى أن مواصفة النفس بالوازرة حيث لا تزر وزر أخرى هلّا تخرج نفساً غير وازرة وهي العادلة المعصومة عن الوزر وإذا لا فلماذا ﴿وَازِرَةٌ﴾ وإذا بلى فلتكن غير الوازرة وازرة وزر أخرى أو آهلة أن تتحمل حِملها! علّ الوازرة هي التي تحاول أن تزر وزر أخرى وإن لم تكن وازرة لنفسها، ثم إنّ المعصومة كيف تزر ولماذا؟ فهل تزر وزراً أخرى تبرئة لها بتحمل وزرها فتعصي بعصيانها وتعذَّب بعذابها؟ وهذا خروج عن العصمة ثم وخروج عن حكم الآيات الناكرة لهذه النيابة النكدة ﴿يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1].

أم تزر إبطالاً لعقوبته عن الأخرى وعن نفسها، وهذا غفران دون سبب وليس الغفران بسببه أيضاً إلا لله «وهل يغفر الذنوب إلا الله» ثم وليس هذا حملاً لحمل أخرى!

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٨.

﴿... وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾:

ترى ما هو العذاب المنوط ببعث الرسول؟ وهل إن بعثه دون وصول بلاغه كاف في استحقاق العذاب؟

هل يعني هذا العذاب مطلق العذاب، حتى المستحق بالتخلف عن وحي الفطرة والعقل، أو عن وحي الشعور لغير ذوي العقول؟ وإن عذاب ربك لواقع في أي تخلف! ف ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[1] ولا يعني حشرهم إلى ربهم إلا جمعهم أجمع إلى ربوبية الجزاء الثواب أو العقاب، لا سيما في العصيانات الظالمة الفاحشة، فالله أعدل من أن يترك الظالم ولا يأخذه لا في الدنيا ولا في الآخرة[2]: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ...﴾[3] مهما كان الظلم يُشعر بشعور، أم بفطرة أو عقل، أم بوحي النبوة، وإن كانت تختلف بمختلف مراتب الإدراك.

والقاعدة الأصولية العقلية «قبح العقاب بلا بيان» لا يصح أن تعني خصوص بيان وحي النبوة، فإن وحي الشعور بيان، ووحي الفطرة بيان، ووحي العقل بيان، وإن كان بيان الشرع أشمل، كما وأن تكليفه أعضل.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٢) نور الثقلين ١ : ٥٩٢ عن الفقيه أن النبي ﷺ أبصر ناقة معقولة وعليها جهازها فقال: أين صاحبها؟ مروه فليستعد للخصومة.

وفي المجمع عن أبي ذر قال: بينا أنا عند رسول الله ﷺ إذ انتطحت عنزان فقال رسول الله ﷺ: أتدرون فيما انتطحا؟ فقالوا: لا ندري قال: ولكن الله يدري وسيقضي بينهما.

وعن الكافي بإسناده إلى الكلبي النسابة قال قلت لجعفر بن محمد عليه السلام ما تقول في المسح على الخفين؟ فتبسم ثم قال: إذا كان يوم القيامة ورد الله كل شيء إلى شيئه ورد الجلد إلى الغنم فترى أصحاب المسح أين يذهب وضوءهم!

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

والآيات التي تعذر العذاب لولا بعث الرسل، لا تعني إلا العذاب الناتج عن عصيان هؤلاء الرسل، لا مطلق العذاب المستحق بعصيان سائر الرسل: شعوراً وفطرة وعقلاً! وإنما ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾(١) حجة أننا كانت لنا هدى فوق ما تهدينا إليها عقولنا بالرسل فلماذا لم تبعث إلينا رسولاً، ثم وحجة ألّا عقاب في عصيان الرسل ولم تبعث الرسل! بل ولا عصيان إذاً في خلافهم قبل بعثهم، بل لا يحصل إذاً خلاف.

أو تعذر عذاب الاستيصال الناتج عن التخلف الفاحش المتهدم للرسالات.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾(٢).

علّه أو أنه المقصود هنا فحسب، أو هو القدر المتيقن كما توحي له «ما كنا» كـ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم﴾ حيث تعطف إلى العذاب الماضي وهو الاستئصال في الدنيا، إيحاء برحمة رحيمية في سنة دائبة إلهية ألا عذاب في الأولى حتى يبعث رسولاً ثم يُعصى بما لا تتحملها رسالة ولا حياة إنسانية، وكما توحي له التالية المقررة لظرف هكذا عذاب: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً . . . وَكَمْ أَهْلَكْنَا. . .﴾ إن إهلاك القرى لا يراد إلا في هكذا عصيانات.

إذاً ففي عصيان وحي الشعور - كما للطير والدواب - عذاب قدره يوم الحشر قليلاً، دون الدنيا والبرزخ إلا قليلاً، وفي عصيان وحي الفطرة والعقل كذلك وأكثر قد يكفيه عذاب في البرزخ. وفي عصيان غير فاحش لوحي النبوة عذاب في البرزخ أو في الحشر، ثم وفي عصيان فاحش لوحي

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.
(٢) سورة طه، الآية: ١٣٤.

النبوة حيث يهدم أركان بناية المجتمع عذاب الاستئصال في الدنيا ثم وفي البرزخ والحشر عذاب دائب أليم، فالمعذب في الدنيا للعصيان الطغيان يعذب بالأحرى في البرزخ والأخرى، وليس كل معذب فيهما يعذب في الأولى.

وقد تشمل ﴿مَا كُنَّا﴾ عذابي الأولى والاخرى في نطاق التكاليف الرسالية، لا مطلق العذاب وإن في نطاق التكاليف الثلاثة الأخرى[١] ولا خصوص الأولى، فكما العذاب الأدنى في التخلف عن وحي الشعور ليس إلا في حاضر الشعور، ثم أعلى منه في الفطرة، فأعلى في العقل، كذلك الأعلى تخلفاً عن وحي الشريعة في العصيانات العادية، ثم التخلف القمة في الأولى قبل الأخرى عذاب الاستئصال والتدمير، وليس إلا في حاضر الرسالة. للقاعدة العقلية «قبح العقاب بلا بيان» الشاملة له ولما قبله.

فلا تعني ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إلا بيان الرسالة ببلاغها، إن للمترفين الطاغين فعذاب الاستئصال هنا أم للناس أجمعين فعذاب في الأخرى، وإن كان القدر المتيقن هو الأولى وفي هامشه الأخرى، ثم العصيان في أية رسالة من الرسالات الخمس يخلف وجوب العقاب إذا كان ظلماً وتعدياً على الخلق أياً كان، أو جوازه إذا كان تقصيراً بحق الخالق دون خلقه، ولم يكن في تركه تسوية ظالمة بين المطيع والعاصي، فالسماح عن بعض المعاصي هو قضية الفضل والرحمة الواسعة كما في المستضعفين ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾[٢] هذا السماح ليس ظلماً وتسوية، وأما السماح عن أي ظلم بالنسبة للخلق دونما أي مقابل فهو ظلم بعيد عن ساحة العدل الرباني.

---

(١) شعوراً وفطرة وعقلاً.

(٢) سورة النساء، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

و﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ تعني الرسالة البالغة إلى المكلفين بأحد شطريها، ثم الثلاث الأخرى كذلك البالغة إلى مكلفيها، ففي كل رسالة بالغة على حدها حجة، وفي التخلف عنها جواز أو وجوب العذاب، من دنيوي بسيط إلى برزخي بمراتبه، إلى أخروي كذلك، وإلى عذاب الاستئصال في الدنيا إضافة إلى الأخرى.

ثم وبعث الرسول يحمل أمرين: بلوغ المرسل إليهم وبلاغ الرسالة، حيث الرسالة إلى غير البالغ قاصرة المفعول، والرسالة غير البالغة إلى البالغين ليست رسالة، وكما للبلوغ درجات كذلك للرسالة إلى البالغين درجات، والثواب والعقاب يقدران على قدر الدرجات: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ﴾[1]: بلغ هو وبلغته الرسالة.

والبلاغ يتطلب أمرين: بلوغ المبلَّغ إليه عقلاً فتكليفاً، ووصول الرسالة إليه واضحاً وبليغاً، لذلك فمن الناس من ليس عليه أي تكليف كالمجانين، ومنهم من يكلفون تكاليف حسية دنيوية كما يعقلون، كالصغار العقلاء، ومنهم من يكلفون كذلك وقسماً من الأخروية دون إطلاق كالسفهاء وسائر المستضعفين، والأخيران عسى الله أن يعفو عنهم إذا لم تكن السفاهة والاستضعاف بذات أيديهم وتقصير منهم، حيث التقصير أياً كان يتطلب جزاءً على قدره فـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ٩٩﴾[2].

فالرسالة غير البالغة إلى المكلفين دون تقصير منهم، أو البالغة إلى غير

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧ - ٩٩.

البالغين كالمجانين ثم البله ثم المستضعفين القاصرين، هذه الرسالة لا تحتم أي عذاب في نطاقها وكما لا تجوزه خلافاً لما يروى[١].

كما وأن البيان الرسالي كلما ازداد ازداد تحتم العقاب وقدره، كالحاضرين بلاغ الرسالة، والذين منحوا عقلاً أو علماً زائداً «فإنما يداق الله العباد يوم القيامة على قدر عقولهم»[٢]: وغيهم للبلاغ ثم ويعاكسه كلما نقص البيان الرسالي أو انتقصه المرسل إليهم قصوراً، كالغائبين البعيدين عن بلاغ الرسالة، والذين لم يمنحوا عقلاً راجحاً أو علماً زائداً، فقضية العدل الرباني هو العقاب قدر التخلف وكيانه وأثره، مع ما تقتضيه الرحمة الإلهية لانتقاص العذاب أو تركه ما لم يخالف العدل، فالثواب من آثار الفضل والرحمة والعقاب من آثار العدل والرحمة.

والأحاديث المروية عن النبي ﷺ أن المعذورين هنا يكلفون يوم القيامة فيثابون إن أطاعوا ويعذبون إن عصوا، إنها تخالف الضرورة

---

(١) في الدر المنثور ٤ : ١٦٨ بإسناده عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال: أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع شيئاً ورجل أحمق ورجل هرم ورجل مات في الفطرة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً وأما الأحمق فيقول: رب جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر وأما الهرم فيقول: رب لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً وأما الذي مات في الفطرة فيقول: رب ما آتاني لك رسول فيأخذ مواثيقهم ليطعنه ويرسل إليهم رسولاً أن ادخلوا النار قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها كانت عليهم برداً وسلاماً ومن لم يدخلها اسحب إليها.

وفيه عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: يؤتى يوم القيامة بأربعة بالمولود والمعتوه ومن مات في الفطرة والشيخ الهرم الفاني كلهم يتكلم بحجته فيقول الرب تبارك وتعالى لعنق من جهنم ابرزي ويقول لهم كنت أبعث عبادي رسلاً من أنفسهم وإني رسول نفسي إليكم فيقول لهم: ادخلوا هذه، فيقول: من كتب عليه الشقاء يا رب أندخلها ومنها كنا نفر؟، قال: وأما من كتب له السعادة فيمضي فيقتحم فيها فيقول الرب: قد عانيتموني فعصيتموني فأنتم لرسلي أشد تكذيباً ومعصية فيدخل هؤلاء الجنة وهؤلاء النار.

(٢) الكافي باب العقل والجهل عن الإمام الصادق عليه السلام.

الإسلامية القائلة: «إن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» المستفاد من آيات بينات وتواتر الروايات.

ثم لو أعطوا هنالك عقولاً كافية لم يكونوا ليعصوا الله تعالى وهو رسول نفسه دون حجاب الرسالات الأخرى. وهو يوم تكشُّف الحقائق وهم يرون مع ما يرون - الجنة والنار!.

ثم إن ﴿وَمَا كُنَّا﴾[١] إنما تنفي عذاب الاستئصال ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ إن جواب هكذا عذاب ليس إلا في ظرف بعث رسول، لا أن بعث رسول وعصيانه أياً كان يقتضي هكذا عذاب، وإنما إذا أمر المترفون ففسقوا، ف ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ...﴾ بيان لنطرف عذاب الاستئصال.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾﴾:

أسئلة عدة تطرح حول مواضيع من هذه الآية إذ كثرت الأقاويل حول الإجابة عنها:

١ - كيف تتقدم إرادة الإهلاك على موجبه ﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ وموجب الإهلاك ليس إلا قبل إرادته، فإن كانت متعلقة بعذاب مستحق بغير هذا الفسق لم تكن لها صلة بهذا الفسق، وإن كانت به نفسه فكيف تتقدمه، أو أنها إرادة لإهلاك قرية دون صلة لها بأي فسق؟ ثم كيف يتخلف مراد الله عن إرادته - وهي نافذة - بما يقدِّمه من تقدير للفسق؟

---

(١) قد تكون «كنا» هنا منسلخة عن أي زمان؟ والعذاب واللاعذاب وبعث الرسل زماني!... أو أنها منسلخة عن مضيها فتشمل مثلث الزمان، فهي إذاً تنفي مربع العذاب في مثلث النشآت، الناتج عن عصيان الرسل؟ وهذا أشمل الاحتمالات وأجملها!... أو أنها تعني خصوص الماضي دون نفي للمستقبل، أن السنة الإلهية مستقرة في اللاعذاب الاستئصال في ماضي الأولى أو مستقبلها، ثم الأخيرة هي القدر المتيقن والمورد للآيتين بعدها، إلا أن بعث الرسل بمجرده والتخلف عنهم أياً كان لا يقتضي عذاب الاستئصال، اللهم إلا أن يعني ظرف الاستئصال أنه بلاغ الرسل فعصيانهم المتهدم كما توحيه آية المترفين.

أقول: إنها إرادة للإهلاك بفسوق القرية عامة، حيث الآية السالفة بينت مورد استحقاق العذاب أنه في ظرف بعث الرسول وعصيانه، فهنا استحقاق قاطع لعذاب الأخرى، واستحقاق جائز لعذاب الأولى لا يتطلب إلا إرادة الإهلاك دون إمضائه فتحقيقه، ومما يوحي بذلك واو العطف في ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ﴾ حيث تعطف إرادة العذاب هذه إلى بعث الرسول فعصيانه.

وإرادة الله منها حتم ومنها دون ذلك، فحتمها لا مردَّ لها ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾[١] ودونه فيه مردٌّ وبداء وهي التي لم تكمل بعدُ معداتها، ولا مرد في إرادة التكوين حيث هي حتم ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٢] وقد يكون مرد منه أو تصبر حتى يحصل منجزاتها فيما دون هكذا تكوين كإهلاك قرية فاسقة لم تتم منجزات استئصالها كفسوق مترفيها عما أمروا به فيها.

فهنا إرادة للإهلاك بعدها تقدير لتحقيقها: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾ فقضاء: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾ فإمضاء: ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾ كما وقبلها مشية وعلم، وقبل هذه المشية أيضاً تقدير لها هو عصيان القرية للرسول حيث يتطلب عذاباً محتوماً في الأخرى وآخر غير محتوم في الأولى.

فقد علم الله أن أهل هذه القرية فسقت ومن ثم يفسق مترفوها إذا أمروا فيها، فشاء أن يهلكهم فأراده، فقدر ما أراد بما أمر مترفيها ففسقوا فيها، فقضى ما قدر بما حق عليها القول، فأمضى ما قضى ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾[٣].

وكما سئل الإمام الباقر عليه السلام كيف علم الله؟ قال: علم وشاء وأراد وقدر وقضى وأمضى، فأمضى ما قضى وقضى ما قدر وقدر ما أراد، فبعلمه

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١١.

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.

(٣) فلمشية العذاب وإرادته تقدير هو عصيان عامة القرية، ولتحقق كلمة العذاب. تقدير هو أن يؤمر مترفوها فيفسقوا فيها.

كانت المشية، وبمشيته كانت الإرادة وبإرادته كان التقدير، وبتقديره كان القضاء وبقضائه كان الإمضاء، فالعلم متقدم على المشية والمشية ثانية، والإرادة ثالثة والتقدير واقع على القضاء بالإمضاء، فللّه تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما أراد لتقدير الأشياء، فإذا وقع القضاء بالإمضاء فلا بداء(١).

إنَّ مشيته تعالى هي همه بالشيء وهي ابتداء الفعل، وإرادته هي إتمامه على المشية والثبوت عليها، وتقديره هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء، وكما يروى عن أبي الحسن الرضا عليه السلام (٢) فلكل إرادة تقدير حتى تنتهي إلى إرادة محتومة فقضاء وإمضاء والقضاء هو حق القول: تحتم كلمة العذاب ولم تكن قبل هذا التقدير محتومة وإنما جائزة(٣).

---

(١) التوحيد للصدوق رحمه الله.

(٢) محاسن البرقي عن أبي الحسن عليه السلام ليونس: لا تتكلم بالقدر، قال: إني لا أتكلم بالقدر ولكن أقول: لا يكون إلا ما أراد الله وشاء وقضى وقدر فقال: ليس هكذا أقول ولكن أقول: لا يكون إلا ما شاء الله وأراد وقدر وقضى ثم قال: أتدري ما المشيئة؟ فقال: لا - فقال: همه بالشيء (ابتداء الفعل) أو تدري ما أراد؟

قال: لا قال: إتمامه على المشيئة (الثبوت عليه) فقال أو تدري ما قدر؟ قال: لا قال: هو الهندسة من الطول والعرض والبقاء ثم قال: إن الله إذا شاء شيئاً أراده وإذا أراد قدره وإذا قدره قضاه وإذا قضاه أمضاه الحديث. ورواه مثله من «أن الله» في محاسن البرقي عن أبي عبد الله عليه السلام.

في أصول الكافي ١: ٤٨ ح ٣ عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام أخبرني عن الإرادة من الله ومن الخلق؟ قال فقال: الإرادة من الخلق الضمير وما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل وأما من الله تعالى فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنه لا يروي ولا يهم ولا يتفكر وهذه الصفات منفية عنه وهي صفات الخلق فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له: كن فيكون بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همة ولا تفكر ولا كيف لذلك كما أنه لا كيف له.

أقول: يعني عليه السلام كما أنه لا كيف لذاته كذلك لا كيف لفاعليته وإن كان مفعوله مكيَّفاً بكيف فإنه فعله، فإرادته من حيث هي لا كيف له كذاته ولكن مراده مكيَّف فافهم.

(٣) إن كلمة العذاب هنا جائزة حين أراد الله إهلاك القرية ولكنها حقت حين فسق مترفوها.

ثم الإرادة حتماً ودونه هي صفة فعل حادثة وليست أزلية وكما في حوار الإمام الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي قال عليه السلام : ألا تخبرني عن قول الله عز وجل : ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً...﴾ يعني بذلك أنه يحدث إرادة؟ قال: نعم - قال: فإذا أحدث إرادة كان قولك: إن الإرادة هي هو أو شيء منه باطلاً، لأنه لا يكون أن يحدث نفسه، ولا يتغير عن حاله تعالى الله عن ذلك! قال سليمان: إنه لم يكن عنى بذلك أنه يحدث إرادة قال عليه السلام : فما عنى به؟ قال: عنى فعل الشيء، قال عليه السلام : ويلك كم تردد في هذه المسألة وقد أخبرتك أن الإرادة محدثة لأن فعل الشيء محدث، قال: فليس لها معنى! قال عليه السلام : قد وصف نفسه عندكم حتى وصفها بالإرادة بما لا معنى له؟! فإذا لم يكن لها معنى قديم ولا حديث بطل قولكم: إن الله عز وجل لم يزل مريداً! قال: إنما عنيت أنها فعل من الله تعالى لم يزل، قال عليه السلام : ألا تعلم أن ما لم يزل لا يكون مفعولاً وقديماً وحديثاً في حالة واحدة؟ فلم يحر جواباً»[1].

٢ - وترى ما هو الأمر هنا؟ وبماذا؟ ولماذا يخص مترفيها؟: فإن كان هناك شرع عم المترفين وسواهم وإلا فلا أمر شرعياً للمترفين؟! الأمر هنا كما في أضرابه تشريعي لا تكويني كما يهرفه من لا يعرف مواضيع الكلام[2] وهو أمر بالتقوى وترك الطغوى للمترفين ﴿فَفَسَقُواْ فِيهَا﴾: خرجوا عن الطاعة وخالفوا أمرنا، فالنص «أمرنا ففسقوا» لا «أمرناهم بالفسق ففسقوا» وفسق

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٤٥ في عيون أخبار الرضا في باب مجلس الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي بعد كلام طول قال الرضا عليه السلام : ...

(٢) في أمر التكوين تسييراً إجبار بالفسق وما أظلمه إذاً تعذيب المترفين بفسق اضطرهم الله فيه، وأمره تخييراً وهو الإذن في حصول الفسق كجزء أخير للعلة التامة الحاصل بعدما قدم المختار كل اختياراته في عملية الفسق، هذا وإن كان صحيحاً في نفسه ولكنه هنا لا يصح حيث يعم الفساق مترفين وسواهم دون اختصاص بالمترفين.

الأمر هو عصيانه والتخلف عنه، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ...﴾(١) ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢) فإنما ذلكم الشيطان ﴿يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) وما أقبحه وأهرفه فرية على الرحمن بما يأمر به الشيطان(٤)!

وثم إذا كان أمراً بالفسق - عوذاً بالله - فليكن تطبيقه طاعة تستحق الثواب، فلماذا ﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾؟ إذاً فليس إلا فسقاً عن أمر هام يتطلب هكذا تدميرا!.

وأما اختصاصه بالمترفين؟ فلأن الأوامر تختلف حسب الظروف والقابليات والمتطلبات فردية وجماهيرية، والمترفون وهم المتوسعون في نعمة حيث يبدلونها نَعمة ونقمة، في دُولة أو دَولة، في مال أو منال في أنفس أو أموال أو أحوال، هؤلاء هم البغاة الطغاة في الأغلبية الساحقة، فالأوامر المتجهة إليهم هي غير ما يوجه إلى غيرهم، إذ لا يؤمر بشيء إلا من عنده ذلك الشيء وليس لغير المترفين ترف حتى يؤمروا في ترفهم سلباً لطغوى الترف وإيجاباً لتقواه، ففي ائتمارهم اعتمار القرى وتعميرها، وفي فسقهم اضطرارها وتدميرها.

فالمترفون هم الذين وسع الله عليهم في نعم امتحاناً وامتهاناً إذ كذبوا بلقاء الآخرة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾(٥) فلا يترف في نعمة إلا من يتطرف في اللامبالاة ثم يزداد عتواً ونفوراً: ﴿وَٱتَّبَعَ

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٠.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٩.

(٤) وكيف يأمر الله بالفسق، وثم إذا أطيع في أمر الفسق يدمر، وما ربك بظلام للعبيد.

(٥) سورة المؤمنون، الآية: ٣٣.

ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[(١)] كانوا قبل أن يترفوا مجرمين، مجتنين ثمرات الحياة إلى الحيونات فاتبعوا ما أترفوا فيه فكانوا أظلم وأطغى، فهم الناكرون دوماً للرسالات: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ﴾[(٢)] ﴿... إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم مُّقْتَدُونَ...﴾[(٣)] ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ﴾[(٤)] ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾[(٥)].

٣ - وترى هؤلاء المترفون يستحقون بفسقهم التدمير، فما ذنب سائر أهل القرية يشملهم عذاب التدمير، وهناك قرى يخص تدميرها بمترفيها: ﴿... وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ﴾[(٦)]؟.

إن عذاب التدمير الاستئصال لا يشمل إلا الظالمين، فإن كانوا مترفين فحق لهم أصلياً، وإن كانوا مستضعفين يفسحون مجالات لفسوق المترفين، متخاذلين أمامهم، لا يدافعون عن حقوقهم ولا يمسكون على أيديهم، وبذلك يعم الفسق، تحللاً للقرية الظالمة بمترفيها وسائر من فيها، وترهلاً لها فتأهلاً لعذاب شامل، فليس المسؤول فيها هنا فقط المترفون، بل والمستضعفون المتخاذلون حيث فسحوا مجالات لهم وتسامحوا عما أترفوا وأفسدوا... ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[(٧)] وليس الله

---

(١) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٣٤.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٢٣.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٦٤.
(٥) سورة الأنبياء، الآيات: ١٢-١٥.
(٦) سورة هود، الآية: ١١٦.
(٧) سورة الأنفال، الآية: ٥٣.

ليمنع المجرمين عما يجرمون والمستضعفون يسمحون لهم ويتسامحون: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾(١) سواء أكانوا من أصول الظلم الطواغيت والأكابر المجرمين، أم من فروعه المستضعفين، حيث يتقبلون فيستقبلون الظلم فهم إذاً ظالمو أنفسهم وسواهم: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾(٢) ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا إِلَّا أَن قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾﴾(٣) ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا...﴾(٤): ﴿فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَى﴾(٦).

والرأس الرئيس في معارك الدمار هو فسق المترفين المبطرين: تكذيباً للرسل: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾(٧) والإجرام الفاحش المتهدم: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾(٨) ولا سيما المتمكنين المسرفين: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾(٩) ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾(١٠).

إذاً فعذاب الاستئصال إنما يخص المترفين المبطرين إذا لم يسايرهم المستضعفون حيث يتشاركون أصلاً وهامشاً في التخلف عن مواضيع من

---

(١) سورة القصص، الآيتان: ٥٨، ٥٩.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨.
(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٤، ٥.
(٤) سورة الحج، الآية: ٤٥.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٦.
(٦) سورة طه، الآية: ١٣٤.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ١٣٩.
(٨) سورة الدخان، الآية: ٣٧.
(٩) سورة الأنعام، الآية: ٦.
(١٠) سورة الأنبياء، الآية: ٩.

أوامر الرسالات الإلهية، ما تتهدم به بنايات المجتمع وتنفصم به عراه، فتدمر به قراه.

هذه سنة الله الدائبة السارية لسائر القرى أنها هالكة بما تهلك نفسها بالسبعة أبواب الجحيم التي يتفتحها المترفون: استكباراً واستعماراً واستثماراً واستحماراً واستبداداً واستخفافاً واستضعافاً! ثم المستضعفون المترذلون يدخلون هذه الأبواب تخاذلاً وتكاسلاً فيحنون ظهورهم لهم ليحتنكوهم فيركبوهم وإلى جهنم وبئس المصير.

هكذا نتمشى في تفسير هذه الآية الغرة وأضرابها كما تعنيها، دونما تحميل عليها ما لا تتحملها من احتمالات: معنوياً أو قراءة تختلف عن هذه المتواترة في كتب القرآن، كأن يبدل أمرها بتأميرها «أمّرنا»[1] فراراً عن أمره تعالى - في زعمهم - بالفسق إلى تأميره الفساق، كـ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[2].

أم أن ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ هي صفة القرية وصلتها، لا جواباً لـ ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا﴾ كما مضى، فتبقى «إذاً» إذن بلا جواب حاضر، لأنه ظاهر بنفس الكلام: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[3].

أو أن «أمرنا» تكويني بحيث لا ينافي الاختيار، إذناً وإرادة من الله في

---

(١) كما في نور الثقلين ٣: ١٤٥ - العياشي عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام في الآية: أمرنا مترفيها مشددة منصوبة تفسيرها كثرنا وقال: هلا قرأتها مخففة في رواية أخرى عنه عليه السلام قال: تفسيرها أمرنا أكابرها، وفيه عن المجمع آمرنا بالمد عن علي عليه السلام.
أقول: في تعارض الروايتين تساقطهما، وفي إرجاعهما إلى كتاب الله تصديق للثانية ثم وتكذيب للثالثة، إضافة إلى أن التأمير جعل للأمير وليس التكثير!

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

(٣) والمعنى إذاً: إذا أردنا أن نهلك قرية من صفتها وحالتها أنا أمرنا مترفيها ففسقوا فيها - فدمرناها تدميراً، والجواب المدلول عليه هذه دون «فاء»: دمرناها تدميراً.

فسق المترفين كجزء أخير للعلة التامة بعد توفر الاختيار لمعدات الفسق المختار[١].

وهذه كلها من غثها وسمينها في نفسها ليست الآية لتعنيها، فالقرآن حمال ذو وجوه فاحملوها إلى أحسن الوجوه، وأحسنها ما يحملها دون تحميل كما أحسناه ثم الثاني ثم الثالث ثم الرابع، دون الأمر التكوين الذي يسيِّر المترفين إلى الفسوق دونما اختيار، ولكن الأول هو الأول فإنه أحسن الوجوه لفظياً ومعنوياً.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

القرن زمنياً أجزاء من الزمان مقترنة ببعض اعتباراً كمائة سنة، وحقيقة كسائر الزمن يوم الدنيا ثم البرزخ ثم الآخرة، ومن حيث الأنفس: القوم المقترنون في زمن واحد، وعل وحدة الزمن هنا تعني الوحدة النوعية، وقرن زمني هو الأكثر لبقاء نسل يخلفه آخرون.

وهنا قرون هالكة بما أهلكت حيويتها، وفسحت مجالات المترفين المترهلين فيها، هلكة عن هلكة طبقاً عن طبق ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[٢]! سنة مضت في الأولين من بعد نوح قروناً تترى، في ذنوب وتبعات لتخلفاتهم التي لا تتحملها الحياة الإنسانية فيجب القضاء عليها بقسطاس العدل يوم الدنيا قبل الأخرى، ولكي تصلح الحياة في تداومها، وتسمح للأحياء أن يمشوا سوياً على صراط مستقيم.

وترى لماذا ﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾؟ وقد هلكت البشرية الخاطئة النكدة زمنه! أوَ تهلك قرى قبله لكي تختص الهلكات من بعده؟

﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾ حيث تعني من بعد قرن نوح، توحي أن قرنه هو أول

---

(١) حيث الأمر ظاهر في التشريعي وهكذا التكويني وإن كان في نفسه صحيحاً ولكنه يعم عموم الأفعال خيراً وشراً دون خصوص الأشرار المترفين.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

القرون هلاكاً، كما هو أهمها وأعمها للهلاك ملاكاً: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا... فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾[١]: آيات تترى في عرض قرون هالكة من قرن نوح إلى موسى، تطوي هلكاتها بطياتها طياً، ثم لا نجد في القرآن آية تتحدث عن قرن هالك منذ آدم حتى نوح، وعله لأن البعثات الأصلية الرسالية آخذة منذ نوح، فلم تكن قوة في بعثة قبله حيث ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ...﴾[٢] فكانت البشرية في الفترة السابقة، على سذاجة الفطرة المتأيدة بعقلية الوحي من غير أولي العزم من الرسل كآدم ومن قبل نوح من المرسلين فلم تستحق إذاً ما استحقته القرون منذ نوح، إذ لم تفعل - ولم تكن لتفعل - فعلتهم، ولم تكن حجتهم كحجتهم.

إن القرون الهالكة من بعد نوح مستعرضة في القرآن بتفاصيلها الأصلية كعاد وثمود وتبع وأصحاب الأيكة وقوم فرعون وأصحاب الرس وقرون بين ذلك كثير، وقد تستحق الهلاك قرون بعد الرسول محمد ﷺ إذاً عصوا هكذا ولم يستغفروا ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٣].

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾:

العاجلة هنا هي الحياة العاجلة الدنيا وزينتها بحيوناتها وشهواتها: ﴿مَن

---

(١) سورة المؤمنون، الآيات: ٣١-٤٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا. . .﴾[١] وتقابلها الآجلة الأخرى، و﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ هو المتداوم في هذه الإرادة البئيسة التعيسة حيث يحب العاجلة فيرفض كرهاً الآجلة: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾﴾[٢] ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْأٓخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾[٣].

١ - فحب العاجلة حيث يتم في القلب فيطمه دون إبقاء لحب الآجلة، هذا الحب الحاصر يخلِّف إرادة حاصرة للعاجلة، فلا محاولة إلا لها، ولا تفكير ولا سعي إلا إليها، كأن لا حياة إلا هيه، فله في الآجلة نار حامية: ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾!

٢ - وهناك مريدون للعاجلة كذريعة للآجلة، وهذه إرادة للآجلة لا العاجلة.

٣ - ثم ومريدون للآجلة تاركين للعاجلة حتى كذريعة، والدنيا مزرعة الآخرة! وكلما توفرت الزراعة خلفت وفراً للنتيجة، فهذه - إذاً - إرادة ناقصة جاهلة للآجلة.

٤ - ورابعة لا للعاجلة فقط ولا للآجلة، مذبذبين بين ذلك في مثلث: من - ٤ - عوان بينهما، أو ترجيح لإحداهما على الأخرى (٥ - ٦). فِرَقٌ ست بين العاجلة والآجلة لا سابع لها خلواً عن أية إرادة، حيث المريد لا يخلو عن أية إرادة، اللهم إلا ميتاً لا حياة له! ومريد عمل الآخرة للدنيا ليس إلّا مريد الدنيا[٤].

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٧.

(٣) سورة القيامة، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٤) فمن يريد عمل الآخرة للدنيا فهو لا يريد - في الحق - الآخرة وإنما صورة الآخرة في سيرة الدنيا للدنيا، إذاً فهو ممن كان يريد العاجلة وأضل سبيلاً ممن لا يتظاهر بالآخرة.

في نور الثقلين ٣: ١٤٥ ح ١١٤ مجمع البيان وروى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: معنى الآية من كان يريد ثواب الدنيا بعمله الذي افترضه الله عليه لا يريد وجه الله والدار الآخرة عجل له =

وآية العاجلة المهددة بصلي جهنم إنما تعني الأولين حيث يختصون هممهم بالحياة العاجلة، ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[١] ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾[٢] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[٣] ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[٤].

وترى أن مريد العاجلة يؤتاها كما يريد وكيفما يريد، إن بعمل أو دون عمل؟ إذاً لفسدت الأرض حيث الإرادة الخاطئة هذه لا حد لها، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٥]؟ كلا! وإنما ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ لا ما يشاء ﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ لا لمن يريد... و﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا﴾[٦] لا «إرادتهم فيها» و﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ لا «نؤته إياها»!

فما كل من يريد العاجلة يؤتاها، فقد يريدها ولا يؤتاها خسراناً للأولى والأخرى ﴿خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[٧].

وما كل من يؤتى يؤتى ما يشاء وإنما ﴿مَا نَشَاءُ﴾ حسب المساعي لها

= فيها ما يشاء الله من عرض الدنيا وليس له ثواب في الآخرة وذلك أن الله سبحانه يؤتيه ذلك ليستعين به على الطاعة فيستعمله في معصية الله فيعاقبه الله عليه.

(١) سورة الروم، الآية: ٧.
(٢) سورة النجم، الآيتان: ٢٩، ٣٠.
(٣) سورة هود، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٠.
(٥) سورة النجم، الآية: ٣٩.
(٦) سورة هود، الآية: ١٥.
(٧) سورة الحج، الآية: ١١.

والمصالح النوعية فيما يؤتاها: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾(١).

وترى أن بين آية البخس وآية العاجلة تهافتاً فيمن لا يشاء الله أن يعجل له ما يريد؟ حيث الأولى توفي لمريد الدنيا أعمالهم فيها دون بخس وآية العاجلة لا تعجل ما يريده منها إلا من يشاء الله كما يشاء؟

أقول كلا! حيث التوفية في آية البخس للأعمال فقط لا كل ما يريده أهل الدنيا منها وإن دون عمل، وآية العاجلة تعجل ما يشاء الله لمن يريد: ولا يشاء هذا التعجيل إلا للساعي لها قدر سعيه، ثم لا يعجِّل لكل ساع اللهم إلا من يريد، فمن الساعين من يحرمه الله بعض سعيه أو كله لأن سعيه إلى الفساد حيث لا يحتمله المجتمع، وعدم بخسهم أعمالهم فيها محدد شيئاً ما بما إذا لم تكن في توفية عملٍ ما بخسٌ على الآخرين، فآية البخس تحدِّد التوفية بما يسعى، وآية العاجلة تعجل قدر السعي كما يقتضيه العدل، إذاً فهما متجاوبتان.

فطالب الدنيا يؤتاها بسعيه وقد ينقص أو يزيد عدلاً وحكمة، دون فرق بين ناكر الله ومصدقه: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾(٢).

فالطالب حسنة الدنيا طالب للآخرة، وطالب الدنيا ومريدها للدنيا ما له في الآخرة من خلاق، كما وأن طالب الدنيا بعمل الآخرة ما له من خلاق.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾:

---

(١) سورة هود، الآية: ١٥.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ٢٠٠-٢٠٢.

هنالك في النار من يصلاها خالدين فيها أبداً وهناك من يصطلي بها دون أبد، وسوف يفنى من يصلاها بفناء النار فلا تبقى إذاً لا نار ولا أهل نار، ومن يصطلي بها خلوداً دون أبد يخرج عنها بعدما ذاق وبال أمره جزاءً وفاقاً.

فصلي النار إنما هو إيقادها ممن هم حصب جهنم ووقود النار[1]، لا كل داخل فيها خلوداً مؤبداً أم ماذا؟

ومصلي النار قد يكون ألدّه الكفار كما هنا، وقد يكون ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[2] يصلون النار بحطبها ووقودها الكفار، فالأول يصلاها مذموماً مدحوراً، والثاني يصلاها ممدوحاً محبوراً! لا نجد في سائر القرآن من يصلى النار إلا ألد الكفار: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝١٥ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦﴾[3] ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢﴾[4] ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[5] أجل إنهم صلي الجحيم وحصبها: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ . . .﴾[6] وحطبها: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾[7] ووقودها: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾[8].

هؤلاء هم أسس النار ثم سائر أهل النار يصطلون بصلاهم وبئس المصير كما أراد موسى أن يصطلي أهله بقبس مما ظنه ناراً ونعم المصير:

---

(١) لسان العرب الصلاء والصلى اسم للوقود تقول: صلى النار، واصطلى بالنار استدفأ.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
(٣) سورة الليل، الآيتان: ١٥، ١٦.
(٤) سورة الأعلى، الآيتان: ١١، ١٢.
(٥) سورة المسد، الآية: ٣.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٩٨.
(٧) سورة نوح، الآية: ١٥.
(٨) سورة آل عمران، الآية: ١٠.

﴿أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[(١)] ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[(٢)].

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾:

ترى ما هو الفارق بين ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ - ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ ولماذا تقيّد إرادة الآخرة بـ ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ دون إرادة العاجلة؟.

إن ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ﴾ توحي باستمرار كينونة الإرادة، وهؤلاء هم صالو النار مدحورين، وأما «من أراد العاجلة» فقد ينجو بما يتوب قبل الموت، أو إذا لم يتب فإرادة العاجلة دونما استمرار تجمع إرادة الآجلة ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ...﴾[(٣)].

وأما ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ فهي وإن كانت لا توحي باستمرار هنا، إلا أن ﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ تصريحتان بهذا الاستمرار، وكما توحي له ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾[(٤)].

وقد تعني ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ...﴾ شمولها لمن أرادها آخر حياته أن يريدها ويسعى لها سعيها وهو مؤمن، فهو أيضاً مشكور سعيه قدر سعيه وإيمانه.

فالسعي المشكور في الأخرى تتبناه إرادة الآخرة في الأولى وأن يسعى

---

(١) سورة النمل، الآية: ٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٢٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٢.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٠.

لها سعيها وهو مؤمن، فمن أرادها دون أن يسعى لها سعيها وإن كان مؤمناً، أو أرادها ساعياً هكذا دون إيمان، أم أياً كان دون هذه الدعائم الثلاث، لم يكن سعيه مشكوراً إذا كان له سعي دون شروط، فكيف إذا لم يكن له سعي.

وقد يجمع هذه الثلاث قول الصادق عليه السلام: «لا قول إلا بعمل ولا قول ولا عمل إلا بالنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا باصابة السنة»[(١)].

ثم الشاكر لهذا السعي المشكور هو الله تعالى شأنه العزيز، ولا يعني شكره لساعي الآخرة جزاءً عما قدم لصالح الربوبية: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾[(٢)] وانـمـا ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَاۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾[(٣)] ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾[(٤)] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[(٥)] ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾[(٦)] يعاملهم معاملة المستأجر الشكور ولا يرجع الشاكر بشكره إلى صالحه.

فقد يريد مريد الآخرة دون إيمان صالح، أن يسعى لها سعيها في تقديره المتخلف عن تقدير الإيمان، أو هو مؤمن صالح في عقيدة الإيمان ولكنه لا يسعى للآخرة سعيها الصالح لها حيث يتخلف عمل عن إيمان، أو أنه مؤمن يسعى لها سعيها كقالب يخطئ إرادة الآخرة حيث يريد الدنيا كلّاً أو بعضاً بسعي الإيمان، أم إنه يخطئ أو يتعمد ترك أو تكميل قاعدة واحدة أم ماذا من هذه الثلاث، فأولئك لم يكن سعيهم مشكوراً، وإن كانوا - أحياناً - لا يحرمون عن شكور على غرار ما سعوا وما كان عطاء ربك محظوراً.

---

(١) أصول الكافي باب العلم.
(٢) سورة النمل، الآية: ٤٠.
(٣) سورة القمر، الآية: ٣٥.
(٤) سورة الإنسان، الآية: ٢٢.
(٥) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٣٠.

فـ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ﴾ إرادة خالصة صادقة فعليه أن يسعى لها سعيها وهو مؤمن، حيث الإرادة دون سعي، أو سعي لا يناسبها، إنها ليست إرادة، فإنما هو تمنٍّ دون أسباب صالحة تحققه، فالإرادة الصادقة تحمل من يحملها على أداء تكاليفها والنهوض بتبعاتها وإقامة سعيها كما تطلبها، دون أن تحرمه من لذائذ الدنيا اللهم إلا من هزاهزها، فإنما تمده إرادته الصادقة للآخرة إلى آفاق أعلى وأغوار من يم الكون تتم وتطم في استخلاصه عن هزاهز الدنيا وكما عن الرسول ﷺ: «جزناها وهي خامدة»!. «ومن أراد الآخرة فليترك زينة الحياة الدنيا»[1].

﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾:

﴿نُّمِدُّ﴾ من الإمداد وأغلبه في المحبوب: ﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾[2] والمدّ في المكروه: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3] ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[4] فقد تكون ﴿نُّمِدُّ﴾ هنا جمعاً بينهما بتغليب الإمداد، أو إنه الإمداد فقط مع اختلاف المحبوب، فحب الدنيا ظرف للمد واقعياً وللإمداد كما يريدها أهلوها، وحب الآخرة ظرف للإمداد واقعياً وكما يريدها أهلوها.

﴿كُلًّا﴾ ممن مريد العاجلة والآجلة ﴿نُّمِدُّ﴾: نعينه ونزيد له كما يريد ويعمل لعاجلة أم آجلة زيادة على ما يعمل ويأمل سواء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المريدين للعاجلة أم ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المريدين المؤمنين الساعين للآجلة، وهذا الإمداد ليس استحقاقاً مطلوباً لأهله، وإنما ﴿مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾ فنعمة الدنيا هي عطيته كما نعمات الآخرة هي عطيته وأين عطية من عطية!

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٤٦ ح ١١٥.
(٢) سورة الطور، الآية: ٢٢.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.

ولماذا يمد أهل العاجلة؟ لأنه ﴿لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[١] ومريد العاجلة يؤتاها وافية كما يسعاها، وليس الله بمانع يحظر أهل الشر تكوينياً عما يريدونه من الشر، كما لا يخطر - وبأحرى - أهل الخير فهذه سنته الدائبة: ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾! عطاء هي محبورة غير محظورة أياً كان، ولكنها الجزاء هي في العصيان عدل جزاء الوفاق، إذاً فالعذاب محدود بحدود العصيان، وهي في الطاعة لا مقطوعة ولا ممنوعة عطاءً غير مجذوذ، إذاً فالثواب غير محدود قدراً وزمناً ﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

ليس أن الله يمنع أهل الآخرة من عطاء الدنيا أن يخصها أهل الدنيا، وإنما يعطي هؤلاء وهؤلاء وإن اختلفا في ابتغائها لعاجلة فإلى نار، أم لآجلة فإلى جنة، ولكنه لا يعطي أهل الآخرة في الأكثر كثيراً من نعم الدنيا كيلا ينغمسوا فيها غافلين.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾:

فضلّنا مريدي الآخرة على مريدي الدنيا، دون فوضى، وإنما كلّاً حسب ما أراد وسعى، فطالب الفضيلة فضلناه على طالب الرذيلة، ومهما كانت للدنيا درجات الشهوات والحيوانات فـ ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ بل ليست درجات الدنيا بجنب الأخرى إلا دركات تخلف في الأخرى دركـــات: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[٢].

---

(١) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٢) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.

مشكلة الخلود[(١)]:

إن الخلود أو الأبدي منه لمن يصلى النار الكبرى قد يفسر بالبقاء اللانهائي الحقيقي في النار، فترد عليه مشاكل عقلية ومن حيث العدالة الإلهية، وإنه يسبق رحمته غضبه أم ماذا.

فالمشكلة العقلية هي أن ما له بداية لا بد له من نهاية، والخلود أياً كان هو امتداد تركيبي من أجزاء الزمان، وكما الأجزاء هذه محدودة فالخلود المركب من المحدود لا محالة محدود، ثم وإذا لم تكن لهذا الخلود نهاية فتلكن الزيادة أو النقصان من بدايته لا تزيد ولا تنقص من الخلود لأنه لا محدود، واللامحدود لا يقبل لا زيادة ولا نقصان، فلا خلود - إذاً - لا نهائياً، لا في الجنة ولا في النار! والجواب الحاسم لهذه المشكلة هو أن الذي لا يقبل زيادة ولا نقصاناً هو اللامحدود المطلق وليس إلا الله تعالى شأنه، فلا أول له ولا آخر حتى يحد بأول أو آخر، ولا يقبل كيانه لا زيادة الزمان ولا نقيصته لأنه خارج عن محور الزمان.

واللامحدودية المطلقة هي لزام الأزلية التي لزامها الأبدية حيث الأزلية ليست إلا ذاتية إذاً فهي تلازم الأبدية الذاتية، وأما الأبدية فهي بين ذاتية هي استمرار ذاتي للأزلية وغيرية هي استمرار بإرادة الأزلي.

هنا محدودية مطلقة كالاعمار في الدنيا والبرزخ فإن لها بداية ونهاية، وهنالك لا محدودية مطلقة كما هو لله تعالى شأنه لا سواه وبينهما لا محدودية نهائية في حد بدائي، أم بدائية في حد نهائي. في امتداد فعلي حاصل، أو امتداد شأني تحصل أجزاؤه تلو بعض.

والمستحيل من هذه الأربع ثلاث: هي اللامحدودية في الامتداد الفعلي

---

(١) لقد فصلنا البحث عن الخلود في هذا التفسير ج ٣٠ وفي «عقائدنا» ص ٣٠٦ - ٣٢٢.

الحاصل بداية أو نهاية للمشكلة الماضية، وكذلك في الامتداد الشأني بداية، دون الشأني نهاية، والخلود اللانهائي في الجنة أو النار شأني يتدرج دون نهاية، فهو محدود بداية ولا محدود نهاية، فالبداية بفعل الله، واللانهاية أيضاً بفعل الله، وليس هنا ما يمنع عقلياً هذه اللانهاية لا فاعلاً ولا قابلاً، فالله تعالى هو المعطي عطاءه غير مجذوذ ولا راد لفضله، ولا نهاية لعطائه، والأزمنة الآتية إلى غير النهاية هي كالسالفة كلها بإرادة الله، ولا مانع في هذا البين من هذه العطاء غير المجذوذ لا فاعلاً ولا قابلاً.

إنه لا مشكلة عقلياً في مثل هذه اللانهاية ولكنها مستحيلة في العذاب بميزان العدل والنقل القرآني ومن ثم بمقتضى الرحمة الإلهية.

إن الجزاء الوفاق لا توافق اللانهاية في العذاب لعصيان محدود في زمن محدود من عاص محدود وفي أثر محدود، ولبث الأحقاب حيث اعتبر الجزاء الوفاق للطاغين برهان لا مرد له على حد العذاب، وكما الآيات في أن الجزاء هي العمل[١] أو بالعمل[٢] تحدّد العذاب بقدر العمل، لا أكثر من العمل وإن كانت آيات الثواب تربي الجزاء على العمل تتخطاه إلى نية الخير أيضاً.

وقد تزعم دلالة الآيات التالية على اللانهاية الحقيقية في العذاب:

١ - ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾[٣]؟ ولكنها لا تنفي موت الخالدين إلا في النار وهنالك موت مع النار أو بعد النار لا ينفيان. والآية تدل على المساواة بين حياة النار والآبدين في النار! فكما أنها تلائم الأبدية اللانهاية كذلك تلائم المحدودة أن تفنى النار بمن في النار مع النار، لا سابقاً عليها حتى تنافي ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾.

---

(١) ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور: ١٦].
(٢) ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].
(٣) سورة الأعلى، الآية: ١٣.

٢ - وكــذلــك ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾[1] فـ ﴿لَا يُقْضَىٰ﴾ إنما تنفي الموت في النار ألا يعذبوا بأن يموتوا مع بقاء النار! ﴿وَلَا يُخَفَّفُ﴾ تنفي تخفيف العذاب ما داموا ودامت النار، ولا تنفي موتهم مع خمود النار.

٣ - كذلك ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾[2] أي: محيداً ومفراً، ولا فرار عن النار إلا مع بقائها، وأما أن يموت أهل النار مع خمود النار فليس محيصاً عن النار، وإنما هو مع بقائهم وبقاء النار ونجاتهم حينذاك عن النار.

٤ - كذلك ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[3] والخروج عن النار حيث يعني بقاؤه خارج النار مع بقاء النار، إنه غير الموت مع خمود النار.

٥ - كــذلــك ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ . . . وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾[4] حيث الإبلاس هو الحزن المعترض من شدة البأس إذ لا يفتر عنهم العذاب والمكث هو المقام قدر الاستحقاق، وتفتر العذاب منفي ما دام العذاب دون دلالة على الاستمرارية اللانهائية للعذاب.

٦ - وكذلك: ﴿وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[5] إذ لا ينافيه موتهم في النار مع خمود النار، فلا هم خارجون إذاً عن النار ولا أحياء بعد خمود النار.

ثم هنالك احتمالان: ١ - فناء من في النار مع النار فلا نار إذاً ولا أهل نار. ٢ - فناء النار وبقاء من فيها دون رحمة ولا عذاب وإن في فترة

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٣٦.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٢١.
(٣) سورة الحج، الآية: ٢٢.
(٤) سورة الزخرف، الآيات: ٧٤-٧٧.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

قصيرة، وإذ تصرح آيات أنه لا يفتر عنهم العذاب فبأحرى لا ينفى عنهم سواء مع بقاء النار أم فنائها، فلا نحتمل إذاً إلا فناء النار بمن فيها على سواء، يثبته لزوم انتهاء العذاب وعدم خروجهم عن النار إلّا عذابها عنهم.

٧ - وكذلك: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(١) فـ ﴿كُلَّمَا﴾، لا تدل على استمرارية العذاب اللانهائية، وإنما التبديل هو ما دام النضج، وأما حتى متى يدوم النضج فلا دلالة فيها على أمده من أبدية حقيقية أما هيه.

٨ - وكذلك: ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩﴾(٢) فإنها ما تبقى ويبقى فيها من يصلى - طبعاً - لا تبقي من يصلاها حياً مرتاحاً حيث تظلم عليه حياته ولا تذره، فلا يموت فيها ولا يحيى.

٩ - وكذلك ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٣) حيث الأيام المعدودة المكذوبة هنا ليست هي مطلق المحدودة، وإنما القليلة التي يعدونها شهراً أو سنة أم ماذا، فليست أيام عذابهم معدودة كما يزعمون وإنما هم مع أحزابهم فيها خالدون: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(٤) ثم وعدم مسيس النار إلا أياماً معدودة يوحي ببقاء النار - في زعمهم - وهي لا تمسهم بعد أيام معدودة بأن يخرجوا عنها، أو لا يعذبوا بعد وإن ظلوا هم فيها.

١٠ - وكذلك ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ...﴾(٥) حيث

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٢) سورة المدثر، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٨٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨١.
(٥) سورة هود، الآية: ١٦.

الحصر ليس حقيقياً ينفي عنهم كل شيء حتى الموت، إنه نسبي بين الجنة والنار فليس لهم في الآخرة إلا النار، فلا ينافيه فناءهم بفناء النار.

١١ - وكذلك ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾[1] فإن خباء النار ليس خمودها وإنما هي سكون لهبها بغطاء الرماد وغشائه، وأما أنها لا تخمد مع موت من فيها فلا إشارة لها.

١٢ - وكذلك ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾[2] يعني لزاماً ولا يعني غرام العذاب إلا عدم انفكاكه عن أهل النار، دون دلالة على الأبدية اللانهائية. وإنما عدم انفكاكه عنهم وهم أحياء فيها أم خارجون عنها.

هذه تمام الآيات التي قد يظن دلالتها على الأبدية اللانهائية في النار ولا دلالة فيها ولا إشارة، ثم أدلة العقل والعدل والآيات في تسوية العقاب والعصيان وآية الأحقاب أم ماذا؟ كل ذلك تحدد أمد العذاب وتفسر أبد العذاب، ثم ولا يصغى إلى أحاديث مختلقة هنا تخالف هذه البراهين[3].

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٥.

(٣) البحار ٨: ٣٤٦ في الصادقي أنه بلغنا أنه يأتي على جهنم حين يصطفق أبوابها فقال: لا والله أنه الخلود، قلت: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ [هُود: ١٠٧]، فقال: هذه في الذين يخرجون من النار.

وفي العلل (١٧٧) عنه عليه السلام سئل عن الخلود في الجنة والنار فقال: إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً ما بقوا فالنيات تخلد هؤلاء وهؤلاء ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ قال على نيته.

وروى فضالة عن عمر بن أبان قال سمعت عبداً صالحاً يقول في الجهنميين إنهم يدخلون النار بذنوبهم ويخرجون بعفو الله.

وفي التوحيد للصدوق عن الصادق عليه السلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: جاء يهودي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسئل عنه يا محمد! إن كان ربك لا يظلم فكيف يخلد في النار أبد الآبدين من لم يعصه إلا أياماً معدودة؟ قال: يخلده على نيته فمن علم أن نيته أنه لو بقي في الدنيا إلى انقضائها كان يعصي الله عز وجل خلده في ناره على نيته ونيته في ذلك شر من عمله إلى أن قال: والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٤]=

ولو أن الخلود يعني البقاء دون زوال، فلأن آيات الخلود إنما تدل على الخلود في النار لا خلود النار، فلا دلالة فيها إلا على الخلود فيها ما دامت موجودة فلا تنافي فناءهم بفناء النار!.

وقد يقال إن العصيان من حيث المعصي اللامحدود في العظمة والكمال لا حدَّ له فجزاؤه الوفاق أيضاً لا حد له! ولكنما العصيان له وجهات ثلاث: من حيث العاصي، ظرفاً ومحتداً عائقاً ودافعاً أم ماذا ومن حيث نفسه أثراً سيئاً، ومن حيث المعصي، والمقياس في العقوبة إنما هو موقف العاصي

= (التوحيد باب الأطفال ص ٣٩١).

أقول: إن النية التي تتبع العقيدة أو العمل فالجزاء باعتبارهما لا النية وأما النية الخالية عن العمل ففي خيرها ثواب وليس في شرها عقاب.

هنا نية وعقيدة وعمل، والعمل مرتبط بالعقيدة والنية، وأما النية بلا عمل فلا عقاب عليها وإن كان فيها ثواب ولا نجد في القرآن سبباً للثواب أو العقاب إلا الإيمان والعمل الصالح والكفر والعمل غير الصالح، ومجال النية إنما هو العمل لا غير.

وفي ج ٢ علم اليقين للفيض الكاشاني ص ١٠٨٢ عن البخاري تفسير سورة مريم ج ٦ ص ١١٨ والمسند ج ٣ ص ٩ عن النبي ﷺ أنه قال: يؤتى بالموت كأنه كبش أملح فينادي فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون الموت فينظرونه فيعرفونه فيقال لأهل النار: تعرفون الموت فينظرونه ويعرفونه فيذبح بين الجنة والنار ثم يقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت ويا أهل النار خلود بلا موت فذلك قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]، وعن الباقر عليه السلام ما يقرب منه (البحار ج ٨ باب ذكر الموت).

قال الفيض: لا خلاف بين أهل العلم أن الكفار مخلدون في النار إلى ما لا نهاية له كما هو ظاهر الكتاب والسنة.

وفيه ما رواه العامة عن النبي ﷺ أنه قال: سيأتي على جهنم زمان ينبت في قعرها الجرجير وفي المحاسن (٥١٨) نظر رسول الله ﷺ إلى الجرجير فقال: كأني أنظر إلى بيته في النار.

وفي التوحيد (٤٠٦) عن الصادق عليه السلام من وعده الله على عمل ثواباً فهو منجز له ومن أوعده على عمل عقاباً فهو فيه بالخيار.

وعن النبي ﷺ أن الله خلق يوم خلق السماوات والأرض مائة رحمة فجعل في الأرض منها رحمة بها تعطف الوالدة على ولدها والبهائم بعضها على بعض والطير وأخر تسعاً وتسعين إلى يوم القيامة فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة مائة (ابن ماجة كتاب الزهد الباب ٣٥ ج ٢ ص ١٤٣٥).

بأثر عصيانه، فإنه قضية العدل أن يُعدل العصيان بالعاصي المتناهي لا المعصي غير المتناهي، فإن رعاية الضعيف فيما له مقاييس أولى من رعاية القوي، على أن درجة المعصي ليست باختيار العاصي ولا أنه يلاحظ ويواجه هذه الدرجة لكي تزيد في عقابه. ثم لو كان المقياس هو المعصي لأصحبت جميع المعاصي كبيرة دون أية صغيرة، ولبطلت الحدود والديات والتعزيرات المقررة لحدود الجنايات ومواقف الجنات، ولأصبح كافة العصاة مخلدين في النار أبداً على سواء.

ثم إذا شككنا في المقياس فلا لنا أن نأخذ بالأشد عقوبة والقرآن يحدد العقوبات على قدر السئات: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾[1] مماثلة بين نفس السيئة وجزائها، لا بين المعصي فيها وجزائها، وهذه المماثلة مستحيلة فإن الله تعالى سرمدي وسرمدية العذاب مستحيلة وإن أمكنت أبديتها اللانهائية.

كلّا! وإنما مماثلة بين السيئة والعقوبة: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾[2] وما أظلمه من يقيس عصيانه بنفسه وهو أعلى دون العاصي وهو أدنى!

ثم الآيات في أن الجزاء هو العمل أو بما يعمل يحدد موقف العقوبة أنها على حد العمل لا المعصي: ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[3] ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[4] ﴿هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾[5] ﴿فَٱلۡيَوۡمَ لَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗا وَلَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[6] ومماثل المحدود

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.
(٣) سورة الطور، الآية: ١٦.
(٤) سورة النمل، الآية: ٩٠.
(٥) سورة يونس، الآية: ٥٢.
(٦) سورة يس، الآية: ٥٤.

عاملاً وأثراً ليس إلا محدوداً، وإلا فلا مماثلة إذا كان المعصي هو المقياس! بل وجزاء سيئة بعضها أو نصفها! ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[١] والاستثناء بالمشية هنا ليس كما في آية البرزخ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ... خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ﴾[٢] حتى يقال إن خلودها بذاته منقطع! وعلّ هذه المشية هي مشية الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء حيث تشمل المخلدين في النار تخفيفاً عن عذابهم أجمع والآيات النافية للتخفيف إنما تنفيه بعد هذا التخفيف!.

فناء النار بمن في النار:

ومما يؤيد فناء النار أنها من موجبات غضب الله وقد «سبقت رحمته غضبه» «ولذلك»: الرحمة «خلقهم» لا للعذاب، فالرحمة هي المقصودة في الأصل، والعذاب ليس إلّا تطبيقاً للعدل، فلولا أن ترك العذاب للعاصين ترك للعدل بين العباد لما كان العذاب صواباً، إذاً فالرحمة لا محدودة والعذاب محدود.

ثم من الرحمة ما هي مكتوبة وما هي راجحة غير مكتوبة: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾[٣] فلتشمل أهل النار فضلاً منه حيث وسعت رحمته كل شيء حتى ولو كانت اللانهاية في العذاب حقاً عليهم عدلاً، كيف لا وهي ظلم!

وقد يكفي فرقاً بين فريقي المسلمين والمجرمين قليلٌ من العذاب ثم

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة هود، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.

الإفناء، فهلّا يكفي أبد النار كما يستحقونها دون زيادة ولا نقصان: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾[2] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[3] فللعذاب موجبان: ١ - عدم التسوية بين المحسن والمسيء ولا سيما الانتقام من الظالم للمظلوم فإن تركه إلى تركه بدون ثواب ولا عقاب عذاب روحي للمظلوم والأصل العقلي في لزوم المعاد هو الانتقام من الظالمين. ٢ - لو لم يكن عذاب لازداد العصيان حيث الأكثرية من تاركي العصيان إنما يتركونه خوف العقاب ووعد العذاب دون واقعه كذب وإغراء! ثم الله ليس يعامل خلقه إلا بفضله دون عدله، لذلك يقرر جزاءَ الحسنة عشر أمثالها، ويدخل المطيعين جنة بفضله، فليشمل فضله أهل النار أن يعذبهم دون استحقاقهم، أم ولا أقل بعدله أن يجازيهم جزاءً وفاقاً وأما اللانهاية في العذاب فهي نائية عن العدل إلى أقبح الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4]! ومن ثم إذا يأمرنا بالعفو بدل الانتقام ﴿وَأَن تَعْفُوٓا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[5] فهل يعامل هو عبيده الضعفاء بأكثر من الانتقام الذي لا مثيل له بين الظالمين من عباده؟!. كل ذلك يفرض أخيراً فناء النار بمن في النار ممن يصلونها. فلا نار إذاً ولا أهل نار! وخلاصة القول حول الخالدين في النار أن حد الخّلود هو قضية ١ - عدل الله، ٢ - ورحمته التي وسعت كل شيء وقد سبقت رحمته غضبه ٣ - وجزاء

---

(١) سورة القلم، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٨.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

سيئة سيئة مثلها ولا مماثلة بين المحدود واللامحدود. ٤ - وأن الجزاء إنما هو بالأعمال وهي محدودة فالجزاء محدود ٥ - وأنهم لابثين فيها أحقاباً جزاءً وفاقاً، وأقل الحقب سنة وأكثره ثمانون. ٦ - ونفس الخلود تقيد في: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[1] ثم ولا دلالة ولا إشارة في القرآن أن أبد الخلود لا نهاية له إطلاقاً.

وأما بالنسبة للجنة فأبدها لا نهاية له فإنها قضية الرحمة الواسعة فلا تحد، وإنها عطاء غير مجذوز، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وقد يقال أو ما يكفي العصاة أن لا ثواب لهم ولا عذاب، والجواب: إذاً انقطع الإنذار، وفي ترك جزاء الظالم ظلم على المظلومين فليكن عذاب.

والقول أن الآبدين في النار ذاتيتهم هي النار فهم إذاً لزام النار دون فكاك، مردود أولاً أن الذاتية النارية لا تحكم باللانهاية فيها وإنما تحكم بأنها تحرق ما دامت موجودة، ولكن العدل الإلهي يحكم بلزوم إفناء الذاتيات النارية بعدما ذاقت وبال أمرها، ولا تتصور اللانهاية في الذات المحدودة.

فخروج هذه الذات النارية عن النار أو خروج النار عنها - صدقنا أنه تنافي هذه الذاتية، وأما فناء الذات فهي لا تنافي هذه الذاتية وإنما تنافي الأبدية الذاتية وهي السرمدية.

والقول إن الكتاب نص في الخلود وارد، ولكن الخلود ليس نصاً فيما يعنونه من الخلود وهو العذاب اللانهائي، وادعاء كون ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2] نصاً في هكذا خلود نص في عدم التفكر في الآية، وأما أن سنة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

أهل البيت عليهم السلام مستفيضة فيه فلا نرى إلا حديثاً أو حديثين تخالف الكتاب.

وأما أن الهيئات التي رسخت في النفس حتى صارت صوراً أو كالصور الجديدة تعطي للشيء نوعية جديدة، هي مجردة في نفسها دائمية الوجود من غير زوال مثل المبتلى بالجنون فإنه مستمر له لا يزول؟ فلا مجرد في الكون إلّا الله، والذاتية المجردة - على صحتها - لا تستدعي اللانهائية.



﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا

تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾:

قاحل يخلف اللّوم والحسر.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

آيات تجمع بين الوالدين في أحكام أكثرها الإحسان بهما وكثير منها تجمع إليهما غيرهما، وهذه مما تخصهما بالاحترام بعد الله لا تحريماً للاحترام فقط وإنما الإحسان وأي إحسان[1] ولا تجد تفصيلاً في غيرها كما فيها، وقد تختص بالقضاء دون غيرها حكماً ومحكوماً له. محتوماً مقضياً لا حول منه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقد نرى ردف الوالدين بالرب فيما يوصي أو يقضي للوالدين إلا قليلاً يردفان فيها بالله تدليلاً على أن حق الوالدية كحق الربوبية وبعدها لأنها استمرارية للتربية الإلهية، فكما الرب الله لا يعبد إلا إياه ولا يساوى أو يسامى به سواه، كذلك الرب الوالدان لا يساوى بهما سواهما في الإحسان، اللهم إلا رسل الله حيث

(١) راجع ج ٢٦ الفرقان ص ٢٩ - ٣٠٩ تفسير الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا...﴾ [الأحقاف: ١٥] والذي قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ...﴾ [الأحقاف: ١٧] تجد تفصيل البحث في حقوقهما هناك.

يحملون من التربية الإلهية ما لا يحمله الوالدان اللهم إلا في الولادة الجسمية وتربيتها وقد يشمل «الوالدين» كلتا الولادتين الروحية والبدنية فهما على درجات: الوالد الروحي الأول وهو المجرى الأول للولادة الروحية: أهل بيت الرسالة المحمدية، ثم من يحذو حذوهم في التربية الإلهية، ثم الأدنى الوالد الجسمي الذي لا يعني التربية الروحية، ثم بينهما أوساط، فكلما ارتفعت درجة الوالدية ارتفعت ميزانية الإحسان، ثم الإحسان بالوالد الروحي يختلف عما للوالد الجسمي، ويجمعها المواجهة بالحسنى في عِشرة روحية اماهيه وفي الحديث عن النبي ﷺ: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة» وعن الإمام علي عليه السلام «ولدني رسول الله ﷺ».

هذا القضاء حكم تشريعي صارم وفصل قاطع حاكم تحمل سلبيات وإيجابيات، ترى أنهما تختصان بـ «ربك» أم و«الوالدين»؟ أم تشمل كافة الإيجابيات والسلبيات التالية الاثني عشر: أمرين ونواهي عشرة قد تحتملها الآية، أو أن الشمول أقرب فإن ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ...﴾ أو أن الأوجه هنا اختصاصها بالرب والوالدين[1] ثم الشمول، وجوه تحتملها الآية تلو بعض.

والحكمة هي القضاء بما يربط بين المنفصلات.

---

(١) قد توحي: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] دون وأن بالوالدين أم ماذا - باختصاص هذه القضاء بتوحيد الله، ثم يتلوه ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم سائر الأحكام، وقد تؤيده الآية السالفة لها ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ [الإسرَاء: ٢٢] أو أن القضاء له مراحل ثلاث: لله - للوالدين - ولسائر الأوامر والنواهي التالية، أو يقال إن القضاء هنا قضى به لا فيه أو عليه أوله أو قضاه، فإن قضى به حكم تشريعي، فلا تشمل إذاً ألا ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ...﴾ أي «بأن لا تعبدوا»... ثم ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ أي قضى «بإحسان الوالدين» بأن أحسنوا بالوالدين إحساناً ثم لا موقع لسائر الأوامر والنواهي ولا سيما أن الأمر تقدير للباء، فإن ﴿وَءَاتِ...﴾ [الإسرَاء: ٢٦] لا تتحمل الباء، اللهم إلا «بأن آت ذا القربى حقه» كما في «بأن أحسنوا...».

فإن القضاء هذه تبدأ بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وتنتهي بمثلها ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ حيث تجمعهما ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسلبيات هذه القضاء بادئة من ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وإيجابياتها من ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ كما وأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تحتل المحور الأساسي والمركز الرئيسي في كافة الأقضية التكوينية والتشريعية سواء، فقصارى شرعة الإسلام وكل شرعة إلهية هي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾!.

﴿وَقَضَىٰ﴾[1] أمر وحكم[2] في صيغة القضاء تخلع على الأمر معنى التوكيد أنه بَتٌّ جزم لا ينسخ، تمام لا ينقطع. إلى جانب الحصر المستفاد من الاستثناء ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فصيغة التعبير تصوغ توحيداً سائغاً لكيان الربوبية الوحيدة، وهي أولى الأقضية وأولاهما كما وهي عقباها وأخراها.

ولماذا ﴿وَقَضَىٰ﴾ هنا ﴿رَبُّكَ﴾ لا: رب العالمين ولا: الله؟ لأنه يعني في هذه الأقضية الجوانب التربوية، لتكن منوطة مربوطة بجانب الربوبية، فربوبيته هي الحاكمة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ - ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أم ماذا؟

---

(١) ومن الأقاويل هنا في قضى ما رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: كان الأصل «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين بالصادق فقرئ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم قال: ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لأن خلاف قضاء الله ممتنع! أخرجه في الدر المنثور ٣: ١٧٠ عن ابن عباس بعدة طرق وعن ابن مسعود والضحاك بن مزاحم وأخرج ضده عنه مجاهد وقد جاء القضاء بمعنى الحكم الشرعي الثابت في آيات أخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

أقول: وهذه من الأقاويل الحمقاء التي تفتح باب التحريف في القرآن الحكيم، ولم يدر المختلق المسكين أن القضاء لا تختص بالتكوين فقد تكون تشريعياً كما هنا، ولو أن القاف تشتبه بالواو لكان مثله وأدنى منه كثيراً في القرآن فلا اعتماد إذاً في كتب القرآن.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٤٨ عن التوحيد بإسناده إلى ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! فما القضاء والقدر اللذان ساقانا وما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بهما؟ فقال عليه السلام: الأمر من الله والحكم ثم تلا هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ . . .﴾ [الإسراء: ٢٣] أقول: يعني هنا خصوص الأمر التشريعي أو ما يشمله ثم يمثل بهذه الآية التي تحمل هذا الأمر.

ومن ثم ﴿رَبُّكَ﴾ توحي بهذه التربية العالية التي تفوق العالمين أجمعين، فعلى ضوء التربية المحمدية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بهذه الأقضية ولكن تربو ربوةً عالية على كافة التربيات ولأنها قضاء في الأمة المرحومة في شرعة تجمع الشرائع وزيادة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ نهي كأول مورد للقضاء أو تفسير لها(١).

وقضاء التوحيد هي القاعدة والأساس، تتبناها سائر التكاليف العقلية وسواها، فردية وسواها، فلها في نفس الموحد ركيزة التوحيد، توحد البواعث والأهداف في كافة الجنبات الحيوية أن يصبح ككل توحيداً في عبادة الله. وكذلك يتمثل ككل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أن أحسنوا بالوالدين إحساناً(٢) في حال ومال. في حل وترحال، في كل حال على أية حال، لا فقط أن الإساءة إليهما محرمة، بل وترك الإحسان بهما محرم، فالإحسان يشمل كل ظاهرة في العشرة حتى وفي المشي والقعود والتسمية وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ(٣).

يفرض هنا وهناك إحسان الأولاد بالوالدين ولا يفرض العكس، لأن البنوة والناشئة المتغافلة الجديدة هي المحتاجة إلى استجاشة وجدان البر والرحمة، حيث الوالدان مندفعان بالفطرة إلى الإحسان بالأولاد، لا ينسونهم أو يتناسون حتى وإذا نسوا أنفسهم. ولكنما الناشئة فسرعان ما ينسون أو يتناسون عطف الوالدين، ملتهين بشؤونهم أنفسهم في تبني الحياة

---

(١) فعلى الأول تقدر الباء «بأن لا تعبدوا» وأن ناصبة ولا تعبدوا نفي بمعنى الأمر وعلى الثاني دون تقدير وأن مفسرة ولا تعبدوا نهي.

(٢) وأن هنا مفسرة دون تقدير للباء إذ لا تدخل الناصبة على غير المضارع اللهم إلّا على تقدير أن تحنوا.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت أتى رجل رسول الله ﷺ ومعه شيخ فقال: من هذا معك؟ قال أبي قال: لا تمشين أمامه ولا تقعد قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسبَّ له.

الجديدة، لا سيما إذا شاخ الوالدان وساءت أخلاقهما وصعبت حياتهما وثقلت عليهم حِمل أعبائهما، لذلك فالجيل الناشئ هو المحتاج لقضاء الله ووصيته، استجاشة لدفائن وجدانهم ليذكروا واجبهم وجاه الجيل الذي أنفق رحيقه كله في انتشائهم حتى أدركه الجفاف.

ولكن هل الوالدان كلهم يعملون واجبات الوالدية التربوية وجاه الأولاد لكي لا يحتاجا إلى استجاشة كما الأولاد؟

قد يقال إن المقام هنالك مقام الإحسان لا واجب التربية، وإن كان الإحسان يشمل الجانب التربوي إذا كان الولد أقوى تربية وأرقى من الوالدين فالرعاية التربوية واجبة على كل راع وكلكم مسؤول عن رعيته الوالدان أو الأولاد أم من ذا، والأقربون أولى ثم من دونهم وكما يستطيع في الشعاع التربوي ولا تعني تلك القضاء وتلكم الوصيات بحق الوالدين إلا الحنان والإحسان في العشرة، مهما شملت أحياناً التربية.

ولكي يراعي الوالدان أيضاً أولادهم فلا يضاروهم فـ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ...﴾[1] إن في رضاعة أم ماذا، ومن المضارة التقصير في المحبة والتربية، فالوالدان - إذاً - يؤمران بترك المضارة بأولادهما، ولكنهما يفوقان الأولاد في واجب الإحسان حناناً واحتراماً، فواجب الإحسان أمر، وواجب التربية أمر آخر قد يختلطان وقد يفترقان.

يقضي الله تعالى هنا بالإحسان إليهما، ومن أفضل الإحسان وأوجبه هديهما إلى الحق إن خالفاه فسقاً أم ضلالاً أم ماذا، فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبة عامة، ثم وقاية الأهلين خاصة.

ثم هي بالنسبة للوالدين أخص، إذاً فهي واجبة بالنسبة لهما في أبعاد ثلاثة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

ومن ثم يركز قضاء الإحسان بهما على أضيق حالاتهما، حيث يضاف سوء الخلق إلى أعباء الكبر ونظراتهما الطائلة من الناشئة، أن من واجب الأولاد تحمُّل مثلث الأعباء أم ماذا؟ دون تلفُّت عنها أو تفلُّت منها ولا تعنت حتى في أدنى لفظه من قول ﴿أُفٍّ﴾:

﴿... إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾:

... كما بلغت عندهما من الطفولة إلى الحلم، وإلى الكهولة أم ماذا! ولم تر منهما إلا الإحسان، إما يبلغن... [1] ترى وما هي الملاءمة بين «إن» الشرطية ونون التأكيد القاطعة؟ علها التأكيد على تحصيل هذا الشرط أن يجدّ الأولاد لكي تستجد عيشتهما عندهم باستمرار ما هما حيان لا أن ينفصلوا عنهما أو يفصلوهما عنهم إذا كبر أحدهما أو كلاهما، بل ويستمروا في العيشة الراضية معهما، ويهتموا رقابة على صحتهما أن يكبرا عندهم، تقديماً لكافة الإمكانيات في كافة الجهات للحفاظ على سلامتهما وعلى كونهما عندهم.

أنت كنت عندهما لحد الآن. فليكونا عندك من الآن، فـ ﴿عِندَكَ﴾ توحي بحالة الالتجاء فالإلجاء، التجاء بالتجاء وإلجاء بإلجاء وهو بعد لن تكون جزاءً وفاقاً حيث ألجاك في طفولتك ولا ملجأ لك إلا والداك، وأنت تلجئهما في شبابك وهما في كهولة أو زاد «فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما»[2].

---

(١) أما هي أن الشرطية وما المؤكدة حيث تسمح لدخول نون التأكيد. فـ«إن» ضرورة لبيان ظرف الشك إذ لا يعلم أنهما يكبران عندك أم لا، ثم «ما» المؤكدة وتقدم «عند» ونون التأكيد الثقيلة، هذه كلها تأكيدات تفرض على الأولاد أن يقدموا كل إمكانياتهم لبقائهما عندهم وأن يكبرا عندهم.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢ : ٥١٤ روى سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء وقال رجل=

وطبيعة الحال في الوالدين لا سيما إذا كبرا، فلم يقدرا على تحصيل بلغة المعاش مادياً أم ماذا؟ وهما عندك بما عندك أهل وأولاد، وهما ينتظرانك أن تعطف لهما كل عطف، فهما لهذا وذا قد يغيظان عليك ويسيئان أخلاقهما إليك، في هذه الحالة الصعبة الملتوية ماذا عليك؟

عليك التصبر والاحترام، دون أي تضجر واخترام، لا يسمح لك حتى في أقل لفظة تحمل أدنى تضجر: ﴿أُفٍّ﴾: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ فضلاً عن أن تنهرهما: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ حتى وإن نهراك أو ضرباك! فلا فحسب عليك سلبية أف أو نهرٍ أم ماذا من إساءة، بل وعليك الإحسان إليهما وأي إحسان؟ في قول: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ ومن ثم فعل ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ ولكنك لحد الآن ما أديت حق الإحسان إليهما، فعليك الالتماس من ربك أن يكفّي هو هذا الإحسان ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾!.

قول ﴿أُفٍّ﴾ لهما محرم، ثم نهرهما محرم، وترك قولٍ كريم لهما محرم، وترك خفض الجناح لهما من الذل محرم، وترك القول ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا...﴾.

محرم وأين خماسية التحريم هذه؟ فيما إذا اجتمعت لهما عليك شروطُ تضجرك، إن بلغا عندك الكبر! فما هي الواجبات والمحرمات عليك وجاههم، إذا لم يبلغا الكبر ولم يكونا عندك ولم يضجراك؟.

قد تشمل ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إحساناً في هذه الخمس وما بعدها، ابتداءً بترك أدنى إساءة «أف أو نهر» فسائرها أولى بالترك، ثم القول الكريم،

= لرسول الله ﷺ: إن أبويّ بلغا من الكبر أنّي ألي منهما ما وليا مني في الصغر فهل قضيتها؟ قال: لا فإنهما...

ثم الفعل الكريم ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا﴾ ومن ثم دعاء كريم ﴿رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا...﴾ وهذه في تضيق أخلاقهما إن كبرا عندك، فماذا بعدُ وهما في حالة الاستغناء عنك والحنان عليك؟.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ...﴾ وهو أدنى العقوق[(١)].. وفي ﴿أُفٍّ﴾ وجوه لفظية عشرة[(٢)] هذا أوجهها قضية كتبها في تواتر القرآن فلا يصغى إلى صيغ أخرى، كما لها وجوه معنوية ست[(٣)] يجمعها إظهار التضجر وكما في الفارسية (أه) (أو) والحق أنها لا تعني إلا ما تعنيه صيغة اللفظ وأصله نفخك للشيء يسقط عليك من تراب أو رماد، وللمكان تريد إماطة الأذى عنه.

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٧١ عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: ...
وفي نور الثقلين ٣: ١٤٩ عن أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أدنى العقوق أف ولو علم الله شيئاً أهون منه لنهى عنه في حديث آخر عنه عليه السلام ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه فيحد النظر إليهما.
وفيه عن أبي المأمون الحارثي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام ما حق المؤمن على المؤمن؟ قال: من حق المؤمن على المؤمن المودة له في صدره - إلى أن قال -: وإذا قال له أف فليس بينهما ولاية.

(٢) تفسير الفخر الرازي ج ٢٠ ص ١٨٨ - قال الزجاج فيه سبع لغات: كسر الفاء وضمها وفتحها، منوناً وسواه، والسابعة «أفي» وذكر ابن الأنباري نقلاً عن الزجاج ثلاثة وجوه أخرى (إفي) بكسر الألف وفتح الفاء و(أفه) بضم الألف وإدخال الهاء و(أف) بضم الألف وتسكين الفاء.
قرأ ابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين، ونافع وحفص بكسر الفاء والتنوين، والباقون بكسر الفاء من غير تنوين، وكلها لغات وعلى هذا الخلاف في الأنبياء (أف لكم) وفي الأحقاف (أف لكما).
أقول فهذه عشرة كاملة هي: «إف أفِ - أفّ - إفّ - أَفّ - أُف - أفّي - أُفّة - أُفّ» وقد ذكرها ابن منظور الافريقي في لسان العرب ج ١ ص ٧٣.

(٣) وهي: الوسخ الذي حول الظفر والتف الذي في الظفر - وسخ الأذن والتف وسخ الإطفاء - الأفف: الضجر والقلة - كلمة تضجر - جعل يتأفف من ريح وجدها ومعناه يقول: أف أف - ذكرها في لسان العرب والتفسير الكبير للفخر الرازي.

ثم الأف منها لفظي ومنها نظرة بغضاء أو حركة أو كتابة أم ماذا؟ وكما يروى عن النبي ﷺ: «ما أباه من حد إليه الطرف»[(١)].

فالأفُّ وهي أدنى العقوق تشير إلى أدناه في لفظة أو لمحة أم ماذا من مظاهر التضجر دون اختصاص.

وإذا يحرم أن تقول لهما ﴿أُفٍّ﴾ فبأحرى أن تنهرهما أو تسبهما أو تضربهما، ولأن الأف قد ينتهي إلى النهر يثنيه بـ: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ زجراً بالصياح ورفع الصوت عليهما والإغلاظ في القول حيث يشي بالإهانة وسوء أدب... لا - و - لا! وإنما: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾: قولاً يحمل إكرامهما وإن ضرباك أو أهاناك، وكرم القول هو التوسع في عطوفته ولينته، ومن العطف بهما أن تأمرهما بمعروف تركاه وتنهاهما عن منكر اقترفاه، كأن يسيئا إليك أم سواك ظلماً، وتراعي في كل ذلك أن لا ﴿تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾.

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾:

اخفض لهما... كما خفضا لك وأين خفض من خفض؟ اخفض لهما جناح الذل، لا جناح العزو الكبرياء أن ترعاهما تحت جناحك امتناناً وامتهاناً، حتى ولو كانت رعاية كاملة كافلة، فإنه جَناح فيه جُناح، وإنما جناح الذل الخافض من الرحمة مثلث من الرعاية يحمل أرحمها وأتمها.

فليكن كلك لهما جناحاً، من فكرة أو قولة أو فعلة، من مال أو حال أو منال، وليلمسا أنهما عندك في جناح أياً كان وأنّى وأيان، ومن ثم ذل في

(١) الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان عن عائشة قالت قال رسول الله ﷺ: ...

وفيه ٣: ١٧٢ عنه ﷺ قال: ما من ولد بار ينظر إلى والديه نظرة رحمة إلا كتب الله له بكل نظرة حجة مبرورة. قالوا: وإن نظر كل يوم مائة مرة؟

قال: نعم الله أكبر وأطيب.

كل جناح، وليكن جناح الذل ثابتاً من أصول الرحمة، جانحاً طاقات العطوفة، فترك بسط الجناح لهما جُناح، وجَناح العز جُناح، وجَناح الذل من دون رحمة جناح، وإنما جناح الذل من الرحمة[١] فرغم أن الجناح لا يعني لصاحبه إلا أن يطير به، فهو وجاه الوالدين فرش لهما يعيشان عليه، أو يطير به الوالدين إلى مآربهما، كما الطائر إذا يطير يرفع جناحه وإذا يرعى فرخه يخفضه من الرحمة، وخلاصة المعني من خفض الجناح الإخبات للوالدين وإلانة القول لهما والرفق واللطف بهما.

في كلِّ ذلك يشترك الوالدان. مسلمين كانا أو كافرين ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾[٢] معروفهما وهو هكذا إحسان إليهما.

ثم يختص الوالدان المسلمان بمزيد الإحسان حيين كانا أو ميتين أن تدعو لهما بخير وتستغفر ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾.

فـ ﴿ٱرْحَمْهُمَا﴾ من الرحم والرحمة بالنسبة للدنيا وللآخرة، أم وللدنيا

---

(١) أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام في آية الوالدين سئل ما هذا الإحسان؟ فقال: الإحسان أن تحسن صحبتهما وأن لا تكلفهما أن يسألاك مما يحتاجان إليك وان كانا مستغنيين أليس الله يقول: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عِمرَان: ٩٢] ثم قال عليه السلام: وأما قول الله عز وجل: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ...﴾ [الإسرَاء: ٢٣] أن أضجراك فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما إن ضرباك ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسرَاء: ٢٣] إن ضرباك فقل لهما غفر الله لكما فذلك قول كريم ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسرَاء: ٢٤] لا تمل عينيك في النظر إليهما إلا برحمة ورقة ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما ولا يدك فوق أيديهما ولا تقم قدامهما.

وفي الدر المنثور ٣: ١٧٤ - أخرج ابن أبي شيبة عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من أصبح مطيعاً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من الجنة وإن كان واحداً فواحد ومن أمسى عاصياً لله في والديه أصبح له بابان مفتوحان من النار وإن كان واحداً فواحدة قال رجل: وإن ظلماه؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: وإن ظلماه وإن ظلماه وإن ظلماه.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

فقط كما للمشركين فإن الاستغفار لهما ممنوع: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ . . .﴾[1] [2] فإذا تبين أن الوالدين أو أحدهما من أصحاب الجحيم لا يسمح لهما الاستغفار حياةً ومماتاً، اللهم إلا طلباً للرحمة الإلهية أن تشملهما حالة الحياة بأن يؤمنا أو يخففا عن شركهما، وهذه الآية وإن كان بينها وبين آية الوالدين عموم من وجه تتوارد أن في الوالدين المشركين إلا أن هذه نص في العموم بدليل الإشراك من بعدما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم فلتقيد آية الوالدين دون ريب.

وقد تلمح ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ أن الرحمة المطلوبة هنا هي الدنيوية، ولكنها ليست رحمة إذا لم تتبعه الرحمة الأخروية أو منعتهما إياها، إذاً فالرحمة المطلوبة هي الملائمة للحياة الآخرة، منذ الدنيا أم في الآخرة. إلا أن رحمة الاستغفار للمشركين مقطوعة ممنوعة عنهما وإن كانوا أولي قربى:

والدين أم من ذا؟ من بعدما تبين أنهم أصحاب الجحيم، وأما قبل التبيُّن فمسموح لهما الاستغفار وإن كانوا مشركين، لا إن ماتوا مشركين.

وترى إذا كانت قوله «الأف» لهما محرماً، فكيف يقول إبراهيم للمشركين

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١١٣.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق علي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا . . .﴾ [الإسراء: ٢٤] ثم أنزل الله بعد هذا: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ [التوبة: ١١٣].
وفيه عن ابن عباس وقتادة قالا: نسختها الآية التي في براءة ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ . . .﴾ [التوبة: ١١٣] أقول: هذا تقييد لإطلاق آية الاسترحام ولأن القرآن كان ينزل نجوماً من عام وخاصه ومن مطلق ومقيده، لذلك قد لا يعتبر مثل ذلك نسخاً، أو يقال: أريد الإطلاق أولاً ثم نسخ الإطلاق، ولكن ﴿مَا كَانَ﴾ يضرب إلى أعماق الماضي أن هذا الاستغفار كان محرماً منذ البداية، وعله كان من الضروري عدم جواز الاستغفار للمشركين من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم. . .» ثم النسخ على خمسة أقسام: نسخ العموم أو الإطلاق أو الخصوص أو التقيد أو نسخ مباين جزئياً.

وفيهم أبوه آزر، ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾(١) ثم وما فـــوق الأف ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

والجواب عن أفٍ أن آزر لم يكن والده وإنما عمه ثم هذا الأف موجه إلى ضلال الشرك أياً كان وفي أي كان، وكذلك ﴿ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث الدعوة الرسالية وتفنيد الضالات واجبة إطلاقاً، وقد تكون بالنسبة للوالدين أوجب رحمة بهما أن يهتديا إلى صراط مستقيم.

ثم إن حرمة الوالدين ليست لتمنع عن حرمة الله فلم يجعلهما الله شريكين لنفسه أو زاد وإنما فرض الإحسان إليهما وطاعتهما فيما لم يعارض طاعة الله وما افترضه الله.

وإنها لذكرى حانية، الطفولة الهزيلة الضعيفة حيث يرعاها الوالدان.

فلأنك لا تسطع مقابلة لهما بالمثل تطلب من ربك أن يرعاهما كما ربياك صغيراً، حيث هما اليوم في مثل حالة الطفولة من الضعف والحاجة إلى الحنان والرعاية، وهو القادر على جزائهما عما بذلا وقدما لك في الطفولة.

وهو الرحمن الرحيم يجازيهما في الأخرى، أم في الأولى، أم فيهما، لما تسترحم ربك لهما، اللهم إلا فيما لا يقبل الرحمة: أن يموتا مشركين، فرحمتهما إذاً يخص الأولى.

وترى هل من الإحسان إليهما وترك الإساءة لهما ترك الواجب أو فعل الـحـرام؟ قـد تـلـمـح ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٦٧.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٤.

تُطِعْهُمَا... ﴾[١] إن ما دون الشرك من الحرام مسموح إحساناً بالوالدين، إلا أن ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾[٢] تحصر طاعتهما في الأمور الدنيوية، غير المربوطة بالآخرة، ثم القضاء الأول ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ تحصر الطاعة في الله، فلا طاعة لمخلوق في معصية الله، اللهم إلا الواجبات غير التعيينية التي لها مندوحة فضلاً عن المستحبات، اللهم إلا إذا كان النهي عنها معارضة لشرعة الله، وعلى أية حال ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ ما استطعت دون أن ترضيهما بسخط الله، فإذا تهجرهما هجرة إلى الله فحاول في أن تضحكهما بعد البكاء[٣] ولما تريد الجهاد «ففيهما فجاهد»[٤] إذا لم يكن فرض عين.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٥.

(٣) الدر المنثور ٢: ١٧٣ - أخرج الرزاق في المصحف والبخاري في الأدب والحاكم وصححه والبيهقي عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يبايعه على الهجرة وترك أبويه يبكيان قال: فارجع إليهما وأضحكهما كما أبكيتهما.

(٤) الدر المنثور ٣: ١٧٢ - أخرج عبد الرزاق وابن أبي شيبة والبخاري ومسلّم عن عبد الله بن عمر قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ يريد الجهاد، فقال: ألك والدان؟ قال: نعم، قال: ففيهما فجاهد.

أقول: لعل المسؤول عنه هو مطلق الجهاد، أو الجهاد الذي لم يكن فرض عين.

وفيه أخرج سعيد وابن أبي شيبة وأحمد والنسائي وابن ماجه والحاكم وصححه والبيهقي عن معاوية بن جابر عن أبيه قال: أتيت النبي ﷺ أستشيره في الجهاد فقال: ألك والدة؟ قلت: نعم - قال: اذهب فالزمها فإن الجنة عند رجليها وأخرج مثله عبد الرزاق عنه ﷺ وأضاف ثم الثانية ثم الثالثة لمثل ذلك» أقول: لعله يعني الرجعة إليه ﷺ أو الاستشارة إليه ثانية، وثالثة فقال: كمثل ذلك.

وفيه أخرج ابن مردويه والبيهقي عن أنس أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: إني أشتهي الجهاد ولا أقدر عليه فقال: هل بقي أحد من والديك؟

قال: أمي قال: فاتق الله فيها فإذا فعلت ذلك فأنت حاج معتمر ومجاهد، فإذا دعتك أمك فاتق الله وبرها.

=

إن فرض طاعة الأبوين والإحسان إليهما هو بعد فرض الله تعالى فلا يتعارضان حتى يؤخذ بالأهم ولا أهم إلا فرض الله، ولا تعارض بين الفرض المخير فيه من الله والفرض القاطع وجاه الأبوين، اللهم إلا في الكفائي إذا كان تركه ينقص الكفاية، وإذا كان نهيهما عن المستحب لصالح له أو لهما يتنجز الترك، وأما النهي دون صالح فلا، مهما كان «رضا الله في رضا الوالدين وسخطه في سخطهما»[1] فإنه فيما لم ينافِ رضى الله أو يستوجب سخط الله!.

ففي الاستنفار العام للجهاد أو الدفاع أو أي واجب جماعي يجب النفر ولا يمنعه منع الوالدين، وفيما دونه من الواجبات الكفائية أو التخييرية قد يفرضه أمرهما كما يمنعه منعهما اللهم إلا إذا كان عن عناد أم اللامبالاة بالدين فلا حتى في ترك المستحبات وفعل المكروهات، وجملة القول في حدود الإحسان بالوالدين ألا يكون فيه إساءة إلى الله أم إلى سواه دونما استحقاق، ولا يكون معارضة للشرعة الإلهية، ففيما أنت بالخيار فعلاً أو تركاً في المباحات والمستحبات والمكروهات وحتى الواجبات التخييرية أو الكفائية غير المنجزة قد ينجز أمرهما أو نهيهما فتصبح واحدة من هذه الخمس واجباً عليك معينة أو محرمة إذا كان في هذا التنجيز مصلحة لك أو لهما أو حناناً عليك منهما، دون أن يكون عن جهلهما أو تجاهلهما أو اللامبالاة منهما أم ماذا؟ مما هو إساءة بأحكام الله.

= وأخرج البيهقي عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لنومك على السرير بين والديك تضحكهما ويضحكانك أفضل من جهادك بالسيف في سبيل الله.

وأخرج عنه قال: مر رجل له جسم يعني خلقاً فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله فقال النبي ﷺ لعله يكد على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله لعلّه يكد على صبية صغار فهو في سبيل الله لعله يكد على نفسه ليغنيها عن الناس فهو في سبيل الله.

(١) تفسير الزمخشري ج ٢ ص ٥١٣ وفي هامشه يسنده إلى النبي ﷺ بعدة طرق.

ثم إن حرمة لفظة الأف أو لمحتها أو تضجر ظاهر بالنسبة للأبوين لا تمنع حليتها أو وجوبها في مقام إقامة البرهان لإثبات حق الله كما ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ. . . إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيث كان في مقام الاحتجاج لإبطال الشرك وإثبات التوحيد وهو واجب الدعوة الرسالية الأولى والأخيرة، إضافة إلى أن آزر لم يكن والده وإنما عمه أوجده لأمه، وحتى إذا كان والده كان قد أدى واجبه الرسالي.

ولقد أوصى الرسول ﷺ والأئمة من عترته بمختلف أشكال الإحسان بالوالدين لحد القول في الابن «أنت ومالك لأبيك»[1]!.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن[2] تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

قد تعني الآية الإجابة عما ربما يتقول: أننا في نفوسنا صالحون فماذا علينا في «أف» أو «ونهر» أم ماذا من جوارح الجوارح وجاه الوالدين؟ ما دامت نفوسنا صالحة لا تريد إلا الخير لهما؟.

والجواب: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ﴾ فلأن صلاح

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢: ٥١٤ من رواية سعيد بن المسيب شكا رجل إلى رسول الله ﷺ أباه أنه يأخذ ماله فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال: إنه كان ضعيفاً وأنا قوي وفقيراً وأنا غني فكنت لا أمنعه شيئاً من مالي واليوم أنا ضعيف وهو قوي وأنا فقير وهو غني ويبخل علي بماله فبكى رسول الله ﷺ وقال: ما من حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ثم قال للولد: أنت ومالك لأبيك أنت ومالك لأبيك» وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال ﷺ: لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر؟ قال: إنها سيئة الخلق قال ﷺ: لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظمأت نهارها؟
قال: لقد جازيتها قال ﷺ: ما فعلت؟ قال: حججت بها على عاتقي قال ﷺ: ما جزيتها ولو طلقة.

(٢) إن هنا ليست شرطية حتى تختص علم الله بما في النفوس بما إذا كانت صالحة وإنما هي وصلية.

النفوس تتمثل في صلاح الأعمال فالمسيء إلى الوالدين ليس من الصالحين، فهي ادعاء خاوية جوفاء أن صلاح النفس والنفس فقط هو المرغوب دون الجوارح في الأعمال!.

ثم وإجابة - كما يعني ذيلها - عمن قصر في حقهما وهو صالح دون تقصد، وإنما تلفّتٌ دون تفلُّت وعناد، وإنما خطأ جاهل دون فساد ناشئ من فساد النفس، فالجواب ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ فمن الصالحين - حين يخطأ - أوّابون ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ ثم لا صالح يخطأ وليس من الأوابين، اللهم إلا صالحاً يدعي الصلاح، وأنه أساء إليهما خطأً، فلأنه ليس صالحاً حتى يكون من الأوابين، لم يكن الله ليغفر له هذه الإساءة.

والأوابون هم الراجعون إلى الله دوماً معتذرين عما قصروا أو قصّروا، وقد وصف داود وسليمان وأيوب بالأواب، وبطبيعة الحال أواب حفيظ ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾[1] فهم أوابون فيما قصّروا، دون تقصير ينافي العصمة، والمقصرون كمن لم يراع حق الوالدين ليسوا من الأواب الحفيظ اللهم إلا في صلاح نفوسهم، فهناك أواب صالح حفيظ نفسيّاً وعملياً كأمثال داود وسليمان، وهنالك أواب صالح حفيظ نفسياً يتوب إلى الله إصلاحاً عملياً، ومن ثم أواب غير صالح ولا حفيظ، لم يعد الله له غفراناً اللهم إلا إذا آب وتاب صادقاً وأين أواب من أواب وغفران من غفران، غفران يستر القصور، وآخر فرضه الله على نفسه وثالث قد يكون من فضله، وقد يشمل الأوابين الطوائف الثلاث مهما تصدرت الآية بالوسطى، اللهم إلا الأوابين غير الصالحين الذين لا يتوبون إلا كالمستهزئين. إذ لا

(١) سورة ق، الآية: ٣٢.

يرجعون في أويتهم عما قصروا. فـ «الأوابون هم التوابون المتعبدون»[1] ومن سننهم «الورع والاجتهاد وأداء الأمانة وصدق الحديث وحسن الصحبة وطول السجود»[2] والأوابون قوم خصوص حتى في صلاتهم[3].

وهذه الآية هي الوحيدة حيث تحمل الأوابين بصورة عامة، دون أواب حفيظ أو أواب نبي، وإنما «الأوابين» فقط حيث تشملهما وغيرهما إذا كان صادقاً في أويته وتوبته.

﴿[4]وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾﴾:

في الأمر بإحسان الوالدين أتى بالجمع، فلم يخص الرسول ﷺ بالأمر بل ولم يعمه فإنه فقد والديه قبل الوحي بردح بعيد من الزمن، ثم هنا يخصه بالأمر وإن شمل كافة المكلفين على نحو القضية الحقيقية، حيث يناسبه من جهات عدة نأتي عليها، وإلى ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ... إِنَّ رَبَّكَ...﴾ ثم يعمم النهي عن قتل الأولاد خشية إملاق وقرب الزنا وقتل النفس وقرب مال اليتيم، كما ويعمم الأمر بوفاء العهد والكيل والوزن بالقسطاس المستقيم، دون أن يخصه أو يعمه هذا أو ذاك لنزاهة ساحته عن هذه وتلك، ويرجع أخيراً إلى خطابه كما في ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ في ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ و﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ و﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٥٣ عن تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام. يقول في الآية: هم...

(٢) المصدر عنه عليه السلام قال: يا أبا محمد عليكم بالورع و... وكان ذلك من سنن الأوابين.

(٣) المصدر هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من صلّى أربع ركعات في كل ركعة خمسين مرة قل هو الله أحد كانت صلاة فاطمة عليها السلام وهي صلاة الأوابين.

(٤) وأن المقدرة هنا قضيبة العطف على ألا تعبدوا ليست إلا مفسرة: إن آت، حيث الناصبة تختص المستقبل، ولعلها تصلح قرينة على السابقة لها أيضاً مفسرة فلا تقدير - إذاً - للباء إطلاقاً، وكافة الموارد المذكورة مصاديق لتفسير القضاء الأول.

فقد يشمله أو يخصه أمر أو نهي يناسب أمره ونهيه على وجه لا ينافي ساحة نبوته وعصمته، أم لا يخصه أو يشمله فيما لا يناسبه على أي وجه، كالقتل والزنا أم ماذا؟ وظاهر الخطاب المفرد موجه إليه أولاً ثم إلى سواه، إلا إذا لم يناسبه فعلى نحو القضية الحقيقية لكل مكلف دونه، وظاهر الخطاب العام يشمله كذلك إلّا . . .

هنا يؤمر هو أولاً بأوامر ثلاثة: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ. . .﴾ ترى ومن هو ﴿ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾؟

إنه صاحب القرابة الأدنى، والأولى والأولى بالرسول نسبياً ورسالياً، أن يؤتي حقه روحياً ومالياً، كما آتى فدكاً لأقرب ذوي قرباه فاطمة[1]

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٧٧ - أخرج البزاز وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال: لما نزلت هذه الآية ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ. . .﴾ [الإسراء: ٢٦]، دعا رسول الله ﷺ فاطمة فأعطاها فدكاً وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: لما نزلت أقطع رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً. ورواه مثله في جمع الفوائد عن أبي سعيد وينابيع المودة للحافظ سليمان بن إبراهيم القندوزي الحنفي ص ١١٩ وفي شواهد التنزيل حديث ٤٦٧ و٤٦٨ و٤٦٩ و٤٧٠ و٤٧١ و٤٧٢ و٤٧٣ مثله.

وفي نور الثقلين ٣: ١٥٤ ح ١٥٦ عن عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرضا عليه السلام مع المأمون في الفرق بين العترة والأمة حديث طويل وفيه في قول الله تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ خصوصية خصهم الله العزيز الجبار بها واصطفاهم على الأمة فلما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قال: ادعوا لي فاطمة فدعيت له فقال ﷺ: يا فاطمة قالت: لبيك يا رسول الله ﷺ فقال: هذه فدك هي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب وهي لي خاصة دون المسلمين فقد جعلتها لك لما أمرني الله به فخذ بها لك ولولدك.

وفيه عن الكافي عن علي بن أسباط قال: لما ورد أبو الحسن موسى على المهدي رآه يرد المظالم فقال: يا أمير المؤمنين ما بال مظلمتنا لا ترد؟ فقال له: وما ذاك يا أبا الحسن؟ قال: إن الله تبارك وتعالى لمّا فتح على نبيه ﷺ فدك وما والاها لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ ولم يدر رسول الله ﷺ من هم فراجع في ذلك جبرئيل عليه السلام فدعاها رسول الله ﷺ فقال لها: يا فاطمة إن الله امرني أن أدفع إليك فدك فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله ﷺ فلما ولى أبو بكر أخرج عنها وكلاءها فأتته فسألته أن يردها فقال لها: ايتيني بأسود أو أحمر =

ووصى فيها خيراً: «فاطمة بضعة مني وأنا منها فمن آذاها فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله» مؤنة مالية لكي تستغني هي وزوجها والأئمة من ولدها، معونة في بث الرسالة الإسلامية، ومعونة روحية تعرفها بها الأمة المرحومة.

وإنه علي عليه السلام حيث آتى حقه من التربية في حضنه وحضانته لحد قال: ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وزوّجه بضعته فاطمة إذ لم يحق لها غيره ولم تحق له غيرها، ثم آتاه حق الوصاية والخلافة[1] كما وآتى عترته المعصومين حقوقهم أن جعلهم خلفاءه من بعده تلو بعض[2]. إن ذوي القربى المأمور بإيتائهم في القرآن كثير حيث يؤمر المكلفون بإيتائهم والإنفاق عليهم، ولكن ذي القربى المأمور بإيتائه في أمر شخصي ليس إلا هنا وفي الروم: ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[3] وهي محتفة في ذيلها وما قبلها وبعدها بعموم دون خصوص[4].

= يشهد لك بذلك فجاءت بأمير المؤمنين عليه السلام وأم أيمن فشهدا لها فكتب لها بترك التعرض...».

أقول وروايات أصحابنا قريبة إلى متواترة في قصة فدك فلا نطيل.

(١) نور الثقلين ٣: ١٥٣ في أصول الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه عليه السلام ثم قال جل ذكره: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] وكان علي عليه السلام وكان حقه الوصية التي جعلت والاسم الأكبر وميراث العلم وآثار علم النبوة.

وفيه عن أبي الطفيل عن علي عليه السلام قال يوم الشورى: أفيكم أحد تم نوره من السماء حين قال: وآت ذا القربى حقه والمسكين؟ قالوا: لا.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٧٦ - أخرج ابن جرير عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال لرجل من أهل الشام: أقرأت القرآن؟ قال: نعم - قال: أفما قرأت في بني إسرائيل: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الإسراء: ٢٦] قال: وإنكم للقرابة الذي أمر الله أن يؤتى حقه؟

قال عليه السلام: نعم ورواه مثله الثعلبي عن السدي عن ابن الديلمي قال قال علي بن الحسين عليه السلام لرجل من أهل الشام (البرهان ٢: ٤١٥ - ٣).

(٣) سورة الروم، الآية: ٣٨.

(٤) فذيلها ﴿لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ﴾ [الروم: ٣٨] وقبلها ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الروم: ٣٧] وبعدها ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩].

ومكية الآية في السورتين لا تنافي القرابة الخاصة، حيث أخذ في الإيتاء منذ مكة لعلي وفاطمة تربوياً، وحتى المدينة إيتاء لفدكها وخلافته، أو تكون إحداهما مكية والأخرى مدنية! ومكية السورة لا تنافي مدنية آية أو آيات منها.

ولا نجد في آيات ذوي القربى - كما اليتامى والمساكين وابن السبيل - حقاً خاصاً لذي القربى إلا هنا وفي الروم، في خصوص قربى الرسول ﷺ، إذاً فلهم حق خاص ليس لسائر ذوي القربى أمن ذا، يعبر عنه هنا بـ ﴿حَقَّهُۥ﴾ وفي آيات المودة ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[1] ما يختصهم بحق لا يشاركهم فيه أحد من العالمين، فليس إذاً من الحقوق المالية - فقط - حيث يشاركهم غيرهم كما في آيات ذوي القربى أم من ذا؟، فإنما هو حق من بيت الرسالة الإسلامية هو استمراريتها في خلافتها المجيدة، مهما شمل بطياته حقاً مالياً للصديقة الطاهرة كفدك، هي بلغتها وبلغة زوجها وأولادها المعصومين، كمعونة لبيت الرسالة فإن دنياهم آخرة.

ثم لا تشترط المسكنة في واجب الإيتاء الا في المسكين أحوالياً وإلا في ابن السبيل حالياً، فيؤتى ذو القربى لقرابته واليتيم ليتمه وابن السبيل لضرورته، سواء أكانوا فقراء أم من ذا، ثم وهؤلاء درجات كما وذوو القربى درجات وعلى حدّ قول الرسول ﷺ: «ابدأ بمن تعول أمك وأباك وأختك وأخاك وأدناك فأدناك»[2].

ثم ولا يخص الإيتاء إيتاء المال بل ومطلق الإحسان كما تتطلبه الظروف والحاجيات: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤ : ١٧٧ - أخرج ابن أبي شيبة عن ثعلبة بن زهدم قال قال رسول الله ﷺ وهو يخطب: «يد المعطي العليا ويد السائل السفلى وابدأ بمن تعول...».

وَالْجَارِ ذِى الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ...﴾[1]، فإذا لا تستطع إيتاءً مالياً لليتامى والمساكين فأحسن إليهما في مواجهة أو توجيه بإحسان ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾[2].

وترى إيتاء الإحسان واجب مالي أو حالي كسائر الواجبات، نفقات أم ماذا؟ قد يقال: لا - اللهم إلا إحساناً بالوالدين، إذ لم يفت به الفقهاء! ولكنه كيف لا؟ والله يأمرنا بها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ...﴾[3] ويأمر بإيتاء من سواهم والإحسان إليهم مهما كان في حق معلوم كما في نفقات أم غير معلوم كما هنا وهناك.

ثم وإيتاء الحق مالياً له حدود واجبة وأخرى راجحة ومن ثم محرمة ليس حقاً وهو الإيتاء أم ماذا من صرف المال تبذيراً، فمهما كان إيتاء حق واجباً أم راجحاً فالإيتاء تبذيراً محرم يجعل المبذر من إخوان الشياطين! ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[4].

وإنها آية يتيمة منقطعة النظير في تحريم التبذير تحمل على وحدتها حملة قوية على المبذرين «إنهم إخوان الشياطين» أخوة في شيطنة التبذير، ثم لا نجد في سائر القرآن أخوة للشياطين إلا: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[5] ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[6] ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾[7] ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ

---

(١) سورة النساء، الآية: ٣٦.
(٢) سورة الضحى، الآيتان: ٩، ١٠.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٤) سورة الإسراء، الآيتان: ٢٦، ٢٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ١٢١.
(٧) سورة مريم، الآية: ٨٣.

كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾[1] رغم أن الأخوة في الأولى للكافرين، ثم لا أخوة وأنما ولاية وتنزل ورسالة، والأخوة تعني المعاونة المساعدة في أصول الشيطنة، والتبذير أخوة للشياطين!.

هنالك إسراف محرم أن تصرف فوق ما تحتاجه، ولكنما التبذير هو أن تصرف فيما لا تحتاجه أنت ولا غيرك حيث لا ينفع أم ويضر فإنه أنحس تبذير.

كلام حول التبذير:

فالإيتاء أياً كان قد يكون تجارة ومبادلة، أو إنفاقاً في سبيل الله دون ابتغاء جزاء ولا شكور إلا وجه الله، فهو إذاً بذر يغني بنفسه ويزداد، أو إسراف حيث تصرف المال في الخلال فوق الحاجة، أو تبذير حيث يكون إفناءً للبذر دون مقابل في الأولى ولا الأخرى، فهو تضييع في بعد واحد إذا لم يضر إلا فناء البذر، أو بعدين إذا أضر زيادة على الإفناء، كأن تشغل أرضاً سبخة مالحة صالحة لغير الزرع تشغلها ببذر حيث تفني البذر فلا تشغلها لصالح غير الزرع.

ثم التبذير لا يخص المال فإنه أدناه، حيث يعم كافة النعم مادية ومعنوية، من رميك النوى[2] حيث تفيد، ومن تولية إمرة المسلمين لغير أمير المؤمنين[3]، فتولية الأمر أياً كان لمن يحق عدل، ولمن لا يحق تضييع تبذير، وإن كان فوق ما يحق فإسراف وظلم، وإن كان لمن يحق فعدل، وإن

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٢٢١-٢٢٣.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٥٧ في تفسير العياشي عن بشر بن مروان قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام فدعى برطب فأقبل بعضهم يرمي النوى، قال: فأمسك أبو عبد الله عليه السلام يده فقال: لا تفعل إن هذا من التبذير وإن الله لا يحب الفساد.

(٣) المصدر في محاسن البرقي بسنده عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] قال: لا تبذر ولاية علي.

كان دون ما يحق فتقصير وظلم، وهذه كلها تجري في كافة النعم حيث تؤتى من مال أو منال أو منصب أم ماذا؟.

فتبذير المال هو أن تنفقه في غير حقه قليلاً أو كثيراً إذ ليس هو الكثرة في الإنفاق إنما هو وضع الإنفاق وموضعه، ونية الإنفاق وموقعه فـ «من أنفق شيئاً في غير طاعة الله فهو مبذر»(١) «وما أنفقت رياءً وسمعة فذلك حظ الشيطان»(٢) ومنه إنفاقك مالك كله ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾(٣) وهو أدنى الإسراف لحد قد لا تشمله الآية في أخوة الشياطين حيث الرسول ﷺ بعيد كل البعد عن هكذا تبذير(٤) اللهم إلا نهياً تنزيهياً تعطفاً عليه يشمله صدر الآية ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ ثم الذيل ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ لا يشمله ﷺ أبداً. بل الصدر أيضاً حيث التبذير هو ألا تنتفع ولا تنفع بما تدفع وقد تضر أو تتضرر، وليس منه إنفاق مالك كله في سبيل الله فتقعد ملوماً محسوراً ولا إنفاقك منًّا أو أذى، أم ماذا من موارد الإنفاق التي ليست هدراً كله ولا ضراً كله، وإن كان ممنوعاً منهياً عنه.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٥٦ في تفسير العياشي عن عبد الرحمن بن الحجاج قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] قال: . . . ومن أنفق في سبيل الله فهو مقتصد.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٧٧ - أخرج البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: ما أنفقت على نفسك وأهل بيتك في غير سرف ولا تبذير وما تصدقت فلك وما أنفقت. . .

(٣) تفسير البرهان ٣: ٤١٦ عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٦] قال: بذل الرجل ماله ويقعد ليس له مال قال: فيكون تبذير في حلال؟ قال: نعم.

(٤) ومن الدليل على الشمول، ما في الدر المنثور ٦: ١٧٧ - أخرج أحمد والحاكم وصححه عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني ذو مال كثير وذو أهل وولد وحاضرة فأخبرني كيف أنفق وكيف أصنع؟ قال: تخرج الزكاة المفروضة فإنها طهرة تطهرك وتصل أقاربك وتعرف حق السائل والجار والمسكين فقال يا رسول الله ﷺ! اقلل لي قال ﷺ: فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً - قال: حسبي يا رسول الله ﷺ.

والنهي عن التبذير مطلق لنفسه ولمكان ﴿تَبْذِيرًا﴾ يشمل تبذير النفس والنفيس، فتبذير النفس محرم أياً كان، أن يهدر الإنسان نفسه انتحاراً أم تعريضاً للقتل أو الجرح أو المرض أو أية إصابة بدنية أو روحية دون مقابل موازن أو هو أرجح.

كذلك وتبذير المال أن تصرفه في غير حلال أو تهدره دون صرف، أم في حلال برئاء أو سمعة أو منٍّ أو أذى، أم في حلال باستئصال المال أن تبسط يدك كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً، مهما اختلفت أخوّة الشياطين في هذه وتلك.

وبأحرى منعاً صرف المال فيما يضرك نفسياً أم ماذا، كالدخان وأخواتها من سائر المخدرات، التي تضرك مالياً ونفسياً، وكلما كان عدم الانتفاع في الإيتاء أكثر، والضرر أكثر، ومن حيث الشمول أوسع فحرمة التبذير أكثر وأخوة الشياطين أوفر.

ولأن ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[(١)] ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[(٢)] والتحديث بنعمة الله إظهارها وصرفها في مرضاة الله، فتبديلها إذاً يخلف شديد العقاب: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[(٣)] تبديلاً إلى غير نعمة أو إلى كفر ونقمة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[(٤)].

ولأن «الشيطان كان لربه كفوراً» فهؤلاء المبذرون ﴿كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في كفرانهم بنعم الله هدراً لها أو صرفاً في غير حلها».

إذاً فالتبذير في دَولة أو دُولة، في نفس أو نفيس، في علم أم ماذا من

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١١.

(٤) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.

نعم الله تعالى كل ذلك كفران بنعمة الرب وأخوة للشياطين. فتولية الأمر لمن لا يستحق تبذير، وتوليته فوق ما يستحق إسراف، كما أنها دون استحقاقه ظلم، وكذلك كل امر له مثلث القصور والتقصير والتبذير.

ليس التبذير - بطبيعة الحال - إلا فيما يؤتيه المبذر، وكما الآية تفتتح بالإيتاء، ولا يخص كما سلف إيتاء المال كما الإيتاء في الآية لا يخصه، فقد يشمل التبذير نفس الإنسان ونفائسه من علم أو منصب أم ماذا، فتعليمك علوم الدين زائداً على استحقاق المتعلم إسراف وإذا هو يصرفه في الضلال أو لا ينتفع به ولا ينفع فتبذير.

فمن يحضر خط النار في جهاد الكفار ليس له تبذير نفسه أو نفَره أو سلاحه أم أية طاقة من الطاقات الحربية، أن يعرضها للهدر دونما مقابل، أو مقابل أقل منها وأدنى، فهذا إسراف وذلك تبذير، أن تستأصل منك طاقة هدراً في الحرب دون استئصال من عدوّك.

فجهادك دون استعداد وجاه العدو، أم في تهاون فيك وذويك أمام العدو، أم تعرضك لجرح أم قتل دون إلزام أم ماذا من حرب غير مكافحة، إنه لا يخلو عن إسراف أو تبذير.

ولماذا التبذير فقط بين المعاصي أخوة للشياطين، لأنه يجمع كل إتلاف وتهدير يبوء بالضرر إلى الجماعة المسلمة في كل صغير وكبير.

وأخوة الشياطين هذه في التبذير إنما هي في أنه كفران بنعم الله، وتبديلها نقماً: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾[1] ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾﴾[2] ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١١.
(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: ٢٨، ٢٩.
(٣) سورة النحل، الآية: ٧٢.

عباد الرحمن يحدثون بنعمته ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[١] وإخوان الشيطان يكفرون بنعمته!.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾﴾:

الإعراض «عن» هو أن تولي مبدياً عَرضك خلاف الإقبال، فقد يكون غضباً ابتغاء نعمة من ربك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾[٢] ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾[٣] أو يكون تركاً للإيتاء الإنفاق إذ لم تجد ما تؤدي به متطلبات ذوي القربى والمساكين وابن السبيل، وتستحي أن تواجههم فتميل عنهم ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ لكي تؤتيهم إياها، فكما أنك ترجو رحمة ربك ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ ولكي يرجوك كما ترجو الله.

فمن القول معسور كأن تنهر فلست إذاً وجاه المحتاج بمعذور، ومن القول لا معسور ولا ميسور «ما عندي ما أحملكم عليه»[٤] فأنت هنا

---

(١) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦٣.

(٣) سورة السجدة، الآية: ٣٠.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٧٧ - أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن عطاء الخراساني قال: جاءنا ناس من مزينة يستحملون رسول الله ﷺ فقال: لا أجد ما أحملكم عليه فولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ظنوا ذلك من غضب رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٨] الآية قال: الرحمة الفيء.

في نور الثقلين ٣: ١٥٧ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب بعد ذكر فاطمة عليها السلام وما تلقى من الطحن - عن كتاب الشيرازي - أنها لما ذكرت حالها وسألت جارية بكى رسول الله ﷺ فقال: يا فاطمة والذي بعثني بالحق إن في المسجد أربعمائة رجل ما لهم من طعام ولا ثياب ولولا خشيتي خصلة لأعطينك ما سألت، يا فاطمة إني لا أريد أن ينفك عنك أجرك إلى الجارية وإني أخاف أن يخصمك علي بن أبي طالب يوم القيامة بين يدي الله عز وجل إذا طلب حقه منك ثم علمها صلاة التسبيح فقال أمير المؤمنين عليه السلام مضيت تريدين من رسول الله الدنيا فأعطانا الله ثواب الآخرة قال أبو هريرة فلما خرج رسول الله ﷺ من عند فاطمة أنزل الله =

معذور، ولكن الأفضل أن تقول لهم القول الميسور: كعِدَةٍ جميلة: سآتيكم إن شاء الله، وبصيغة أخرى أن تحسن بهم إحساناً، أن تؤتيهم خيراً إن كان عندك مع قول ميسور، دون منٍّ أو أذًى أو قول معسور.

فالسكوت عن المحاويج، إلا إذا كان حياءً[1]. أو القول: ما عندي، إنهما لا يليقان بكرم الأخلاق وإنما قول ميسور فإنه عوض وأمل وتجمل وإن لم يتيسر له الوفاء به.

وقد تعني نون التأكيد في ﴿تُعۡرِضَنَّ﴾ تأكد الإعراض عند الإعواز إيحاء بأنه ﷺ لا يكذب - أن يعد وليس عنده - في مجاملات، فوجّه هذه الحتمية الصادقة إلى وجهة أخرى لينة لا تنافيها، أن يقول لهم كما يرجو رحمة ربه: إن شاء الله: ابتغاء رحمة الله، وأما أنا فما عندي، وما عند الله خير وأبقى.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿٣٠﴾﴾:

هذه كناية عن التقتير ومن ثم التبذير حيث هما مذمومان، نهياً عن التفريط في الإنفاق وآخر عن الإفراط فيه، أن يتخذ بين ذلك قواماً: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾[2]: وقوام المال ما يقوم بالحياة دون إسراف ولا تبذير ولا تكنيز حين يحتاج صاحبه،

= على رسوله ﴿وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا﴾ [الإسراء: ٢٨] يعني عن قرابتك وابنتك فاطمة... فقل لهم قولاً ميسوراً يعني: قولاً حسناً فلما نزلت هذه الآية انفذ رسول الله ﷺ إليها جارية للخدمة وسماها فضة.

(١) أخرج ابن حبان والحاكم عن أنس قال كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً وليس عنده أعرض عن السائل وسكت حياء وفي الطبراني الأوسط عن علي عليه السلام كان النبي ﷺ إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال: نعم، وإذا أراد ألا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء: لا.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٧.

فالقوام في الإنفاق «حسنة بين سيّئتين»[(١)] ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[(٢)] ﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[(٣)].

نصوص أربعة تحمل بطيّاتها حملة على البلاء والمبذرين المسرفين، آمرة بالتوازن الإسلامي السليم في صرف المال سلبياً وإيجابياً: إن يد المسلّم هي يد الإعطاء مما زاد عن حاجياته، لا مغلولة إلى عنقه ممسكاً لا يعطي، ولا باسطة كل البسط يعطي ولا يبقي، وإنما قوام بين ذلك وعوان وتوازن هو القاعدة الكبرى في منهج الاقتصاد الإسلامي، فالبخل غل والتبذير بسط وذل، هما يقعدانك ملوماً تلوم نفسك ويلومك الناس[(٤)]، محسوراً: عارياً[(٥)]، حيث الإفراط والتفريط يحسرانك تعرياً عن راحة

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٥٩ عن تفسير العياشي عن الحلبي عن بعض أصحابه عنه قال: قال أبو جعفر لأبي عبد الله عليه السلام يا بني عليك بالحسنة بين السيئتين تمحوهما، قال: وكيف ذلك يا أبه؟ قال: مثل قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ...﴾ [الإسراء: ٢٩].

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٩.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٧٨٠ - أخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن يسار بن الحكم قال أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بزٌّ من العراق وكان معطاء كريماً فقسمه بين الناس فبلغ ذلك قوماً من العرب فقالوا نأتي النبي صلى الله عليه وآله وسلم فنسأله فوجدوه قد فرغ منه فأنزل الله هذه الآية.
وفي تفسير البرهان ٢: ٤١٧ الكافي عن علي بن إبراهيم القمي عن هارون بن مسلّم عن مسعدة ابن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال: علّم الله عز وجل اسمه نبيه كيف ينفق وذلك أنه كانت عنده أوقية من الذهب فكره أن تبيت عنده فتصدق بها فأصبح وليس عنده شيء وجاء من يسأله فلم يكن عنده ما يعطيه فلامه السائل واغتم هو حيثما لم يكن عنده شيء وكان رحيماً رقيقاً فأدب الله عز وجل نبيّه بأمره فقال: ولا تجعل... يقول: إن الناس قد يسألونك ولا يعذرونك فإذا أعطيت جميع ما عندك من المال قد كنت حسرت من المال.

(٥) الدر المنثور ٤: ١٧٨ - أخرج ابن أبي حاتم عن المنهال بن عمرو قال بعثت امرأة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بابنها فقالت له اكسني ثوباً فقال ما عندي شيء فقالت: ارجع إليه فقل له اكسني قميصك فرجع إليه فنزع قميصه فأعطاه إياه فنزلت الآية وفيه أخرج ابن جرير عن ابن مسعود وذكر مثله وفي آخره فخلع قميصه فدفعه إليه فجلس في البيت حاسراً فأنزل الله هذه الآية=

الحياة، وتحسراً عليها، وأنه كذلك تهلكة وتضيق في الحياة لا يدعك أن تتحرك فيها.

فآية الغل البسط ترسم البخل يداً مغلولة إلى العنق لا تعطي شيئاً والإسراف والتبذير يداً مبسوطة كل البسط لا تمسك شيئاً، وترسمهما معاً قعوداً كقعدة الملوم المحسور، كما آية التهلكة تجعلهما فيها جميعاً.

فليست التهلكة واللوم والحسرة في بسط اليد فقط، فإنها في غلها أكثر وأبسط، وخير الأمور هو الوسط.

فالبخل عن الإنفاق لوم وحسر وتهلكة في الدنيا والآخرة، والإنفاق في بسطِ كلّ البسط إذا كان في طاعة الله قد لا يحمل حسراً وحسرةً ولوماً وتهلكة في الآخرة، وإنما قعدة الحياة الدنيا هكذا وقد تتخطى إلى الآخرة إذا أضرت بها، كمن ينفق بُلغته في غير الواجب، فلا ينفق على واجبي النفقة إذ لم يبق عنده ما ينفق فيقعد ملوماً محسوراً.

والحسير هو الدابة التي تعجز عن المسير فتقف ضعفاً وعجزاً، كذلك البخيل يحسره بخله فيقف، يوقِفه المحاويج عن كل حراك كما نراه منهم وجاه الأغنياء البخلاء، وهذه تهلكتهم من الشيوعية التي هي وليدة البخل والإجحاف بحق المحاويج.

كذلك ويحسر المسرف في إنفاقه لحد لا يبقى لحاجته الضرورية شيء فيصبح فقيراً[١] قتيراً[٢].

= ورواه مثله في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام (نور الثقلين ٣: ١٥٨) وفي تفسير علي بن إبراهيم عن الصادق عليه السلام قال: المحسور العريان، وفي تفسير البرهان ٢: ٤١٧ يروى مثله عن ابن شهر آشوب بإضافة هي وبقي في داره عرياناً على حصيرة إذ أتاه بلال وقال: يا رسول الله الصلاة فنزلت الآية وأتاه بحلة فردوسية.

(١) نور الثقلين ٣: ١٥٧ ح ١٧٥ - الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الإحسار الفاقة.

(٢) المصدر ح ١٨١ عن محمد بن يزيد عن أبي عبد الله قال: الإحسار الإقتار.

وأما أن تنفق في واجبات معينة أم في مستحبات لحد تبقى لنفسك وذويك بُلغة، فإنفاقك إذاً وسط وعفو، أن تنفق الزائد عن الضرورة وقد يجب في الحالات الاستثنائية.

لا تفتكر أنك إذا لم تنفق كل ما عندك فماذا يصنع من قتر عليه رزقه وقدر، فـ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ثم يأمر من بسط في رزقه أن ينفق على من قدر عليه ولكنه بقدر، دون أن تجعل نفسك في تهلكة لكي تنفق على غيرك.

إنه يبسط ويقدر، وإنه يأمر بالإنفاق ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يبسط ويقدر بخبرة وبصيرة، ويأمر بالإنفاق الوسط خبرة وبصيرة، وينهى عن الإسراف والتبذير والتقتير عن خبرة وبصيرة، فليس على العباد إلا الائتمار بأمره والانتهاء بنهيه، لا أن يسبقوه ببسط لم يفعله هو ولم يأمر، ولا أن يعصوه في تقتير لم يفعله ونهى عنه، فإن الله تعالى: «قدر الأرزاق فكثرها وقللها وقسمها على الضيق والسعة فعدل فيها ليبتلي من أراد بميسورها ومعسورها وليختبر بذلك الشكر والصبر من غنيها وفقيرها»[1].

هنالك واجبات مالية كضرائب مستقيمة، وأخرى غير مستقيمة كالإنفاق للمحاويج الذين لا يجدون بلغتهم، ومن ثم حرام أن تكنز أموالاً وسبيل الله بحاجة إليها، ثم لا واجب عليك أن تسوي بينك وبين الفقراء، فالممنوع عدم الإنفاق أو إنفاق كل ما تملك، وأما أن تنفق الزائد عن حاجياتك الضرورية فلا يجب إلا في حالات ضرورية.

والعفو في آية العفو هو راجح الإنفاق، واجباً كان أم راجحاً، إنفاق الزائد عن الحاجة الضرورية وهو وسط الإنفاق، فإنفاق الزائد كله وسط أعلى، وإنفاق الزائد بعضه وسط أوسط، إذ يشمل الضرائب المستقيمة وغير

(١) نهج البلاغة عن الإمام علي عليه السلام.

المستقيمة، وعدم إنفاق الزائد جعل لليد مغلولة على العنق، وإنفاق الكل حتى الحاجة الضرورية هو بسطها كل البسط، فتقعد في غلها وبسطها ملوماً محسوراً، والإنفاق الوسط أياً كان يجعلك محموداً محبوراً.

لا تجد النبي ولا أحداً من المعصومين يجبرون أو يأمرون الأثرياء من حلّ أن يسووا بينهم وبين الفقراء بعد أداء واجباتهم المالية، اللهم إلا تحريضاً على نافلة الإنفاق.

إنما المجبر على الإنفاق هو المقصر في أداء واجباته المالية، أو في تحصيل أمواله سرقة أو غصباً أو بخساً أو احتكاراً أو إجحافاً على العمال أم ماذا من أموال هي للشعب أو لأشخاص خصوص، وأما الأموال التي حصلها من حلها وأدى واجباتها، غير الواقفة والمكنوزة، فلا تحل مصادرتها، ولا يجب إنفاق ما زاد عن ضرورة الحياة اللهم إلا لضرورة إسلامية هي أحرى شخصية أو جماعية.

وإنفاق الكنز في سبيل الله أعم من إنفاق الأصل أو الفرع الحاصل بالعمل فيه حسب مختلف الحاجيات، وإذا لم يوجد مورد لأي إنفاق فلا محظور في كنز المال ولكنه موجود على أية حال حيث الحاجيات والمحاويج متوفرة على طول الخط.

ثم قد تشمل آية الغل والبسط تحصيل المال ومصرفه لصاحبه وإنفاقه، فغل اليد عن كل سعي وحراك في تحصيل الرزق وكذلك بسطها أن يصبح بكل طاقاته سعياً في طلب الرزق ممنوع، كما وأن غلها عن مصرف المال وبسطها ممنوع، نهياً عن التفريط والإفراط في هذا المثلث، وأمراً بالوسط القوام بين ذلك، وكان بين ذلك قواماً.

هذه الأوامر والنواهي قد تختص أو تشمل رسول الله ﷺ كما يناسب ساحته القدسية وكما يروى عن باقر العلوم عليه السلام أنها «أدب وعظة وتعليم

ونهي خفيف ولم يعد عليه ولم يتواعد على اجتراح شيء مما نهى عنه. وأنزل نهياً عن أشياء حذر عليها ولم يغلظ فيها ولم يتواعد عليها»[(١)] اللهم إلا التبذير، فإنه أخوة للشياطين فلا يشمله إلا بسطاً كل البسط، وليس منها! أم التقتير ولم يكن منه طول حياته المشرفة.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾﴾:

الإملاق هو الإنفاق أو كثرته لحد الافتقار و«الإفلاس»[(٢)] تستعمل لازماً ومتعدياً، وخشية إملاق كما تعني إفلاس الآباء بالإنفاق. كذلك تعني إفلاس الأولاد، فأية خشية لإملاق الآباء أو الأبناء أم كليهما لا تقتضي قتل الأولاد كما لا يقتضي إملاق الإنسان دون ولد أن يقتل نفسه حيث الكافل للأرزاق إنما هو الله.

وترى لماذا هنا خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم... وفي الأنعام ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[(٣)]؟

إملاق الأنعام هو واقعه دون ما هنا فإنه خشيته، فواقع الإملاق هو للآباء فلكي لا يزداد إملاق على إملاق كانوا يقتلون أولادهم تخفيفاً لوطأة الإملاق، والحل هو ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ ابتداء بكم حيث الولد يأتي برزق والديه، ثم إياهم، كما يأتي برزقه، إذاً يزول إملاقكم بأولادكم ثم لا يكونوا أمثالكم في إملاقكم.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦٠ في أصول الكافي بسند متصل عنه عليه السلام في حديث طويل يفسر آيات القضاء تفسيراً إجمالياً شمولياً.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٦٠ عن تفسير العياشي عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الحاج لا يملق أبداً قال قلت: وما الإملاق؟ قال: الإفلاس ثم قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ﴾ [الإسراء: ٣١] ورواه مثله عن أبي إبراهيم عليه السلام أيضاً.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.

والإملاق هنا هو خشيته أن يملقكم[١] أولادكم بكثرة الإنفاق فتفلسوا، والحل ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ فلا يحتاجون إلى إنفاقكم فإملاقكم، ثم ﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ يزيدكم مالاً على مال ولكي لا يكن الولد وبالاً.

إذاً ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ خطأ في أصله حيث القتل دون ذنب خطأ، ثم خطأ على خطأ هو الإملاق أو خشيته إساءة الظن بالله، فإن الله هو الرزاق لا أنتم.

فكما أنكم من مجاري وأسباب ولادة الأولاد فلستم لهم بخالقين، كذلك أنتم من أسباب ومجاري رزقهم فلستم لهم برازقين.

وترى إن قتل الأولاد من إملاق أو خشيته هو هو وأد البنات كما قد يخيّل إلى بعض؟ كأنه لا، فهنا الأولاد وهناك الأنثى، وهنا السبب إملاق أو خشية إملاق وهناك الهون: ﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾[٢] وإذا اجتمع السببان في الأنثى فلا يجتمعان في الذكر.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾:

هنا الزنا لا يقرب لأنه كان فاحشة وساء سبيلاً، وفي الفرقان يردف بالشرك وقتل النفس ويوعد للثلاثة مضاعف العذاب وخلود النار: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾[٣] وفي الممتحنة يردف بالشرك والسرقة ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ...﴾[٤] مما يجعل الزنا كالشرك بالله والقتل والسرقة. كما إنه فاحشة وساء سبيلاً.

---

(١) فإملاق الانعام لازم وهنا متعدّ.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الفرقان، الآيتان: ٦٨، ٦٩.

(٤) سورة الممتحنة، الآية: ١٢.

فكما الإشراك في ناموس الألوهية ظلم عظيم، كذلك الإشراك في ناموس الإنسانية ظلم عظيم حيث تمجُّه الفطرة وغريزة كل حيوان إلا الخنزير!.

وكما أن سرقة المال ظلم فسرقة الناموس كذلك بل هي أظلم وأنكى!.

وكما القتل ظلم كذلك الزنا قتل من جهات شتى، ولذلك تراه ردفاً عطفاً متصلاً في الممتحنة، وهنا تتوسط آية التنديد به آيتي النهي عن قتل الأولاد خشية إملاق، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وليس هذا التوسط وذلك الردف إلا لصلة قريبة بينه وبين القتل، بل وفي الزنا قتلات وقتلات من نواحٍ شتى.

فإنه قتل في البداية لشرف النفس الإنسانية وفطرتها في هكذا تبذل لممارسة الجنس كسفاد الحيوان وأضل سبيلاً، وقتل ثانٍ حيث يراق ماء الحياة في غير موضعها، وثالث لبذر النسل حيث يهدر إذا لم ينسل، ورابع قتل الجنين قبل تخلّقه أو بعده، قبل الولادة أو بعدها، ولكي لا يحمل عامل الزنا عيبه وعبئه، وخامس حين يترك الجنين لحياة شريرة شرسة، مهينة بئيسة تعيسة، ضايعة في المجتمع متحللة، وسادس قتلاً للجماعة التي يفشو فيها فتضيع الأنساب والمواريث والمودّات وصلات القرابات، وسابع أن سهولة قضاء الشهوة وتنوعها بالدعارة قطع لتداوم الأنسال والأسرة التي هي محضن لصالح الحياة الإنسانية، مما تجعل الحياة الزوجية نافلة لا ضرورة إليها، على عبئها وحملها ونفقتها وسائر أثقالها... أبواب جهنمية سبع يفتحها الزنا على عامليه والمجتمع الذي يحويه أو يحميه ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾!.

قد صدق الرسول ﷺ حيث يقول: «ما من ذنب بعد الشرك أعظم عند

الله من نطفة وضعها رجل في رحم لا يحل له»[1] لأنه قتل في جهات قتلات وقتلات.

آيتنا هذه تنهى عن قرب الزنا، لا فحسب الزنا نفسها، ترى وما هو اقتراب الزنا قبل اقترافها. أم هما واحد؟

إن قرب الزنا كقرب مال اليتيم والصلاة وأنتم سكارى المنهي عنها، هو اقتراب معداتها ومقدماتها الموصلة بطبيعة الحال إليها، والمعاصي حمى الله فمن حام حول الحمى أوشك أن يدخل فيها، وهكذا الفواحش كلها: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ... وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2] ﴿لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ﴾[3] فمن قرب الصلاة دخول المساجد فإنه محرم على السكران والجنب، ومن قرب مال اليتيم استدانة ماله دون عائدة إليه، إلا بعائدة هي أحسن، ومن قرب الزنا نظرة إلى غير ذات محرم فغمزة فلمسة فقبلة ومن ثم العياذ بالله، فالمقدمات القريبة إلى الزنا حيث تحسب قربها محرمة، كما البعيدة مكروهة كالجلوس في مجلس متأثر بحرارة غير ذات محرم، ثم لا نجد نهياً عن أي محرم إلا اقترافه دون اقترابه، اللهم إلا مقدمات موصلة إليه قطعياً، وأما هذه الثلاث فاقترابها محرم مطلقاً حتى ظني الوصول منها لحد يعتبر النظر المتعمّد إلى غير ذات محرم من الزنا وإن لم يوصل إليه، مبالغة في التحرز، لأن الزنا تدفع إليها شهوة عنيفة فالتحرز عن المقارفة أضمن لمنع المقاربة. ولماذا هذه الحمية الشديدة؟!.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ فـ «إن» تؤكد و«كان» تضرب تأكيد الحرمة إلى أبعد أغوار الزمن الغابر منذ بزوغ الرسالات الإلهية.

---

(١) الدر المنثور ٤ : ١٨٠ - أخرج أحمد وابن أبي الدنيا عن الهيثم بن مالك الطائي عن النبي ﷺ ...

(٢) سورة الأنعام، الآيتان: ١٥١، ١٥٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٤٣.

﴿كَانَ فَٰحِشَةً﴾ والفاحشة هي المعصية والمظلمة والفعلة المتجاوزة إلى غير فاعلها ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾(١) والمتجاوزة قبحاً عن حد المعاصي وحتى كبيرتها: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾(٢) ففي مثنى المعاصي ومثلثها، الفواحش هي «أكبر الكبائر»(٣) وأفحشها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٣٥.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٢.

(٣) نور الثقلين ٣: ١٦١ ح ١٨٨ في تفسير علي بن إبراهيم وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة يقول معصية وتفتاً فإن الله يمقته ويبغضه قال وساء سبيلاً وهو أشد الناس عذاباً والزنا من أكبر الكبائر.

وفي الدر المنثور ٤: ١٧٩ - أخرج أبو يعلى وابن مردويه عن أبي بن كعب أنه قرأ: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً إلا من تاب فإن الله كان غفوراً رحيماً فذكر لعمر فسأله فقال أخذتها من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وليس لك عمل إلا الصفق بالبقيع، أقول: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النّساء: ٢٢] مذكورة في آية النساء: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف... وليست في الزنا! وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله: ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة قال قتادة عن الحسن إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يقول: لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن ولا ينتهب حين ينتهب وهو مؤمن ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن ولا يغل حين يغل وهو مؤمن قيل يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والله إن كنا لنرى أنه يأتي في ذلك وهو مؤمن؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم إذا فعل شيئاً من ذلك فقد نزع الإيمان من قلبه فإن تاب تاب الله عليه.

وفي عيون الأخبار في باب ذكر ما كتب به الرضا عليه السلام إلى محمد بن سنان في جراب مسائله في العلل: وحرم الزنا لما فيه من الفساد من قتل الأنفس وذهاب الأنساب وترك التربية للأطفال وفساد المواريث وما أشبه ذلك من وجوه الفساد.

في كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جدِّه عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال في وصية له: يا علي في الزنا ست خصال ثلاث منها في الدنيا وثلاث في الآخرة فأما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ويعجل الفناء ويقطع الرزق وأما التي في الآخرة فسوء الحساب وسخط الرحمن والخلود في النار.

فيه عن علي عليه السلام قال: أربعة لا يدخل منهن واحدة بيت إلا خرب ولم يعمر: الخيانة والسرقة وشرب الخمر والزنا.

فالفاحشة هي عصيان متجاوز حده، وظلم متجاوز فاعله إلى مفعول به أو إلى الجماعة وإلى الناشئة، وهي تعم القولة الفاحشة والفعلة والعقيدة الفاحشة، وقد ذكرت في سبعة عشر موضعاً من القرآن، في مثلث من أبعادها، مما تختص بالزنا، أم تشملها وغيرها من لواط وسواه، وما لا تشملها كالتي في نساء النبي وقوم لوط.

وعل «كان» الماضية إشارة إلى أن فاحشة الزنا لا تخص هذه الشريعة، بل هي فاحشة في عمق التاريخ وحتى بين غير المليين كما تشهد بذلك شرعتهم[(١)].

﴿... إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ حيث الزنا تقطع وتتهدم سبيل الإنسانية جماعة وفرادى، من سبيل الفطرة الإنسانية المجبولة في جوهر الذات على الاختصاص في الأهل كالمال بل هو أحرى وأسمى، حيث يرى الذب عن الأهل وصيانتها من أي انتهاك فريضة كما يصون نفسه بل هو أقوى، وهذه الغريزة ليست حسداً وشحاً بل هي غيرة نجدها حتى في الزانين حيث يغارون على الزانية بعضهم على بعض فكيف بأهليهم الخصوص؟

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ في تداوم الأنسال كما وإتيان الرجال قطع لهذه السبيل ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾[(٢)] سبيل التناسل وسبيل الزواج، حيث النكاح سبيل لتشكيل العائلة والناشئة، فإتيان الرجال قطع

---

(١) في شرعة التوراة كان عذاب الزاني القتل وعذاب الزانية الرجم وفي القوانين القديمة بين الهنود، الزاني يحرق والزانية تلقى بين الكلاب لتفترسها وفي قانون (ليكركوس) عقوبة الزاني كالذي قتل أباه وفي قانون الروم يعدم الزانيان وكانت الزانية في انكلترا يساق بها في البلدان فتضرب حتى تموت وفي آشور كان جزاء الزنا الغرق وفي بعض القوانين الصلب وفي القانون القديم المصري القتل وكان المفتن الشهير الاسبارتي (ليكورك) يستقبح عملية الزنا لحد يرى أنه لا يطرح اسمها في القانون.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨١.

لهذه السبيل، وكذلك الزنا أو هو من أضل سبيلاً، فانقطاع النسل أقل خطراً من نسل الزنا، حيث الاختلاط في الأنسال قطع لسبيل المودات بين الأبوين والأولاد لمكان التشكيك، وقطع لسبيل التوارث، وقطع لسبيل النكاح وتبني العائلة حيث الرخاصة في قضاء الشهوة بالزنا والتنوع فيها تقطع سبيل تشكيل العائلة على عبء النفقة وتربية الأولاد ومقاسات المشقات في حراسة الأهل والأولاد، رغم أن الزواج يزيد في الرزق كما «الزنا يورث الفقر»[١]. وقد قيل لبعض هؤلاء لِمَ لا تتزوج؟ فقال: وماذا أصنع بالزواج وجماعات من النساء نسائي[٢].

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٨٠ - أخرج الطبراني والحاكم وأبي عدي والبيهقي عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: الزنا يورث الفقر.

(٢) وإليكم طرفاً من إشاعة فاحشة الزنا بين الغربيين والمتغربين وما خلفته من عار ودمار: ففي فرنسا أصبحت أمراض المقاربة خلال عشر سنين بين الناشئة الأقل من عشرين سنة ٣٨٠ في المائة[١] وفي أمريكا وإنكلترا يعلن وزارة الصحة أن أمراض المقاربة أخذت تسرع في الناشئة أكثر من الزانيات الرسميات[٢] وتكتب جريدة (سان لندن) حسب إعلان قسم الجراحة في لندن، في كل أسبوع خمسون بنتاً في أقل من ١٤ سنة تسقط جنينها[٣] وفي (زن روز العدد ١١٠٩) مع توفر الأدوية المخترعة الجديدة والعلاجات الدقيقة ووجود أكثر من ٦٥٠ مستشفى الخاصة بأمراض المقاربة نجد ٤٠٠٠ ماتوا بسبب هذه الأمراض وفي (جريدة اطلاعات ٦ - ١١ - ٥٥) من كل سنة، تحبل مليون بنتاً تدرس في أمريكا ٣٠٠٦٠٠٠ منهن دون الـ (١٥) من العمر والباقي بين ١٦ - ١٩ سنة، ومن السنة ١٩٦١ لحد الآن (١٥) سنة أصبحت المواليد غير المشروعة من البنات بين ١٦ - ١٧ سنة تزيد على ٧٥٪، وثلث الأجنبية المسقطة يختص بالناشئات[٤] ونجد في لندن في كل سنة ٥٠٠٠٠ سقطاً جنائياً[٥].
وفي أمريكا سنوياً حوالي مليون عملية إسقاط جنين من الروابط غير المشروعة[٦].

---

(١) زن روز العدد ٤٠٣.
(٢) مجلة الاطلاعات العدد ١٤٣٥٨ - ٣ و٢ و١٣٥٣.
(٣) مجلة جوانان ٣٠ بهمن ص ٣٣.
(٤) جريدة الاطلاعات ٦/ ١١/ ٥٥.
(٥) جريدة كيهان العدد ٥٣٥٦.
(٦) مجلة سبيد وسياه العدد ٣٧٠.

ففي التناسل بالزنا سبيل التقاطع والتشاجر، وفي تركه بسقط الجنين سبيل للقتل وقطع النسل، وفي منع الولادة سبيل للضغط على الفاعلين، وفي هذه الشركة النحسة في النواميس قطع لسبيل المودة وفتح لسبيل العناد ولسبيل تفشي الأمراض الخلقية والجسمية وكل فساد.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾:

لهذه وتلك كما تمنع الآيات عن اقترافه كذلك المنع عن اقترابه ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾ وعن مشجعاته كالتناكح بين المؤمنين والزانيات والزانين والمؤمنات كما في آية النور: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١).

حيث تقرن الزاني بالمشرك والزانية بالمشركة، ثم تحرم التناكح بين المؤمن والزانية كما المشركة، وبين المؤمنة والزاني كما المشرك مما يجعل فاحشة الزنا كفاحشة الإشراك بالله.

ومن ثم آية المائدة تحلل المحصنات من الذين أوتوا الكتاب على المسلمين كما تحلل المحصنات من المؤمنات، دون الزانيات وإن كن من المسلمات: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ...﴾(٢) وهي آخر ما نزلت، ناسخة غير منسوخة.

ثم آية النساء في تحريم المحارم نسبيات أم سببيات ورضاعيات تحلل ما وراء ذلك على شرط الإحصان: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمۡ أَن تَبۡتَغُواْ بِأَمۡوَٰلِكُم مُّحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَۚ...﴾(٣) وهذا التحليل إضافة إلى كونه نسبياً لا إطلاق فيه مستقراً ظاهراً، إنه محدد بالإحصان: إحصان المنكوحة والناكح،

(١) سورة النور، الآية: ٣.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٤.

وتقييده بإحصان الناكح مخالف لتصريحة آية النور والمائدة، فنكاح الزانيات قبل التوبة محرم على المؤمنين كإنكاح الزانين بالمؤمنات، اللهم إلا إذا تابت أو تتوب أم تاب أو يتوب فحل، وقد يجب نكاح الزانية إذا كان نهياً عملياً عن الزنا، أو يكره إذا كانت متهمة دون إثبات، وأما الشهير والشهيرة دون توبة أو انتهاء عن الزنا فإنكاحه بمؤمنة ونكاحها المؤمن محرم يعتبر ردفاً بالزنا، فإنه تشجيع للزنا، ومسايرة ومماشاة فيها، ولا أقل يكون هذا التمانع نهياً عملياً عن الزنا، لكي يرى مقترف الزنا نفسه في زاوية منعزلة عن الحياة الشريفة الإسلامية، في جو الدعارة أو الشرك، ولكي ينتهي عن الزنا إن كان مسلماً له بقية أو بغية من الإيمان.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾﴾:

النفس هنا هي الإنسانية دون سائر الحيوان حيث النفس لا تأتي في سائر القرآن إلا للإنسان، اللهم إلا في يتيمة تعني ذات الله: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾(١) وهي غير معرضة لقتل وأمثاله!

فمن النفوس الإنسانية ما حرَّمها الله تعالى لحدٍّ لا يحق قتلها بأي سبب كالصالحين الذين لا يأتون بسبب لقتلهم بالحق، فلا يقتلون إلا مظلومين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾(٢).

ومنها ما حرمها مبدئياً فلا تستحق قتلاً إلا بالحق، وهذا الحق الذي يبيح قتل النفس محدَّد لا غموض فيه، وليس متروكاً للآراء وتأثيرات الأهواء، وهذه هي المعنيَّة بـ ﴿الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

ومنها غير المحرمة مبدئياً كمن يعيش صداً عن سبيل الله، تكذيباً بآيات الله، حرباً لدين الله، فهذه لا حرمة لها عند الله، وهي المعنيَّة بالنفس التي لم يحرمها الله.

ولا نرى النهي عن قتل النفس في سائر القرآن إلا موصوفة بـ ﴿ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ كما هنا وفي الأنعام (١٥١) بصيغة واحدة: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[1] وفي الفرقان: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾[2] ولكن في النساء: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾[3] حيث المخاطبون هم المسلمون المحرمة أنفسهم عند الله.

وتتميز آية الأسرى بذيلها ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا. . .﴾.

فإذا تبين حقٌّ على النفس التي حرم الله - يحكم بقتلها - فقتلاً، وإذا لم يتبين فلا تقتلوها حيث الحق غير ثابت، وإذا تبين في ميزان الله أنه لم يحرِّمها فقتلاً، وإذا ترددنا في حرمتها أو حلها في أصلها، هل هي صادة عن سبيل الله، مكذبة بآيات الله أم ماذا؟ فلا يحل قتلها، وإن كان النهي في آياته لا يشملها، حيث القتل كسائر التجاوز مالياً أم عرضياً أم ماذا بحاجة إلى تجويز، فالأصل في النفوس والأموال والأعراض حرمتها وعدم حل التجاوز عليها إلا بدليل قاطع قاصع لا مردَّ له ولا حِوَل عنه.

إنه حسب التكوين ودليل العقل حقٌّ لكل نفس أن تحيى مبدئياً حيث أحياها الله، فلا يحق القضاء عليها إلا بقضاء الله، وفيما نشك فما علينا وما لنا أن نميت ما أحياه الله.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥١.
(٢) سورة الفرقان، الآية: ٦٨.
(٣) سورة النساء، الآية: ٢٩.

صحيح أن الأصل في كل شيء حِلُّه حتى يتبين غير حلّه، ولكنما الأصل في خصوص التجاوزات عدم الحل كما العقل والشرع يتجاوبان.

والنفس المشكوك حلها وحرمتها وإن كان محرماً قتلها ظاهرياً، ولكنها ليست بالتي قتلت ظلماً لمكان الشك، فلا يشملها ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا. . .﴾ فبدليل تحرم ظاهرياً وبدليل تحل واقعياً، وفيما لا دليل على حل أو حرمة تبقى على أصالة الحرمة، وإن كانت آيات النهي لا تشمل الأخير، ولكن الآية: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ. . .﴾ ومعها دليل العقل ودليل الأصل، تنهى وإن كان ظاهرياً.

فالضابطة القرآنية في قتل النفس أنه لا يجوز إلا بحق ثابت كردّة عن فطرة أو قتل عمد أم لواط أم زنا محصن أم ماذا من مجوزات أو موجبات القتل المحدّدة شرعاً.

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ نفس محرمة محترمة لا حق ثابتاً عليها، كمؤمن متهم بحق غير ثابت، أم لا حقّ عليها وإنما لها كالشمس في رايعة النهار، مثل النفوس المقدسة الطاهرة المعصومة، المقتلة المحطمة المظلومة، علي والحسن والحسين عليهم السلام وسائر العترة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[1].

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَنًا﴾ فلولي الدم سُلطة شرعية محدَّدة في ميزان الله، لا تفريط عليه: ألا يحق له قصاص أم دية، ولا إفراط له: أن يسرف في القتل، قتلاً لغير القاتل قل أو كثر، أو قتلاً للقاتل زائداً عما قتل، وإنما قتلاً بقتل في كمه وكيفه دون إفراط ولا تفريط، بل هو عوان عادل ﴿فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾:

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦٢ ح ١٩٥ وفي من لا يحضره الفقيه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: الكبائر سبع فينا أنزلت ومن استحلت - إلى قوله -: وأما قتل النفس التي حرم الله - فقد قتلوا الحسين بن علي وأصحابه والعياشي في تفسيره عنه عليه السلام بسند آخر في الآية: فقد قتلوا الحسين في أهل بيته.

ليس لولي الدم إسرافٌ في القتل ولماذا يسرف؟ أحميَّة على المقتول؟

فليست لتدفعه إلى إسراف في القتل في ميزان العدل، أم للأخذ بثأره ويكفيه بسلطانه الشرعي قصاصه، أم يُسرف لكي يحصل على حقه العدل وهو منصور من الله بذلك السلطان، كما المقتول منصور منذ قتل حتى يقتص من قاتله في الدنيا أم في الآخرة(١).

فليس هذا السلطان لولي الدم مستغلاً يستغل في الانتقام الإسراف، تجاوزاً إلى غير القاتل إن لم يجد إليه سبيلاً، أم قتله مع القاتل كما كان في الثأر الجاهلي الذي يؤخذ فيه الآباء والأبناء أم من ذا من أقارب وأخصاء القاتل، من غير ذنب إلا أنهم من أسرته، أم - وأخيراً - قتل القاتل صبراً بمثله أم ماذا(٢) وقد نهى الرسول ﷺ عن المثلة ولو بالكلب العقور(٣). وقال ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كلِّ شيء فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة وأذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة»(٤).

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦٢ ح ٢٠٠ تفسير العياشي جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: نزلت هذه الآية في الحسين عليه السلام: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا...﴾ ﴿فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ﴾: قاتل الحسين عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾: قال: الحسين عليه السلام.

وفيه ح ٢٠١ عن سلام بن المستنير عنه عليه السلام في الآية قال: هو الحسين بن علي عليه السلام قتل مظلوماً ونحن أولياءه والقائم من إذا قام طلب بثأر الحسين عليه السلام.

(٢) في نور الثقلين ٣: ١٦٢ عن الكافي بإسناده عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام إن الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي ٱلْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣] فما هذا الإسراف الذي نهى الله عنه؟ قال: نهى أن يقتل غير قاتله، أو يمثل بالقاتل، قلت: فما معنى قوله: إنه كان منصوراً؟ قال: وأي نصرة أعظم من أن يدفع القاتل إلى أولياء المقتول فيقتله ولا تبعة تلزمه من قتله في دين ولا دنياً.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٨١ - أخرج ابن أبي شيبة عن يعلى بن مرة قال سمعت رسول الله ﷺ قال قال الله: لا تمثلوا لعبادي وفيه عنه ﷺ نهى ﷺ عن المثلة.

(٤) الدر المنثور - أخرج ابن أبي شيبة ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن شداد ابن أوس قال قال رسول الله ﷺ.

إن الفطرة الإنسانية ومعها العقل ومعهما الشرع، ومع الكل الجماهير الإنسانية - بما جعل الله - تجعل لوليه سلطاناً عادلاً في الثأر، وأجهزة القضاء العدل الإسلامي مكلفة بتحقيق سلطانه، فليكن عدلاً في سلطانه دون أن تأخذه حمية الجاهلية.

وترى أن هذا السلطان سواءٌ فيه أكان القاتل والمقتول سيان، أم أحدهما رجل والآخر امرأة؟ أم المختلفان مختلفان حيث ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ...﴾[1]؟ إذاً فلا سلطان في الثأر إلا إذا كان المقتول رجلاً والقاتل أياً كان؟.

الجواب: إن السلطان لولي المقتول كائن فيما هما متساويان أم مختلفان، ولأن الرجل لا يقتل بالمرأة، فليدفع الولي نصف الدية حتى يقتل الرجل بالمرأة وهذا هو السلطان العدل في الثأر، حفاظاً على حق المقتول ووليه، وحفاظاً على قيمة الرجل الضِّعف قياساً على المرأة.

وقتل النفس ليس بذلك السهل إلا بالحق، قتل النفس غير المحرمة مبدئياً، وقتلها محرمة قصاصاً عدلاً، أم ماذا من الحق في ميزان الله إذ يزيل حق الحياة عن هذه النفس، وأما القتل في غير حق، أو ما لم يثبت حقه فغير مسموح في شرعة الله.

وترى «إذا اجتمع العدة على قتل رجل واحد» فكيف إذاً سلطان القصاص، أيقتل الجميع؟ وهو إسراف! أم واحد؟ وهو ترجيح بلا مرجح فإجحاف! قد يقال: إن لولي المقتول قتل الكل برد ما فضل عن ديته إلى أولياء المقتولين، أو قتل البعض فيرد الباقون حسب جنايتهم إلى أولياء المقتص منهم، فإن كان واحداً يؤخذ من الباقين حسب نصيبهم من الجناية ويرد على أولياء المقتص منه، وإن كان أكثر فليردَّ ولي المقتول دية الزائد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٨.

عن الواحد إلى أوليائهم، كما يرد سائر الشركاء نصيبهم، قصاصاً عدلاً على كل حال، ولكنه كما في صحيحة إسراف في القتل وتخلف عن ﴿ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ﴾[١].

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾﴾:

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ - إلى - أَشُدَّهُۥ﴾ ثني في الأنعام (١٥٣) بعد النهي عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق - كما هنا، وقرب مال اليتيم لا يعني - فقط - أن تتصرف فيه غصباً، ف ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ تحرم كافة المحاولات في مال اليتيم إلا التي هي أحسن لصالحه، فليس لوليه أم سواه أن يستدينه دون عائدة وقرضاً حسناً ولا أن يبقيه عنده دون أي تصرف وبإمكانه دون عسر ولا حرج أن يستثمره له، فالمفروض على ولي اليتيم أحسن المحاولات في ماله ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ فيدفع إليه حيث زال يتمه فلا يبقى ظرف لقربه سيئاً أو حسناً أو أحسن، كما آية النساء تأمرهم: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾[٢] فلا يجوز إذاً إبقاؤه عنده وقد بلغ النكاح رشده وبلغ أشده، حتى إذا استثمره له كأحسن ما أمكن، ففي حالة يتمه يقرب ما له بالتي هي أحسن دون أن تكون له حيلة، وإذا بلغ أشده يدفع إليه ولا يقرب أي قرب إلا بإذنه.

ثم الأشد جمع الشد وأقله ثلاثة، يجري عليه قلم التكليف في شد العمر ببلوغ السن، أو شد الجسم ببلوغ النكاح الاحتلام[٣] ومن ثم شد

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ٦.

(٣) تفسير البرهان ٢: ٤١٩ - العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام أن نجدة الحروري كتب إلى ابن عباس يسأله عن اليتيم متى ينقطع يتمه فكتب إليه ابن عباس أما اليتيم فانقطاع يتمه إذا بلغ أشده وهو الاحتلام. =

العقل الرشد في تصرفات مالية صالحة، والشد الأخير هو الحد الأخير في ﴿وَلَا تَقْرَبُوا...﴾ فلا يجوز دفع أموال اليتيم إليه حتى ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾[1] لا في الشد الأول ببلوغ السن أم بلوغ النكاح، وإنما بلوغ الرشد والحكمة في تصرفات صالحة.

فبالغ العمر أو النكاح مشدود بقلم التكليف، فأحدهما كاف في جري القلم وهو بعد يتيم؟! وبالغ الرشد الحكمة يزول يتمه تماماً يُدفع إليه ماله[2] فلا يجوز دفع ماله قبل تمام الأشد وإن بلغ شداً أو شدين، وإنما «أشده»: عمراً وجسماً وعقلاً.

وترى أن الشدين الأولين هما لزام الحكم وإن بلغ شده الأخير قبلهما، علّه نعم حيث النص ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ أو عله لا فإنهما قبل الأخير في الأكثر دون تدخل لهما في كمال البلوغ، والرشد العقلي هو الأصيل ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ...﴾ فبلوغ الأشد - إذاً - وارد مورد الأغلب، والأحوط الجمع بين الحفاظ على ماله، وأن يتصرف وليه حسب

= وفي رواية أخرى عن عبد الله بن سنان قال سئل أبي وأنا ما حامز عن اليتيم متى يجوز أمره؟ فقال: حين يبلغ أشده قلت: وما أشده؟ قال: الاحتلام، قلت: قد يكون الغلام ابن ثماني عشرة سنة لا يحتلم أو أقل أو أكثر، قال: إذا بلغ ثلاث عشرة سنة كتب له الحسن وكتب عليه الشيء وجاز أمره إلا أن يكون شقياً أو ضعيفاً.

وفي نور الثقلين ٣: ١٦٣ ح ٢٠٣ في من لا يحضره الفقيه روى منصور بن حازم عن هشام عن أبي عبد الله عليه السلام قال: انقطاع اليتيم الاحتلام وهو أشده و٢٠٤ روى الحسن بن علي الوشا عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إذا بلغ الغلام أشده ثلاث عشرة سنة ودخل في الأربع عشرة وجب عليه ما وجب في المحتلمين احتلم أو لم يحتلم وكتب له الحسنات وجاز له كل شيء إلا أن يكون ضعيفاً أو سفيهاً.

أقول: ليس الأشد فقط الاحتلام أو بلوغ العمر، وإنما بلوغ الرشد حيث يجوز أمره في ماله كما في آية النساء ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦] والأشد جمع الشد كما في المتن.

(١) سورة النساء، الآية: ٦.

(٢) راجع ج ٢٦ تفسير الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ [الأحقاف: ١٥].

مشورته، وإن كان الأقوى جواز دفعه إليه، ووجوبه عند المطالبة كما للبالغ أشده.

إذاً فتصرفات اليتيم في ماله قبل أن يبلغ أشده محرمة، وعلى وليه الرقابة التامة عليه ابتلاءً له حتى يبلغ النكاح ويبلغ رشده وفيه تكملة أشده حيث يستوي: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ...﴾[1] حينذاك يتصرف في ماله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾[2].

فالمجنون محجور حتى يعقل، والسفيه محجور حتى يعقل، والصغير محجور حتى يبلغ، واليتيم محجور حتى يبلغ أشده[3] رقابة عليه أكثر من الصغير غير اليتيم ليتمه، ولأن الولي لغير اليتيم يراقبه بطبيعة الحال.

﴿... وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾:

العهد هنا جنسه دون اختصاص بنوع خاص، تشمل عهود الله على عباده، وعهودهم له عليهم، وعهود بعضهم لبعض على أنفسهم، وتعاهدتهم فيما بينهم، فالوفاء في كل ذلك فرضٌ حسب المستطاع لا حِوَل عنه.

نرى الوفاء بالعهد: أي عهد - من أهم الواجبات المؤكدة المشددة، لأنه مناط الثقة والاستقامة والنظافة في ضمير الفرد وحيوية الجماعة، ولقد بلغ الإسلام في واقعه التاريخي وعرج قمة رفيعة في الوفاء بالعهود حتى مع الكفار، لم تبلغه البشرية إلا في ظِلاله.

هناك عهود من الله على العباد: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾[4]

(١) سورة القصص، الآية: ١٤.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٨٢.

(٣) حيث إن بلوغ التكليف دائر مدار أحد الأمرين: الاحتلام وهو بلوغ النكاح شداً للجسم، وبلوغ السن ويمرشد العمر - وإيناس الرشد هو شدٌّ للعقل.

(٤) سورة يس، الآيتان: ٦٠، ٦١.

ويتكرر ذكر هذا العهد بصيغ شتى تختصر في كلمة التوحيد ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ. . .﴾ ﴿وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾[(١)].

ثم هنالك عهود منهم لله على أنفسهم: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[(٢)] ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا﴾[(٣)].

ومن ثم عهد من الله أن يستجيب دعوتهم: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[(٤)] شرط وفاءهم بعهده: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾[(٥)].

ثم عهود إلى العباد حتى الكفار يجب الوفاء بها إلا إذا هم نقضوا عهودهم فكيف بعهود المؤمنين: ﴿وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ﴾[(٦)] ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ. . .﴾ ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ. . .﴾[(٧)] ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾[(٨)].

وإذا كان الوفاء بعهد المشركين فرضاً على المؤمنين، فبأحرى فرض الوفاء بينهم أنفسهم، ثم عهدهم إلى الله، ثم عهد الله إليهم ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ كلٌّ حسب المسؤولية وثاقاً في العهد وكياناً للمعهود له وعليه.

ثم العهد منا لزام علينا إذا لم يكن في محرم أو حل لا يستطاع، كما

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩١.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.
(٤) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٤٠.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٧٧.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٧.
(٨) سورة التوبة، الآية: ١٢.

النذر واليمين، والعهد الصالح الواجب الوفاء يعم كافة العهود، الملتزَمة على المعاهد، سواءٌ أكان بين أشخاص أم جماعات أو شخص وجماعة أم دولة أو مع شعبها أم ماذا، ولا نقض في العهد أياً كان إلا جزاء النقض وفاقاً، أو كان خطأً يرجع بالضرر إلى المعاهد جماعة وفرادى، ولا سيما الضرر على الإسلام فإنه عهد محرم أو لا يستطاع فـ (لم يجعل الله رخصة في الوفاء بالعهد للبر والفاجر)[١].

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾:

هنا أمر بإيفاء المكيل إذا كيل ووزن الموزون إذا وزن بالقسطاس المستقيم. ثم لا ذكر عما يعامل فيه عدّاً حيث لا يكال ولا يوزن، لأنهما الأكثرية الساحقة في المعاملات دونه، لذلك لا نجد ما يصرح بالعدِّ إلا يتيمة تشمله ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾[٢] حيث الأشياء تشمل المعدودات، وأخرى تنهى عن مطلق الإخسار: ﴿أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾[٣].

وقد يشمله الوزن حيث يعم وزن الثقل والعدد فتشمله آيات الوزن. بالقسطاس المستقيم والميزان بالقسط.

وإن إيفاء الكيل وإقامة الوزن هما من مصاديق الوفاء بالعهد، حيث المعاملة تعاهد وأمانة في التعامل فلتكن موفية مستقيمة يستقيم بها التعامل في الجماهير، والثقة في النفوس والبركة في الحياة و﴿ذَٰلِكَ﴾ الوفاء والقسط ﴿خَيْرٌ﴾ جماعة وفرادى ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ في الأولى والأخرى، من تأويل المأخذ: الفطرة والعقل والشرع. وتأويل النتيجة في الحياة الدنيا والآخرة.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦٤ ح ٢٠٥ في كتاب الخصال عن عنبسة بن مصعب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ثلاثة لم يجعل الله لأحد من الناس فيهن رخصة، إلى قوله: والوفاء بالعهد للبر والفاجر.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ١٨١.

فالبخس في التعامل قذارة نفسية وخيانة على الأنفس تتزعزع به الثقة ويتبعها الفساد والكساد وتقل به البركة.

فساد وكساد في نفس الباخس النَّحِس، وفي أنفس الجماعة هما شر وأنحس تأويلاً.

وليس الأحسن هنا مقابل الحسن فإن البخس ليس حسناً اللهم إلا ادعاءً جوفاء، فإنه حسن بزعم الباخس أنه يربح أكثر من حقه، وإذا كان حسناً حاضراً في هذا القياس فالإيفاء أحسن تأويلاً في مثلث الزمان حيث يؤول ويرجع إلى الحسنى في ميزان الله وإلى الحياة الاقتصادية أيضاً، حقيقة يدركها بعيدو النظر وذوو البصر في التجارة، وإن لم يكن هناك دافع خُلقي أو حافز ديني، فمجرد إدراكها في الواقع التجاري بالتجربة العملية كاف، وإذا التزمها عقيدياً فنور على نور، حيث تصبح لزاماً لحياته دون تخلف، نبعة تنبع من القلب فترش وتنزف على القالب اضافة إلى نظافة القلب والتطلع في نشاطه العملي إلى آفاق أعلى وأجواءٍ أسمى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾:

آية وحيدة في صيغتها الخاصة: ﴿وَلَا تَقْفُ...﴾ وأدلتها الخاصة: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ...﴾ تختص اقتفاء المسلم واتباعه بما له علم دون ما دونه من ظن أو شك أو احتمال، وتحمِّل مسؤولية اقتفاء غير العلم ﴿ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ﴾.

وفي سائر القرآن آيات عدة تنهى عن اتباع الظن[١] وتأمر باتباع العلم أو أثارة من علم[٢].

(١) راجع ج ٢٧ من الفرقان تحت عنوان: كلام في العلم والظن.
(٢) راجع ص ١٠... تحت عنوان: كتاب أو إثارة من علم.

﴿وَلَا تَقْفُ﴾ من القفو: الاتباع المختار[١] لفظياً أو فكرياً أو عقيدياً أو عملياً، فنقل غير المعلوم دون نقد قفو، واعتقاده قفو والعمل وفقه قفو وأنت في كل ذلك مسؤول، دون فرق بين الأصول والفروع في صيغة النهي[٢] ولا صبغة الفطرة السليمة، تجاوباً بين كتابي التكوين والتشريع في لزوم اتجاه الإنسان إلى صلب الواقع ما وجد إليه سبيلاً.

وهنا ﴿عِلْمٌ﴾ وليس «العلم» لكي تشمل درجات العلم مما تطمئن النفس، ظناً متاخماً إلى العلم، ثم علماً: من علم اليقين أو عين اليقين أو حق اليقين، سواءٌ أكان علماً لك ميسوراً بما تبرهن من براهين، أو علماً لمن تعلمه عالماً ثقة فتتبعه فيما لا تجد لنفسك سبيلاً، فهذا علم بعلم، وذالك علم، فيشملهما ﴿عِلْمٌ﴾ كما شمل سائر ما يطمئن الإنسان.

وترى أن الآيات هي مظنونة الدلالة ومنها هذه، فكيف يستدل بها على المنع من اتباع غير العلم؟...

هذه طنطنة أصولية هراء: «إن القرآن قطعي السند ظني الدلالة والحديث ظني السند قطعي الدلالة» فمن الحديث ظني الدلالة وهو الكثرة الساحقة، وهذه الكثرة لا توجد في الدلالة القرآنية حيث الإعجاز القمة في بلاغته وفصاحته الدلالية يقضي على الدلالة الظنية ويجتثها من جذورها، ولا سيما في

---

(١) حيث الاتباع أعم من المخير والمسير، المكروه والمختار، ولكنهما القَفْو هو المختار فقط ولذلك اختير على الإتباع.

(٢) لا سيما أن هذا النهي واقع بين أحكام فرعية من واجبات ومحرمات، وليس فيها من أصول الدين إلا ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هُود: ٢] أولاً وأخيراً وليربط كافة الفروع إلى أصل الأصول: التوحيد، وأيضاً لا يصلح هذا النهي للتقيد فإنه من القضايا التي قياساتها معها، فما ليس للإنسان به علم وله طريق إلى العلم لا يقفى ويصطفى غير المعلوم على المعلوم، ثم وليس هناك أدلة من كتاب أو سنة تسمح باتباع غير العلم حتى تأتي مقيدة للآية، فإن موارد الأصول العملية هي الشك الذي لا طريق فيه إلى العلم والمكلف بين نفي وإثبات، وهذه الموارد خارجة عن نطاق الآية فإنها تختص بما يوجد فيه طريق إلى العلم.

آيات الأحكام والمعارف الأصلية فإنها صريحة مهما كانت بحاجة إلى تأملات وتدبرات، وليس في آية القفو ما يريب في دلالتها فلا نطمئن بمدلولها!.

أو أن ﴿عِلْمٌ﴾ هنا يشمل الظن وكما في آيات أخرى منها ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾[1].

ولكنه ﴿عِلْمٌ﴾ والعلم فقط، ولم يعن العلم فيما يعنيه ظناً ولا الظن علماً: فكل يعني معناه لا سواه، والظن في الآية ظن القلب وهو من أوسط العلم في العقل، ولو أن الظن يستعمل في العلم بقرينة - ولا يستعمل - فلا يعني ذلك استعماله فيه دون قرينة، أو أن العلم يعني الظن دونها!.

واتباع أصول كأصل البراءة والاستصحاب والظاهر أم ماذا من أصول في مواردها ليس اتباعاً للظن، حيث لا يشترط فيها حصول الظن بل هي أصول تتبع بدلالة العقل والشرع فيما لا دليل على مواردها، فاتباعها إذاً اتباع للعلم وأن لم يحصل به علم ولا ظن، أو لأن الأصول لا ترد إلا في موارد الشك حيث لا سبيل إلى علم، فهل يبقى المكلف دون نفي أو إثبات؟

والتكليف باقٍ في نفي أو إثبات! أم يقفوا خلاف هذه الأصول وهو قفو للمرجوع عقلياً وعادياً، ونقض لليقين المتعود بالشك كما في موارد الاستصحاب والبراءة والظاهر؟... ثم إنها لا تقرر حكماً وإنما تبين موضوعات لأحكامها إذ لا نجد سبيلاً علمياً إليها، ومورد النهي عن اتباع غير علم مخصوص بما نجد لعلم إليه سبيلاً. أم لا نجد ولا تكليف ثابتاً بنفي أو إثبات[2].

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤٥، ٤٦.

(٢) فإذ تشك أو تظن أن فلاناً زنى تجد سبيلاً إلى علم أو لا تجد ليس عليك شيء، ولكنك إذا كنت مديوناً ثم تشك أنك أديته أم لا هنا عليك تكليف إن وجدت سبيلاً إلى علم وتكليف آخر إن لم تجد هو اشتغال الذمة استصحاباً...

والضابطة الإسلامية السارية هي اتباع علم ما أمكن، وإلا فلا اتباع ولا متابعة إلا بدليل قاطع من كتاب أو سنة ثابتة أو حس أو عقل أم ماذا، كما الأصول العملية ثابتة بالكتاب والسنة ودليل العقل وهي خارجة عن محور الآية.

فالقياسات والإجماعات والشهوات والروايات التي لا توافق الكتاب والسنة أو تخالفهما، إنها لا تقفى إذ لا تفيد علماً ولا اطمئناناً، أم نطمئن بخطئها كالتي تضاد الكتاب أو السنة الثابتة، حيث الإدلة القاطعة تطاردها.

إذاً فلا نقفو ما ليس لنا به علمٌ. ولم تخصص الآية كثير تخصيص حتى تسقط عن الدلالة العلمية، ولا قليله حيث الأصول غير العلمية التي نقفوها إنما نقفوها بعلم من كتاب أو سنة أو أثارة من علم ولا سبيل في مواردها إلا أحكامها.

هناك علمي وهنا علم، والعلمي ما يستند إلى العلم كحجية الأصول العملية والشهادات أم ماذا من حجج شرعية، دون خروج عن ضابطة الآية. وكما العلم علمان: اجتهادي وتقليدي.

فالتثبت عن كل خبر وكل ظاهرة وحركة قبل نقلها والاعتقاد بها والحكم عليها، والعمل وفقها، إنه دعوة قرآنية صارمة سارية، ومتى استقام السمع والبصر والفؤاد على هذا المنهج لم يبق بعد مجال للأوهام والخرافات في المعتقدات، ولا مجال للظنون والشبهات في الأحكام والأقضية والتعاملات، ولا مجال في العلوم للافتراضات والحدسيات، حيث يتبنى الإنسان حياته في كل الجهات حياةً علمية دون تحكم للظنيات، اللهم إلا المسنودة إلى علم، أو المستفادة من علم، فيما لا سبيل إلى العلم، والضرورة قائمة بنفي أو إثبات، كما في موارد الأصول العملية والشهادات، تداوماً في سير عجلة الحياة.

هناك طريقة آفاقية لعلم أو ظن أم ماذا، هي السمع والبصر، وأخرى أنفسية هي الفؤاد، ففيما تسمع حقٌّ وباطل، وفيما تبصر حقٌّ وباطل، وفيما تعتقد فطرياً أو فكرياً وعقلياً وفي الفؤاد حق وباطل، وبين الحق والباطل أربع أصابع، فما تسمعه أكثره الباطل وما تبصره أقله الباطل. وما تتفأده فيه حقٌّ وباطلٌ فـ ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

إن السمع والبصر في تلقيهما ما يتلقيان، ثم ما يلقى منهما بلسان أو قلم أو اعتقاد أو عمل أم ماذا، إنهما مسؤولان! فـ «أيما رجل أشاع على رجل مسلم بكلمة وهو منها بريء كان حقاً على الله أن يذيبه يوم القيامة في النار حتى يأتي بنفاد ما قال»[(١)] «ومن قفا مؤمناً بشيء يريد شينه حبسه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قال»[(٢)] و«من بهت مؤمنة أقيم في طينة خبال أو يخرج مما قال»[(٣)].

ثم الفؤاد وهو القلب المتفئد المشتعل المشتغل بما اعتقده أو عقده، اشتعال النور بالحق أو النار بالباطل، ومعه معداته بما يتفأد، إنه مسؤول، حيث يفعل أو يقول ما اعتقده دون علم!.

إنها أمانة كبرى للجوارح كلها وأهمها السمع والبصر، وللجوانح كلها وأهمها الفؤاد ما يأخذه الإنسان وما يؤتيه، اللهم إلا قفوا العلم.

أمانة ترتعش أركان كيان الإنسان لجسامتها وضخامتها في دقتها: ﴿إِنَّ

(١) الدر المنثور ٤: ١٨٢ - أخرج الحاكم وصححه عن أبي ذر قال قال رسول الله ﷺ . . .

(٢) المصدر أخرج أبو داود وابن أبي الدنيا في الصمت عن معاذ بن أنس عن النبي ﷺ من حمي مؤمناً من منافق بعث الله ملكاً يحمي لحمه يوم القيامة من نار جهنم ومن قفا.

(٣) نور الثقلين: ١٦٤ ح ٢٠٦ في تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في الآية قال: «لا ترم أحداً بما ليس لك به علم» وقال رسول الله ﷺ: من بهت. . .

ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾: مسؤولية تضرب إلى أعماق الزمن منذ جرى عليه قلم التكليف.

ف «ليس لك أن تتكلم بما شئت»[١] حيث الإنسان مسؤول عن كل ما يفعل أو يعتقد أو يقول ف «السمع وما وعى والبصر وما رأى والفؤاد وما عقد عليه»[٢] كل أولئك مسؤول.

ترى ولماذا ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والثلاثة من أعضاء الإنسان؟... لأن الفؤاد هو المتن في عقلية الإنسان، والسمع والبصر هما الإدراكان على عقلٍ، فهي إذاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ حيث تجمع مدارك الروح من الإنسان!.

ثم المسؤول هل هو الإنسان يسأل سؤال تأنيب عما يفعله بهذه الأعضاء؟ فيرجع ضمير الغائب «كان» إلى الإنسان!: «كان الإنسان عن (أولئك) مسؤولاً» لماذا استعملها في غير علم؟...

أم هو كل من السمع والبصر والفؤاد، إن كلّاً منها مسؤولٌ عنه فيما فعل، فالضمير لكل منها على البدل؟ «كان كل عن نفسه مسؤولاً» أم الضميران راجعان إلى الإنسان فالإنسان هو المسؤول عنه في هذه الأخطاء.

﴿كَانَ﴾ هذه تتحملهما أدبياً ومعنوياً، فقد يسأل الإنسان عنها ما فعله

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٦٥ ح ٢٠٩ في كتاب علل الشرائع بإسناده عن عبد العظيم بن عبد الله الحسني قال حدثني علي بن جعفر عن أخيه موسى بن جعفر عن أبيه قال قال علي بن الحسين عليه السلام: ليس لك أن تتكلم بما شئت لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: رحم الله عبداً قال خيراً فغنم أو صمت فسلم، وليس لك أن تسمع ما شئت لأن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

(٢) المصدر ح ٣١٣ عن الحسن قال: كنت أطيل الجلوس في المخرج لأسمع غناء بعض الجيران. قال: فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقال لي يا حسن، ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ السمع...

بها ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[١] وتسأل الأعضاء فتحدِّث أخبارها بما تحمّلت وسجّلت الأقوال والأعمال ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ...﴾[٢] وكذلك الفؤاد حيث يخبر بما ارتسم فيه من عقائد، حيث يوقف موقف الاستنطاق فلا حول له عما سجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[٣] كما الإنسان مسؤول عنه في أخطائه بهذه الثلاث أم ماذا؟.

فالإنسان مسؤول عن هذه الأعضاء ومسؤول عن نفسه بما فعل بها، والأعضاء مسؤول عنها، مسؤولية كبرى تشمل الإنسان كل الإنسان.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾:

إن المشي في الأرض مرحاً اختيال وافتخار فإسراف واستكبار، فهو ممنوع مذموم كما أن تصعير الخد للناس وتصغير كيانك عند الناس مذموم، فذلك إفراط وهذا تفريط وعليك بعوان بين ذلك: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾[٤] [٥] إذا كان التصعير الإمالة تذللاً وتكبراً فإنهما كلاهما تصعير، وكلاهما هنا معنيان.

والمرح هو شدة الفرح والتوسُّع فيه، فليمش الإنسان دون مرح وفرح

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٣.
(٣) سورة فصلت، الآية: ٢٠.
(٤) سورة لقمان، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٥) البرهان ٣: ٤٢٢ - الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال: فرض الله على الرجلين ألا يمشي بهما إلى شيء من معاصي الله وفرض عليهما المشي إلى ما يرضي الله فقال: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧] وقال: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

تصعير وإنما هوناً: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾[1].

لو أنك تعرف نفسك الضئيل الفقير أمام ربك العلي القدير. وأنك دوماً في قبضته وأمامه وبحضرته، فطامن من كبريائك وخفف من وطأة خيلائك، وامش على الأرض هوناً، لا مرحاً في كبريائك.

من أنت أيتها الحشرة الصغيرة الفقيرة، الهزيلة الرذيلة حتى تمشي في أرض الله مرحاً؟ ألأنك تسامي الله في قدرته وجبروته؟ وبيده ملكوت كل شيءٍ! أم تترفع على خلق الله بثراء أو سلطان. أم قوة أم ماذا؟ فيا لها من زخرفات هراء ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾[2]! أم تمشي في الأرض مرحاً منة عليها أنك تمشي فيها، فالأرض التي تحتك هي فوقك إذ لن تخرقها، وجبالها التي أمامك هي فوقك حيث لن تبلغها طولاً، فطُولك قاصر عن جبال الأرض، وطَولك في حولك قاصر عن خرق الأرض، إذاً فلماذا المرح؟! هذا! وترى أن الإنسان عاجز عن خرق الأرض؟ وهو يخرقها بالوسائل التي اصطنعها فيستخرج منها معادنها! أو لن يبلغ الجبال طولاً؟ وهو يحلِّق بطائرات وصواريخ وسفن فضائية على الجبال وما فوقها من كرات!.

ولكنما الإنسان أياً كان لن يخرق الأرض بمشيئته المرحة، ولن يبلغ الجبال في طوله، وإن كان يخرق ويبلغ بطَوله وحَوله، فلا طول إلا بالله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ليس لك أن تمن على الأرض أنك تمشي فيها، بل الله يمن عليك أنه يمشيك فيها، ولا أن تمن - فيما منّ الله عليك من طاقات تخرف بها الأرض وتحلق - على الله بل الله يمن عليك، ولا أن تمن على خلق الله بما

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

(٢) سورة النحل، الآية: ٥٣.

ابتلاك الله به من نعم استخلفك فيها، فارجع إلى أوّلك تجدك نطفة قذرة وإلى آخرك تجدك جيفة نتنة وإلى وسطك حيث أنت حامل العذرة، فيا أيتها النطفة القذرة والجيفة العذرة كيف تمشين على الأرض مرحاً، وعليك أن تمشي عليها هوناً متواضعاً لله غير مستكبر على خلق الله!

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾﴾:

﴿سَيِّئُهُۥ﴾: تركاً لمفروضاته واقتراباً أو اقترافاً لمحرماته، حرمة سلبية أم إيجابية، محرمات ثابتة عبر الرسالات الإلهية، حيث تضرب ﴿كَانَ﴾ إلى أعماق الزمن الرسالي، فإلى الأبد، وكما نرى أنها كلها من المحرمات التي لا تتحول.

و﴿مَكْرُوهًا﴾ هنا تتهدم صرح الاصطلاحة الفقهية أنه مقابل المحرم ما يرجح تركه، فما من مكروه في سائر القرآن إلا محرماً، ومن ثم الحديث حذو النعل بالنعل، إلا بقرينة قاطعة تصرفها إلى غير معناها.

لا نجد مكروهاً في القرآن إلّا محرماً أو من أشده: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾(١) ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾﴾(٢).

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾(٣) (٤).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(٢) سورة التوبة، الآيات: ٤٦-٤٨.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٤) فالكراهة بصيغها في أحاديث تحمل على الحرمة وأذكر حديثا يقول فيه الإمام الصادق عليه السلام كان أبي يكره... وكان أبي لا يكره لحلال. =

﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا ٣٩﴾:

تأتي ﴿ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾ في القرآن كله عشرين مرة وهي هيئة خاصة من الحكم يحكم ويربط بها علم الإنسان أو خلقه أو عقيدته أو عقليته أو عمليته عن التفسخ والانحلال والانفصال عن الحق المُرام وحق المَرام، فمن العملية ذلك الذي ذكر في الآيات المسبقة أمراً ونهياً يربطان الإنسان برباط التقوى وينيطانه بنياط التوحيد حكمة عقلية في البداية: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وفي النهاية: ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ حكمة عملية مربوطة بحكمة عقيدية كما الحكمة كلها تُربط هكذا: ختام يشبه البداية في هذه الحكمة العملية، محبوكة الطرفين، موصولة بالقاعدة الكبرى في أضلاع الإسلام «التوحيد» حيث القرآن يقيم عليها الحياة كل الحياة. توحيداً عملياً ينبع من العلمي والعقائدي: ألا تعبدوا إلا إياه، لا عقلياً ولا عقيدياً لا يعدو الضمير إلى الحياة العملية، وفي الحكم المسبقة في هذه الآيات مجموعة من الحكم: عقلية عقيدية: (٢٣ و٢٩) واجتماعية: (٢٣ و٢٥) وسياسية واقتصادية: (٢٦ - ٣٠ و٣٥) وأنفسية: (٣١ و٣٣) وخلقية: (٣٢ و٣٤ و٣٧) وعلمية: (٣٦) تجمعها الحكمة العقلية والعملية!.

وقد تتوحد خيراً كثيراً: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرًا كَثِيرًاۗ﴾[1] وفي الدعوة: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾[2] ولحدٍّ كأنها القرآن كله: ﴿حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ﴾[3] من

= وكما الكراهة لا تدل على ما اصطلحوا عليه كذلك الاستحباب أو هو أعم من الوجوب وسائر الرجحان دون ظهور في رجحان غير ملزم.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) سورة القمر، الآية: ٥.

علمية وخُلقية وتربوية عقيدية وعملية، من فردية وجماعية، من سياسية واقتصادية أم ماذا فكله حكمة.

إن الحكمة هي القاعدة الكبرى في مربع الدعوة: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾(١) وفي مثلث السلطة العادلة: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾(٢) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾(٣) وفي مثنى النعمة: ﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾(٤) والرسالة ﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾(٥) والحكمة كلها فيه.

لا تعني الحكمة فيما تعنيه الحكمة الإلهية الدخيلة، حيث تنتج تحلّلاً وتحيراً بديل الحكمة، وإنما الحكمة الإلهية الخالصة من وحي القرآن والسنة: وأين حكمة من حكمة؟!.

إن الحكمة البشرية متفسخة غير حكيمة، ترى الحكماء فيها متعارضين، والمتعلمين إياها محتارين، لأنهم لا يصدرون عن مصدر الوحي وقد يخالفونه وكما نراه في تعريفهم بها «: : سواء وافق الشرع أم خالفه»!:

إن الحكمة البشرية تربط العقول على حدّها، فلتربط برباط الحكمة الإلهية ولكي تستنير وتستزيد حكمة الخلق من حكمة الخالق.

ثم الحكمة الإلهية في تقسيم شامل تكوينية وتدوينية، فالتدوينية هي كتابات الوحي كما عرّفت بأنها حكمة ولا سيما القرآن: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ فَمَا

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.
(٣) سورة ص، الآية: ٢٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣١.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٨١.

تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾[١] والتكوينية منها معصومة كالعقل والعصمة في المعصومين، ومنها دون ذلك من فطرة وعقل حيث الإدراك فيهما ليس مطلقاً دون خطإٍ، فالفطرة على بلوغها في أحكامها العامة قد تحجب وهذا تقصير من أصحابها، ثم وهي قاصرة في إدراك الجزئيات والتفاصيل، والعقل فيه قصور وفيه تقصير فيما له إدراكه من كليات، حيث يقصر عن درك الحقائق ككل إلّا شطراً لا بد منه تدليلاً على الحكمة التكوينية المعصومة: النبيين - ثم وقد يقصّر في إدراكه حيث «إنارة العقل مكسوف بطوع الهوى».

والآيات حول الحكمة الإلهية تعني الحكمة المعصومة تكويناً أو تدويناً أم هما معاً، دون سائر الحكمة من فطرة وعقل أم ماذا؟



(١) سورة القمر، الآية: ٥.

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ

أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾

﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾:

قولة مستنكرة في الأساس ﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ﴾ في بعدين بعيدين عن ساحة الألوهية: أن له ولداً وأنه أنثى، فهنا استفهام استنكار وتهكُّم على سبيل مجاراتهم أن له ولداً: ﴿أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾[1].

من المشركين من اتخذ للرحمن بنين كالجن أو المسيح وعزير، أو بنات كالملائكة: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ﴾[2] والذين اتخذوا له الملائكة بنات هم أضل سبيلاً ممن جمعوا له بنات وبنين أو اتخذوا له بنين: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[3].

فلأن الإناث أنقص من الذكور، وأنهم كانوا يترذلون البنات كأنهن حيوان أو أدنى، وأن الملائكة هم من أفضل خلق الله، وأن الله لم يلد ولم يتخذ ولداً، فنسبة البنات إلى الله دون البنين فرية وقحة في خماسية اللعنة، فلو أمكن لله أن يلد أو يتخذ ولداً فلماذا اختصه ببنات وأصفاكم بالبنين.

والإصفاء هو الإخلاص والإيثار، فترى الله يُؤثر خلقه على نفسه لو

(١) سورة الزخرف، الآيات: ١٦ - ١٩.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.
(٣) سورة الصافات، الآيتان: ١٥٣، ١٥٤.

اتخذ ولداً فيتخذ الإناث حين يخلق لهم ذكوراً وإناثاً، أعجزاً عن أن يتخذ لنفسه ذكراناً فاضطر إلى الإناث، وليس الإيثار حين يمكن إلّا لمن لا يقدر على إعطاء الغير ما لنفسه إلّا بحرمان نفسه، وإلا فحماقة وغباوة.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ عظيماً في فريته على الله: إن له ولداً، وهو بنت، وهي ملائكة الله، عظيماً في شناعته وبشاعته، عظيماً في استحالته ووقاحته، أن تقولوا عليه: جسم مبعض فمحتاج، حيث يلد، ثم هو جاهل غبي حيث يفضل خلقه على نفسه فيما يلد!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١)﴾:

الصرف هو رد الشيء من حالة إلى أخرى أو إبداله بآخر، والتصريف تكثيرٌ للصرف كمّاً أو كيفاً أو هما معاً، ولقد ردد الله في هذا القرآن حقائق جمة بصيغ عِدة وصور شتى وحتى صيغة التصريف، تصريفاً للوعيد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾(١) ومن كل مثل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾(٢) لعلهم يرجعون: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣) ﴿انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾(٤).

هنالك تصريفات لكل مثل في كتابي التكوين والتدوين تأتينا في الآفاق وفي أنفسنا في العقل والفطرة، والرسل، وسائر الكون، وفي القرآن، تردادا وتكريراً لها بأحسن الصور وأبلغ المواعظ وأظهر البراهين ﴿لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

فكما كتب الله في كتاب التكوين آيات متشابهة تصريفاً لها ليذكروا

(١) سورة طه، الآية: ١١٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٩.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٦٥.

فأينما تولي وجهك ترى أمثالاً من هذه الآيات تتكرر بصيغ، وكما تختلف في صيغ والأصل واحد ﴿لِيَذَّكَّرُوا۟...﴾ كذلك كتابه التدوين القرآن العظيم موازياً لكتاب التكوين، يكرر قصصاً تحمل ذكريات وحقائق جمة: ﴿كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾(١) كتاباً متشابهاً في تحقيق المَرام والحق المُرام.

متشابهاً في قمة التعبير، متشابهاً في كيفية التدليل، كما هو محكم كلّه في جهات عدة: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٢).

ومن تصريفه برهاناً وبياناً لعقيدة التوحيد، المجاراة في أن له ولداً فكيف إذاً يكون له بنات ملائكة؟ ومنه المجاراة في حكاية الآلهة المدعاة.

﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾:

﴿لَّوْ﴾ حرف امتناع تُحيل مدخولها، فالآلهة معه المستحيلة، تستحيل في بعدٍ ثان: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ فالقضية برمتها مستحيلة وأية سبيل لها إليه منفية.

سبيلاً ليتغلبوا عليه إذ هم عِدة وهو واحد، فتنازعاً واختلافاً، فتخلفاً في النظم واختلالاً، وليس فليس إلّا واحداً!.

٢ - أو سبيلاً ليتقربوا إليه فيثبتهم على ما يراد لهم، وقد كذبهم بألسنة رسله فليس إلّا واحداً!.

٣ - أو سبيلاً إليه ليعرفهم ذو العرش: الإله الأصل، أنهم شركاؤه فلا ينكرهم؟ وقد أنكرهم!. ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٣) أفأنتم تعلمون له شركاء وهو لا يعلم؟!

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.

٤ - أو سبيلاً إلى ذي العرش ليشاركوه في عرش الربوبية «إذاً لفسدتا»! ذو العرش والآلهة معه، السماوات والأرض: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾(١) ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾(٢).

٥ - أو سبيلاً إليه ليتقربوا لديه ثم ليجعلهم شفعاءه فيُقرِّبوا عبيدهم بعبادتهم أنفسهم إليه زلفى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾(٣) ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾(٤) فكيف يكونون شفعاء عند الله وهم عنه بعاد؟

إن ابتغاء سبيل إلى ذي العرش: الإله الأصل، للآلهة الفروع لو يتخذهم آلهة، إن ذلك لزام شركتهم في ألوهيته، فإذا لم يبتغوا إليه سبيلاً فضلاً عن سلوك السبيل فليسوا هم آلهة معه، وإنما خلق من خلقه يدبرهم كسواهم حيث يشاء فهم تحت عرشه بيده نواصيهم كما بيده ملكوت كل شيء.

هذا البرهان يقنع من يعتقدون في الإله ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ ثم اتخذ آلهة أخرى: إن خلقهم آلهة يساندونه، أو جعلهم آلهة، وأما من يقولون بآلهة عدة متساوين متشاكسين فلا يقنعهم هذا البرهان، وإنما المذكور في رابع السبل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ...﴾. ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ...﴾.

فأدلة التوحيد القرآني تحلِّق على كافة المشركين أياً كانوا وأيان، دون خصوص السابقين العائشين زمن نزول القرآن، فإنه دعوة خالدة تعم العالمين أجمعين.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٣.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾﴾:

إنه متنزه متعال عما يقولون: إن له شركاء أم بنات أو أبناء أم ماذا مما يمس من ساحة الربوبية الوحيدة، وتعالى علواً كبيراً كما هو الكبير المتعال.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾:

إن الكون كله محراب فسيح فصيح يفصح عنه ويسبح له وينزهه عن شركاء فيوحده ويسجد له ويسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم!.

السماوات هنا هي الأجواء السبعة بما فيها ومن فيها، والأرض هي الأرضون السبع: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ...﴾[1] حيث الآية تستعرض الكون كله أياً كان ﴿وَمَن فِيهِنَّ﴾ تعم عامة العقلاء في السماوات والأرضين من ملَك أو إنس وجان أياً كانوا وإيان ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ﴾ تستغرق كل شيء دون إبقاءٍ لشيء، إنها تسبح بحمده ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...﴾.

و«هم» في ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ راجع إلى كل شيء لمكان الاستغراق لكل شيء في التسبيح بالحمد و﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ حيث يتطلب شعوراً وإدراكاً نحن لا نفقهه في كل شيء فالأشياء تعرف ربها فتسبحه بحمده، لا فحسب العقلاء من ملك وإنسان وجان، بل والحيوان: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[2] ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[3] فـ «صوت الديك صلاته وضربه بجناحيه سجوده وركوعه»[4] فـ «لا تضربوا وجوه الدواب فإن كل شيء يسبح

(١) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٢) سورة النور، الآية: ٤١.
(٣) سورة ص، الآية: ١٩.
(٤) الدر المنثور ٤: ١٨٣ - أخرج ابن مردويه أبو نعيم في فضائل الذكر عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: صوت... وركوعه ثم تلا هذه الآية: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ...﴾ [الحجر: ٢١].

بحمده»[1] «لا تتخذوها - الدواب - كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق فرب مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه»[2].

فكل صنف من صنوف الدواب والطير أمة تسبح حتى النمل[3] وصوت الضفدع تسبيح[4]: لا فحسب الدواب كلها تسبح بل والأشجار والجمادات: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[5]، ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾[6]: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾[7]: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[8] ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[9].

فقد يردف الإنسان بكل دابة، والطير والملائكة بالرعد، والطير بالجبال، بتقديم الرعد والجبال في التسبيح بالحمد، مما يبرهن أنهما تسبحان كما الطير وكما الملائكة والإنسان.

---

(١) المصدر أخرج أبو الشيخ في العظمة وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري قال، قال رسول الله ﷺ . . .

(٢) المصدر أخرج أحمد عن معاذ بن أنس عن رسول الله ﷺ أنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال: اركبوها سالمة ودعوها سالمة ولا تتخذوها كراسي.

(٣) المصدر أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: إن النمل يسجن وأخرج البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: قرصت نملة نبياً من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت فأوحى الله إليه: من أجل نملة واحدة أحرقت أمة من النمل تسبح.

(٤) المصدر أخرج النسائي وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر قال: نهى النبي ﷺ عن قتل الضفدع وقال: نعيقها تسبيح.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

(٦) سورة ص، الآية: ١٨.

(٧) سورة ص، الآية: ١٩.

(٨) سورة الرعد، الآية: ١٣.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

وإنه لمشهد كوني رهيب عجيب فريد حين ينبئنا ربنا أن كل شيء يسبح بحمده، من كل ذرة، وكل زاحفة وحشرة، وكل طير ودابة، وكل ما في الأرض والسماء، وكل سابحة في الماء والهواء، الكل تسبح ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾:

جملُه ذرات عالم در نهان با تو مى گويند روزان وشبان
ما سميعيم وبصير وباهشيم باشما نا محرمان ما خامشيم[1]

إن ذرات الكون أياً كان تنتفض روحاً حية حيث تنبض بالحياة في تسبيح الله، فالكون كله حركة وحياة، وكله تسبحة لله، محراب واسع تسجد فيه الكائنات لربها، وجدان الإنسان يرتعش وهو يستشعر كونه غارقاً في السبحات، وهو غارق في الشهوات، غافل عن الله ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2] فالأمانة العامة التي نعرفها في الكون كله هي تسبيحه بالحمد، فقد أداها الكون كله وحملها وخانها الإنسان بظلمه وجهله، فـ «ما تستقل الشمس فيبقى شيء من خلق الله تعالى إلا سبح الله بحمده إلا ما كان من الشيطان وأغنياء بني آدم»[3].

ترى ما هذا التسبيح الشامل لكل شيء، هل هو قول عن اعتقاد بعمل: مثلث التسبيح الكامل؟ ولا نسمع إلّا الإنسان المسبّح! أم هو التسبيح

---

(١) جون شماً سوى جمادى مى رويد محرم جان جمادان كي شويد
از جمادي در جهان جان رويد غلغل اجزاي عالم بشنويد
فاش تسبيح جمادات آيدت وسوسة تأويلها بربايدت
چون ندارد جان تو قنديلها بهر بينش كرده إي تأويلها
كه غرض تسبيح ظاهر كي بود دعوى ديدن خيال وغي بود
پس چه از تسبيح يادت مى دهد آن دلالت همچو كفتن ميشود
اين بود تأويل أهل اعتزال وأى آن كس كو ندارد نو رحال

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢.

(٣) الدر المنثور ٤: أخرج ابن مردويه عن عمرو بن عنبسة عن رسول الله ﷺ قال...

التكويني لا عن شعور وإدراك إلا لذوي الشعور؟ والتسبيح فعل لمن يسبح وهو بحاجة إلى شعور مّا واختيار! والاستدلال بإتقان الصنع من العقلاء ظرف لتسبيح العقلاء والكون موضع لهذا الظرف، لا أنه المسبِّح لولا شعوره بنفسه! ومن ثم ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ تعريف بكيان هذا التسبيح أنه لا يُفقه للإنسان الفقيه دقائق من العلوم الخفية، فهل الاستدلال بالكون على المكون وكيانه لا ينال للإنسان وإن فكر ما فكر ودبر ما دبر، والكون كله آيات لله لمن فكر ودبر: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[1].

والآيات الآفاقية هي كل شيء يستدل بها على الله بما يرينا الله برسل الفطرة والعقل والحس الذاتية وسائر الرسل الخارجية، فهل بعد ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ لو كانت الدلالة التكوينية هي المعنية؟! فالفقه هو التوصل بعلم حاضر إلى علم غائب، وغائب التسبيح بالحمد في كل شيء وأصلٌ لحد لا يُتوصل إليه بأي علم حاضر، والتسبيح التكويني لكلِّ شيء حاضر لكل ذى حجي فكيف ﴿لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾؟

نحن لا نفقه تسبيحهم: قولتهم هذه وفعلتهم وعقيدتهم، إلّا أن يفقِّهنا الله كما فقَّه سليمان: ﴿قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ۝١٨ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكٗا مِّن قَوۡلِهَا...﴾[2] وداود ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[3].

وهنا يتحقق أن لكل شيء لساناً أياً كان وإن كنا لا نفقه لغاتها، ثم من وراء اللسان جنان وعمل بالأركان، تسبّح بحمد ربها وتسجد لربها ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ

(١) سورة فصلت، الآية: ٥٣.
(٢) سورة النمل، الآيتان: ١٨، ١٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٩.

مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾[١] ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ يَتَفَيَّؤُاْ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدٗا لِّلَّهِ وَهُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن دَآبَّةٖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[٢] ﴿وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾[٣].

تسبيحات بالحمد وسجودات مخيرين لحدٍّ لا مسيرين، وفي ضياع لهم فيما يتوجب عليهم من تسبيح ضياعُ لأعمارهم في الأولى[٤] كما في تخلف الدواب عن سنة العدل عقاب لهم في الأخرى ﴿...ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ﴾[٥] وعلّ في كل حركة وكل صوت لكل شيء عبادة وتسبيحة[٦]

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٥.

(٢) سورة النحل، الآيات: ٤٨ - ٥٠.

(٣) سورة الرحمن، الآية: ٦.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٨٤ - أخرج ابن راهويه في مسنده من طريق الزهري قال أتي أبو بكر الصديق بغراب وافر الجناحين فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما صيد من صيد ولا عضدت عضاة ولا قطعت وشيجة إلا بقلة التسبيح» وعن أبي هريرة عنه ﷺ مثله «إلا بتضييعه التسبيح» أخرج أبو نعيم في الحلية وابن مردويه عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ: ما صيد من طير في السماء ولا سمك في الماء حتى يدع ما افترض الله عليه من التسبيح وأخرج العقيلي في الضعفاء وأبو الشيخ والديلمي عن أنس قال قال رسول الله ﷺ: آجال البهائم كلها وخشاش الأرض والنمل والبراغيث والجراد والخيل والبغال والدواب كلها وغير ذلك آجالها في التسبيح فإذا انقضى تسبيحها قبض الله أرواحها وليس إلى ملك الموت منها شيء.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣٨.

(٦) الدر المنثور ٤: ١٨٥ - أخرج أبو الشيخ عن أنس قال: أتي رسول الله ﷺ بطعام ثريد فقال: إن هذا الطعام يسبح، قالوا: يا رسول الله ﷺ! وتفقه تسبيحه! قال: نعم ثم قال الرجل: ادنُ هذه القصعة من هذا الرجل فأدناها منه فقال: نعم يا رسول الله هذا الطعام يسبح فقال: ادنها من آخر وأدناها منه فقال: هذا الطعام يسبح ثم قال: ردها، فقال رجل: يا رسول الله ﷺ لو أمرت على القوم جميعاً، فقال: لا لو أنها سكتت عند رجل لقالوا من ذنب، ردها فردها وفيه أخرج الخطيب في تاريخه عن عائشة قالت دخل علي رسول الله ﷺ فقال لي: يا عائشة اغسلي هذين البردين فقلت يا رسول الله ﷺ بالأمس غسلتهما، فقال لي: أما علمت أن الثوب يسبح فإذا اتسخ انقطع تسبيحه؟». =

﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ. . .﴾ ومن تسبيحهم «سبحان الله وبحمده»[1].

وترى إن كون الأشياء مسبحة عن علم على أن جماداتها أموات غير أحياء هلّا يمنع من الاستدلال على حياته تعالى بعلمه؟. . كلّا حيث الحياة لزام العلم ولكل شيء حياة حسبه، والله محيي الأشياء الأحياء، حيٌّ بغير حياتهم «باين عن خلقه وخلقه باين عنه».

هذا هو الكون كله يسبح الله بحمده ولكن الإنسان خان هذه الأمانة الكبرى، طاعته وعبادته ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (٧٢) لِّيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٣)﴾[2].

هذا العرض تكويني تبياناً لكيان الكون أجمع من حيث الطاعة والعصيان وعصيان الإنسان دون الكون أجمع.

والأمانة واجبها الأداء إلى أهلها ما دامت أمانة لدى غير أهلها، فإذا حملت تحققت الخيانة، سواء نوى ألا يؤديها منذ أخذها، أم لم يؤدها

= أقول: ومن طرق أصحابنا أحاديث عدة تجاوب ما أوردناه عن إخواننا السنة ففي نور الثقلين ٣: ١٦٨ ح ٢٢٢ في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: قال سألته عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. قال: تنقض الجدار تسبيحها وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام مثله وعن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام مثله عن الباقر عليه السلام نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أن توسم البهائم في وجوهها وأن تضرب وجوهها لأنها تسبح بحمد ربها عنه عليه السلام أيضاً أنه دخل عليه رجل فقال: فداك أبي وأمي إني أجد الله يقول في كتابه: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ﴾ [الحجر: ٢١]. . . فقال له: هو كما قال: فقال: أتسبح الشجر اليابسة؟ فقال: نعم، أما سمعت خشب البيت كيف ينقض؟ وذلك تسبيحه فسبحان الله على كل حال.

(١) الدر المنثور ٤: ١٨٣ - أخرج أحمد وابن مردويه عن ابن عمران النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن نوحاً لما حضرته الوفاة قال لابنيه: آمركما بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يرزق كل شيء.

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: ٧٢، ٧٣.

عملياً، فمن الأمانة الفطرة والعقل حيث يحملان التكليف أمام الله، ولكنما الإنسان يخون الفطرة والعقل رسولي الباطن، ويخون سائر الرسل حيث يعصى ربه.

و﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ محطُّه تغافل الإنسان عن تسبيحه بحمده بين سائر الكون ما لم يصل إلى الشرك والنفاق: وكما في آية الأمانة: ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفوراً رحيماً.

وكذلك ﴿لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ فعدم فقهه علمياً قصور معذور، ولكن تركه عملياً وعدم مجاراة الكون في التسبيح بالحمد تقصيراً محظور، وفي سواه معذور.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾:

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ﴾ تعني الرسول ﷺ ومن ثمّ من معه، الذين يقرؤون القرآن قراءته ﷺ، فليس كل قارئ للقرآن يجعل الله بينه وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، فرب تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه، وليس ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ هم كل الكفرة، وإنما هم الذين ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] فهم يستهزئون أو يهاجمون على قارئ القرآن فالقرآن حفاظ على قارئيه إن كانوا يقرؤون كما كان الرسول يقرأ أو قريباً منه، كلٌّ قدره.

هنا بين قارئ القرآن وبين الكفار حجابٌ مثلث: على أعينهم فلا يرونه، وعلى آذانهم فلا يسمعونه وعلى قلوبهم فلا يفقهونه، لأنهم ﴿لَا يُؤْمِنُونَ

(١) سورة البقرة، الآية: ٦.

بِٱلْآخِرَةِ﴾: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥﴾(١).

كِنّ القلوب ووقر الآذان لزامان على الذين لا يؤمنون. وهما خسار الظالمين ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾(٢) وليس هناك على الحقيقة كنان على قلب ولا وقر في سمع، وإنما هم لاستثقالهم سماع القرآن حيث يتلى عليهم ويُفرغ في آذانهم، هم كالذين على قلوبهم أكنة دون علمه، وفي آذانهم وقر دون سمعه، وإن كانوا أُتوا من قبل نفوسهم، وأخذوا بسوء اختيارهم، ولذلك ذُموا على إطراحه، ولم يعذروا بالإضراب عن استماعه.

ثم الحجاب المستور عن أعينهم عليها ليس إلّا على الذين يريدون به شراً وضراً حين يقرأ القرآن كما هنا ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ...﴾ حفاظاً على كرامة الوحي وحامله، وكما في يس حفاظاً على نفسه المقدسة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾(٣) أم على حرمته حين يهتك كما قصدته حمالة الحطب فما رأته ورأت أبا بكر فرجعت بعدما خسئت(٤).

---

(١) سورة فصلت، الآيات: ٣ - ٥.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٢.
(٣) سورة يس، الآية: ٩.
(٤) الدر المنثور ٤ : ١٨٦ - أخرج ابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن أسماء بنت أبي بكر أن أم جميل دخلت على أبي بكر وعنده رسول الله ﷺ فقالت: يا بن أبي قحافة ما شأن صاحبك ينشد في الشعر؟ فقال: والله ما صاحبي بشاعر وما يدري ما الشعر فقالت: أليس قد قال: في جيدها حبل من مسد، فما يدريه ما في جيدي فقال النبي ﷺ قل لها: هل ترين عندي أحداً فإنها لن تراني جعل بيني وبينها حجاب فقال لها أبو بكر فقالت: أتهزأ بي والله ما أرى عندك أحداً وأخرج ابن مردويه عن أبي بكر قال: كنت جالساً عند المقام ورسول الله ﷺ في ظل=

إن ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ هو المستور عن الأنظار الكافرة، ثم لا حجاب لمن سواها، فهو ساتر مستور كالحجر المحجور بين بحري العذب والمالح: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1].

إن القرآن يكشف عن حجب المؤمنين وهو حجابٌ على الكافرين، كما يجعل بينه وبينه حجاباً مستوراً، وهو حِرزٌ يحترز به من يعتمده ويقرأه مؤمناً أو يكتبه وكما في سلسلة الذهب الجعفري عن أمير المؤمنين علي عليه السلام[2]:

وترى ما هو ذكر الرب وحده في القرآن إذ كانوا يولون على أدبارهم

= الكعبة بين يدي إذ جاءت أم جميل بنت حرب بن أمية زوجة أبي لهب ومعها فهران فقالت: أين الذي هجاني وهجا زوجي والله لئن رأيته لأرضن أنثيه بهذين الفهرين وذلك عند نزول تبت يدا أبي لهب قال أبو بكر: فقلت لها: يا أم جميل ما هجاك ولا هجا زوجك قالت: والله ما أنت بكذاب وإن الناس ليقولون ذلك ثم ولت ذاهبة فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إنها لم ترك فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: حال بيني وبينها جبرائيل. أقول وأخرج مثله عديد من رواد الحديث والجامعين.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٥٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٨٦ - أخرج ابن عساكر وولده القائم في كتاب آيات الحرز عن العباس بن محمد المنقري عنه قال، قدم حسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه المدينة حاجاً فاحتجنا إلى أن نوجه رسولاً وكان في الخوف فأبى الرسول أن يخرج وخاف على نفسه من الطريق فقال الحسين رضي الله عنه: أنا أكتب لك رقعة فيها حرز لن يضرك شيء إن شاء الله تعالى فكتب له رقعة وجعلها الرسول في صورته فذهب الرسول فلم يلبث أن جاء سالماً فقال: مررت بالأعراب يميناً وشمالاً فما هيجني منهم أحد والحرز عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جدّه عن علي بن أبي طالب وأن هذا الحرز كان الأنبياء يتحرزون به من الفراعنة «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم. قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً، أخذت بسمع الله وبصره وقوته على أسماعكم وأبصاركم وقوتكم، يا معشر الجن والإنس والشياطين والأعراب والسباع والهوام واللصوص مما يخاف ويحذر فلان بن فلان سترت بينه وبينكم بستر النبوة التي استتروا بها من سطوات الفراعنة جبرائيل عن أيمانكم وميكائيل عن شمالكم ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم أمامكم والله سبحانه وتعالى من فوقكم يمنعكم من فلان بن فلان في نفسه وولده وأهله وشعره وبشره وماله وما عليه وما معه وما تحته وما فوقه ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ - الآية إلى - نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٥-٤٦]. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً».

نفوراً؟ إنه كلمة التوحيد؟ وإنه البسملة حيث كان الرسول ﷺ يجهر بها كما عنه ﷺ والأئمة من عترته عليهم السلام (١).

فذكر الرب وحده دون سواه يعم كلمة التوحيد حيث تنفي من سواه وسائر ذكره في بسملة وسواها حيث لا يقرن به سواه.

إن ذكر من سوى الرب دونه إلحاد، وذكره مع سواه إشراك، وذكره وحده توحيد، وإن كان لا يعني الذاكر ما تعنيه اللفظة فيما سوى التوحيد.

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٨٧ - أخرج البخاري في تاريخه عن أبي جعفر محمد بن علي أنه قال: لِمَ كتمتم بسم الله الرحمن الرحيم فنعم الاسم والله كتموا فإن رسول الله ﷺ كان إذا دخل منزله اجتمعت عليه قريش فيجهر ببسم الله الرحمن الرحيم ويرفع صوته بها فتولي قريش فراراً فأنزل الله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٦]. أقول ورواه مثله في روضة الكافي بسنده عن أبي عبد الله عليه السلام وفي المجمع قال رسول الله ﷺ: إن الله من عليّ بفاتحة الكتاب فيها من كنز الجنة ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ الآية التي يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ...﴾ ورواه مثله القمي عن أبي عبد الله عليه السلام.

والعياشي عن زيد بن علي قال: دخلت على علي بن جعفر فذكر ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ فقال: تدري ما نزل في بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ؟ فقلت: لا - فقال: إن رسول الله ﷺ كان أحسن الناس صوتاً وكان يصلي بفناء الكعبة فرفع صوته وكان عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وجماعة منهم يستمعون قراءته قال: وكان يكثر ترداد بسم الله الرحمن الرحيم فيرفع بها صوته قال: فيقولون إن محمداً ليردد اسم ربه ترداداً إنه ليحبه فيأمرون من يقوم فيتسمع عليه ويقولون: إذا جاءت بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيم فأعلمنا حتى نقوم فنسمع قراءته فأنزل الله ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ..﴾ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ ﴿وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾.

وفيه عن منصور بن حازم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا صلّى بالناس جهر ببسم الله الرحمن الرحيم فتخلف من خلفه من المنافقين عن الصفوف فإذا جازها في السورة عادوا إلى مواضعهم وقال بعضهم لبعض: إنه ليردد اسم ربه ترداداً إنه ليحب ربه فأنزل إليه الآية.

وفيه عن أبي حمزة الثمالي قال قال لي أبو جعفر عليه السلام: يا ثمالي إن الشيطان ليأتي قرين الإمام فيسأله هل ذكر ربه؟ فإن قال: نعم اكتسع فذهب وإن قال: لا - ركب كتفه وكان إمام القوم حتى ينصرفوا - قال قلت: جعلت فداك وما معنى قوله: ذكر ربه؟ قال: الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم.

حيث التوحيد ليس قصداً دون إعلان، فليكن الإعلان بدلالته توحيداً كما يعتقده من يعلن بكلام أو كتب أو إشارة أم ماذا.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾﴾:

نجوى شيطانية تهدم صرح الرسالة الإلهية على حد تصميمهم، فهم يستمعون إلى الرسول ﷺ ليعلموا ما يقول، ولكي يكيدوا له كيداً، ثم يستمعون بكيد عليه فيما بينهم كشورى إبليسية ليتسقّط فيها عن كيان الوحي، ثم يتناجون في حُصالة الشورى الظالمة: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾[(١)].

هذه من الهرطقات الهُراء حيث يهرفون عليه بما يخرفون: إنه ساحرٌ أو مسحور، كاهن أو مجنونٌ أو شاعر نتربص به ريب المنون أم ماذا؟.

---

(١) في الدر المنثور ٤: ١٨٧ - أخرج ابن إسحاق والبيهقي في الدلائل عن الزهري قال: حدثت أن أبا جهل وأبا سفيان والأخنس بن شريق خرجوا ليلة يستمعون من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا فقال بعضهم لبعض: لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا حتى إذا كان الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه فباتوا يستمعون له حتى طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد لا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا فلما أصبح الأخنس أتى أبا سفيان في بيته فقال أخبرني عن رأيك فيما سمعت من محمد قال: والله سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد بها وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها قال الأخنس: وأنا والذي حلفت به. ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فقال: ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ قال ماذا سمعت تنازعنا نحن وبنو عبد مناف في الشرف أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجاثينا على الركب وكنا كفرس رهان قالوا من نبي يأتيه الوحي من السماء فمتى ندرك هذه والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه فقام عنه الأخنس وتركه.

ومن أخطر ما يفترى به عليه أنه مسحور أم به جِنَّة، مسحورٌ مسلوب الاختيار في بعض ما يفعل أو يقول حيث يسيطر الشيطان على عقليته أم إحساسه، فليس ما يفعل أو يقول - على خرافته - منه، وإنما من شيطان أو جن، خرافة مزدوجة بعيدة عن الحق في بعدين! أم إذا لم تكن خرافة فليست هي لا منه ولا من ربه وإنما من ساحر يسحره حيث يتسخره! والنجوى مصدر كالتقوى، وقد وُصفوا بالمصدر لما في هذه الصفة من المبالغة في ذكر ما هم عليه من كثرة تناجيهم وإسرار المكائد بينهم، والصفة بالمصادر تدل على قوة الشيء الموصوف بذلك، فهم لكثرة تناجيهم بالإثم والعدوان ومعصية الرسول والفرية عليه أصبحوا كأنهم هم نجوى في مقالتهم الظالمة: ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا ۝٨ ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا ۝٩﴾[1] [2].

لقد كانت فطرة الفحص والتفتيش تدفعهم إلى استماع الرسول فيما يقول، ثم النخوة والكبرياء تزجّهم إلى سجن ما يستمعون به تلاوماً فيما بينهم، ثم إلى جحيم القولة الفاتكة الهاتكة، إذ هم نجوى: ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسۡحُورًا﴾.

لقد ضربوا له الأمثال البعيدة عن الحق حيث اخذتهم جِنَّتُهم فاتخذوا قولتهم جُنتهم، فقد تأثروا بالقرآن حين تسمّعوا إليه، فلا سبيل لهم أن يقولوا إنه «قول بشر» لأنهم يلمسون منه وحياً ليس من بشر، حيث لا يشبه قول بشر: ولا تدعهم نخوتهم أن يقولوا إنه كلام الله جرى على لسان بشر، فقالوا: إن هذا إلّا سحرٌ يؤثر، فظنوا تسمية القرآن سحراً أبطل وحيه ﴿فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾!.

لو كانت هذه الرسالة السامية مختلقة لاستطاعوا سبيلاً إليها قضاء

(١) سورة الفرقان، الآيتان: ٨، ٩.
(٢) راجع ج ٣٠ من الفرقان.

عليها، فإذا لم يستطيعوا إليها سبيلاً ولن، فهي إلهية مهما ضربوا لها الأمثال المضلة، فإنهم تائهون ضالون في هذه البغية الباغية، لا يتعبون إلّا أنفسهم.

إنما تُضرب الأمثال لإقامة حق مبيّن تقريباً لبيانه، أو لإماطة باطل مبين تقريباً لبطلانه، وأما أن تضرب الأمثال دون أي برهان، أم تضرب لإبطال حق واضح البرهان فهو ضلال مبين.

وهؤلاء المناكيد الأوغاد بدل أن يبرهنوا دعواهم إبطالاً للرسالة المحمدية ولن، أخذوا يضربون الأمثال يُمنة ويسرة بكل تكلف وعسرة دون أن يستطيعوا سبيلاً إلى إبطال هذه الرسالة السامية.

﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾﴾:

إنه لا برهان لناكري المعاد الحساب إلّا استبعادات واهية، لا تملك من حجية إلّاهيه: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾؟ فإذا بليت أجسادنا فـ ﴿كُنَّا عِظَٰمًا﴾ ورمدت عظامنا فكنا «رفاتاً» فلم يبق منا شيء إلّا تبدلت إلى تراب «أإنا» ونحن تراب ﴿لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقًا جَدِيدًا﴾؟

هم يستبعدون أن يتحول التراب المرتخي عظاماً ولحوماً، والله يحوّلهم ويبدّلهم خلقاً جديداً ولو كانوا حجارة أو حديداً ﴿قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقًا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ﴾ فالحجارة أصعب تحولاً إلى الخلق الجديد من التراب والحديد أصعب من الحجارة، وخلق يكبر في صدورهم أصلب من الحجارة، والحديد أصعب منهما، فليكونوا أي صلب وصعب مما سبقت له الحياة أم لم تسبق، فتبديلها إلى خلق جديد ليس من المستحيل لا ذاتياً ولا في الحكمة ولا أمام القدرة الإلهية.

ثم استبعاد ثان على فرض الإمكان ﴿فَسَيَقُولُونَ من يُعِيدُنَا﴾ إلى ما كنا، من يردنا إلى الحياة بعدما كنا عظاماً ورفاتاً أم حجارة أو حديداً أم ماذا؟ مما هو أشد إيغالاً في الموت والخمود، ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ لا تذهبوا بعيداً نظرة الجواب، فالذي فطركم أوّل مرة هو الذي يعيدكم مرة أخرى ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾.

هؤلاء المناكيد الأوغاد يعجبون من عودهم وهم عارفون بدأهم: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ...﴾[1] ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤)﴾[2].

﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ليست إلّا تحدياً عليهم، لا أمراً أن يكونوا حجارة أو حديداً، إذ هم لا يستطيعون لأنفسهم تكوناً هكذا، ولا أن الله يريد تكوينهم هكذا، فلا يعني من «كونوا...» إلا أولوية في هذه الكينونة وتلك استبعاداً على حدِّ زعمهم أن يبعثوا خلقاً جديداً: إلّا أن الكينونات كيفما كانت ليست لتتمنع من أمر الله أن تبعث خلقاً جديداً، فلا فرق بين عظام الإنسان ورفاته، وبين حجارته وحديده وفولاذه وأصلب منه في بعثه خلقاً جديداً، حيث الكلُّ من خلق الله، يخلقها ويبعثها كما يشاء، فـ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فالحجارة والحديد على كونهما أبعد عن الحياة من العظام والرفات هي قريبة إلى الحياة في قدرة خالق الحياة.

هؤلاء الأوغاد بعدما يسمعون جواباً تلو جواب عما يستبعدون من خلقهم الجديد يتعنتون في سؤال «متى هو»؟ كأن لتعيين متاه ومُداه دخلاً في أصله، فلو لم يعلم الرسول متاه، أو بعّد مداه فلا يُبعثون إذاً خلقاً جديداً،

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٥.
(٢) سورة ق، الآيات: ٢ - ٤.

فجاء الجواب حاسماً ﴿قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ وترجى القرب لصاحب الوحي هو قربه: قرباً في متاه كما هو قريب في العقل والعلم وفي العدل.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾﴾:

وذلك اليوم القيامة بعد لبث البرزخ، ﴿وَتَظُنُّونَ﴾ نكران للبث قليل كما كانوا يظنون ﴿... لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ﴾[1]: أو ﴿... لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍۢ﴾[2] أو ﴿... إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾[3] [4].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾:

إن الشيطان من جن وإنسان ينزغ بين الإخوة المتحابّين فضلاً عن سائر الناس أم الذين بينهم عداء، فلا يهدف في محاولاته بين الناس إلّا عداءً وزيادة.

والنزغ دخولٌ في أمر لإفساده كما دخل الشيطان بين يوسف وإخوته: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾[5].

فقد يدخل الشيطان في أمر جماعة متحابيّن فيفسد بينهم من جانب دون أن يسطع لإفساد من جانب آخر، كما بين يوسف وإخوته، فهم الذين حاسدوه وفعلوا به ما افتعلوه، وهو لم يفعل بهم إلّا حسناً، أو يفسد من الجانبين إن كانا على سواء، أو يدخل في أمر شخص فيفسد بينه وبين نفسه،

(١) سورة الأحقاف، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الكهف، الآية: ١٩.
(٣) سورة طه، الآية: ١٠٣.
(٤) راجع ج ٣٠ من الفرقان.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

وهذه فعلة دائبة منه على غير المخلَصين، أم لا يسطع مهما حاول كما في المُخلَصين، وإن كان عليهم أن يستعيذوا بالله من الشيطان الرجيم: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١] ﴿... إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾[٢].

ولكي نستأصل نزغات الشيطان ونزعاته، علينا استئصال الوسائل التي ينزغ بها الشيطان بيننا، من قولة سوء تلدغ، أو إجابة سوء وجاه سوء، فإنهما مربض الشيطان ومنزغه، وإنما القول الأحسن، لكيلا يبقى مجال لنزغ الشيطان، وكذلك الفعل الأحسن أم أي مظهر من المظاهر الحسنى[٣].

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ هنا يؤمر أول العابدين أن يقول لسائر العباد ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ فالكلمة الحسنى هي لزام العبودية وسياج على الشيطان دون نزغه: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾[٤] فالكلمة الحسنة تدفع العداوة، والكلمة الخشنة تدفع إلى العداوة، حيث الحسنة تأسوا جراح القلوب وتندي جفافها، ف ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾[٥] بداية وإجابة، ولتكن الإجابة أحسن ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾[٦].

فمن قال لك حسناً فلتجب حسناً أو أحسن، ومن قال لك سوءاً فلتجب

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٦.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: ٢٠٠-٢٠٢.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٨٨ - أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: لا يشيرن أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدري أحدكم لعل الشيطان ينزغ في يده فيقع في حفرة من نار.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٤.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٨٣.

(٦) سورة النساء، الآية: ٨٦.

حسناً أو أحسن، ولكي يترك السوء أو يميل إلى الحسنى وأما إذا قابلت السوء بالحسن فاستمر هو في الإساءة، وتجرأ عليك وعلى سواك فإما السكوت بعدُ أو ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾(١) دون زيادة، ولكنما الضابطة العامة أن ﴿يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ صداً لنزغ الشيطان، وأما إذا كان الحسن أو الأحسن مجالاً لنزغ الشيطان فلا، فإن قول التي هي أحسن ليس إلا صداً لنزغ الشيطان، وتودداً إلى عباد الرحمن فإذا سبّب لنزغٍ أكثر فلا: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا﴾.

من القول السوء أن تجابه السوء بمثله من السوء، وهو وإن كان حسناً ف «جزاء سيئة مثلها» ولكنما الأحسن أن تعفو مصلحاً ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾(٢) إلا أن يتجرأ على سوئه أو يزداد.

ومن السوء المجابهة بالأسوأ وليس حسناً على أية حال فإنه اعتداءٌ بزيادة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣).

ومنه الإخبار عن حاله الحاضرة أو المستقبلة أنه في سوء أم إلى سوءٍ دونما ظاهرة تدل، وعلّه في خير أم إلى خير ف ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾.

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾:

﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ﴾ منكم وممن سواكم، يعلم حاضركم ومستقبلكم وغابركم ف ﴿إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ﴾ إن أنتم من أهلها و﴿إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾ إن أنتم من أهله ﴿وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾(٤) ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ أن تجعلهم من أهل الرحمة أو ترحمهم، فما عليك إلّا البلاغ.

(١ - ٣) سورة الشورى، الآية: ٤٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٢٤.

فلا توكل على من سوى الله إلّا على الله لا سواه، ولا وكيل على عباد الله إلّا الله لا سواه، فهو الذي يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، يعلم مصاير عباده وكل أمورهم بداية وحتى النهاية، لا فحسب بل: ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وبعلمه يفضل بعضاً على بعض ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في درجاتهم وآياتهم المعجزات وفي كتاباتهم ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ فهو أفضل الكتب السماوية بعد الخمسة لأولي العزم.

يأتي ذكر الزبور هنا وفي النساء (١٦٣) والأنبياء (١٠٥)[1] ولا يأتي ذكر من سائر الكتب الفروع للأنبياء، ولا من الأصول إلا الأربعة[2] نصاً وكتاب نوح تلويحاً، وقد يذكر الزبور نصاً مع التلويح إلى سائر الوحي بما فيه الوحي إلى نوح وإبراهيم وعيسى عليهم السلام كما في النساء، ويبشرنا البشارة العظمى بوراثة الأرض نقلاً عن الزبور بعد الذكر في الأنبياء، ومن ثم نرى هنا في مقام تفضيل بعض النبيين على بعض يأتي بنموذج من تلك النماذج السامية:

---

(١) ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣] ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

(٢) نور الثقلين ٣: ١٧٥ في كتاب علل الشرائع بإسناده إلى عبد الله بن صالح عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما خلق الله خلقاً أفضل مني ولا أكرم مني، قال علي عليه السلام: فقلت يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفأنت أفضل أم جبرائيل؟ فقال: إن الله تبارك وتعالى فضل أنبياءه المرسلين على ملائكته المقربين وفضلني على جميع النبيين والمرسلين والفضل بعدي لك يا علي وللأئمة من ولدك فإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا.

وفيه (٢٥٧) في الخرايج والجرايح بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله فضّل أولي العزم من الرسل على الأنبياء بالعلم وفضلنا عليهم في فضلهم وعلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما لا يعلمون وعلمنا علم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فروينا لشيعتنا فمن قبله منهم فهو أفضلهم وأينما نكون فشيعتنا معنا.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾:

أفلا يدل هذا المثلث البارع من ذكرى الزبور على أهمية كبرى له بين الزبر؟ ترى أنه مفضَّل على سائر الزبر الفروع، فلماذا يفضَّل أحياناً على بعض الأصول؟ أقول: علّه لأنه الحفيظ على ما حُرِّف من الكتب الأصول، ولحد الآن لا نجد فيه تحريفاً ولا تجديفاً إلا القليل القليل، بين الكثير الكثير من التحريف والتجديف الذي حصل في سائر الكتب المقدسة من العهد العتيق والجديد، مع ما يحوي من المعارف الجمة الإلهية بألطف تعبير وأعطفه ما يأخذ بأزمة القلوب.

فالزبور إذاً مهيمن على ما حُرِّف من الكتب الأصول، وسياجٌ صارم ضد كل تحريف وتجديف على الكتب الأصول، يشتمل على جملة المعارف التي تشمله الكتب المقدسة، متحللاً عن كل دسّ وتحريف أو مسّ وتهريف.

لا نجد بين الكتب المقدسة ما يقل فيه التحريف أم ليس فيه كما نجد في الزبور من كتب العهد العتيق وفي إنجيل القديس برنابا الحواري من كتب العهد الجديد، وهما يشهدان دون تكلف ببراعة الوحي القرآني وبراعته، وبراءته عن كل دسّ، وأنه كتاب الوحي الأخير، مهما كانت سائر الكتب المقدسة على تحرفها تأتي شاهدة على ذلك بتكلّفٍ أحياناً ودون تكلف أخرى.

داود الملك النبي لا يُذكر في مقام تفضيله إلا كتابه الذي يمثل رسالته الروحية، حيث السلطة الزمنية ليست فضيلة في ذاتها، وإنما هي فضيلة في معطياتها أن كانت ذريعة للدعوة إلى الله وتطبيق شرعة الله وعلى حد تعبير الإمام علي عليه السلام حين يتحدَّث عن نعله المخصوف الذي كان رقعاً كله: «والله لهي أحب إلي من إمرتكم هذه إلا أن أقيم به حقاً أو أبطل باطلاً»!.

أولو العزم من الرسل فضِّلوا على من سواهم، كما فضل البعض من أولاء على بعض، والبعض من هؤلاء على بعض، وقد فضل محمد صلى الله عليه وآله وسلم على كافة النبيين وعلى الخلق أجمعين.

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾:

من اختصاصات الإله أنه قادر على كل شيء، أم وعلى أقل تقدير بعض الشيء الذي يعجز عنه عباده من كشف ضر أو تحويله، وإلّا فهو مثلهم، لا يختص بالألوهية دونهم، أو هو دونهم إن كان من غير ذوي العقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾[1].

و﴿الَّذِينَ﴾ في الآية تلمح إلى أنها تعني الآلهة العقلاء من ملك أو جن أو إنسان نبي أو أياً كان، مقربين عند الله فهم فيما هم لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً فغيرهم أعجز وأضل سبيلاً! والآية التالية ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ﴾ تصرح أنهم هم ومن الصالحين، فهم لا يُمَلِّكون هذا الكشف والتحويل في أنفسهم ولا عن أنفسهم إذ ليسوا آلهة في أنفسهم، ولا يملكون كشفاً ولا تحويلاً تخويلاً من ذي العرش حيث لم يملّكهم، فإن هم إلّا خلق من خلق الله يحاولون: ﴿يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ فكيف يعبدون؟.

فيما تنقطع الأسباب، وتحار دونه الألباب، وكلما تدعو بطاقات وإمكانيات وأسباباً ظاهرية متعددة فلا تستجاب، وقتئذ لا تنقطع الرجاء فتدعو فهل من مجيب ومستجاب؟

حين تدعو ربك توفيراً وتوفراً لشروط الدعاء تستجاب، وإذ تدعوه في ناقص الشروط أو ناقضها قد تستجاب وقد لا تستجاب، أليس هذا دليلاً على أن ربك كائن لا شريك له؟

والذين يدعون مع الله سواه، ثم يدعون الذين زعموا من دونه آلهة، فلا

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٧٤، ٧٥.

يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، هنالك لا إجابة من الآلهة ملائكة أو نبيين كمعبودين، وإن كانوا يدعون الله فيستجاب لهم إن لم يتوسل إليهم كمعبودين:

لا إجابة هناك على أية حال حين تدعونهم كآلهة، وإن كانوا مَن كانوا من المقربين، إذ لا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً، لا من أنفسهم، ولا من الله، إلا فيما يطلبونه - كعبيد - من الله، لأنفسهم أم لآخرين يعبدون الله، والذي يعبدهم لا يُرتضى، فهم لا يدعون له إذ ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾[1] ولو دعوا لم يُستجابوا أليس في هذه الدعوة الخاسرة الحاسرة آية باهرة أنهم ليسوا آلهة فضلاً عما سواهم من غير العقلاء ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾[2]!:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ... أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[3] فلو تذكرتم موارد الاستجابة حين تدعون ربكم، واللااستجابة حين تدعون آلهة تزعمون، لعرفتم ألا إله إلا الله سبحانه وتعالى عما يشركون: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[4].

«فيا من لا يملك كشف ضري ولا تحويله عني أحدٌ غيره صلِّ على محمد وآله واكشف ضري وحوِّله إلى من يدعو معك إلهاً آخر لا إله غيرك»[5].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) سورة يس، الآية: ٧٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦٢.

(٤) سورة فاطر، الآية: ١٤.

(٥) نور الثقلين ٣: ١٧٦ ح ٢٥٩ في أصول الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام كان يقول عند العلة اللهم إنك عيّرت أقواماً فقلت: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦] فيا من...

فكاشف الضر للمضطر هو الله، ومحوِّله عنه أم إلى غيره إن كان يستحقه هو الله، وليس لمن سوى الله حول ولا قوة إلّا بالله، ولا يحوِّل الله أو يخوِّل مِن حوله وقوته إلى سواه، اللّهم إلّا إلى من يشفعون بإذنه فيُشفَّعون، وليسوا إلّا من ارتضى الله شفاعته لمن ارتضى الله - فـ ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾[1].

إن محمداً ﷺ وهو أوّل العابدين لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً فضلاً عمن دونه من اتُّخذوا آلهة، فضلاً لمن يعبدونهم: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[2].

المشركون طالما يدعون أربابهم فلا يستجابون، ولكنهم عند البأساء والضراء لا يدعون إلّا ربهم ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾﴾[3].

إن الذين زعمتم من دونه آلهة وهم عباد صالحون:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ممن زعمتم من دونه آلهة هم أنفسهم «يدعون»[4] ربهم فكيف يُدعون؟ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ لاستجابة ما يدعون فكيف يُبتَغون؟

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٤.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.
(٣) سورة الأنعام، الآيتان: ٤٠، ٤١.
(٤) هذا الوجه بناء على كون «الذين» خبراً لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾.

يدعون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ...﴾ أم ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾[(١)] هم المشركون - هم «أنفسهم» يبتغون إلى ربهم الوسيلة... ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ يبتغي الوسيلة أكثر وآكد، أم وسيلة أقرب، فهم بالوسيلة الأقرب وأيُّهم أقرب يبتغي إلى ربه لكي يستجيب دعاءه ويقربه إليه، فكيف يُوصَّلون ويتأصَّلون في الدعاء وهم لأنفسهم يتوسلون إذ يدعون!.

ولقد أمر الله عباده أن يبتغوا إليه الوسيلة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[(٢)].

هنالك مثلث من الوسائل إلى الرب - ١ - وسائل المعرفة فالعبادة أيهما أقرب وهم الرسل، - ٢ - الوسيلة العبادة والتقوى والجهاد فيهما أيها أقرب - ٣ - الوسائل الشفعاء عند الله عفواً عما قصّروا أو قصروا أيهم أقرب.

هؤلاء الذين اتخذتموهم آلهة لكشف الضر عنكم أو تحويلاً، هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فليسوا هم كلهم وسائل إلى الرب فإنهم أيضاً يتوسلون، فكيف إذاً يُوَصَّلون كآلهة في كشف الضر؟.

فمنهم مَن هم في القمة المعرفية والعبودية، يبتغون أقرب الوسائل من العبادة للقرب[(٣)] والزلفى، دون توسل بوسيط الوحي إذ هم يوحى إليهم، ولا وسيط الشفاعة إذ هم أنفسهم شفعاء بإذن الله.

---

(١) وجه ثان على كون «الذين» صنعة لـ ﴿أُولَٰئِكَ...﴾.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣٥.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٩٠ - أخرج الترمذي وابن مردويه واللفظ له عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ سلوا الله لي الوسيلة قالوا: وما الوسيلة؟ قال: القرب من الله ثم قرأ ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وفي ملحقات الإحقاق ١٤: ٥٧٨ أخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل (ج ١: ٣٤٢ ط بيروت) أخبرنا محمد بن عبد الله بن أحمد أخبرنا محمد بن أحمد بن محمد أخبرنا عبد العزيز بن يحيى بن أحمد قال حدثني أحمد بن عمار الحماني عن علي بن مسهر عن علي بن بذيمة عن عكرمة في الآية قال: هم النبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

ومنهم مَن هم دون القمة لا يوحى إليهم ولا يحتاجون شفعاء، فلهم إذاً وسيلتان.

ومنهم من هو دونهما، يبتغون إلى ربهم الوسائل الثلاث أيهم وأيها أقرب.

فـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ هم المشركون، هم العابدون للرب، المتوسلون إليه لأنفسهم أم لسواهم حيث يؤذن لهم - ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[1]!.

﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ﴾ بما يقدمون من وسائلها ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ حيث يتحذَّرون وسائله، فالرجاء برحمة الله والخوف من عذاب الله كفتان متوازيتان لميزان الإيمان و«ما من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران نور خيفةٍ ونور رجاءٍ لو وُزِن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[2] فـ «من عرف الله خاف الله ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا»[3] «من خاف الله أخاف الله منه كلَّ شيءٍ ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء»[4] «وإن حب الشرف والذكر لا يكونان في قلب الخائف الراهب»[5] ومما حفظ من خطب النبي ﷺ أنه قال: «يا أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ألا إن المؤمن يعمل بين مخافتين: بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٧٦ في أصول الكافي بإسناد عن الحارث بن المغيرة عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: كان فيها الأعاجيب، وكان أعجب ما فيها أن قال لابنه: خف الله عزّ وجلّ خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك وارج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك ثم قال أبو عبد الله عليه السلام كان أبي يقول إنه ما من عبد مؤمن...

(٣) المصدر بإسناد عن أبي عبد الله عليه السلام ح ٣٦٢ و.

(٤) عنه ح ٢٦١.

(٥) عنه ح ٢٦٥.

بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليأخذ العبد المؤمن نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته وفي الشيبة قبل الكبر وفي الحياة قبل الموت فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الدنيا من مستعتب وما بعدها من دار إلا الجنة والنار»[(١)].

ليس الرجاء أن ترجو دون ترجٍّ ولا الخوف أن تخاف دون تخوف، فلكلٍّ شرط يربطه دون هَرْج ومَرْج فـ «من رجى شيئاً عمل له[(٢)] (طلبه) ومن خاف من شيء هرب منه»[(٣)].

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

يوم القيامة هنا يعني قيامة الإحياء، حيث الإماتة التامة تعنيها الآية بإهلاك وتعذيب قبل يوم القيامة، وهذا هو المسطور في أم الكتاب لدى الله، سطراً في سابق علمه دون محو أو تحوير: ﴿يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[(٤)].

وبما أن ﴿قَرْيَةٍ﴾ هنا هي في نفي الاستغراق، فقد تعني كل قرية في الكون كله، أي مجتمع من حيوان أو إنسان أمن ذا؟ في أرض أم في سماء أمّاذا؟

(١) المصدر ح ٢٦٦ بسند عن أبي عبد الله عليه السلام يقول: إن مما حفظ من خطب النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

(٢) المصدر ح ٢٦٤ علي بن محمد رفعه قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام إن قوماً من مواليك يلمون بالمعاصي ويقولون نرجو. فقال كذبوا ليسوا لنا بموالٍ أولئك قوم ترجحت بهم الأماني من رجا شيئاً عمل له ومن خاف من شيء هرب منه.

وفيه عن الحسين بن أبي يسارة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً ولا يكون راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو.

(٣) المصدر ح ٢٦٣ عن أبي عبد الله عليه السلام قيل له: قوم يعملون بالمعاصي ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت. فقال: هؤلاء قوم يترجحون في الأماني. كذبوا ليسوا براجين من رجى...

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

وترى الإهلاك هو الإماتة دون تعذيب، قرينةً من قرنه بالتعذيب؟ وهو يلمح لتعذيب! وليس قرنه إلّا شديد العذاب! فما دونه عذابٌ دون شديد قد يشمله الإهلاك!... إذاً فالإهلاك يعم الإماتة دون أي تعذيب، ودون تعذيب شديد، ومن ثم صورة ثالثة هي العذاب الشديد.

إنه لا مناص ولا محيص عن موت قبل قيامة الإحياء، موتات بعذابات أم دون عذاب، انفرادية لا تعنيها الآية لمكان ﴿قَرْيَةٍ﴾ وهي المجتمع وموتات جماعية لاستئصال الحياة عن الكون كله وليست إلّا بإماتة تعذيب جماعي كما في قرى ظالمة، عذاباً شديداً أو دون ذلك، أم بإماتة إهلاك لا تعني التعذيب، كما في سائر القرى، فهناك مثلث من الإماتة تعنيها الآية: هلاكاً دون عذاب، وآخر بعذاب، وثالث ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾!.

ولأن الإهلاك - أكثر ما يستعمل - يعني الإماتة العذاب، وقليلاً ما يأتي لإماتة دون عذاب[(١)] فهل تعني ﴿مُهْلِكُوهَا﴾ أكثرية العذاب، ولا تقوم القيامة إلّا في دولة الحق كما يستفاد من آيات وروايات.

قد يعني الإهلاكُ العذابُ ما يعم عذاب العصيان وعذاب غير العصيان: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾[(٢)] فهل أن العذاب الشديد يشمل كل مرضعة وكل ذات حمل وكل الناس؟

---

(١) كقوله تعالى: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ...﴾ [النساء: ١٧٦] ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤] ثم لا نجد في عشرات الآيات التي تحمل الهلاك الإهلاك العذاب لحد القول ﴿هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام: ٤٧].

(٢) سورة الحج، الآيتان: ١، ٢.

كلا! وإنما يعني العذاب هنا ألم الموت الشديد مهما كان البعض إلى رحمة الله والآخرون إلى نقمته وثالثة ﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾[(١)].

وترى ﴿قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ هنا يعني قيامة الإماتة نفسها حيث ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ﴾[(٢)]؟ أم إهلاكات جماعية وتعذيبات تترى حتى هذه القيامة؟ قد تلمح أو تصرح ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ﴾ أنه القبل الأوسع منذ البداية حتى النهاية، حيث القرى كلها ليست عند قيامة الإماتة حتى يقضي عليها كلها، وإنما ما تبقت منها حيث تلحق ما سبق حتى يتم الهلاك ويطمَّ.

فمثلث الإماتة مما لا محيد عنه قبل قيامة الإحياء، بالنسبة للقرى الحية يوم الدنيا ومن الإهلاكات والعذابات الشديدة الجماهيرية ما يحصل ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ (١٠) يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١)﴾[(٣)] ويوم ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ...﴾[(٤)] ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩)﴾[(٥)] وكما منها عذابات الاستئصال قبل هذه الأيام، أم إهلاكات عذاباً ودون عذاب! فكل موتة جماهيرية قبل النفخ في الصور تشملها الآية دون إبقاء لأية قرية أياً كان وأيان! وأما أهل البرزخ فهل هم ممن يموتون عن الحياة البرزخية كما ماتوا من قبل عن الحياة الدنيوية، للبحث عنه مجال آخر يأتي بطيات آياته كآية الصعقة وأضرابها.

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٧٨ ح ٣٧١ في تفسير العياشي عن محمد بن مسلم، قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن الآية قال: إنما أمة محمد من الأمم فمن مات فقد هلك.
وفيه (٣٧٢) عن ابن سنان عن أبي عبد الله في الآية قال: بالقتل والموت وغيره.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٣) سورة الدخان، الآيتان: ١٠، ١١.

(٤) سورة الأنبياء، الآيتان: ٩٦، ٩٧.

(٥) سورة الكهف، الآيتان: ٩٨، ٩٩.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾﴾:

هل الآيات هنا تعني آيات الرسالات، أنها مُنعت في الرسالة الأخيرة أن كذب بها الأوّلون؟ وهذه الرسالة السامية تحمل أخلد الآيات وأبهرها طوال الرسالات! وليس تكذيب آية الرسالة - كما هو السنة السيئة من ناكريها - بالذي يمنع عن مواصلتها في الرسل تترى، ولا سيما هامة الرسالات وجوهرتها الأخيرة! والآيات الممنوعة للرسالة الأخيرة هنا لا تعني كلَّ الآيات، وإنما التخويفية: ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ وأما آيات الرسالة الهادية غير التخويفية فهي لزام الرسالات كلها ولا سيما الأخيرة، كما نجدها في الذكر الحكيم! فمهما منع تكذيبُ الأوّلين الإرسال بتخويفية الآيات التي منها ما هي هامشية موكدة مزيدة على الأصلية لعلهم يرجعون ومنها مستأصلة، فلا منع عن الإرسال بأصلية الآيات مهما كذب بها الآخرون.

وإنه إجابة عما يهرفه المكذبون بالرسالة الأخيرة: لماذا لم يرسل بتلكم الآيات؟ وآية القرآن تمتاز عن سائر الآيات لأنها خالدة دونها، ومن الآيات الاولى تخويفية دونها.

وترى إذا كان التكذيب بالآيات التخويفية ككل مانعاً عن الإرسال بها، فلتكن مانعة قبل الإرسال بها حيث يعلم الله قبل تكذيبها، ثم ولا فائدة فيها بعد تكذيبها فلماذا أرسل بها في الأولين؟.

إنها الآيات التخويفية المقترحة تعنتاً كناقة ثمود وأضرابها، حيث اقترحوها بعدما تبيّن لهم الحق بغيرها، فأرسل الله بها مزيداً في الحجة واستئصالاً للأعذار، فلما كذبوا بها أرسل عليهم عذاب الاستئصال، وقد طلبها المكذبون في هذه الرسالة السامية[1] فلن يرسل الله بها، إذ كذب بها

(١) نور الثقلين ٣: ١٧٩ ح ٢٧٣ في تفسير علي بن إبراهيم وفي رواية أبي الجارود عن أبي=

الأولون واستأصلوا، ومزيد الحجة الخالدة موجود في الرسالة الأخيرة، ولا يريد الله عذاب الاستئصال للأمة المرحومة[١]. ولا أن هناك عَرْضَ الإيمان حتى يؤمنوا: ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾[٢]:

إن آيات الرسالة أربع، آية تخويفية، وأخرى ذات بعدين، وثالثة دون تخويف وهي وقتية، ورابعة آية باقية دون تخويف ولكنها أتم وأطم منها، فإذا جاءَت لم يبق مجالٌ لغيرها:

وهكذا تكون آية القرآن، فاقتراح آية دونه كما أرسل الأولون، اقتراح جاهل أو مكابد كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾[٣] فآية الآخرين: القرآن - تختلف عن آيات الأوّلين في صورتها، وهي تزيد عليها في سيرتها وقضية الخلود في الرسالة الأخيرة هي الزيادة الخالدة سيرةً مستمرة، لا صورة مؤقتة تثبت رسالة مؤقتة، فتطلُّب آية وقتية بصرية تخويفية وسواها مع تلكم الآية الخالدة تطلُّب هُراء خواء.

ثم وآية الرسالة لا تأتي إلّا حجة باهرة، لا مزمجرة مهلكة، اللّهم إلّا حجة على حجة على المتخلفين عن المحجة، وليست هذه الآية يملكها المرسلون بها، وإنما هو الذي يرسلهم بها تدليلاً على رسالاتهم حيث تظهر

= جعفر عليه السلام في قوله: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ﴾ [الإسراء: ٥٩] وذلك أن محمداً صلى الله عليه وآله وسلم سأل قومه أن يأتيهم بآية فنزل جبرائيل فقال: إن الله يقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] وكنا إذا أرسلنا إلى قرية آية فلم يؤمنوا بها أهلكناهم فلذلك أخرنا عن قومك الآيات.

وفي الدر المنثور ٤: ١٩٠ - أخرج البيهقي في الدلائل عن الربيع بن أنس قال قال الناس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو جئتنا بآية كما جاء بها صالح والنبيون فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن شئتم دعوت الله فأنزلها عليكم وإن عصيتم هلكتم فقالوا: لا نريدها.

(١) المصدر السابق نفسه.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٦.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٥

على أيديهم أفعال خاصة بالله، فلولا أنهم مخصوصون بكرامة الله لم تظهر على أيديهم أفعال الله.

فهنالك آيات إلهية تدل على وجوده تعالى ووحدته وعلمه وحكمته وقدرته، وهي الكون بأسره، وآيات أخرى رسالية تدل على رسالة من أرسل بها وهي الأفعال الخاصة بالله، المستحيلة ممن سوى الله، فإذا يأتي إنسان بواحدة منها، تصبح دليلاً لا مرد له على رسالته الإلهية، كبيرة كانت أم صغيرة ما دامت هي آية رسالية.

إن آية الإسلام: القرآن - تعيش الفِطَر والفِكَر والعقول، ترسم للأجيال منهجاً للحياة لا حِوَل عنها ولا محيد، خارقة فكرية وعلمية لا تحمل مادية مقتصرة على الحواس، محتصرة بجيل خاص، وهم الذين يعيشونها، وإنما تتخطى الأجيال ما طلعت الشمس وغربت، دون غروب لشمسها، أو عزوب لنورها.

فهذه الرسالة الأخيرة لا تصحب ما صحبت الأولى من خوارق عابرة دائرة، اللّهم إلّا هامشية لا تعني إثبات هذه الرسالة عناية أصلية، وإنما تعني فيما تعني إخراج هذه الرسالة من الشذوذ فيما يخيل إلى ناس هم في الحق نسناس! ثم الأولون في هذه الآية هم كلُّ الأمم قبل الأخيرة الإسلامية، وهؤلاء الآخرون، فلا ضرورة ولا رجاحة في ابتعاث الرسول الأخير بمثل ما أُرسل الأولون، كما وأن مادة الرسالة الأخيرة تختلف بشطر منها وخلودها عن سائر الرسالات.

ولو كانت هنا ضرورة أو رجاحة في الإرسال بالآيات التخويفية لأرسل بها محمد ﷺ ولكنها كانت في الأوّلين.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾:

«و» اذكر ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ قاله الرب تبارك وتعالى

في آيات عدة بصيغ عديدة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾[١] ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٢] حيطة العلم والقدرة أم ماذا؟ فلا يعزب عن حيطته شيء.

وترى ما هي الرؤيا الفتنة التي أريها الرسول ﷺ؟ هل هي الشجرة الملعونة في القرآن أم سواها؟ وما هي هذه الشجرة؟ وبماذا خوفهم، بالرؤيا الشجرة؟ أم إحداهما؟ أو سواهما؟.

أوَ هذه الرؤيا الفتنة مذكورة في القرآن فَنُفَتِّش عنه فيه؟... هنالك رؤيا صادقة بالحق تحمل بشارة لا تمت بصلة الفتنة: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[٣] ومن ثم أخرى كمثلها تقلل الكفار، وتحمل الرحمة الروحية العالية لجنود الإسلام: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ...﴾[٤] ثم لا نجد ثالثة تحمل فتنة ولا رحمة، أفلا ذكر عن هذه الرؤيا الفتنة في الذكر الحكيم؟

قد يعني الإجمال عنها هنا سياسة الحياد وجاه واقع الرؤيا الفتنة: بني أمية أمن ذا؟ ولكي لا يعارضوا القرآن وجهاً بوجه إذا ما وجدوا فتنتهم اللعنة جلية في القرآن[٥] ولكنما السنة المتظافرة كشفت عن وجهها النقاب، إنها رؤيا القردة ينزون على منبره ﷺ.

إنها لا تعني ما أريه الرسول ﷺ في سيره ليلاً من المسجد الحرام إلى

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٨.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٠.
(٣) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٤٣.
(٥) نور الثقلين ٣: ١٨ في تفسير العياشي عن رسول الله ﷺ أنه قد رأى رجالاً من نار على منابر من نار يردون الناس على أعقابهم القهقري ولسنا نسمي أحداً..

المسجد الأقصى فكذبوا بها وعجبوا منه»[١] مهما كانت منها - كآية - مثلما أرسل بها الأوّلون، حيث الرؤيا هي في المنام ولقد كانت له هناك الرؤية دون الرؤيا.

وإنما هي ما يروى عنه ﷺ: «رأيت ولد الحكم بن أبي العاص على المنابر كأنهم القردة وأنزل الله في ذلك: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ «يعني الحكم وولده»[٢] رآهم ينزون... فساءه ذلك فما استجمع ضاحكاً حتى مات وأنزل الله...»[٣] وقال ﷺ: «رأيت بني أمية على منابر الأرض وسيمتلكونكم فتجدونهم أرباب سوء... فأنزل الله!...»[٤] وبذلك وردت متظافرة الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام[٥].

(١) الدر المنثور ٤: ١٩١ - أخرج ابن سعد وأبو يعلى وابن عساكر عن أم هاني أن رسول الله ﷺ لما أسري به أصبح يحدث نفراً من قريش وهم يستهزئون به فطلبوا منه آية فوصف لهم بيت المقدس وذكر لهم قصة العير فقال الوليد بن المغيرة هذا لساحر فأنزل إليه ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا...﴾ [الإسراء: ٦٠].

وأخرج ابن جرير عن قتادة في الآية يقول: أراه من الآيات والعبر في مسيره إلى بيت المقدس ذكر لنا أن أناساً ارتدوا بعد إسلامهم حين حدَّثهم رسول الله ﷺ بمسيره أنكروا ذلك وكذبوا به وعجبوا عنه وقالوا: أتحدثنا أنك سرت مسيرة شهرين في ليلة واحدة!

(٢) الدر المنثور ٤: ١٩١ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال...

(٣) فيه أخرج ابن جرير عن سهل بن سعد رضي الله عنه، قال: رأى رسول الله ﷺ بني فلان ينزون...

(٤) فيه أخرج ابن أبي حاتم عن يعلى بن مرة رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: ... وفيه أخرج ابن مردويه عن الحسين بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أصبح وهو مهموم فقيل له: ما لك يا رسول الله ﷺ؟ فقال: إني رأيت في المنام كان بني أمية يتعاورون منبري هذا فقيل: يا رسول الله! لا تهتم فإنها دنيا تنالهم فأنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ [البقرة: ١٤٣]... وأخرج مثله ابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الدلائل وابن عساكر عن سعيد بن المسيب فيه بدل «فقيل» - فأوحى الله إليه» إنما هي دنيا أعطوها فقرت عينه وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا... فِتْنَةً﴾ يعني: بلاء للناس.

(٥) نور الثقلين ٣: ١٧٩ في احتجاج للطبرسي عن رسول الله ﷺ وعن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه: وجعل أهل الكتاب القائمين به والعاملين بظاهره وباطنه من شجرة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها أي يظهر مثل هذا العلم المحتملة في=

ثم وما هي ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ﴾؟ هل هي شجرة الزقوم؟: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾﴾[1] ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾[2] فكونها ملعونة لأنها طعام الملعونين:

أم هي الكلمة الخبيثة في مثَل القرآن: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[3] كلمة خبيثة في صيغة لفظية أم كونية في ذوات شريرة كبني أمية أم من ذا أم في أعمال وأية دالة على ما لا يُحمَد:

أم لا تعني - فقط - هذه أو تلك، شجرة اللعنة أو مثلها، بل واللعنة المتشجرة، المتدخلة المتخللة خلال المسلمين، المتشاجرة الشجرة الطيبة الإسلامية، المتربصة دوائر السوء بالإسلام ومن ألعنها شجرة أمية، كما يرويها الفريقان، وقد سمعوا عائشة[4] وغيرها عن رسول الله ﷺ ويرويها أئمة أهل البيت عليهم السلام [5]:

= الوقت بعد الوقت وجعل أعداءها أهل الشجرة الملعونة الذين حاولوا إطفاء نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلا أن يتم نوره...

(١) سورة الصافات، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٢) سورة الدخان، الآيات: ٤٣-٤٦.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٤) الدر المنثور ٤: ١٩١ - أخرج ابن مردويه عن عائشة أنها قالت لمروان بن الحكم: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك: إنكم الشجرة الملعونة في القرآن».
وعن علي عليه السلام كما يأتي: «ألا فجر أن من قريش ومن بني أمية».

(٥) نور الثقلين ٣: ١٧٩ ح ٣٧٤ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن الحسن بن علي عليه السلام حديث طويل يقول فيه لمروان بن الحكم: أما أنت يا مروان فلست أن سببتك ولا سببت أباك ولكن الله عز وجل لعنك ولعن أباك ولعن أهل بيتك وذريتك وما خرج من صلب أبيك إلى يوم القيامة على لسان محمد ﷺ والله يا مروان ما تنكر أنت ولا أحد ممن حضر هذه اللعنة من =

واللعنة الدائمة في القرآن متجهة إلى شجرات كهذه الملعونة، حلقات تلو بعض يعّج منها تأريخ الإنسان وتاريخ الإسلام، ولا سيما المنافقين المتظاهرين بالإسلام، المعارضين إياه، كاتمين البينات والهدى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾[1] - ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾[2] أولئك الذين يلعنهم الله يجنب من يلعنهم من الكفار وهم أشد منهم لعنة ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[3].

إن الشجرة الملعونة في القرآن «الزقوم» تخرج في الدرك الأسفل ﴿فِيٓ أَصۡلِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وهي صورة تمثّل سيرة المنافقين ومن أنحسهم بنو أمية، فهم زقوم في الدنيا وزقوم في الآخرة! وهم المَثَل الأسفل الأرذل من كلمة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار! وهم الكاتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، المؤذون الله ورسوله فلعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً، وأي عذاب أهون من تمثُّلهم في شجرة تخرج في أصل الجحيم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين؟.

فهذه الشجرة الخبيثة تحمل مثلث اللعنات، وعلّها أو أنها هي الرؤيا

= رسول الله ﷺ ولأبيك من قبلك وما زادك الله يا مروان بما فوقك إلّا طغياناً كبيراً وصدق الله وصدق رسوله يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمۡ فَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا طُغۡيَٰنٗا كَبِيرٗا﴾ [الإسراء: ٦٠] وأنت يا مروان وذريتك الشجرة الملعونة في القرآن ورواه مثله في تأويل الشجرة الملعونة ببني أمية العياشي في تفسيره عن أبي جعفر الباقر عليه السلام عن أبي الطفيل قال كنت في مسجد الكوفة فسمعت علياً عليه السلام يقول وهو على المنبر وناداه ابن الكوا وهو في مؤخر المسجد فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن قول الله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلۡمَلۡعُونَةَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾ فقال: «ألا فجران من قريش ومن بني أمية».

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٧.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٥.

التي أُريها الرسول فتنة للناس، ويا لها من فتنة أفتتن بها الكثير من الناس خيراً أو شراً، تمحيصاً وتخليصاً للمؤمنين، وتلبيساً على الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، وقد يروى عن الرسول ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام متظافرة أن الشجرة الملعونة في القرآن هي هي الرؤيا التي أريها الرسول ﷺ فتنة للناس[١] وهكذا موقف ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ أدبياً حيث تردف بالرؤيا في جعل واحد، قردة ينزون ويرقون منبره في منامه، وشجرة ملعونة في قرآن! «وما جعلنا الرؤيا . . . والشجرة الملعونة إلّا فتنة للناس».

وقد يقال إن الرؤيا هنا أخص من الشجرة الملعونة، كما ويروى عن علي عليه السلام: «إنهما الأفجران من قريش ومن بني أمية» فذكرها بعدها ذكر للعام بعد الخاص، ولكن الرؤيا تمثل ألعن المصاديق لهذه الشجرة!

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾:

حسد فاتك من إبليس في حماقة كبرى يجعله يذكر الطين، غافلاً

(١) نور الثقلين ٣: ١٨٠ في تفسير العياشي عن الحلبي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم قالوا سألناه عن قوله ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا . . .﴾ [الإسراء: ٦٠] قال: إن رسول الله ﷺ أري رجالاً على المنابر يردون الناس ضلالاً زريق وزفر. وقوله: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠] قال: هم بنو أمية.

ورواه مثله في تفسير الشجرة الملعونة أبو الطفيل سمعت علياً عليه السلام يقول. . . وعبد الرحيم القصير وحريز عن أبي جعفر عليه السلام وعلي بن سعيد عن أبي عبد الله عليه السلام والطبرسي في الاحتجاج عن الحسن بن علي عليه السلام وقد مضى أمثال لها أخرى وفي كتاب الخصال عن أبي جعفر عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل يقول فيه - وقد ذكر معاوية بن حرب - ويشترط علي شروطاً لا يرضاها الله تعالى ورسوله ولا المسلمون، ويشترط في بعضها أن ادفع إليه قوماً من أصحاب محمد ﷺ أبرارا فيهم عمار بن ياسر وأين مثل عمار؟ والله لقد رأيتنا مع النبي ﷺ وما بعد منا خمسة إلا كان سادسهم ولا أربعة إلا كان خامسهم.

اشترط دفعهم إليه ليقتلهم ويصلبهم وانتحل دم عثمان ولعمر الله ما ألبّ على عثمان ولا جمع الناس على قتله وأشباهه من أهل بيته إلّا أغصان الشجرة الملعونة في القرآن.

متجاهلاً عما نفخه الله في هذا الطين، فلو أنه نظر إلى نورية آدم ولم ينظر إلى نارية نفسه لما كفر!.

قفزة الخلقة لآدم الأول من طين:

و﴿طِينًا﴾ هنا ليس إلّا حالاً، خلقته حال كونه طيناً، فتصبح نصاً على قفزة دون واسطة للطين إلى آدم، رغم تأويلات الداروينيين في سائر آيات الطين: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[1] في قولتهم إن «من» النشوية الابتدائية الجنسية لا تثبت إلّا بداية طينية، أما أنها دون وسيط بقفزة أم بوسيط التكامل فلا تدل على شيء منهما، وقد يلوح من آيات أخرى التكامل! ليست هناك آيات تلمح للتكامل إلّا القفزة، وهنا الحال ﴿طِينًا﴾ تقطع المجال والآمال عما يهوون، نصاً في القفزة، ف ﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾ تعني خلقت آدم الأوّل حال كونه حين خلق طيناً ثم ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ﴾[2] مما تناصرها في هذه القفزة، حيث البداية تختلف عن الاستمرارية التناسلية في خلق سائر الإنسان، فلو عنت «من طين» فيما يعنون من النشوية البعيدة لم يكن فرق بين البداية وسواها، حيث النطفة تبتدىء من طين كما آدم في قولتهم.

وأما أن الجامد لا يأتي حالاً، فهو اجتهاد أدبي من استقراء، ولا قرية أدبية أحرى من القرآن، ولا يصح أو يحسن هنا ﴿طِينًا﴾ إلّا حالاً[3]:

---

(١) سورة ص، الآية: ٧١.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٣) فكونه مفعولاً لخلقت وحيداً لا يصح حيث الصلة لا بد لها من ضمير إلى الموصول، أو أنه مفعول ثان أوله محذوف «خلقته طيناً» هو عكس الواقع أنه خلق طيناً إياه، لا خلقه طيناً، أو أنه مفعول أول تأخر «خلقت طيناً إياه» ولو أنه صحيح فغير فصيح، أو أن «طيناً» منصوب بنزع الخافض، وهنا موضع اللبس فلا ينزع الخافض فإن نزعه يخلف النزاع. فلا مجال في أدب القرآن إلا كونه حالاً.

خلقته طيناً وخلقتني ناراً والنار في أصلها وتبدلها التكامل خيرٍ من طين، فلماذا أسجد أنا النار لآدم الطين؟!.

وهنالك آيات أخرى صريحة في القفزة الطينية لآدم كـ ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(١) ولزام الممثل به أن يكون أمثل وأفضل فيما يمثل، ومادة المماثلة بين عيسى وآدم هي اختراق العادة في خلقهما فليكن آدم دون أبوين ليمثل به عيسى المخلوق من أم، وليس ذلك إلا خلقه قفزة من تراب، وأما الخلقة التكاملية فليست خارقة فلا مماثلة فضلاً عن كون آدم أمثل، فإنما ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾(٢) وهل الفخار يصنع الفِخار إلّا من طين، فكذلك فَخّار فِخار الإنسان خلقه من طين.

وأما آية الاصطفاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣) فلا تدل على ما يهواه الهاوون الغاون، إن آدم أبا هذا البشر كان بين أوادم فاصطفاه ربه لإنسال البشر، وجعله رسولاً إليهم، حيث الاصطفاء يكفيه أنه كان بين حواء وسائر الجن والشياطين، فاصطفاه رسولاً إليهم بعد العصيان والتوبة والاهتداء: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾(٤).

ومهما كانت في سائر القرآن آيات تتشابه احتمالاً للتكامل، فهي متشابهة ترجع إلى أمثال هذه المحكمات ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾(٥)! فلا مجال لخلق آدم - على ضوء

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ١٤.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٣٣.
(٤) سورة طه، الآيتان: ١٢١، ١٢٢.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ٧.

القرآن - إلّا القفزة الطينية، اللّهم إلا لمن يكفر بالقرآن، أم لا يفكر فيه فيهرف بما لا يعرف ناسباً له إلى القرآن! بما تأثر من تخيلات دارونية أماهيه، تحميلاً لها على متشابهات من الذكر الحكيم، متغاضياً عن محكمات القفزة الطينية اليقينية.

ولئن قلت إن شيطنة العقيدة تضرب إلى شيطنة التفهم عن خلق آدم، و﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾ من اجتهاد الشيطان؟.

فالجواب: إن الرحمن ليس ليصدق الشيطان فيما يكذب وإلّا أصبح القرآن البيان كتاب الشيطان، فلا تجد في القرآن استعراض ضلالة إلّا في إعراض وإبطال كما هو قضية كتاب الهدى وإلّا أصبح من كتب الضلال، فهنا السكوت عن إبطال ﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾ ومن ثم في آيات تناظرها التصريح بطينية آدم برهان لا مردَّ له على تصديق لقوله أكيد، فليست كل مقالات الشيطان باطلة، وإنما يخلط حقاً بباطل إضلالاً، وليس يستطيع الشيطان أن يكذب ربه فيما خلق وفي مواجهة خاصة ﴿خَلَقْتَ طِينًا﴾! ثم الله هو القائل ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾[(١)] لخصوص آدم ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾[(٢)] له ولبنيه حيث النطفة سلالة من طين، كما وأن طين آدم كان سلالة من طين.

ثم الشيطان وإن لم يكن من الملائكة إذ ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[(٣)] ولكنه كان في زمرتهم تقدساً وعبودية لله فشمله الأمر كياناً وإن لم يشمله كوناً، كما ولم يعترض هو بذلك على ربه فيما اعترض، ثم و﴿إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[(٤)] دليل خاص على أمره و«قلنا للملائكة يدلنا أنه كان ضمن الملائكة».

---

(١) سورة ص، الآية: ٧١.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٢.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٠.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٢.

والسجود هنا كما فصلناه في البقرة والجن ويوسف كان سجود شكر ولم يكن المسجود آدم، وإنما ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾ سجوداً لله لما أنعم عليهم من آدم معلماً ﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ﴾[1]، فلا أن آدم كان قبلة لهم حيث السجود هو إلى القبلة لا لها وهنا ﴿لِآدَمَ﴾ ولا أنه مسجود فإنما هو الله وآدم مسجودٌ له: ولأجله، فالسجود له قد يعني أنه مسجود كما الله، أو أنه سبب للسجود كالشكر لله بما أنعم ورزق كما تقول: سجدت لرزقي - لولدي أمّاذا.

﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾:

هنا يتهدد إبليس ربه في ذرية آدم باحتناك ذريته فتزول هذه الكرامة حيث يجعلهم في احتناكهم كمثله أم هم أضل سبيلاً، فينقض في زعمه الكرامة الربانية لآدم حيث يُنتقص من تلكم الكرامة... وكما انتقض فترة في عصيان آدم.

﴿قَالَ﴾ إبليس مخاطباً ربه: ﴿أَرَءَيْتَكَ﴾ أرأيت نفسك ﴿هَٰذَا﴾ الطين الحقير الهزيل الذليل ﴿ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ وقد ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾! أرأيتك تبقى هذه الكرامة؟ ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؟

كلّا فإنني إن أخرت وأمهلت ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾: أنت كرمته عليّ لأنه يعبدك أكثر مني، وأنا أكرِّم نفسي عليه حيث احتنك ذريته... فيعبدونني أنا تاركين عبادتك! نرى قصة إبليس في آيات سبع، تشترك في أمر الملائكة بالسجود لآدم وإبلاس إبليس، حيث استقل كيان آدم المخلوق من طين، واستغل ناريته في إبلاسه عن السجود له، ثم تأتي بما تهدِّد إبليس ذرية آدم باحتناك ذريته إلّا قليلاً، وإن ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٣.

لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ ٱخۡرُجۡ مِنۡهَا مَذۡءُومٗا مَّدۡحُورٗاۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنۡهُمۡ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿١٨﴾﴾[(١)] و﴿لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾[(٢)].

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[(٣)] فيما هدد ذريته ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[(٤)]! لا لأنه أقوى منهم فـ ﴿إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ بل لأنهم أغوى منه رغم أنهم أقوى حجة وأحجى!.

إنه طالب ربه إنظاره إلى يوم يبعثون ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾[(٥)] فهل إلى يوم يبعثون؟ و﴿مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ يلمح إلى أنهم عدة، فمن هم؟ وحتى متى؟ وفي (ص) ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾﴾[(٦)].

وقد تلمح لعنته إلى يوم الدين أنه الوقت المعلوم[(٧)] وقد يبعده ألّا تصريحه في سائر القرآن بإجابته إلى يوم الدين، وإنما ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ﴾ أم و﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ﴾ وعلّه لأن إنظاره له مرحلتان، إنظار أوّل إلى يوم يقوم القائم عليه السلام حيث يأخذ حريته في مجاله الأوسع احتناكاً لذرية آدم،

---

(١) سورة الأعراف، الآيات: ١٦-١٨.
(٢) سورة الحجر، الآيات: ٣٩-٤٢.
(٣) سورة سبأ، الآية: ٢٠.
(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٠.
(٥) سورة الأعراف، الآيتان: ١٤، ١٥.
(٦) سورة ص، الآيات: ٧٨-٨١.
(٧) حيث اللعنة إلى يوم الدين هي جزاء الشيطنة إلى يوم الدين وقد تحققت اللعنة فلتتحقق كذلك الشيطنة إلى يوم الدين، مهما خفت منذ قيام القائم لقوة في دولة الإيمان وللمؤمنين.

وإنظار ثان منه إلى يوم القيامة الكبرى ولا يحسب له حساب، حيث الدولة الحقة الإلهية لا تفسح له مجالاً فسيحاً ولأن الشيطان ربط احتناكهم إلا قليلاً بإنظاره إلى يوم الدين، و﴿صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[١] فهذه تلميحة أخرى أنه مُنظر إلى يوم الدين.

ولماذا يربط احتناكه إلّا قليلاً بذلك الإنظار وهو محتنك ذريته وإن أُنظر ساعة؟... لأنّ «إلا قليلاً» لا يتحقق في حسابه إلا في إنظاره إلى يوم الدين، فلو أُنظر أقل منه فقد يتفلت كثير عن سلطانه فيما ليس له سلطان، فهو بحساب كل زمان ومكان يحتنك ذريته إلّا قليلاً حسب هذا المجموع، فلو خرج شطرٌ من زمان أو مكان لاختل ميزان الشيطان ولم ينضبط في المجموعة «إلا قليلاً» مهما انضبط بالنسبة للشطر الذي أنظر فيه.

وقد ينصدم «إلّا قليلاً» بزمن القائم المهدي عليه السلام والله العالم! ثم الاحتناك قد يعني افتعالاً من الحنك: لأقودنهم إلى المعاصي كما تقاد الدابة بحنكها، غير ممتنعة على قائدها، استيلاءً عليهم ومُلكة لتصرفهم كما يملك الراكبُ الحمار حمارَه، بثني العنان تارة ويكبح اللجام أخرى.

أم يعني: لألقين في إحناكهم حلاوة المعاصي حتى يستلذوها ويرغبوا فيها ويطلبوها.

أو: لأستأصلن ذريته بالإغواء، ولأستقصين إهلاكهم بالإضلال، حيث اتباعهم غيّه، وطاعتهم أمره يؤولان بهم إلى موارد الهلاك وعواقب البوار.

أو: لأضيقن عليهم مجاري الأنفاس من إحناكهم بإيصال الوسوسة لهم، وتضاعف الإغواء عليهم، يقال: احتنك فلان فلاناً إذا أخذ بمجرى النفس من حنكه فكان كالشبا في مقلته، والشجا في مسعله»[٢].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٠.

(٢) بين القوسين منقول عن مجازات القرآن للسيد الشريف الرضي ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

أو أنها كلها معنية تجمعها احتناكه لهم كالحمار حيث يؤخذ بحنكه فينقاد حيث يقاد احتناكاً فطرياً - عقلياً - فكرياً - عقيدياً - عملياً - سياسياً - اقتصادياً أمّاذا حيث الشيطان يحتنك كلّا حسب المكنة والاستطاعة بما عنده من هذه وتلك، وعلى أية حال إنه يحقق نصيبه في كلٍّ باستحمار يناسبه بعلم أو مال أو مقال أمّاذا، و﴿قَلِيلًا﴾ يعني المنحسرين عن احتناك الشيطان، المنحصرين بالله وفي الله فلا ينجو عن ذلك الاحتناك - قلّ أو كثر - إلا القليل.

وترى من القليل المستثنى من احتناك الشيطان؟ هناك قلة مخلصة لا تشملهم أية غواية علمية أو عملية أو عقائدية أماهيه ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[2] ثم له سلطان أياً كان على غير المخلصين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[3] ففي كل غواية سلطان للشيطان من سيئة صغيرة إلى كبيرة وإلى كفر مطلق، مهما اختلف سلطان عن سلطان، فمن يتبع الشيطان كان للشيطان عليه قدر اتباعه سلطان، فمنهم من ينجو بتوبة أو شفاعة أو رجاحة الحسنات أو ترك كبائر السيئات، ومنهم من لا ينجو إلا دخولاً في النار لفترة طالت أم قصرت ثم يخرج إلى الجنة، ومنهم من يخلد بخلود النار ثم يفنى بفناء النار ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[4].

فلا ينجو من سلطان الشيطان ككل إلّا فريق من المؤمنين لا كلهم: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[5] فلم يقل «إلا المؤمنين» وهذه الفرقة من المؤمنين هم المعنيون بآية النحل ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ

---

(١) سورة ص، الآية: ٨٢.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٤٠.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٤٨.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٢٠.

سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[١] إيماناً يُتوكل فيه على الله، فبالإيمان يُخلص وبالتوكل يصبح من العباد المخلصين فليست هذه القلة إلّا المعصومين! وهم عباد الله حقاً إذ لا نصيب منهم للشيطان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾[٢].

فالشيطان بين سلطان مطلق واحتناك لبني الإنسان، وبين عباد مخلَصين ليس له عليهم سلطان، ثم بينهما عوانٌ للشيطان عليهم سلطان قل أو كثر.

وترى ذلك الاحتناك يخص بني آدم دون سواهم من المكلفين حيث النص: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا...﴾؟ إن الشيطان يطمح في احتناك ذريته كأصول لدعوته، انتقاماً من تكريم آدم عليه ولأنه شيطان، فهو شيطان بالنسبة للمكلفين كافة كما الآيات الأخرى تشملهم ف ﴿إِنَّ عِبَادِى...﴾ لا يخص بني آدم!

﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾﴾:

﴿ٱذْهَبْ﴾ أمر ليس دفعاً إلى الإضلال لا تكويناً ولا تشريعاً، بل هو سماحٌ وإنظار يتبعه إنذار ﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ...﴾ فهو أمر تهديدي في معنى أشد النهي تشريعياً لمن لا يحن إلى هدى ولا يرجى منه الاهتداء فيطرد تحدياً، وتهديداً، مهما يحمل إمهالاً تكوينياً كما في نظائره: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾[٣].

والجزاء الموفور هو الوفاق وفر العدل، دون أن ينقص ما يستحقونه شيئاً أو يزيد، وقد يعني أنهم مهما كثروا فجهنم لهم جزاء موفور لا تضيق بهم ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾[٤].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٦٥.
(٣) سورة طه، الآية: ٩٧.
(٤) سورة ق، الآية: ٣٠.

وترى أن جهنم جزاءٌ لكل من تبعه في أية تبعة؟ وهنالك غفرانات بتوبات أم شفاعات أو ترك كبائر السيئات أو فعل الحسنات أم ماذا! الجواب أن هؤلاء ليسوا أتباع الشيطان، وإنما هم من كانت حياته حياة التبعية للشيطان مهما كانت له حسنات أم ماذا، فرجاحة السيئات جزاؤها جهنم مهما خرج عنها باستحقاق أم خلد فيها باستحقاق.

﴿ٱذْهَبْ﴾ وحاول ما استطعت في احتناكهم فلا تملك منهم إلا كيداً، وقد ملِّكوا عقولاً وزوِّدوا بآيات الحق صدقاً، برسالات دواخل الذوات وخوارجها، فهم أقوى منك في هذا الميدان، إلّا من تغافل عن طاقاته، وتجاهل عن بيناته ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ هذه النعمة القوة بسوء اختيارهم.

وترى لماذا «جزاءكم» خطاب الحاضرين وهم غيّب وحاضر الخطاب هو إبليس؟... لأنهم أياً كانوا وأيان فهم حضورٌ عند الله دون غياب، قبل أن يوجدوا وبعده، أحياءً وأمواتاً، وإن غائب الصيغة لا يشمله وهو حاضر «جزاءهم» وحاضرها تشمله وإياهم، ثم وحاضر الإنذار أوقع من غائبه.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾:

آية عديمة النظير تحمل فيما تحمل افتعالات الشيطان في أوامر أربعة لا تعني إلّا ما عناه ﴿ٱذْهَبْ﴾ دون دفع تكويني أو تشريعي، وإنما سماح وإنظارٌ وأنه لا يُمنع تكويناً مهما مُنع تشريعاً: «فان جهنم جزاؤكم».

وترى أن الله يدله على موارد إضلاله؟ كلا! وإنما يدلنا على مجاري ضلاله ومناهل اعتقاله.

وتحتصر الآية فيما تختصر قدر المستطاع من كيد الشيطان، ولكي نكون على نُبهة وأُهبة في مواجهته بما زودنا من طاقات، وتزيدنا نجاحاً في هذا

النضال مواعيد ربنا ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾[١] ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

فهناك خطوة إبليسية أُولى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾: فما هو صوته وما هو استفزازه بصوته؟.

الاستفزاز هو الاستخفاف الإزعاج من الفز: ولد البقرة لِما تصور فيه من الخفة كما يسمى عجلاً لما تصور فيه من العُجَلة، ولا يُحمل على العصيان ولا يُحتنك للشيطان إلّا من يُستفز استخفافاً عن ثقله، وكما أن فرعون ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ﴾[٢] وأراد أن يستفز بني إسرائيل فثبَّتهم موسى ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾[٣] وكادوا ليستفزوا الرسول ﷺ ولكن ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٤].

ليس للشيطان أن يستفز عباد الرحمن بعقلية راجحة أو بحجة ووعد الصدق، وإنما بما يزين لهم في الأرض: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٥].

وللشيطان صوتان يستفزان، صوت يلهي بما يشهيّ من غنًى وموسيقا أم ماذا؟[٦]، فمهما لا يُسمع منه نفسه، يحمل من يحتنكه على صوته استفزازاً لنا.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٥٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٠٣.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٧٦.
(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩، ٤٠.
(٦) الدرر المنثور ٤: ١٩٣ - أخرج سعيد بن منصور وابن أبي الدنيا في ذم الملاهي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ...﴾ [الإسراء: ٦٤] قال: استنزل من استطعت منهم بالغناء والمزامير واللهو والباطل..

ثم وصوت يحمل وعوداً في غِرَّة ومكيدة، ولا يُستفز بهما إلّا الأخفّاء في عقولهم وإيمانهم وفي أي حقل من حقولهم المستخفة المتخاذلة، والصوت قد يلهي بنفسه سواء بلفظ له معنى حق أو باطل، أو لا يعني أيّ معنى، كالأصوات الخاصة بالمراقص وسائر اللهو، فلهو الثالث ذو بعد واحد والثاني اثنين وفي الأول بعد بعيد فإن فيه مهانة للحق كأن يقرأ القرآن بصوت يناسب الرقص، وأمّا الصوت غير الخاص باللهو، فقد يعني معاني واعظة ومذكرة فأحسن، أو معاني مضللة وباطلة ملهية فقبيح، أو معانٍ عوان فعوان لا ممدوحة ولا مذمومة.

ثم المعنى المضلِّل الملهي بصوت لا يلهي هو ذو بعد واحد بلهو المعنى، فاللهو عما يعنيه الإنسان في دينه ودنياه إلى ما لا يعنيه أو يعني ضلاله ويلهيه عن الله، إنه محرم أياً كان، لفظاً ومعنًى أو هما معاً، وتختلف دركاته باختلاف دركات اللهو.

والاستفزازات الشيطانية كلها محرمة، سواء أكانت شهوانية أم عقائدية - ثقافية - اجتماعية - سياسية - اقتصادية وحربية أمّاذا من استفزاز الاستخفاف للثقالة الإنسانية فاحتناك واستحمار وهنالك تقع الطامة الكبرى! إذاً فكل صوت مستفز عما يعنيه الإنسان في مفترضاته الإنسانية والإسلامية إلى ما يعني ضلاله أو ما لا يعنيه، تشمله «صوتك» وهي كافة الملاهي التي تُسمع، من غناء ملهية وموسيقا أماهيه؟ وهي كلها صوت الشيطان وإن تسمعها عن إنسان.

ولأن استفزازهم بصوته بحاجة إلى تكريس القوات المضلّلة، إذ ليس كل إنسان بالذي يُستفز بصوت الشيطان إلّا بمعدات، فهنالك خطوة أخرى.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ خطوة ثانية إبليسية لمن لا يُحتنك

بصوته: فالخيل والرجل هما الجند راكباً وماشياً، وعلّهما كناية عن صورتي الجيش الشيطاني من راكب في نضاله الإضلال يسرع، ومن ماش يبطئ، فللشيطان جنود يحملون دعوته ودعايته من الجنة والناس إلى الجنة والناس: ﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥﴾[1] من ذريته الجنة الشياطين: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾[2] ومن شياطين الإنس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ...﴾[3].

فالشيطان يستفزهم بصوته ويجلب عليهم بخيله ورجله من شياطينه، والإجلاب هو الصيحة بقهر، فمن لا يستفزه صوت دون صيحة، يصيح عليه بقهر بإذاعاته العدة التي يحملها خيله ورجله، صيحات على مسامع آذانهم وعقولهم وقلوبهم ولحد الاستفزاز، وهنالك دركات لهذه الصيحات كما يقتضيها مختلف الاستفزازات على اختلاف الاستعدادات.

معركة صاخبة تتجسم فيها وسائل الغواية والسلطة الإبليسية، باستخدام مختلف الأصوات المستفزة جلية وخفية، من أية إذاعة شيطانية، إزعاجاً للخصوم، واستدراجاً لهم للفخ المنصوب لهم، فإذا استُفزوا إلى العراء أخذهم في احتناك واستحمرهم في ذلك العراك.

«فاحذروا عدوّ الله أن يعديكم بدائه وأن يستفزكم بخيله ورجله: فلعمر الله فخر على أصلكم ووقع في حسبكم ودفع في نسبكم واجلب عليكم بخيله وقصد برجله سبيلكم يقتنصونكم بكل مكان ويضربون منكم كل بنان، لا يمتنعون بحيلة ولا يدفعون بعزيمة في حومة ذل وحلقة ضيق وعرصة موت وجولة بلاء»[4]:

---

(١) سورة الشعراء، الآيتان: ٩٤، ٩٥.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٥٠.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١١٢.

(٤) نهج البلاغة السيد الشريف الرضي عن الإمام علي عليه السلام.

وفي ذلك الأمر الإمر استهانة بمكره، وإقلال الحفل بخدائعه، ثم وليس له - في الحق - خيل ورجل لا نراهما، فإنه خلاف العدل، وخلاف الواقع الملموس، فإنما كل راكب في معصية الله، مرَّغب فيها سواه هو من خيله وعملائه، وكل ماش فيها هكذا هو من رَجِله، من شياطين الجن والإنس.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾:

خطوة ثالثة في احتناكهم باحتكاكهم في الأموال والأولاد، فماذا تعني مشاركتهم في الأموال والأولاد؟ ومن الأموال والأولاد ما تختص بالشيطان ومنها ما تشترك؟

هذه الشركة تتمثل في الأموال والأولاد التي تحصل بغير حق أو تصرف في غير حق، أو يجمع فيها بينهما من باطل إلى باطل، أم تُجمَّد وتكتنز بباطل.

فأية حالة باطلة في مال أو ولد - وهما قوام الحياة الإنسانية - إنها شركة شيطانية، اختص بها الشيطان أم شارك فيها، كما الشرك بالله، إذ لا يعني - فقط - أن يُعبد الله مع خلقه، بل وأن يُعبد خلقه دونه كالكثيرين من المشركين.

إن مثلث التحصيل والصرف والكنز للمال حراماً، تماماً أو بعضاً، كلُّه من شرك الشيطان، فلشرك الشيطان - أياً كان - دركات كما لتوحيد الرحمن والإيمان درجات، فأسفل الدركات في الأموال ثالوث المحرَّم تحصيلاً وصرفاً وكنزاً دون حلٍّ فيه، وأعلاها المحرم في واحد على حلٍّ فيه وبينهما متوسطات.

كما الأسفل في الأولاد هو الاستيلاد بالسفاح[1] ثم التربية الشيطانية،

(١) نور الثقلين ٣: ١٨٤ ح ٢٩٥ تفسير العياشي عن عبد الملك بن أعني قال سمعت أبا =

ثم الاستعمال في مختلف الشيطنات، والأعلى نكاح محرم على حلٍّ، أو تربية أو استعمال فيه شرك شيطان وبينهما متوسطات، وقد يشمل النكاح دون ذكر الله لكي يصبح الولد صالحاً متحللاً حياته عن شرك الشيطان[١].

فأية حالة شيطانية في الأموال والأولاد هي من شرك الشيطان أياً كان، وقليلٌ هؤلاء الذين يتخلصون عن أي شرك للشيطان، وهم عباد الله المخلصون ثم المخلصون وهم قلة اللهم اجعلنا من هذه القلة.

ومن شرك الشيطان بغض الإمام علي عليه السلام حسب المروي عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حيث يقول: «والله يا علي لا يبغضك من قريش إلا سفاحياً ولا من الأنصار إلا يهودياً ولا من العرب إلا دعياً ولا من سائر الناس إلا شقياً ولا من النساء إلا سلقلقية وهي التي تحيض في دبرها...»[٢].

= جعفر عليه السلام يقول: إذا زنى الرجل أدخل الشيطان ذكره ثم عملا جميعاً ثم تختلط النطفتان فيخلق الله منهما فيكون شركة الشيطان.

(١) المصدر ص ١٨٥ ح ٣٠٠ عن يونس بن أبي الربيع الشامي قال كنت عنده (الباقر عليه السلام) ليلة فذكر شرك الشيطان فعظمه حتى أفزعني فقلت جعلت فداك فما المخرج منها وما نصنع؟ قال: إذا أردت المجامعة فقل بسم الله الرحمن الرحيم الذي لا إله إلا هو بديع السماوات والأرض اللهم إن قضيت مني في هذه الليلة خليفة فلا تجعل للشيطان فيه نصيباً ولا شركاً ولا خطأً واجعله عبداً صالحاً خالصاً مخلصاً مصفياً وذريته جل ثناؤك.

(٢) ملحقات الإحقاق ج ١٤: ٦٥٥ - الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١: ٣٤٣ ط بيروت بسند متصل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري عن علي عليه السلام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إذ أبصر برجل ساجد راكع متطوع متضرع فقلنا يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم! ما أحسن صلاته؟ فقال: هذا الذي أخرج أباكم آدم من الجنة فمضى إليه علي غير مكترث فهزه هزاً أدخل أضلاعه اليمنى في اليسرى واليسرى في اليمنى ثم قال: لأقتلنك إن شاء الله فقال: لن تقدر على ذلك إن لي أجلاً معلوماً من عند ربي ما لك تريد قتلي؟ فوالله ما أبغضك أحد إلا سبقت نطفتي في رحم أمه قبل أن يسبق نطفة أبيه! ولقد شاركت مبغضك في الأموال والأولاد وهو قول الله في محكم كتابه: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء: ٦٤] فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: صدقك والله يا علي! إلا يبغضك... ثم أطرق ملياً فقال: معاشر الأنصار! اعدوا أولادكم على محبة علي، قال جابر: كنا نبور أولادنا في وقعة الحرة بحب =

﴿وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا...﴾:

خطوة رابعة من خطوات الشيطان الوعد الكَذِب الغُرور، فإنه كاذب غَرور.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ هنا يعم الوعد الخير والوعيد الشر، وعداً يمنّيهم ترغيباً إلى الشهوات: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾(١) ووعيداً ترهيباً عن المكرمات: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا...﴾(٢).

ثم ولا يخص وعدُه ترغيباً وترهيباً يوم الدنيا، بل وكذلك الأخرى، وعداً يشككهم في الآخرة، وآخر يرجيّهم رحمة الله فيها أم يغلّب رجاءهم على خوفهم، وثالثا بمغفرة في شفاعة أماهيه، وقد تعنيهما فيما تعنيه ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾(٣) حيث الآخرة هي ﴿مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ إذ يستقبلونها متجهين إليها، والدنيا هي «من خلفهم» إذ يستدبرونها مولّين عنها.

= علي فمن أحبه علمنا أنه من أولادنا ومن أبغضه أشفينا منه.

وبإسناد متصل آخر من حبة العرفي، قال سمعت علي بن أبي طالب يقول: دخلت على رسول الله ﷺ في وقت كنت لا أدخل عليه فيه فوجدت رجلاً جالساً عنده مشوه الخلقة لم أعرفه قبل ذلك فلما رآني خرج الرجل مبادراً قلت يا رسول الله ﷺ: من ذا الذي لم أره قبل ذي؟ قال: هذا إبليس الأبالسة سألت ربي أن يرينيه وما رآه أحد قط في هذه الخلقة غيري وغيرك قال ﵇ فعدوت في أثره فرأيته عند أحجار الزيت، فأخذت بمجامعه وضربت به البلاط وقعدت على صدره فقال: ما تشاء يا علي؟ قلت: أقتلك قال: إنك لن تسلط علي قلت: لِمَ؟ قال: لأن ربك أنظرني إلى يوم الدين خل عني يا علي فإن لك عندي وسيلة لك ولأولادك قلت: وما هي؟ قال: لا يبغضك ولا يبغض ولدك أحد إلا شاركته في رحم أمه ليس الله يقول: ﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ [الإسراء: ٦٤]؟ وبإسناد متصل عن جعفر بن محمد في حديث عبد الرحمن بن كثير قلت جعلت فداك بأيش تعرف ذلك (يعني شرك الشيطان؟) قال: بحبنا وبغضنا...

قال الحسكاني: والرواية في هذا الباب كثيرة وهي في كتاب طيب الفطرة في حب العترة مشروحة.

(١) سورة النساء، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧.

ووعد الشيطان أياً كان ليس إلّا غروراً فإنه غَرور ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ . . .﴾[١].

خطوات أربع كُبريات تحمل كافة الشيطنات، وهي هي مجالات واسعة النطاق للسلطات الشيطانية، لا ينجو منها إلّا عباد الله الخصُوص، وأما عباد الشيطان فلا عنت له في تمشيتهم فيها، والعباد المشركون المشتركون يُمشِّيهم كما يتمشون فيأخذ نصيبه منهم كما يُحتنكون، ثم يتخلص العباد المخلصون بالله والمخلِصون لله:

﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾:

ولولا الوكالة الربانية لـ ﴿عِبَادِى﴾ المخلَصين المختصين بالله لم يتخلصوا عن خطوات الشيطان، فلا كفاية للإنسان أياً كان إلّا بهذه الوكالة.

فـ ﴿عِبَادِى﴾ تلمح بذلك الاختصاص، أنهم هم الذين وقفوا أنفسهم في الله لعبادة الله، وطاوعوا في ذوات نفوسهم لطاعة الله، واستعاذوا في كل ذلك بالله، بعدما قدموا طاقاتهم كلها لسلوك سبيل الله، فمنهم من اصطفاهم الله برسالاته فعصمهم عن الأخطاء كلها، تلقياً من الله وإلقاءً وتطبيقاً.

فهم معصومون في هذا المثلث البارع. . . ومنهم من أيدهم وسدّدهم دون تلكم العصمة البارعة فخلصهم من سلطان الشيطان دون العصمة العلمية، وقد يعنيهما ﴿عِبَادِى﴾ هنا مهما اختص المعصومون في مجالات أخرى: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾[٢] كدرجة أولى ورتبة أعلى من ﴿عِبَادِى﴾، ومن ثم درجة ثانية ليسوا من الغاوين مهما لم يكونوا من المخلصين: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ فعباد الله الخالصون لله مخلصين كانوا أم مخلصين ليسوا من

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣، وسورة فاطر، الآية: ٥.

(٢) سورة الحجر، الآيتان: ٣٩، ٤٠.

الغاوين، فلا سلطان عليهم من شيطان[١]، ولا على غيرهم إلّا دعوة ودعاية متحللة عن البرهان: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي...﴾[٢]. فلأن دعوته توافق الشهوة لا يُطلب منه عليها دليلٌ.



(١) نور الثقلين ٣: ١٨٥ ح ٣٠٢ في تفسير العياشي عن جعفر بن محمد الخزاعي عن أبيه قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يذكر في حديث غير خم أنه لما قال النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام ما قال وأقامه للناس صرخ إبليس صرخة فاجتمعت له العفاريت فقالوا: سيدنا ما هذه الصرخه؟ فقال: ويلكم يومكم كيوم عيسى والله لأضلن فيه الخلق، قال: فنزل القرآن: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبإ: ٢٠] فقال: فصرخ إبليس صرخة فرجعت إليه العفاريت فقالوا: يا سيدنا ما هذه الصرخة الأخرى؟ فقال: ويحكم حكى الله والله كلامي قرآناً وأنزل عليه ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ...﴾ ثم رفع رأسه إلى السماء ثم قال: وعزتك وجلالك لألحقن الفريق بالجميع، قال فقال النبي صلى الله عليه وآله بسم الله الرحمن الرحيم ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] قال: فصرخ إبليس صرخة فرجعت إليه العفاريت فقالوا: يا سيدنا ما هذه الصرخة الثالثة؟ قال: والله من أصحاب علي ولكن وعزتك وجلالك لأزينن لهم المعاصي حتى أبغضهم إليك قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: والذي بعث بالحق محمداً للعفاريت والأبالسة على المؤمن أكثر من الزنابير على اللحم والمؤمن أشد من الجبل والجبل تدنو إليه بالفأس فتنحت منه والمؤمن لا يستقل عنه دينه.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا (٦٧) أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا (٦٩) وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥) وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)﴾

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ لِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾﴾:

الرب الوكيل الكافي هو ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزۡجِى لَكُمُ ٱلۡفُلۡكَ فِى ٱلۡبَحۡرِ﴾ والإزجاء هو الدفع للانسياق، فـ ﴿رَّبُّكُمُ﴾ يدفع الفلك لصالح الناس ابتغاء فضله، دفعاً بالرياح قوات أخرى بترولية أماهيه لـ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ﴾ قبل خلقكم ﴿بِكُمۡ رَحِيمًا﴾ وإزجاء الفلك هو من مظاهر الرحمة الرحيمية الربانية.

أنتم تنساقون على الفلك بتنسيق الرب، فكونوا في الحياة كلِّها على النسق الذي يسوقكم الرب، ولا تدعوا من دونه أرباباً، لكنكم تُوحدونه عند الضر وتشركون به حين النجاة.!

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾:

هنالك إزجاءٌ رخي بغية الرحمة، وهنا اضطراب عتي، مشهدٌ لطيف عطيف يجمع بين الرخاء الرجاء، ومكابدة العناء، حيث تحس القلوب الواجفة المتعلقة بكل رجفة وهزة كالريشة الصغيرة الهزيلة في مهب الرياح القاصفة على ثبج البحار والموج الجبار! ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ﴾ في خِضَمٍّ هذه الرحمة المُزجية ﴿ضَلَّ﴾ عن قلوبكم ونفوسكم وتعلقاتكم ﴿مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ حيث القلوب حالة الرخاء متعلقة بالله وسواه، تحسب أن لمن سوى الله دخلاً في نجاة ونجاح، فإذا وقع في واقع منقطع عمن سوى الله كالبحر الملتطم، ينسى الركْب في الفلك المتناوح بين الأمواج كل قوة وسناد إلّا الله، إذ لا يرى إلّا الأمواج، وحينذاك تظهر بارقة الفطرة المتعلقة في عمقها بالله، ويبرز رجاءٌ واحد ليس إلّا بالله، رغم خفائه عن الأبصار، وجلاء سواه للأبصار، فهنا تتفتح البصيرة المغشية وتغمض الأبصار، ويظهر الرب للبصائر كالشمس في رايعة النهار!.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ . . .﴾ فحين تنجلي الغمرة ينمحي نور الفطرة حيث الإنسان هو الإنسان كأنّ كيانه النسيان، يضل هنا عنه الله، كما ضل عنه قبله من سواه، حيث تتقاذفه الأهواء، وتتجاذبه إلى غير الله فيعرض عن الله.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كأنه يضرب إلى عمق الماضي في عمق الذات، رغم أن الذات الفطرة متجهة إلى الله، ولكنما اللّذات والشهوات تحول دون المُقام في مَقام الذات!. .

وهكذا يكون الإنسان النسيان، يذكر ربه وحده حين البأساء والضراء، وينساه حين النعماء، فليذكر أنه هو ربه لا سواه، حين يضل من يدعوه إلّا إياه.

هذا البحر الملتطم نجوتم من ضره إلى بره ثم أعرضتم، فهل أنتم آمنون من ضر البرّ؟!

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾﴾:

فأين الأمن ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَاۚ﴾[1] وكما في قارون: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[2].

ليس هول الغرق منحصراً في البحر منحسراً عن جانب البر، فأنتم الآن نجوتم عن البحر إلى البر فماذا يأمنكم ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ فلماذا أعرضتم عن الله وأنتم بعدُ عُرضة الخسف وهو أشد وأنكى؟. . .

أنتم في قبضة الله في البحر والبرِّ، ولا أمن عن غرق في البحر أم خسف بزلزال وبركان في البرِّ ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: ريحاً مهلكة

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٠.
(٢) سورة القصص، الآية: ٨١.

ترمي بالحصباء والحصا، عاصفة بركانية أم ماذا؟ تقذفكم بالحمم والماء والطين والأحجار! فأنتم الهزالى الأذلّاء في مثلث الغرق بحراً وبراً أم جواً ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ ينجيكم من غرقكم.

هب أنكم أمنتم البرَّ حالاً كما أمنتم البحر ترحالاً فماذا يأمنكم أن يعيدكم إلى ضر البحر؟.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾﴾:

وهب أنه أمهلكم في البحر فما أغرقكم، ثم أمهلكم في البر فما خسف بكم ولا أرسل عليكم حاصباً، فكيف تأمنون أن يعيدكم في البحر مرة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح تقصف الصواري وتُحطِّم السفن، ثم لا تجدوا لكم علينا بقاصف البحر تبيعاً يلاحق في نجاتكم؟

أيتها الحشرة الهزيلة الذليلة، العائشة بين أخطار الغرق والخسف والحاصب والقاصف، بحراً وبراً وجواً، لماذا هذه الغفلة الحمقاء، هذا الكفران المتواصل في النكران والعصيان، وهنا لك القدرة الإلهية تتصدى لك ثم لا تجد عليه وكيلاً ولا تبيعاً؟!

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾:

آية عديمة النظير في صيغة التعبير، إذ تحمل بعدين بعيدين للمحتد الإنساني ومنزلته على «من خلق» ككل: ﴿كَرَّمْنَا... وَفَضَّلْنَاهُمْ...﴾!.

كرامة مطلقة بين «من خلق» في تأكيدات ثلاثة: «لـ» «قد» - ﴿كَرَّمْنَا﴾: فالتكريم يفوق الإكرام عِدةً وعُدةً، ثم «ولقد» يؤكده مرتين، بينها الملائكة

المعصومون ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[(١)] خلوا عن هذه الثلاثة، ومن ثم «نا» في كرمنا هذه حيث تعني جمعية الصفات.

وفي سائر القرآن تصريحات وتلميحات بهذه الكرامة العليا للإنسان، فإنه في التين ﴿فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ وفي الأنبياء ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾[(٢)] وفي آيات عدة مسجود الملائكة أجمعين، ثم لا نجد للملائكة ولا تلميحة على هذه الكرامة المطلقة! أليس لأنه في أعلى قمم القوامة وأحسنها بكلِّه وجزئيه، وأن خلقه في سائر الخلق استوجب توصيف الخالق بـ ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ وكما هو أحسن من سائر الخالقين في خلقه أجمعين.

ولو لم يكن مفضلاً على الملائكة أجمعين لما أمروا أن يسجدوا له أجمعين، وقد أمروا! ولأن في صلبه أهل بيت الرسالة المحمدية عليهم السلام ومن حذا حذوهم من المؤمنين[(٣)].

ذلك التكريم الرباني لبني آدم كما يشمل جزئيهم قلباً وقالباً في أصل الخلق، كذلك في كرامة التقوى: ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[(٤)] فلو لم يكن فيهم الأتقى لم يكن ذلك التكريم:

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.

(٣) نور الثقلين ٣: ١٨٨ ح ٣١٧ علل الشرائع عن الإمام علي بن موسى الرضا عن أبيه عن آبائه عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث طويل يقول فيه: «فإن الملائكة لخدامنا وخدام محبينا. يا علي! الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون للذين آمنوا بولايتنا. يا علي لولا نحن ما خلق الله آدم ولا حوا ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى معرفة ربنا وتسبيحه وتقديسه إن الله تبارك وتعالى خلق آدم فأودعنا صلبه وأمر الملائكة بالسجود تعظيماً لنا وإكراماً وكان سجودهم من الله عز وجل عبودية ولآدم إكراماً وطاعة لكوننا في صلبه فكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سجدوا لآدم كلهم أجمعون؟».

(٤) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

«والملائكة خدام المؤمنين»[١] ثم ويشمل النشأتين الدنيا والآخرة، تكريماً في مثلث قاعدته التقوى، وهي تتبنّى تكريمه تكويناً، وتُنتِج تكريمه في ميزان الله دنياً وعقبى!.

وأهمُّ المظاهر في هذا التكريم نراه في «حملناهم - رزقناهم - فضلناهم» وإن كان الأخير يحمل حملهم ورزقهم أم ماذا؟.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ حملاً فيهما مع بعض على سفينتنا الفضائية في خِضِمِّ البحر: الفضاء المحيط: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾﴾[٢]!

وحملاً في البحر لبني آدم كلهم في الفلك المشحون: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾[٣] حملناهم وهم ذرية في تلكم الأصلاب: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾[٤].

وحملاً فيه لركاب البحر على مرّ الزمن على السفن فوق البحرية وتحت البحرية، وحملاً في البر بمختلف الحمولة الحيوانية وسواها ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[٥] فهم في رباعية الحمل براً وبحراً أم ماذا؟.

---

(١) المصدر ١٨٩ ح ٣٢٠ في أصول الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم على الله عز وجل من مؤمن لأن الملائكة خدام المؤمنين وان جوار الله للمؤمنين وأن الجنة للمؤمنين وأن الحور العين للمؤمنين...» في الاحتجاج عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا عن علي هو أفضل أم ملائكة الله المقربون؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: وهل شرفت الملائكة إلا بحبها لمحمد وعلي وقبول ولايتهما؟ إنه لا أحد من محبي علي عليه السلام نظف قلبه من الغش والدغل والعلل ونجاسة الذنوب إلا كان أطهر وأفضل من الملائكة.

(٢) سورة المرسلات، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٣) سورة يس، الآية: ٤١.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ١١.

(٥) سورة النحل، الآية: ٨.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ ما تستطيبه النفس السليمة الإنسانية مأكلاً ومشرباً ومسكناً ومنكحاً أمّاذا من متطلبات الحياة، أو أنها ككلٍّ حياة طيبة في كافة جنباتها: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾[1] ومن أفضلها طيبة النفس، وطيبة الذرية: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[2] وأن يصبح الإنسان كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾[3]: فمن أفضل الرزق الطيب العلم[4] وقد فضل فيه الإنسان على الملائكة كما في آدم، فرزق الإنسان كحيوان مفضل على سائر الحيوان، ورزقه كإنسان مفضل على مَن في عالم الإمكان، اللّهم إلّا من يوازيه من القلة في هذه الكرامة.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾:

هنا تفضيل لبني آدم على كثير، فهناك قليل لم يفضَّلوا عليهم، فمن هم، وهل هم أمثالهم في الفضل أم هم مفضَّلون عليهم؟...

آية التين حيث تجعل خلق الإنسان في أحسن تقوم، وهي تصريحة قيِّمة أنه لا أحسن منه، ولولا آية التفضيل لكان الإنسان في قمة لا توازى، ولكنها تستثني قليلاً، فهم كالإنسان في أحسن تقويم، ولا نعرفهم حتى الآن من هم.

ويكفي أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأن في ذريته آل بيت الرسالة المحمدية، أنهم ككلٍّ أفضل من الملائكة.

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٣٨.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٢٤.

(٤) نور الثقلين ٣: ١٧٨ ح ٣٠٧ تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام إن الله لا يكرم روح الكافر ولكن كرم أرواح المؤمنين وإنما كرامة النفس والدم بالروح والرزق الطيب هو العلم.

ولأننا لا نجد هذه القلة هنا فهم من ساكني سائر الأرضين أم سائر الكرات كما لمحت لهم آية الشورى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾[1].

ذلك التكريم وهذا التفضيل يجعلان الإنسان في قمة التكوين بأحسن تقويم في صورته وسيرته، لو تبنّاه بطاقاته وإمكانياته لأصبح في أحسن تقويم ثان، كما أنه في تغافله وتجاهله عن أحسنه في التكوين يُرد إلى أسفل سافلين، فلا أحسن منه إن أحسن، ولا أسفل منه إن سفل! «فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»[2].

فالصورة الإنسانية ككلٍّ بجزئيه «هي أكرم الصور على الله»[3] فـ «الحمد لله الذي خلقني فأحسن خلقي وصورني فأحسن صورتي وزان مني ما شان من غيري وأكرمني بالإسلام»[4].

وكونها أكرم الصور تلمح أن القليل الموازي للإنسان هو أيضاً في تقويم الإنسان مهما سمي باسم الإنسان أم سواه، إلّا أن لأهل بيت الرسالة المحمدية فضيلة تفوق الفضائل، فلا أحد يساويهم أو يساميهم في العالمين.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ

(١) سورة الشورى، الآية: ٢٩.

(٢) المصدرح ٣١١: في علل الشرائع بإسناده عن عبد الله بن سنان قال سألت أبا عبد الله عليه السلام فقلت: الملائكة أفضل أم بنو آدم؟ فقال قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله عزّ وجلّ ركب في الملائكة عقلاً بلا شهوة وركب في البهائم شهوة بلا عقل وركب في بني آدم كليهما فمن غلب عقله...».

(٣) المصدرح ٣١١ في كتاب الخصال فيما علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه: إذا نظر أحدكم في المرآة فليقل...

(٤) نور الثقلين ٣: ١٨٧ ح ٣٠٨ تفسير القمي عن علي عليه السلام في حديث «... فأما ملك منهم ففي صورة الآدميين وهي أكرم الصور على الله...».

كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾:

تلكم الكرامة والفضيلة سلباً وإيجاباً في تبني العقائد والأعمال تسرح في مسرح القيامة، مشهد يشهد فيه كل أناس ما قدم وما أخر، فإنه يوم الطامّة التامة.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ أناس الخير الناس يُدعون بإمام الخير، وأُناس الشر النسناس يدعون بإمام الشر! ففي واجهة الخير رسول كل أناس إمامهم، وخلفائه أئمتهم، وكتاب شرعتهم إمامهم، وكتاب أعمالهم إمامهم وكما يروى عن إمام الأئمة رسول الله ﷺ: «يدعى كل قوم بإمام زمانهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم»[1] وكذلك واجهة الشر، حيث الإمام هو من يؤتم به إن خيراً فخيرٌ وإن شراً فشر.

فكلُّ رسول من أولي العزم الخمس يدعى به أُناسه، وكلُّ إمام من خلفاء الرسول عليه السلام يدعى به قرنه كما يدعى الكل برسولهم[2]، وكل كتاب

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٩٤ - أخرج ابن مردويه عن علي عليه السلام قال قال رسول الله ﷺ: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسرَاء: ٧١] قال: يدعي... وأخرجه في عيون الأخبار عن الرضا عليه السلام عنه ﷺ...

(٢) نور الثقلين ٣: ١٩٠ ح ٣٢٥ في محاسن البرقي... عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ فقال: يدعو كل قرن من هذه الأمة بإمامهم. قلت: فيجيء رسول الله ﷺ في قرنه وعلي عليه السلام في قرنه والحسن في قرنه والحسين في قرنه الذي هلك بين أظهرهم به قال: نعم.

أقول: ولكن قرن الرسول يعم القرون كلها وهم الأمة الإسلامية أجمع كما في ٣٢٩ عن عبد الله ابن غالب عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ قال المسلمون يا رسول الله ﷺ ألست إمام الناس كلهم أجمعين! قال: فقال رسول الله ﷺ: أنا رسول الله إلى الناس أجمعين ولكن سيكون من بعدي أئمة على الناس من الله من أهل بيتي يقومون في الناس فيكذبون وتظلمهم أئمة الكفر والضلال وأشياعهم فمن والاهم واتبعهم وصدقهم فهو مني ومعي وسيلقاني ألا ومن ظلمهم وكذبهم فليس مني ولا معي وأنا منه بريء.

من الخمس يدعى به أتباعه، كما وكل كتاب من كتب الأعمال يدعى به ناسه وأُناسه وكتاب السقوط والنجاح نتيجة حساب الأعمال. أئمة خمس لمن هي له، وأربعة لمن عاش رسوله دون خلفائه.

الرسول لكل ناس هو الإمام الناطق الأصيل وكتابه هو الإمام الصامت الأصيل ثم خلفاء كل رسول هم الفرع الناطق[(١)]، وسنته هي الفرع الصامت، ومن ثم كتاب الأعمال إمام صاحبه حيث يأتم به يوم الجزاء، فالأعمال أئمة تقود أصحابها بخيرها وشرها في الآخرة الأوفى وفي الدنيا أحياناً، كما كتب النجاح والسقوط أئمة.

وقد نطق القرآن بإمامة كلٍّ من الخمسة، فكتاب الأعمال من إمام مبين: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[(٢)] وكتاب النجاح أو السقوط: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩)﴾[(٣)] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾[(٤)].

(١) ملحقات الإحقاق ١٤: ٦٣٧ الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ٤١٦ ط بيروت عن الحسين بن سعيد عن الحسن بن سماعة عن حبان عن أبان بن تغلب سألت جعفر بن محمد عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤] قال: نحن أهل البيت وبسند آخر عن أبي هارون عن أبي سعيد في قوله: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ قال: علي عليه السلام.

وفيه قدم ورد توصيفه صلى الله عليه وآله وسلم علياً بالإمامة بعناوين مختلفة وقد تقدم نقل الأحاديث المأثورة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في أنه الإمام بعده في ٤: ٨٦ وإمام كل مسلم ٤: ٣٣١ وإمام الأمة ٤: ٩٣، ١٤٩، ١٦١، ٣٣٠ وإمام الأتقياء ٤: ١١٨ وإمام كل مؤمن ومؤمنة ٤: ١٣٩ وإمام من أطاع الله: ١٦٧ وإمام القوم ٤: ٢٨٤ وإمام المسلمين (٤): ٢٨٤ وإمام من يدخل الجنة ٤: ٢٨٩ وإمام الأولين والآخرين ٤: ٣٦٢ وإمام المتقين ٤: ١١ - ٢٠ و٩٩ و٢٨٤ و٣٣٤ و٣٨١.

(٢) سورة يس، الآية: ١٢.

(٣) سورة الحاقة، الآية: ١٩.

(٤) سورة الحاقة، الآية: ٢٥.

وكتاب الوحي إمام: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾[(١)] فبأحرى القرآن إمام بل هو إمام الأئمة من سائر الوحي.

ورسول الوحي إمام: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾[(٢)] فبأحرى محمد ﷺ فإنه إمام الأئمة من سائر حملة الوحي: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾[(٣)].

وورثة الرسل أئمة بعدهم بالوراثة النيابية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾[(٤)] [(٥)].

ولا يخلو أي زمان من إمام ناطق بالحق إما ظاهراً أو غائباً: «اللهم إنك أيدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك وجعلته الذريعة إلى رضوانك وافترضت طاعته وحذرت معصيته، وأمرت بامتثال أمره والانتهاء عند نهيه ولا يتقدمه متقدم ولا يتأخر عنه متأخر»[(٦)].

وترى أن إمام كل أُناس هو كل من افترض عليهم طاعته وإن لم يطيعوه؟ فلا يدعى إذاً بأي إمامٍ ضال؟ والدعوة تعم أئمة الهدى وأئمة الضلال! أم يدعى كل أناس بمن اعتقدوه لهم إماماً وإن لم يعتمدوه عملياً؟ والائتمام لا يخص جانب العقيدة، فإنه الإيمان والعمل الصالح[(٧)]! فالإمام

---

(١) سورة هود، الآية: ١٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٣٢.

(٥) نور الثقلين ٣: ١٩٤ ح ٣٤٤ عن بشير الدهان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أنتم والله على دين الله ثم تلا: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ثم قال: علي إمامنا ورسول الله ﷺ إمامنا. كم من إمام يجيء يوم القيامة يلعن أصحابه ويلعنونه ونحن ذرية محمد وأمنا فاطمة.

(٦) عن الصحيفة السجادية عن الإمام السجاد عليه السلام.

(٧) المصدر ح ٣٢٧ في كتاب الخصال بإسناده إلى الأصبغ بن نباتة قال: أمرنا أمير المؤمنين عليه السلام بالمسير إلى المدائن من الكوفة فسرنا يوم الأحد وتخلف عمرو بن حريث =

الناطق والصامت من هادٍ أو مضل هو المقتدى عقيدياً وعملياً بدرجاتهما، وكتاب الأعمال هو مسجلة الصور والعقائد والأصوات كما كانت وصدرت، وكتاب النجاح أو السقوط هو حصيلة الحساب في كتاب الأعمال.

= في سبعة نفر فخرجوا إلى مكان بالحيرة يسمى الخورنق فقالوا: نتنزه فإذا كان الأربعاء خرجنا فلحقنا علياً قبل أن يجمع، فبينا هم يتغدون إذ خرج عليهم ضب فصادوه فأخذه عمرو بن حريث فنصب كفه وقال: بايعوا هذا أمير المؤمنين فبايعه السبعة وعمرو ثامنهم وارتحلوا ليلة الأربعاء فقدموا المدائن يوم الجمعة وأمير المؤمنين عليه السلام يخطب ولم يفارق بعضهم بعضاً وكانوا جميعاً حتى نزلوا على باب المسجد فلما دخلوا نظر إليهم أمير المؤمنين عليه السلام فقال: أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أسر الي ألف حديث في كل حديث ألف باب لكل باب ألف مفتاح وإني سمعت الله جل جلاله يقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ [الإسرَاء: ٧١] وإني أقسم لكم بالله ليبعثن يوم القيامة ثمانية نفر يدعون بإمامهم وهو ضب ولو شئت أن أسميهم لفعلت قال: فلقد رأيت عمرو بن حريث سقط كما تسقط السقفة حياءً ولوماً.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق عليه السلام: قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ أي من اقتدى بمحق قبل وزكى.

وفي الخرائج والجرائح في أعلام أبي محمد العسكري قال أبو هاشم بعد أن روى كرامة له عليه السلام فجعلت أفكر في نفسي عظم ما أعطى الله آل محمد وبكيت فنظر إلي وقال: الأمر أعظم مما حدثت به في نفسك من عظم شأن آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم فاحمد الله أن يجعلك متمسكاً بحبلهم تدعى القيامة بهم إذا دعي كل أناس بإمامهم إنك على خير» وح ٣٣١ في رجال الكشي عن حمزة بن الطيار قلت لأبي عبد الله جعلني الله فداك لو فلقت رمانة فأحللت بعضها وحرمت بعضها لشهدت أن ما حرمت حرام وما أحللت حلال فقال: حسبك أن تقول بقوله وما أنا إلا مثلهم لي ما لهم وعلي ما عليهم فإن أردت أن تجيء مع الذين قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ فقل بقوله. ح ٣٤٥ عن إسماعيل بن همام قال الرضا عليه السلام في الآية إذا كان يوم القيامة قال الله: أليس عدل من ربكم أن تولوا كل قوم من تولوا؟ قالوا بلى قال: فيقول: تميزوا فيتميزون ٣٤٦ عن محمد بن حمران عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن كنتم تريدون أن تكونوا معنا يوم القيامة لا يلعن بعضنا بعضاً فاتقوا الله وأطيعوا فإن الله يقول: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾.

أقول: هذه الأحاديث كلها دليل على أن إمام كل أناس هو من يأتمون به عقائدياً وعملياً دونما ادعاء خاو!

فالطاهر يدعى بإمام طاهر والغادر بغادر «يجيء كل غادر بإمام يوم القيامة مايلاً شدقه حتى يدخل النار»[(١)].

وهل الكتاب المؤتى هنا باليمين هو كتاب الأعمال؟ فيقرأه كل بصير وأعمى حجة له أو عليه: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[(٢)]؟ وهنا القراءة لمن يُؤتاه بيمينه، وغيرهُ أعمى لا يستطيع قراءته!.

أم هو كتاب السقوط أو النجاح؟ وليقرأه كلٌّ ساقط وناجح: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾[(٣)] وهنا الأعمى لا يقرأ كتابه! أو هو يقرأ عذاباً فوق العذاب.

أو هو كتاب شرعته الإلهية حيث توجّب عليه اتباعها ﴿فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ﴾ يوم الأخرى كما قرأوه يوم الدنيا فهو هنا بصير كما كان هناك بصيراً - ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ﴾ (الدنيا) ﴿أَعْمَىٰ﴾ لم ينظر إلى كتاب شرعته، أو نظر ويسر وأدبر واستكبر، أم أي نظر لم تلحقه عقيدة أو عمل ﴿فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ لا ينظر إلى كتاب شرعته مهما حاول ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ إذ كان له في الدنيا أن ينظر ولم... وليس له هنا أن ينظر ولن[(٤)] وقد كان له في الدنيا توبة ما دام فيها أن ينظر بعدما ترك، ولا يفيده هنا النظر فلا يَنظر، ولا يُنظر ولو نَظر[(٥)].

---

(١) نور الثقلين ٣: ١٩٢ ح ٣٣١ - الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ...

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٣) سورة الحاقة، الآيتان: ٢٥، ٢٦.

(٤) المصدر ح ٣٥٨ عن ثواب الأعمال بإسناده إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله عز وجل يوم القيامة أعمى فيقول: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ [طه: ١٢٥-١٢٦] فيؤمر به إلى النار.

(٥) المصدر ح ٣٤٠ في تفسير العياشي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه إذا كان يوم القيامة يدعى كل بإمامه الذي مات في عصره، فإن انتبه أعطي كتابه بيمينه لقوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] فإن أوتي كتابه بيمينه ﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ... إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ [الحاقّة: ١٩، ٢٠] الآية والكتاب الإمام فمن نبذه وراء ظهره كان كما قال نبذوه =

وقد تعني وحدة الكتاب ﴿كِتَٰبَهُۥ﴾ وحدته الشخصية فإما كتاب الشرعة أو كتاب النجاح، أم وحدته في الحقيقة فيشملهما حيث النجاح أو السقوط من مخلَّفات تطبيق كتاب الشرعة وعدمه.

وترى إذا كان في الآخرة أعمى فكيف يقرأ كتاب عمله أو كتاب سقوطه، أو يتراءى أهل النار وأهل الجنة؟

الجواب أن العمى هنالك نسبية وقتية، فقد يعمى وقد يبصر وكلاهما عذاب فوق العذاب، وهو فيها أعمى القلب مهما يبصر. ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾[1]. ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ﴾[2].

فمهما هم يحشرون عمياً وبكماً وصماً، عُمياً، عن كتاب الشرعة، وبُكما عن الحجاج واللجاج، وصماً عما يلذ، ولكنهم يرون كتاب أعمالهم وسقوطهم عذاباً فوق العذاب، كما حَشرهُم عمياً وبكماً وصماً عذاب فوق العذاب، وسماعهم لما يسمعون ونطقهم بما يتكلمون عذاب فوق العذاب، فلا هم هناك صم بكم عمي ما هم هنالك، ولا هم يسمعون ويتكلمون ويرون ما هم هناك، فقد يعذبون عذاباً فوق العذاب فقداناً لهذه، وقد يعذبون وجداناً لها، مهما كانوا عمياً عن الحقائق الموجودة»[3].

= وراء ظهورهم ومن أنكره كان من أصحاب الشمال قال الله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾﴾ [الواقعة: ٤١-٤٣] إلى آخر الآية أقول: من استدلاله عليه السلام بقوله تعالى: ﴿ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ. . .﴾ يعرف أنه كتاب الشرعة، وعلماً مراد أن في الآية.

(١) سورة طه، الآيات: ١٢٤-١٢٦.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٣) نور الثقلين ٣: ١٩٥ ح ٣٥٠ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع أهل الأديان والمقالات في التوحيد كلام الرضا عليه السلام مع عمران وفيه: إياك وقول الجهال أهل العمى =

وتراهم يقرؤون كتابهم إن كانوا من أصحاب اليمين ولا يظلمون فتيلاً، فهل يظلم أصحاب الشمال العُمي كما لا يقرؤون كتابهم؟

كــــلّا! ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾[١] وقد اختص هنا أصحاب اليمين بنفي الظلم لأنهم بذلك أحق وأحرى.

وقد لا يعني ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ عمًى من قراءة كتابه ألّا يستطيعها، وإنما عمى القلب عن الحقائق الموجودة[٢] مهما قرءأ كتاب شرعته وأعماله وسقوطه، فالآخرة نسخة كاملة عن الدنيا بأعمالها حيث تظهر فيها الحقائق، و«أعمى العمى عمى الضلالة بعد الهدى وشر العمى عمى القلب»[٣].

فلا بد لكل أُناس من إمام يأتم به في حق، و«من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية»[٤].

= والضلال الذين يزعمون أن الله جل وتقدس موجود في الآخرة للحساب والثواب والعقاب وليس بموجود في الدنيا للطاعة والرجاء ولو كان في الوجود لله عزّوجلّ نقص واهتضام لم يوجد في الآخرة أبداً ولكن القوم تاهوا وعموا عن الحق من حيث لا يعلمون وذلك قوله عزّوجلّ : ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢] يعني أعمى عن الحقائق الموجودة.

(١) سورة غافر، الآية: ١٧.

(٢) المصدر ح ٣٥٢ في كتاب التوحيد بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزّوجلّ : ﴿وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء: ٧٢] قال: من لم يدله خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات على أن وراء ذلك أمر أعظم منه ﴿فَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

(٣) المصدر ح ٢٥٦ من خطبة للإمام علي عليه السلام . ٣٥٦.

(٤) نور الثقلين ٣: ١٩٤ ح ٣٤٣ تفسير العياشي عن عمار الساباطي عن أبي عبد الله عليه السلام لا تترك الأرض بغير إمام يحل حلال الله ويحرم حرام الله وهو قول الله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا۟ كُلَّ أُنَاسٍۭ بِإِمَٰمِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١] ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من مات بغير إمام مات ميتة جاهلية فمدوا أعناقهم وفتحوا أعينهم فقال أبو عبد الله عليه السلام : أليست الجاهلية الجهلاء؟ فلما خرجنا من عنده قال لنا سليمان: هو والله الجاهلية الجهلاء ولكن لما رآكم مددتم أعناقكم وفتحتم أعينكم قال لكم كذلك.

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا (٧٤)﴾:

«﴿وَإِن كَادُواْ﴾ (من كان في هذه أعمى) ليفتنوك (أيها الرسول) عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره (كما يشتهون) وإذاً لاتخذوك خليلاً (يتخللونك حباً ووفاقاً بما تخللوا فيك فرية ونفاقاً جزاءً وفاقاً)! «ولولا . . .».

﴿كَادُواْ﴾ من الكيد وهو هنا مقارفة الاحتيال المذموم، أم الكود مقاربة للفعل المذموم، وعلهما هنا معنيّان أنهم احتالوا الفتنة واقتربوا لها لولا . . .

الفتنة الشيطانية مهما اتجهت إلى الرسول بكل كيد وخدعة، ولكنها لا تصله بما يَحذَره هو ويُحذِّره الله عصمةً ذات بعدين: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ. . .﴾[1] ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ. . .﴾!

ولا سيما الفتنة التي تحمله على الفرية في رسالته الإلهية و﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ﴾[2] ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[3].

ومهما كانت الفتنة كيداً في استلامه آلهتهم سماحاً في استلام الحجر الأسود[4] أم دخولاً في دينه[5] أم طرداً للذين اتبعوه من سقاط الناس

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ١٥.
(٤) الدر المنثور ٤: ١٩٤ - أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير قال كان رسول الله ﷺ يستلم الحجر فقالوا «تدعك تستلمه حتى تستلم آلهتنا فقال رسول الله ﷺ: وما علي لو فعلت والله يعلم مني خلافه فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ. . .﴾ [الإسراء: ٧٣].
(٥) المصدر أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن أمية بن =

ومواليهم حتى يتبعوه[1] أم ماذا من الفتنة المكيدة له القريبة إليه... فكل ذلك بعيد عن ساحته بعصمته وما تحذَّر بما حذره الله، مهما كان قريباً إليه كبشر. ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾!.

فما يروى من ركونه إليهم أو افترائه على الله في قصة الغرانيق[2] وأمثالها إنها مضروبة كلها عرض الجدار حيث العصمة الإلهية تسده عن هذه وتلك.

والشيطان أياً كان ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[3] فأنى له ذلك السلطان على أوّل العابدين ورسول المؤمنين المتوكلين!.

فهنالك العصمة الربانية ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ عَصَمتْه عن وصمة مقاربة الركون إليهم وإن شيئاً قليلاً، بعد أن عصمته العصمة البشرية - بعون الله - مقارفته وإن ﴿كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ دون أي ركون أم قربه شيئاً كثيراً![4]:

= خلف وأبا جهل بن هشام ورجالاً من قريش أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: تعال استلم آلهتنا وندخل معك في دينك وكان رسول الله ﷺ يشتد عليه فراق قومه ويحب إسلامهم فرّق لهم فأنزل الله ﴿وَإِن كَادُوا۟...﴾ [الإسراء: ٧٣] ﴿نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥].

(١) المصدر أخرج ابن أبي حاتم عن جبير بن نفير أن قريشاً أتوا النبي ﷺ فقالوا له: إن كنت أرسلت إلينا فاطرد الذين اتبعوك من سقاط الناس ومواليهم لنكون نحن أصحابك فركن إليهم فأوحى الله إليه ﴿وَإِن كَادُوا۟...﴾ [الإسراء: ٧٣].
أقول «فركن إليهم» خلاف نص الآية «لقد كدت تركن إليهم فليكن فكاد أن يركن إليهم...».

(٢) المصدر وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١] فقرأ عليهم رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ [النجم: ١٩] فألقى عليه الشيطان كلمتين: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى - فقرأ النبي ﷺ ما بقي من السورة وسجد فأنزل الله: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ...﴾ [الإسراء: ٧٣] فما زال مغموماً حتى أنزل الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ...﴾ [الحج: ٥٢].

(٣) سورة النحل، الآية: ٩٩.

(٤) هذا التثبيت الإلهي ليس العصمة التي أوتي بدء رسالته، إذ لا يوكل في العصمة ولا يخول فيها، وإنما هي تدريجية استمرارية بمشيئة الله، فلئن وكله إلى نفسه طرفة عين لركن إليهم!.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾:

ترى وماذا تعني ﴿إِذًا﴾ ظرفاً لضعفي الحياة والممات؟ هل هو قرب الركون إليهم شيئاً قليلاً ﴿لَقَدْ كِدتَّ... قَلِيلًا﴾؟ وليس هذا تقصيراً منه ﷺ حتى يستحق ضعفي العذاب! فإنه حاول غايتها بشرياً قدر المستطاع! وليس - إذاً - إلّا ترك التثبيت الإلهي وليس تركه من فعله، ومن ثم فلا عذاب إلّا على واقع الركون، وليس هنا إلّا قربه قليلاً دون واقعه!.

أم هو الافتنان عما أوحي إليه، فافتراؤه على الله غيره، وهنالك الطامة الكبرى، وهنالك ضِعف الحياة وضِعف الممات ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[1] وكما هنا ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

أم إنه يعني الفرية والركون حيث ينبعان من نبعة واحدة هي التخلف عن الرسالة الإلهية، وترى لماذا الضعفان وهما أربعة، اثنان في الحياة وآخران في الممات؟ ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾[2] ثم وليست الدنيا دار جزاء!؟

الجواب: إن العذاب يقدّر بقدر العاصي والعصيان، وهنا الرسول أعلى محتداً ممن سواه، وعصيان الرسالة أخطر مما سواه، فليكن العذاب ضعفاً له عمن سواه ولا سمح الله! وإذا تجاوز العصيان حده، جاوز إلى الدنيا من الآخرة كما في قرون أُهلكت.

ثم الضعف لا يعني - فقط - مرتين، وإنما المضاعف زيادة عن مرة وإلى عشرات وعشرات.

كل هذه التهديدات البعيدة المدى، المستحيلة في واقعاتها لمكان عصمة

---

(١) سورة الحاقة، الآيات: ٤٤-٤٧.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٠.

الرسول ﷺ إنها تنبيهات لعظيم الخطر في محتد الرسالات الإلهية، حيث المحاولات بكلِّ ألوان المكيدات تتربص دوائر السوء الانحراف والانحراف بالرسالات السامية! فقد حاولوا مساومته ﷺ أن يعبدوا إلهه قبال أن يترك التنديد بآلهتهم، أو أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت الحرام، أو يطرد سقاط الناس حتى هم يؤمنوا به دونهم، أو يستلم آلهتهم حتى يسمحوا له باستلام الحجر، أما ذا من أنصاف حلول التي تجمع بين الجانبين!

هذه وأمثالها هي محاولات أصحاب الشهوات مع أصحاب الدعوات، لتنحرف الدعوة في بدايتها عن استقامتها ثم يهون أمر استئصالها، فإنهم لا يتطلّبون من صاحب الدعوة أن يترك دعوته كلها، وإنما تنازلاً عن حِدتها وشِدتها لكي يتنازلوا هم أيضاً عن معارضتها أو علّهم يتقبلونها، وهنالك الشيطان يدخل على حامل الدعوة - إن استطاع - من هذه الثغرة المغرية: أن خير الدعوة وصالحها في كسب أصحاب السلطان وإن بالتنازل عن جانب منها! ولكنها ثغرة رخيَّة، وإن كانت في البداية طفيفة خفيّة حيث تنهار عند بزوغها، فيبتدىء غروبها في طلوعها، إذ يشجع أعداءها على تفتح الثغرة، فاستئصالها عن آخرها بالمرة!.

فأهم الفرائض على أصحاب الدعوة الإلهية الصمود الكامل والاستقامة الدائمة، ولكي تتنسق في نهايتها على نسق بدايتها، وحدة متناسقة دائبة.

كما أخطر التخلفات لأصحاب الدعوة التنازل وإن كان طفيفاً في طرف منها، فكل أطرافها عظيمة عزيمة، دون فرض فيها ونافلة، حيث الكل فرض كوحدة متكاملة متناصرة، لا يجوز الغض عن البعض بغية قبول البعض، أو تصديقهم للبعض، وإلّا فـ ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1] لا نقبل أنصاف حلول وتقسيم البلد بلدين!.

---

(١) سورة الكافرون، الآية: ٦.

وأنت يا حامل الدعوة الأخيرة لست ممن يُستفز عن دعوته، وإنما الشيطان يستفز ويحتنك الغاوين، وأنت أوّل المهتدين والعابدين لكن:

﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾:

﴿وَإِن كَادُواْ﴾ كيداً وقربوا دنوا ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لم يتمكنوا من استفزاز واستخفاف دعوتك ورسالتك ولا طرفاً منها، فيكيدون إذاً كيدهم لاستِفزازك عن أرض الوطن وعاصمة الدعوة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ إخراجاً للدعوة واستفزازاً للرسالة عن عاصمتها ﴿وَإِذًا﴾ حيث يخرجونك ﴿لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ﴾ بعدك وفي خلافك، ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ كما لم يلبثوا إلّا عشراً، وفي خلالها غزوات وانهزامات أم ماذا من معركات!.

ترى ولماذا تأتي مكة هنا في صيغة عامة ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ عله لأنها أصل الأرض حيث مكّت ويكّت من تحتها، ولأنها عاصمة الرسالة الإسلامية فاستفزاز الرسول عنها استفزاز له عن الرسالة كلها، أو أن في تنحية له الرسول عن أرض الوطن العاصمة إلى الغربة النائية عن العاصمة تنحية له عن دعوته ولكن: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[1] مكراً في الحفاظ عليه إذ هو في الغار، ومكراً في إرجاعه إلى مكة بفتح مبين.

ولماذا خلافك، تأتي هنا بمعنى بعدك وخلفك وقد تنافيه فصاحة التعبير؟ لأن ﴿خِلَٰفَكَ﴾ هنا تعني الخلف والخلاف! فهم خلف إخراجك من الأرض لا يلبثونه ولا خلافك إلّا قليلاً، وقد زالت هذه الخلفية بفتح مكة

(١) سورة الأنفال، الآية: ٣٠.

إن رجع إليها فاتحاً، ورجعوا هم عن خلافهم إلى وفاقه طوعاً أو كرهاً، وهذه من الإنباءات الغيبية القرآنية، تبشرة برجوعه إلى العاصمة بعد قليل، وإن المشركين المستفزين سوف يرجعون مسلمين أو مستسلمين!

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾:

سنة إلهية سلبية للرسل على الذين يستفزونهم ليخرجوهم من أرض الدعوة، أنهم لا يلبثون خلافهم إلّا قليلاً، كما حق عليهم في مكة إن رجع إليها محمد ﷺ بعد هجرته منها فاتحاً، وكذلك في المدينة. ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾(١) ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾(٢).

ثم سنة إيجابية لهم أن الله يثبتهم إن كادوا ليفتنوهم عن الذي أوحي إليهم! وهذه السنة لن تتحول في أية رسالة مهما اختلفت عن بعض في درجاتها ومتطلباتها.



(١) سورة الأحزاب، الآيات: ٦٠-٦٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١٧.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ
ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن
يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي
مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ
وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ
وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارٗا ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى
ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسٗا ﴿٨٣﴾ قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ
عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا ﴿٨٤﴾ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ
ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئۡنَا
لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا
رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ
ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ
بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ
فَأَبَىٰٓ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورٗا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا
مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ
ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا
أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي
ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي

هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾:

الصلاة هنا تعني المفروضات اليومية الخمس، فإن دلوك الشمس وغسق الليل والفجر لا تناسب سائر المفروضات كصلاة الآيات والأموات وأضرابها لأنها واجبة بأسبابها دون أوقات لها معينة كهذه! والدلوك في الأصل هو الميل وهو الانخفاض بعد كمال الارتفاع، فهل أن ميل الشمس هنا غروبها؟[١] وليس غروبها ميلَها، بل هو نتاج الميل الأخير لها عن قرصها! ولو عنى بدلوكها غروبها لكان الفصيح الصحيح «لغروب الشمس» لا لدلوكها! أم هو زوالها عن كبد السماء[٢]؟ وهو بداية ميلها لا ميلها كلها! ولو كان فقط زوالها لكان الفصيح الصحيح «من زوالها» لا «لدلوكها» ولا «لزوالها» حيث اللام لا تعني البداية وجاه «إلى» النهاية، وإنما تعني لزام وقت واسع كما بين زوالها وغروبها!..

أم هو ميلها منذ زوالها إلى غروبها؟ ويوافقه مطلق الميل الدلوك حيث يشمل دلوك الزوال ودلوك الغروب وما بينهما، جمعاً لأوقات الظهرين على درجاتها، وملاءمة لصيغة التعبير. «لدلوكها» حيث اللّام لزامٌ والدلوك تعم

---

(١) في مفردات القرآن للراغب ولسان العرب لابن منظور الافريقي أنه غروبها وفي الدر المنثور ٤: ١٩٤ - أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم عن علي ﷺ قال: دلوكها غروبها.

(٢) لسان العرب أنه زوالها...

منذ زوالها إلى غروبها، وهو وقت الظهرين إجزاءً، وبذلك يجمع بين اللغة والرواية المفسرة لدلوكها بزوالها وغروبها، بل هو لغة من لغاتها[١] والسنة القطعية تقول: إنه زوالها[٢] وعلّها تعني مطلق زوالها منذ البداية عن كبد السماء، وحتى النهاية في غروبها من قرصها، وفيما تختص بالزوال الأوّل تعني أوّل وأفضل زوالها:

إذاً فهذه الآية المكية تشمل الصلوات الخمس من بداية زوال الشمس إلى فجرها: فالظهران ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ ولو كان الدلوك خصوص البداية لما شملت العصر، ولا الظهر بعد الظهر، والعشاءان ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ﴾ و﴿وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ فجراً وكما في أحاديثنا.

وغسق الليل غاية ظلامه في منتصفه ومنحدره كما الليل الغاسق هو المظلم، ولأن بداية الليل هي مغرب الشمس دقائق بعد غروبها، ونهايته بدقائق قبل طلوعها ما صدق الليل بداية ونهاية، فمنتصف الليل هو الوسط بينهما، لا بين المغرب وطلوع الفجر، فإنه ليس غسق اللّيل مهما كان وسطاً

---

(١) لسان العرب وروى ابن هانئ عن الأخفش أنه قال: دلوك الشمس من زوالها إلى غروبها. وقال الزجاج: دلوك الشمس زوالها في وقت الظهر وذلك ميلها للغروب وهو دلوكها ايضاً، ومثله قال الزجاج والقفال: أصل الدلوك الميل يقال مالت الشمس للزوال ومالت للغروب ويقال للشمس دالكة إذا زالت نصف النهار وإذا أفلت.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٩٥ - أخرج ابن مردويه عن عمر بن الخطاب عن النبي ﷺ في قوله: «أقم الصلاة لدلوك الشمس قال: لزوال الشمس» أقول: علّه ﷺ يعني مطلق الزوال، وإن كان يعني بداية الزوال في لفظ آخر كما أخرجه ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبرئيل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلّى بي الظهر وأخرج ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يصلي الظهر عند دلوك الشمس وروى الواحدي في البسيط عن جابر أنه قال: طعم عندي رسول الله ﷺ وأصحابه ثم خرجوا حين زالت الشمس فقال النبي ﷺ هذا حين دلكت الشمس» وروي في الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال: أتاني جبرئيل عليهما السلام لدلوك الشمس حين زالت فصلى بي الظهر.

أقول: واتفقت رواية أهل البيت عليهم السلام أيضاً أنه زوالها، كما اتفقت الرواية عن رسول الله ﷺ وما رووه عن علي عليه السلام لا يعني إلا الدلوك الأخير للشمس لا دلوكها كله.

لما يسمى ليلاً شرعياً، وتفسير غسق الليل بمنتصفه في أحاديثه تفسير لغوي دون اصطلاح شرعي خاص[(١)]:

فغسق الليل هو بداية زواله وانحداره كزوال الشمس، كما يروى عن الإمام الصادق عليه السلام في جواب السائل: «زوال الشمس نعرفه بالنهار فكيف لنا بالليل؟ - قال عليه السلام: لليل زوال كزوال الشمس، قال فبأي شيء نعرفه؟ قال. بالنجوم إذا انحدرت»[(٢)] وعن الإمام الباقر عليه السلام: «دلوك الشمس زوالها وغسق الليل بمنزلة الزوال من النهار» إذاً فالأشبه الأقوى اعتبار الغسق وسطاً بين بداية الظلام ونهايتها.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ عطف على الصلاة فتعني: وأقم قرآن الفجر: الفجر الصادق للشمس، لا كاذبه ولا طلوعها، وإنما فجرها حيث يشق ضوءها ظلام الليل فيتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

قرآن الفجر هي صلاته صلاة الصبح حيث تبتدىء من فجر الشمس إلى

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٠٠ ح ٣٧٠ عن تهذيب الأحكام بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال سألته عما فرض الله من الصلاة؟ فقال: خمس صلوات في الليل والنهار فقلت: هل سماهن وبينهن في كتابه؟ فقال: نعم قال الله عز وجل لنبيه: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسرَاء: ٧٨] ودلوكها زوالها ففي ما بين دلوك الشمس إلى غسق الليل أربع صلوات سماهن وبينهن ووقتهن وغسق الليل انتصافه ثم قال: وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً فهذه الخامسة.

أقول: وفي تفسير العياشي يروي زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام تفسير الغسق بالانتصاف، ومثله فيه عن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام.

(٢) وسائل الشيعة باب ٥٥ من أبواب المواقيت ح ١ و(٢) ح ٢.

أقول: وليس انحدار النجوم إلا في غاية الظلام وهي وسط بين غروب الشمس وطلوعها لا فجرها، وكذلك زوال الليل، وليس انحساب بين الطلوعين في باب الصلاة والصوم من النهار دليلاً على كونه منه في كافة الأبواب وحتى فيما يخالف الحس من كون غسق الليل قبل غسقه إذ تحسب نهايته بداية الفجر.

ما قبل طلوعها، وكما صلاة العصر إلى ما قبل غروبها: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾[(١)]:

وكما دلوك الشمس يشمل بين الوقتين كذلك فجرها فإنها تشق وتفجر ظلام الليل شيئاً فشيئاً حتى تطلع فيتم الفجر، فالظهران هما صلاة الدلوك والصبح هي صلاة الفجر حيث يتنفس حتى يزيل آخر رمق من الليل.

ولماذا ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ دون صلاته وجاه الصلوات الأربع ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾؟ تلميحاً لمزيد الأهمية فالاهتمام بصلاة الفجر: إنها قرآن وإن كانت كل صلاة قرآناً واجبة القراءة والمتابعة، إلّا أن قرآنها أهم وأتم من قرآنها، لـ ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ دون سائر القرآن، فمهما تشهد قرآنَ الدلوك ملائكةُ النهار، وتشهد قرآن الليل إلى غسقه ملائكة الليل[(٢)] فقرآن الفجر تشهده ملائكة الليل والنهار، فبين الطلوعين لا هو من

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٩٦ - أخرج عبد الرزاق والبخاري ومسلم وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: تجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر ثم يقول أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] وأخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول وابن جرير والطبراني وابن مردويه عن أبي الدرداء قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ قال: يشهده الله وملائكة الليل وملائكة النهار، أقول: شهادة الله تعمها وسائر الصلوات إلا أن يعنى بها هنا شهادة تخصها بما كرمها وفضّلها على سواها.

ثم أقول: ورواها أئمة أهل البيت عليهم السلام دون خلاف واختلاف كما رواه في الكافي بإسناده عن يزيد بن خليفة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام وبإسناده عن إسحاق بن عمار عنه عليه السلام وبإسناده عن عبد الله بن سليمان العامري عن أبي جعفر الباقر عليه السلام وفي تفسير العياشي عن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عنهما عليهما السلام . . . وفي علل الشرائع بإسناده إلى سعيد بن المسيب قال سألت علي بن الحسين عليه السلام . . . وأقرّ الفجر على ما فرضت بمكة لتعليل عروج ملائكة الليل إلى السماء ولتعجيل ملائكة النهار إلى الأرض فكانت ملائكة النهار وملائكة الليل يشهدون مع رسول الله ﷺ صلاة الفجر فلذلك قال عز وجل: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ يشهده المسلمون ويشهده ملائكة النهار وملائكة الليل. =

ساعات الليل ولا من ساعات النهار، أم هو من ساعات الليل والنهار، ولذلك تجمع لشهودها ملائكة الليل والنهار! وقد تكون صلاة الفجر هي الصلاة الوسطى المأمور بها خاصة في آية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾(١) لأهميتها المصرح بها هنا بين الخمس وأنها الوسطى بين الصلوات الليلية والنهارية، وأنها من الصلاة الوسطى حيث الظهر أيضاً وسطى بين الصلوات النهارية، فلا تعني الوسطى إلّا وقتياً لا في الفضيلة فإنها هنا الكبرى، ولا وقتية وسطى إلّا صلاة الظهر وهي وسطى النهارية، والفجر وهي الوسطى المطلقة بين الليلية والنهارية! كما وإن صلاة الجمعة من الوسطى فإنها مكان الظهر والجمعة هي قلب الأسبوع فهي إذاً وسطى من جهتين.

هنا صرحت بصلاة الفجر وأجملت عن الأربع الأخرى، وفي سائر القرآن تصريحات أو تلميحات بالأخرى إلا المغرب: ﴿. . .مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ. . .﴾(٢) ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾(٣) (٤).

إذاً فصلوات الفجر والظهيرة والعصر والعشاء مذكورة، ثم لا تجد تصريحة بالمغرب اللّهم إلا تلميحة في آية الدلوك، والصلاة الوسطى منها كما بينا هي الفجر ثم الظهيرة - وآية الزلف ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ﴾(٥).

= وفي العلل أيضاً بإسناده إلى الحسن بن عبد الله عن آبائه عن جدّه الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: جاء نفر من اليهود إلى رسول الله ﷺ إلى أن قال: وهي الصلاة التي يشهدها ملائكة الليل وملائكة النهار.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٢) سورة النور، الآية: ٥٨.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٤١.

(٤) نجد التسبيح والدعاء بالعشي والإبكار في ٦: ٥٢ و١٨: ٢٨ و٤٠: ٥٥ - ايضا.

(٥) سورة هود، الآية: ١١٤.

هذه، إلّا أننا لا نجد آية تشمل الخمس إلّا آية الدلوك وإن كانت لا تصرح إلّا بقرآن الفجر، وقد نلمس الفضيلة الكبرى بين الخمس لقرآن الفجر، حيث تختص بالذكر هنا وفي سبع أُخرى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾[1] و﴿صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ﴾[2] والإبكار[3] عدد أبواب الجنة.

ومن ثم الظهيرة فإنها من الصلاة الوسطى، وتلمح لها أو تصرح بها آيات عدة كالدلوك والظهيرة[4].

ثم العصر كما في آية الدلوك وآيتي «قبل غروبها وقبل الغروب» وآيات العشي الخمس، وطرفي النهار.

ثم العشاء كما في آية الدلوك الغسق، وآية العشاء ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ﴾[5] وآيات العشي.

ومن ثم المغرب داخلة في تلميحات كآية الدلوك وزلفاً من الليل: آيات بينات تبين موقف كل صلاة وصلاة تلو الأخرى وكما الروايات على أضوائها.

وقد تدلنا أو تلمح لنا آية قبل طلوع الشمس وقبل غروبها وآيات العشي والإبكار أن الفرض كان في البداية ثنتين: صلاة الفجر والعصر، ثم آية الزلف والظهيرة أنه تحوّل إلى ثلاث أو أربع، ثم آية الدلوك وآية العشاء والظهيرة إلى خمس، وهي مكية فلتكمل الفرائض الخمس في مكة على فترات.

وإذا كان البعض من آيات العشي والإبكار مدنية فقد تعني البعض من

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣٠، وسورة ق، الآية: ٣٩.
(٢) سورة النور، الآية: ٥٨.
(٣) كما في ٣: ٤١ و٦: ٥٢ و١٨: ٢٨ وو ٤٠: ٥٥.
(٤ - ٥) سورة النور، الآية: ٥٨.

المفروضات لا كلها، وإن كانت ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ المكية تعني كلها لمكان القرينة في المدنية دون المكية.

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩)﴾:

الهُجود هو النوم كما الهاجد النائم، والتهجد إزالة النوم كالإطاقة إزالة الطاقة والتمريض إزالة المرض بمراقبة المريض.

ولأن التفعل تكلّف فقد تعني هنا التكلف في التيقُّظ، ومن الصعب التيقظ بعد النوم في بدايته كما يصعب في نهايته أو وسطه هو درجات حسب الصعوبات.

هنا يُؤمر النبي ﷺ شخصياً بالتهجد فاختصاص الأمر به إضافة إلى صيغته يدلان على وجوب ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ و﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ يعني بعضه، اقتسام له إلى ثلاثة أبعاض: فبعض للعشاءين وسائر الحاجيات، ومن ثم النوم بين العشاءين أم بعدهما، ثم التهجد المقدر في أكثره ثلثي الليل وفي أقله ثلثه، وفي متوسطه بنصفه ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤)﴾[(١)] ولأن «من الليل» تعني بعضه المفسَّر في المزَّمل فـ «به» تعني هذا البعض تهجداً به، قياماً في عبادته، صلاةً وقراءة للقرآن أم ماذا؟

ثم ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ حيث تعني زائدة خاصة بالرسول ﷺ صلاة أو طاعة نافلة على فرضه ﷺ دون الأمة في فرض صلاة أم وقراءة، لا زائدة على فرض الأمة حتى تعني مقابل الفريضة، حيث النافلة المستحبة على فرضهم لا يخصه ﷺ! إذاً فهي فريضة زائدة عليه بين سائر المكلفين[(٢)].

---

(١) سورة المزمل، الآيات: ٢-٤.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٠٤ في تهذيب الأحكام بإسناده عن عمار الساباطي قال: كنا جلوساً عند أبي عبد الله عليه السلام فقال له رجل: ما تقول في النوافل؟ =

وهي «له» حيث ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ وإن كانت عليه تكليفاً، ولأنه من أفضل الخاشعين وهو أوّل العابدين فليست العبادة له حملاً وكبيرة ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾.

ولأن الصلاة هي المذكورة مُسبقاً دون القرآن، إذاً فهي ﴿نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ صلاة زائدة لك على فرضك، مهما شملت قراءة القرآن في صلاة وسواها، إلّا أن آيات المزمل بشأن ترتيله في قيام الليل تضم ترتيل القرآن إلى صلاة الليل، قرآن الصلاة أم سواه: ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ كما وأن القرآن هو روح الصلاة!

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا...﴾:

بذلك التهجد الصارم ولأنك أفضل الخلق أجمعين وأنك أوّل العابدين ﴿عَسَىٰ...﴾ فما هو ذلك المقام المحمود؟ هل إنه الرسالة الختمية؟ وقد بعث بها! أم إلقاء قول ثقيل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ...﴾ ﴿إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا﴾[1]؟ وذلك حتمٌ في تلكم الرسالة موعود ﴿سَنُلۡقِي﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ موضع ترجٍ دون حتم! أم إنه العصمة العليا والقمة الأعلى من مقامات الولاية؟ فما هي وأنّى؟! بما أنه لا حمد إلّا لله ولا محمود إلّا الله، اللهم إلّا ما عساه يبعثه الله ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ فليكن قمة في الأولى وأخرى في الأخرى ليست لأحدٍ من العالمين وهي الولاية الكبرى هنا والشفاعة الكبرى هناك، حيث الحمد مطلق، فلتشمل ولايته في الدنيا كل العالمين، أن تشمل شرعته كل العالمين ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ

= فقال: فريضة - قال: ففزعنا وفزع الرجل فقال أبو عبد الله عليه السلام إنما أعني صلاة الليل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩].

وفي الدر المنثور ٤: ١٩٦ عن ابن عباس في قوله: نافلة لك يعني خاصة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم أمر بقيام الليل وكتب عليه وأخرج الطبراني في الأوسط والبيهقي في سننه عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: ثلاث هن علي فرائض وهن لكم سنة: الوتر والسواك وقيام الليل.

(١) سورة المزمل، الآية: ٥.

شَهِيدًا﴾[1] كما وأن ولايته الرسالية تشمل كافة المرسلين ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[2] ثم سلطانه النصير في فتح العاصمة الرسالية بعدما ضاقت عليه بما رحبت وذاق منهم أشد الأذى في العهد المكي والمدني، ومن ثم شفاعته الكبرى التي تشمل كل العالمين، مزيداً على محتد النبيين، وترفيعاً للمؤمنين، وغفراناً للفاسقين، وتخفيفاً عن الكافرين كما تظافرت به الروايات عن النبي ﷺ وعن عترته عليهم السلام.

ولماذا ﴿عَسَىٰ﴾ وليست إلا للترجي والله لا يترجى ما هو باعثه لا سواه؟ . . . إنه ليس ترجياً من الله، فعساه ليس إلا ترجياً لرسول الله، دون تحتم على الله، فالظروف الرسالية هذه، وهجده أم ماذا من لياقته ولباقته، هذه وتلك مواقع لترجي المقام المحمود، الذي يغبطه به الأولون والآخرون.

ولأن ﴿مَقَامًا﴾ مصدر ميمي واسم زمان ومكان، فمقامه المحمود مجموعة من قيامه المحمود، وزمن القيام ومكان القيام المحمود، وقد قام قيامه المحمود في خير مكان «مكة المكرمة» وخير زمان، وكما يقوم في شفاعته يوم القيامة قياماً محموداً في خير زمان وخير مكان، وقد يجمع ذلك كله محتده المحمود في كافة المجالات.

وبعثه ﷺ مقاماً محموداً لا يعني إلّا إرساله استجاشةً ذلك المقام، لا إلى مقام محمود، ولا جعله وإجلاسه مقاماً، خلاف ما يروى شاذاً أنه تعالى «يجلسه معه على السرير»[3] ولا - فقط - إنطاقه بما ينطق «لبيك

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ٨١.
(٣) الدر المنثور ٤: ١٩٨ - أخرج الديلمي عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ في الآية: يجلسني معه على السرير.

وسعديك»[1]: وإن كان هذا من مخلفات مقامه المحمود! ومهما يكن من شيء فالمقام المحمود الذي عساه يبعث إياه أمر مستقبل تتبناه عصمة الرسالة الأخيرة والولاية العامة الإلهية على كونه دائباً قائم الليل سابح النهار سبحاً طويلاً.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾﴾:

وسلطانه النصير هو من مقامه المحمود هنا، كما شفاعته الكبرى من سلطانه النصير هناك! فقد جعل الله له سلطاناً نصيراً في الأولى والأخرى!.

تلك دعاء يحتاجها الرسول ولكي يجتث ويحتاج كل عراقيل الدعوة، يؤمر على طول خط الدعوة الرسالة إدخال صدق وإخراج صدق، وسلطاناً نصيراً حينهما وقبلهما وبعدهما، دعاء مثلثة الزوايا تجمع مجامع الخيرات لصاحب هذه الرسالة السامية.

فالصدق هنا مطلق دون قيد، صدقاً في العلم والايمان، وصدقاً في النية والعمل، تطابقاً في جنباته كلها، دون نفاق وشقاق، ودون أية كذبة ولا نقيراً! صحيح أن على الإنسان أياً كان أن ينتظم دخوله في كل مدخل وخروجه عن كل مخرج بصدق صارم قاطع، ولكنما هناك العراقيل التي تحول دونه وما يريد متغلّبة على ما يريد وإن قليلاً، فليطلب من الله أن يدخله ويخرجه بصدق، عصمة عن المزالِّ وحفاظاً عن الضلال، والعصمة القمة التي ما لها من سباق هي العصمة المحمدية التي يطلها ربّه ليل نهار.

---

(١) المصدر أخرج ابن أبي شيبة والنسائي والبزاز وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه والبيهقي في البعث والخطيب في المتفق والمفترق عن حذيفة قال يجمع الناس في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر حفاة عراة كما خلقوا قياماً لا تكلم نفس إلا بإذنه ينادى يا محمد فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك والشر ليس إليك والمهدي من هديت وعبدك بين يديك وبك وإليك لا ملجأ ولا منجا منك إلّا إليك تباركت وتعاليت سبحانك رب البيت فهذا المقام المحمود.

وإن ذلك استسلام تام للرب تبارك وتعالى، أن يستضيف إلى حوله حول الله، وإلى قوته قوة الله، وإلى إرادته إرادة الله، بل يرى أنه «لا حول ولا قوة إلا بالله» فيجعل نفسه مجالاً لمشيئة الله، فلا يشاء إلّا ما يشاء الله، بعدما يكرِّس كل طاقاته في تحقيق وتطبيق مرضاة الله، لقد كان للرسول خروج عن مكة هجرة إلى المدينة دخولاً فيها، ومن ثم دخول في مكة يوم الفتح ثم خروج عنها منتصراً مظفراً[1]، وبين ذلك دخولات وخروجات في مداخل ومخارج شتى لتحكيم الدعوة وتدعيم الرسالة، وكل ذلك تشمله دعاءه ﴿وَقُل رَّبِّ...﴾ كما أدخله وأخرجه صدقاً. ﴿وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾ سلطاناً من لدن الرب تبارك وتعالى. نصيراً له في دعوته الرسالية العالمية في كل مُدخل ومُخرج وكل مُقام ومَقام[2].

إن السلطان النصير أياً كان يختص بالرسول ﷺ فلا نجد في سائر القرآن سلطاناً نصيراً لمن سواه إلّا سلطاناً مبيناً هو معجزة الرسالة وهي لزام الرسالات كلها، وقد بدأ الرسول بها في قرآنه فإنه أفضل سلطان وأخلده.

ومن سلطانه النصير نظيره ووزيره علي أمير المؤمنين عليه السلام فإنه شاهد لبينة الرسالة حيث يتلوه: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتۡلُوهُ شَاهِدٞ مِّنۡهُ وَمِن قَبۡلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامٗا وَرَحۡمَةًۚ...﴾[3] [4].

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٩٨ - أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن جرير وابن المنذر والطبراني والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل والضياء في المختارة عن ابن عباس قال: كان النبي ﷺ بمكة ثم أمر بالهجرة فأنزل الله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي...﴾ [الإسراء: ٨٠].

(٢) الدر المنثور ٤: ١٩٨ - أخرج الحاكم وصححه والبيهقي في الدلائل عن قتادة في الآية قال: أخرجه الله من مكة مخرج صدق وأدخله المدينة مدخل صدق - قال: وعلم نبي الله ﷺ أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان فسأل سلطاناً نصيراً لكتاب الله تعالى وحدوده وفرائضه وإقامة كتاب الله تعالى فإن السلطان عزة من الله تعالى جعلها بين عباده ولولا ذلك لغار بعضهم على بعض وأكل شديدهم ضعيفهم.

(٣) سورة هود، الآية: ١٧.

(٤) ملحقات الإحقاق. أخرج الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج ١ ص ٣٤٨ ط بيروت =

كما وإن من سلطانه النصير استقامته وهيبته وسيطرته، فقد زوده الله بسلطات ربانية متصلة به ومنفصلة عنه، ولأن هذه الرسالة السامية عالمية خالدة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[١].

ومن سلطانه النصير في آخر الزمن القائم المهدي عليه السلام من عترته المعصومين عليهم السلام: فبه - لا سواه - «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعدما ملئت ظلماً وجوراً»، وفي الحق إن هذه الدولة المباركة هي تحقيقة شاملة وتطبيقة كاملة لرسالته في العالمين، كما تحققت على ضوئها كافة الرسالات الإلهية.

إذاً فهي حُصالة غالية من كل سلطانه النصير، المنقطع النظير في كل سلطان نصير، فإنها انتصارة صارمة لرسالة السماء في الأرض، بعد كل تشرد له بتمرّد مارد من المرسل إليهم طوال التاريخ الرسالي، والآية التالية تبشيرة لطيفة بحق ذلك السلطان النصير:

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾:

أجـــل ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[٢]! ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾[٣].

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ

= بإسناد متصل عن عبد الله بن عباس في الآية قال: والله لقد استجاب الله لنبينا دعاءه فأعطاه علي بن أبي طالب سلطاناً ينصره على أعدائه.

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.

(٣) سورة سبأ، الآيتان: ٤٨، ٤٩.

فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1]! ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[2].

لقد قال الرسول هذه الكلمة الطيبة فيما قال في سلطانه النصير عند ما فتح مكة وأخذ يكسر الأصنام[3] وإذا لم يزهق الباطل في صورته زهاقه في سيرته زمن الرسول ﷺ حتى الآن فسوف يزهق تماماً زمن الدولة المباركة الإسلامية العالمية في قيام الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف، فـ «إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل»[4] فإن للحق دولة وللباطل صولة وجولة، يتنفّخ ويتنفّج ولكنه هشٌّ سريع العطب كشعلة الهشيم!.

وقد كانت هذه الآية مكتوبة على ذراع المهدي عليه السلام الأيمن لما ولد[5]

---

(١) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٢٦.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٩٩ - أخرج ابن أبي شيبة وأبو يعلى وابن المنذر عن جابر رضي الله عنه قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة وحول البيت ثلثمائة وستون صنما فأمر بها رسول الله ﷺ فأكبت لوجهها وقال: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١] وأخرجه مثله الطبراني في الصغير وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس عنه ﷺ وأخرجه ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن مردويه عن ابن مسعود عنه ﷺ بزيادة الآية ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩] ومثله في أمالي الطوسي بإسناده إلى سليمان بن خالد قال حدثنا علي بن موسى عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه قال: وفي كفاية الخصام ٥٣٦ - إن هبل وهو أكبر الأصنام التي كانت على جدران الكعبة إنما نزلها وكسرها علي عليه السلام بأمر النبي ﷺ حين وضع قدمه على ظهره الشريف، رواه أبو بكر الشيرازي في كتاب نزول القرآن في شأن أمير المؤمنين عليه السلام عن قتادة عن ابن المسيب عن أبي هريرة عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: كنا مع رسول الله ﷺ حين دخل الكعبة...

ورواه مثله أبو المؤيد موفق بن أحمد بسنده عن أبي مريم عن علي بن أبي طالب عليه السلام...

(٤) نور الثقلين ٣: ٢١٢ عن روضة الكافي بإسناده عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: إذا قام القائم ذهبت دولة الباطل.

(٥) المصدر ص ٢١٣ ح ٤١٠ في الخرائج والجرائح عن حكيمة في خبر طويل وفيه لما ولد القائم عليه السلام كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ...﴾.

حيث تعني أن مجيء الحق تماماً وزهاق الباطل تماماً ليس إلّا بيمين المهدي عليه السلام لا سواه، مهما بذر بذوره الرسول البشير النذير، حيث بذر بلا أي تبذير:

وفي الحق إن الحق كيانه الانجلاء والقرار، والباطل كيانه الجلاء والاندحار!... والحق وإن كان جائياً قبل ذلك الحق ولكنه لم يكن بالذي لا يُنسخ ولا يُحرَّف، وأما ذلك الحق فكتابه حقٌّ لا ينسخ أو يحرف ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] ورسوله لا يزول فإن رسالته مؤبَّدة، ودولته سوف تفوق الدول وتشمل العالم أجمع، إذاً فـ ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ﴾ نفسه أن يبدأ حياته من جديد ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾[2] ما كانت من حياته البائدة، فلا بدءَ له بعد ولا عود، وإنما هما الآن وعلى مرّ الزمن والأجيال للحق! الحق الخالص الصارم بمن له من أنصار صامدين، ثابت لا حِول عنه، والباطل زاهق مهما كان له من أنصار... فالباطل شجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار حيث لا يطمئن إلى حقيقة مهما تنفّج وتنفّخ فإنه هش سريع العطب... وهو زبدٌ يطفو على الماء ويخيل إلى من غربت عقولهم أنه عال، ولكنه يذهب جفاء ويبقى الماء.

في معترك الحق والباطل، القوة كلها للحق حيث يُضرب على الباطل فيُدمغ ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾[3] ومهما انهزم أهل الحق أحياناً ولكن الحق لا ينهزم ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[4].

إن الحق من الله وهو مع الله ومن ورائه الله، والباطل من الشيطان ومن

(١) سورة فصلت، الآية: ٤٢.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٤.

ورائه الشيطان ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١) ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾(٢)!

الباطل كلما أرعد وأبرق وعربد لا يملك عقولاً صافية وحقولاً ضافية، مهما ملك غاربة من سنخه وفي مجراه، ولكنما الحق يملك عقولاً وتنضج به عقول، مهما عارضه من لا يعقلون! لقد جاء الحق في القرآن (٢٥٤) مرة ولم يجيء الباطل إلّا (٢٦) مرة، ولأن دلائل الحق تحيط بنا وليس للباطل دلائل إلّا زوراً وغروراً! ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾(٣) ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾(٤) ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾(٥)؟ ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾(٦) لذلك ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾(٧):

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ ليحق ويبقى ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ لأن حقه الزهاق ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ﴾ منذ وجد وفي أعماق الزمان والمكان ﴿زَهُوقًا﴾ لإثبات له فلا مساك له ولا سماك لبنائه وإنما يبقى امتحاناً وبلاءً في دار البلاء ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾:

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٢١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٦.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٥٦.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٥) سورة غافر، الآية: ٥.
(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٤.
(٧) سورة المؤمنون، الآية: ٧٠.

القرآن كله شفاءٌ ورحمة للمؤمنين ومزيد خسار للظالمين، ولا تعني ﴿مِنَ﴾ تبعيضاً في القرآن، بل هو بيان لكيان القرآن أياً كان كما ﴿فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾(١) فالرجس هو طبيعة الأوثان، والشفاء والرحمة هما طبيعة القرآن ولكن لمن؟ «للمؤمنين»! أترى إذا اختص القرآن في شفائه ورحمته بالمؤمنين فما بال غيرهم يؤنَّبون ويعذبون ولا يشملهم هدى القرآن؟ رغم إنه ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾(٢)! ثم الشفاء والرحمة حاصلتان للمؤمنين بالإيمان، وغيرهم يحتاجونها حتى يحصل الإيمان! والظلم داءٌ عضالٌ فكيف لا يشفيه القرآن.

«المؤمنين» هناك «المتقين» في ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾(٣) تعني من يبتغي الإيمان أصلاً أو مزيداً، ويتقي خلاف الإيمان أصلاً أو مزيداً، فالكافر أياً كان - إذا فتش عن الإيمان، وكفره قصور وشك مقدس ولمّا يصل إلى برهان الإيمان - هو هنا من «المؤمنين» فإنه: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

وأما المتعنت المتعمد في كفره وظلمه فهو الظالم الذي لا يزيده القرآن إلّا خساراً، وإن كان منسلكاً في سلك المسلمين كالمنافقين، أم والمؤمنين الضعفاء ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾(٥) فالقرآن هو منبع الشفاء والرحمة بجاذب الإيمان ممن نظفت فطرته ولطفت سريرته، وإن لم يصل قبل الإمعان في القرآن إلى واقع الإيمان.

والظالم نفسه والظالم آيات ربه، الذي غربت فطرته لا يزيده هذا القرآن

---

(١) سورة الحج، الآية: ٣٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.
(٥) سورة يوسف، الآية: ١٠٦.

إلّا خساراً ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ﴾[١] ليست الشفاء إلّا عن مرض أياً كان في الروح أم في البدن، ولا الرحمة إلّا مزيد قوة بعد نقاهة، وليستا إلّا للذين يؤمنون: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌۖ﴾[٢] مهما خوطب بهما الناس أجمعون ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[٣] فالشفاء هنا وهناك هي الشفاء، تخلية عن الأمراض، والرحمة هي الموعظة والهدى تحلية وتجلية للأرواح، وهي مزيد سلامة للأبدان! إن القرآن شفاء ورحمة لحد سمي شفاءً ورحمة، شفاء في مثلث الآيات ورحمة في عشرات: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٤] ﴿هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٥] ﴿وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[٦] فـ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ هنا وهناك تلمح إلى معنى «المؤمنين» في آية الشفاء والرحمة، كما بيناه.

فهو ﴿شِفَآءٌ﴾ عن أمراض الفطرة والعقل، ومضايق الصدر وعمى القلب، عن ظلمات الأفكار أم ماذا؟ وعن أمراض الأبدان ما كان لها شفاءً[٧] لمن دخل مستشفى القرآن، فإنه «الشفاء الأشفى»... «من استشفى

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٥٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٥٢.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٣.

(٦) سورة يوسف، الآية: ١١١.

(٧) نور الثقلين ٣: ٣١٣ح ٤١٥ طب الأئمة قال أبو عبد الله عليه السلام: ما اشتكى أحدٌ من المؤمنين شكاية قط وقال بإخلاص نية ومسح موضع العلة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢] إلا عوفي من تلك العلة أية علة كانت ومصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وبإسناده إلى عبد الله بن سنان عن أبي =

به شفاه الله»[١] «شفاء لا تخشى اسقامه»[٢]: «شفاءٌ» ومن ثم «رحمة» فـ «إنه هدى من الضلالة وتبيان من العمى واستقالة من العثرة ونور من الظلمة وضياءٌ من الأحداث وعصمة من الهلكة ورشد من الغواية وبيان من الفتن وبلاغ من الدنيا إلى الآخرة وفيه كمال دينكم»[٣]. «وإنما الشفاء في علم القرآن»[٤] «للأرواح والأبدان، للمؤمنين بدرجاتهم، عالية في أئمة الهدى»[٥] ونازلة لمن ذاق طعماً من الإيمان[٦]، فالشفاء والرحمة لكلٍّ قدر الإيمان ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾[٧]:

﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾﴾:

تنديد بنسيان الإنسان نعمة ربه حين ينعم عليه، ويأسه حين يمسّه الشر «والدهر لك يومان يوم لك ويوم عليك فإذا كان لك فلا تبطر وإذا كان عليك فاصبر فبكلاهما ستختبر» ولكن ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾[٨]!

= عبد الله عليه السلام قال: يا بن سنان لا بأس بالرقية والعوذة والنشرة إذا كانت من القرآن ومن لم يشفه القرآن فلا شفاه الله وهل شيء أبلغ في هذه الأشياء من القرآن أليس الله يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢].

(١) أصول الكافي ج ٢ ص ٦٠٠ عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبة مفصلة حول القرآن راجع ج ٣٠ المقدمة من الفرقان.

(٢) نهج البلاغة الخطبة ١٩٣ ص ٢٠٢ - راجع مقدمة الفرقان ج ٣٠.

(٣) المصدر السابق.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢١٣ في ٤١٢ في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وإنما الشفاء في علم القرآن لقوله: تنزّل من القرآن ما هو شفاء - للناس ورحمة لأهله لا شك فيه ولا مرية وأهله أئمة الهدى الذين قال الله ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر بنفس السند عنه عليه السلام قال: إنما الشفاء في علم القرآن لقوله: ﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] لأهله لا شك فيه ولا مرية اهـ.

(٧) سورة النجم، الآية: ٣٩.

(٨) سورة العلق، الآيتان: ٦، ٧.

فحين يُترك الإنسان بلا شفاء ولا رحمة يعيش دهره خساراً في يوميه: حيث يبطر إذا أنعم الله عليه فاعرض ونأى بجانبه، وييئس حين يمسه الشر، فمن طبيعة النعمة أنها تُطغي وتُبطر ما لم يذكر المنعَم واهبها فيحمد ويشكر، والشر والضر يقنط وييئس ما لم يرجو الله ويأمل، وهنالك تتجلى القيمة القمة لشفاء القرآن ورحمته، أو خساره ونقمته، وكل يعمل على شاكلته.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾﴾:

﴿قُلْ﴾ يا رسول الهدى ﴿كُلٌّ﴾ من المؤمن والظالم ﴿يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ متبنياً كلما يعمله من عمل الإيمان واللّاإيمان على شاكلته الخاصة به ﴿فَرَبُّكُمْ﴾: أنتم العاملون، الخالق المدبر لكم ﴿أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ حيث الرب يعلم عمل المربوب بشاكلته!

ترى وما هي شاكلة كل عامل يتبناها في عمله تقوى أو طغوى؟ مع العلم أنها ليست الشاكلة الصورية؟ الشاكلة صفة لموصوف محذوف فهل هي فطرته؟ وهي لا تختلف فيمن فُطِر عليها! ولا تتخلف عما هي عليها! ولا تَتْبعها الأعمال إلّا لمن لم يُحجب عنها! ثم ولا تكفي حكماً لكل صغيرة وكبيرة، فإن لها أحكاماً عامة يشترك فيها كل المفطورين عليها!

أم هي العقلية والفكرة؟ وهما على اختلافهما بين العاملين، لا تكفيان تبنياً للأعمال، فكثير هؤلاء الذين يعملون أعمالاً خلاف فِكَرهم وعقلياتهم!

أم هي مطلق العقيدة التي تتبناها العقلية والفكرة؟ ورب معتقد بشيء يخالفه في قوله أو عمله أم فيهما؟!

أم هي النية التي تتبنى العقيدة، إن صالحة فصالحة وإن طالحة فطالحة؟ وكأنها هي «فالنية هي العمل» حيث العامل الأخير لكل عمل هو النية التي تستتبع الإرادة ثم العمل!

ثم ترى النية الحاصلة من عقيدة وهي حصيلة العقلية والفكرة، هل تنتهي إلى سجية علينية أو سجينية هي لزام كل إنسان، إذاً فهل الشاكلة

الأصلية لكل عامل، والنية وعواملها هي كلها حصيلة تلك السجية، دون تدخل لإرادة العامل؟ وهو جبر في الأعمال التكليفية ويخالف العقل والنقل وحديث «الشقي من شقي في بطن امه والسعيد من سعد في بطن أمه» مفسراً بعلم الله، فإنه يعلم من سوف يشقى ويسعد وهو في بطن أمه، فليست السجية المسيِّرة هي الشاكلة، وإنما النية الميسرة وهي حصيلة شاكلة العقيدة الحاصلة عن العقلية والفكرة، فإن ابتدأت هذه من الفطرة غير المحجوبة وتمشت مع الوحي أنتجت الأعمال الصالحة، وإن تخلّفت بداية في سيرها أنتجت الطالحة، وإن كانت بين ذلك عواناً خلطت عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

فالنية الصالحة هي التي تنبع من الإيمان وتوافق سنة الله كما يروى: «لا قول إلّا بعمل ولا قول ولا عمل إلّا بالنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بإصابة السنة»[١].

فنية كل إنسان على جذورها وفروعها هي شاكلة الإنسان وماهيته حيث تشاكل عمله ويشاكلها عمله، فإنها حصيلة فعلية لطاقاته الروحية كلها، إذاً فالإنسان هو النية كما «إن النية هي العمل»[٢] فـ «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى» وقد عبرت عنها بالشاكلة لكي تشملها وكل ما تتبناه النية وتتبناها في العمل.

ولأن النية هي النبعة الأصلية فالحق يقال «نية المؤمن خير من عمله ونية الكافر شر من عمله» فللإنسان سبيلان سبيل الهدى وسبيل الردى ﴿فَرَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَنۡ هُوَ أَهۡدَىٰ سَبِيلٗا﴾: شاكلة، فالسبيل هي الطريقة الشاكلة هدًى أو ضلالة، وما العمل إلّا صورة بينّة عن سيرة وسريرة خفية، وهي هي الصورة الانسانية أو البهيمية! كما النية هي شاكلة العمل.

---

(١) الكافي بإسناده إلى الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٤ ح ٢١٧ في أصول الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: النية أفضل من العمل ألا وأن النية هي العمل ثم تلا قوله عزّ وجلّ: ﴿قُلۡ كُلّٞ يَعۡمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]. يعني على نيته.

وليست الجزاء إلّا بالعمل اللّهم إلّا في النية الحسنة ولمّا تصل إلى العمل أم لا يصل عذراً، فلا عقوبة على النية السيئة خلاف ما يروى[(١)] اللهم إلّا على العقائد السيئة فإنها من أعمال القلوب.

ولأن الآية تأتي بعد الإيمان والظلم اللّاإيمان المختلفان فيمن وُجِّه إليهم القرآن، فليكونا عملاً يستتبع الشفاء والرحمة أو الشقاء والخسار والزحمة، عملاً يتبنى السريرة النية.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾﴾:

نجد الروح في سائر القرآن - أي روح كان - تذكر في واحد وعشرين موضعاً، يجمعها معنوياً: ما به الحياة، على مختلف درجات الحياة ومجالاتها، من روح الإنسان: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[(٢)] [(٣)] وروح الإيمان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾[(٤)] وروح الوحي أياً كان: ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[(٥)] ﴿يُنَزِّلُ

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢١٤ ح ٤١٨ علي بن إبراهيم عن أبيه عن القاسم بن محمد عن المنقري عن أحمد بن يونس عن أبي هاشم قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: إنما خلد أهل النار في النار لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو خلدوا فيها أن يعصوا الله أبداً وإنما خلد أهل الجنة في الجنة لأن نياتهم كانت في الدنيا أن لو بقوا فيها أن يطيعوا الله أبداً فبالنيات خلد هؤلاء وهؤلاء ثم تلا قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤].

أقول: قد فصلنا البحث عن الخلود وحدوده في بابه أوائل هذه السورة وفي النبأ، وهنا أقول: ليس المخلدون في النار كلهم على هذه النية ولا المخلدون في الجنة، والآيات الحاصرة الجزاء بالعمل تنافي العقوبة على النية، وأما الثواب على النية فمن فضل الله!.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٩.

(٣) كما وفي: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩، وص: ٧٢].

(٤) سورة المجادلة، الآية: ٢٢.

(٥) سورة غافر، الآية: ١٥.

﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾[١] من كتاب سماوي وروح قدسي وقد يخص روح القرآن والروح القدسي لرسول القرآن: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٢] أم روح القدس بوجه عام: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ...﴾[٣] ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾[٤] والروح المتنزل مع الملائكة ليلة القدر والقائم والعارج معهم يوم القيامة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا...﴾[٥] ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ...﴾[٦] ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ...﴾[٧].

فالروح - إذاً - هو ما به حياة إنسانية - إيمانية - حياة الوحي والروح القدسي، أم حياة منفصلة كالروح الأمين والروح زعيم الملائكة، فالروح القدسي والوحي هما روح الأرواح المتصلة كما الأخيران هما روح الأرواح المنفصلة، مهما كان قبل الخمسة روح النبات وروح الحيوان.

وآية الروح - هذه - أعم آياتها تجرداً عن قيود، وأهمها جواباً عن كيانه أياً كان، فهي الآية الأم دلالة ومدلولاً، وإن كان الروح القدسي وروح القرآن هما القدر المعلوم المتيقن هنا حيث احتفت بـ ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ...﴾ و: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾! ولكنه لا يخص روح القرآن حيث الفصيح إذاً «عن روح القرآن - أو عن وحي القرآن» وإنما عناه كما عنى سائر الأرواح من نباتية وإلى قدسية في القمة، متصلة ومنفصلة!

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ المضارع، رغم مضي السؤال تلمح بالأسئلة المستقبلة

(١) سورة النحل، الآية: ٢.
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) سورة النحل، الآية: ١٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٨٧.
(٥) سورة القدر، الآية: ٤.
(٦) سورة النبأ، الآية: ٣٨.
(٧) سورة المعراج، الآية: ٤.

طول سني الرسالة الإسلامية، إضافة إلى الأسئلة الماضية[1]، من أيٍ كان في أي زمان وعن أيٍ من الأرواح ﴿عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ كجنس يستغرق الأرواح كلها، ومن أية ناحية حول الروح.

فكل سؤال في العهدين: المكي والمدني حول الروح أياً كان في الفترة الرسالية زمن الرسول، وكل سؤال يطرح في عهد الإمامة أو يطرح زمن الغيبة الكبرى وإلى يوم الدين، تشمله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ كما و﴿عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ تشمل الأرواح بجنباتها، أسئلة تضرب إلى أعماق الماضي الرسالي ومستقبله، فليكن الجواب: ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ جواباً عن كل سؤال طُرح أو يُطرح حول أي من الأرواح: هل هي مادية أم مجردة؟ أزلية أم حادثة؟ وعلى حدوثها فمن ذا الذي أحدثها وما هي ذاتها وكُنهها؟

و﴿أَمۡرِ رَبِّي﴾ هو بين الشيء والفعل ومقابل النهي تكوينياً أو تشريعياً، ولا معنى لـ «من شيء ربي»! فهل شيء ذاته؟ فإشراك! أم من شيء غيره؟ فلماذا الشيء بدل الفعل!:

ولا يعني «من فعل ربي» حيث الفعل قد يكون بحاجة إلى تدرّج ومعدات قد لا تحصل وليس هكذا فعل ربي، ولا من أمره التشريعي وإن كان هو الوحي، إذ يصدر بأمر تكويني مهما حمل تشريعاً أم سواه، إذاً فهو

---

(١) الدر المنثور ٤: ١٩٩ - أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن حبان وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن ابن مسعود ﷺ قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في خرب المدينة وهو متكئ على عسيب فمر بقوم من اليهود فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح وقال بعضهم لا تسألوه فسألوه فقالوا: يا محمد! ما الروح؟ فما زال يتوكأ على العسيب وظننت أنه يوحى إليه فأنزل الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ [الإسراء: ٨٥] وأخرجه مثله جماعة من هؤلاء عن ابن عباس عنه ﷺ بزيادة قالوا: أوتينا علماً كثيراً أوتينا التوراة ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً فأنزل الله: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].

الأمر التكويني بمجرد الإرادة بتدرّج أم دون تدرج، فمن أفعاله تعالى ما فيه تدرّج لحكمة تتطلبه كتبديل مادة إلى أخرى، ومنها ما لا تدرُّج فيه كخلق المادة الأولية لا من شيء، ولا يتصور في إبداعها التدرج، وكخلق الروح الانساني إذ يُخلق بعد كمال البدن حصيلةً وسلالةً عن البدن دون تدرج، مهما كان من الأرواح الأخرى ما فيها التدرج كروح القرآن المفصل، وأما روح العصمة القدسية وروح الإيمان فلا تدرج فيها إلّا في مراتبها، و﴿أَمْرِ رَبِّي﴾ الإرادة التكوينية تشمل المتدرجة وغيرها سواء، فبأمره وإرادته تحصل الأرواح نباتية وحيوانية وإنسانية وإيمانية وقدسية متصلة ومنفصلة وروح الوحي، دون أن يكون للخلق شأن فيها إلا ظرفاً يقبل منزلاً لهذا الأمر، دون أن يكون الأمر لزامه إلّا ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾! فالروح أياً كان هو من شؤون ربوبيته الخاصة، مهما كان الجسم متطوراً بفعل الخلق حسب طاقته! وتلكم الأسئلة الأربعة مضروبة في الأرواح السبعة تصبح ثمانية وعشرين سؤالاً ثم و﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ إجابة جازمة عما سوى أسئلة الكنه والذات، ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يعمها وعدم الإجابة عن الذات.

فعن روح القرآن: الوحي - هل إن كلام الله حادث أو قديم؟ إنه ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ وكل أمر ربي حادث فإنَّه فعله دون ذاته وصفاته.

وهل إنه نتيجة تكامل العقل، فهو - إذاً - يوحي إلى صاحبه؟ أم هو عند تمامه وكماله يوحى إليه من ربه، فهو هناك «من أمرنا» وهنا نتيجة حاصلة عن «أمرنا» وفيهما هو من أمر الإنسان مهما اختلفا، والجواب ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ من فعله وإرادته مهما يطلب ظرفاً يناسبه هو كمال العقل وتخلص القلب عن كل كدرة وظلمة، فهو من فضل ربي بداية وعلى كدح مني، ثم ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ نهاية:

ثم وروح الإنسان حادث بإرادة ربي - إذاً - فمادية، حيث الأمر الفعل

من ربي - وهو خلقه - لا يشبهه تجرداً إلهياً، فليس إلّا مادياً مهما كان رقيقاً كأنه تجردي.

الروح مخلوق كما الجسم مخلوق وهما من أصل المادة على اختلافها في الشفافيّة والكُدرة، ولكنما الجسم في غير المادة الأوّلية يُخلق تبدُّلاً على تدرُّج اللّهم إلّا في خوارق العادات كقلب العصى حية تسعى، وأما الروح فهو مخلوق كلمح البصر، اللّهم إلّا في روح الوحي المفصل كتفصيل الكتاب، وسائر الأرواح مخلوقة لمح البصر أو هو أقرب، ولذلك يقيد إلقاءه بـ «من أمره» ووحيه كروح القدس المتصل بقلوب المعصومين «من أمرنا».

لا يعني الأمر في الروح إيجاد المجرد مقابل الخلق إيجاداً للمادة وكما تقوّلوا في ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾[1] فإنه أمر التدبير بعد الخلق، فكما له خلق الكون بروحه وجسمه، كذلك أمر الكون بتدبيره، ويشهد لذلك الآية نفسها ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[2] فإن استواءه على عرش الخلق بروحه وجسمه هو أمر التدبير، فكما له أمر التكوين كذلك له التدبير دونما ندٌّ له في أي الأمرين.

ولو كان الأمر هو إيجاد المجردات لم يخص تدبيره بالأمر في ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[3] ﴿وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾[4] بل عمّه والخلق!.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣١.

ثم ﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ﴾(١) قد يعني أمر القيامة ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾(٢) أم إذا شملت الإرادات التكوينية الإلهية فـ «واحدة» تفسرها على سبيل البدل، فكل خلقٍ لنا واحدٌ حقيقي دونما حاجة إلى معدات مركبات، وإنما كلمة «كن» التكوينية! لنا أدلة من القرآن والسنة والعقل على أن الروح مادية الحدوث والبقاء، فلا هو مجردٌ حدوثاً وبقاءً، ولا مجردٌ بقاءً على ماديته في الحدوث.

وأما القرآن فقد توحي لكون الروح الإنساني من عالم المادة، مهما لطفت لحد لا تبصر ولن - آية الإنشاء: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ۝١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ۝١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ۝١٤﴾(٣).

فـ «الإنسان» لا جسمه فقط أو روحه فقط - تلمح كتصريحه أنه مجموعة الإنسان، وأحرى بروحه أن يعنيه فإنه ما به الإنسان إنسان! هذا الإنسان مخلوق بجزئيه من سلالة من طين كأصل ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ في أنساله، وكما بدأ في أصله الأول آدم ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾(٤) ومفترق الطريق بين الإنسان الأول ونسله ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ﴾(٥) و﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ...﴾ ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ تبييناً لمراتب خلقه التكاملي في جسمه لائحاً، وأما الروح المزيج في أصله مع جسمه فلا يلوح منه شيء حتى الآن وإلى ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾.

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآيات: ١٢ - ١٤.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٨.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٨.

هنا خلقٌ أوّل بجزئيه من طين ثم نطفة فعلقة فمضغة فعظام مجردة، فكسونا العظام لحماً وفي كل هذه المراحل هو في خلقه الأوّل، مهما كان روحه بأجزائه الأولية مندغماً في جسمه ولمّا يظهر ويتبلور بآثاره، فهناك في مراحله الأربع قبل كمال البدن، ليس البدن والروح إلا بالقوة ومع اكتمال البدن يصبح البدن بالفعل والروح فيه بالقوة القريبة إلى الفعل، و﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ إظهارٌ للروح إلى الفعلية! ﴿خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ليس هو الأول وإلّا فلماذا الإنشاء بعد خلقه، ولماذا الآخر بعد وجود الأول! هذا الخلق الآخر ليس هو الأول بعينه، ولكنه من الأول تبديلاً له بعضاً لا كلّاً إلى خلق آخر، حيث البدن الظاهر هو البدن، فليكن الآخر شيئاً منه غير مرئي، كان كالأوّل ثم تبدّل بذلك الإنشاء سلالة لطيفة منه غير مرئية، وكما أنه في جسمه سلالة السلالات، ترى وما هو الدليل أنه منه رغم أنه آخر؟.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا﴾ تصريحة بإنشاء مركب، فلم يقل «ثم أنشأنا له خلقاً آخر» حتى يكون الروح خلقاً آخر يختلف عن البدن تماماً، بانفصالٍ مطلق دون اتصال ذاتي أم ولادي، حتى يحتمل كونه مجرداً عن مادة! ولا أن ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بمعنى خلق البدن كما هو مرة أخرى تحصيلاً للحاصل! وإنما إنشاءٌ للبدن بعد تمامه، خلقاً آخر منه بعضاً لا كلّاً، فالخلق الآخر الروح أو المركب منه والجسم، مُنشأٌ بعد كمال البدن، انتشاءً كسلالة خاصة من البدن، حتى يصح القول ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، فكما البدن هو سلالة السلالات، كذلك الروح سلالة لطيفة من أجزاء بدنية لها صلاحية الإنشاء روحاً دون سواها، ولعله يعنيه الحديث «إنه من الملكوت»: حقيقة غير مرئية وسلالة خفية من الجسم فهو من المُلك والروح من الملكوت! حيث الملكوت هي حقيقة الملك، ومنها ما هي مع الملك كوناً وكياناً، وهو كل خلق لا يُرى ومنه الروح أياً كان، ومنها ما ينفصل عن الملك كوناً وكياناً وهي ما عند الله من حقيقة الإرادة التكوينية ومنها.

فكما تتسلل سلالة من الوردة هي العطر ثم تمزج بالوردة غير المزج الأول، فالعطر كان مع الوردة ما كانت وردة، ثم أخذ عصراً عنها كسلالة، ثم مزج بالوردة، فالعطر أولاً هو الوردة كجزء منها مزيجة، وثانياً هو خلق آخر مزج في الوردة، وهنا يصح القول في عطر الوردة:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ وإن كان بين الوردة وعطرها، والبدن وروحه بون، حيث البدن ظاهراً هو البدن قبل تسلل الروح منه وبعده، دون الوردة! فآية الإنشاء تجعل الروح سلالة لطيفة من البدن بعد اكتماله، كما تجعل النطفة سلالة من طين، وبينهما عوان في السلالات التكاملات، والروح بأصله مخلوق مع سلالة النطفة من طين، ولكنما الفعلية الروحية الحيّة ليست إلّا بعد ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ بتراخٍ كما توحي به ﴿ثُمَّ﴾.

فكما ﴿ثُمَّ﴾ في تسلل النطفة من طين تتطلب تراخياً، كذلك ﴿ثُمَّ﴾ في تسلل الروح من البدن، ومن ثم التكاملات العوان بين ذلك متفرعة على بعض بالفاء، لا للفصل الزمني فحسب، بل والفصل في المكانة، فأين طين ومني يمنى سلالة من طين، ونطفة تجعل في قرار مكين، ومن ثم أين الخلق الأوّل من الإنسان المكتمل في الهيكل البدني وأين الخلق الآخر: روحه المتسلل من ذلك الهيكل؟

ومحتملات إنشاء الروح بعد اكتمال البدن كالتالي:

١ - أنشأه الله لا من شيء كما المادة الأوّلية؟ ولا يناسبه ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾ فإنه إنشاء ثان للبدن، وليس إنشاءً بسيطاً للروح لا من شيء!

٢ - أنشأه الله من شيء غير البدن، مجرداً أم مادةً؟ وكذلك الأمر!

٣ - أنشأه الله من شيء ذاته سبحانه؟ فكذلك! إضافة إلى استحالته الذاتية وأن ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ لا «من شيئه الذاتي»!.

٤ - أنشأه الله من شيء بدنه، إنشاءً مركباً يعني تبديل البدن بعد خلقه الأول خلقاً آخر بتمامه؟ والبدن هو البدن فأين الآخر؟! هكذا ولكنه تبديل

لأجزاء لا نعلمها من البدن إلى روح، ثم نفخه فيه لا ككونه قبل إنشائه الثاني فإنه الخلق الأوّل، وإنما تبديلاً لألطف أجزائه، أم تلطيفاً لما يصلح إنشاءه روحاً، ثم نفخه فيه، فهو الإنسان المنشأ خلقاً آخر حياً يعقل، بعدما أُنشِئَ خلقاً أوّل ميتاً لا يعقل، اللّهم إلّا في حياة نباتية وحيوانية جرثومية هما مع النطفة إلى العظام وكسوها لحماً، فميزة الخلق الآخر ليست بذلك البدن بروحيه حيواناً جرثومياً ونباتياً، وإنما بالروح الإنساني عقلاً والروح الحيواني للإنسان.

هذه آية محكمة بياناً مكيناً متيناً كما نفهم لكيان الروح، أنه مُنشأٌ من البدن بعد اكتماله: فمنفوخ فيه بعد انفصاله، كما تدل عليه آيات النفخ، إذ يتطلب كونه خارج البدن حتى يصح نفخه فيه، وآية الإنشاء تحكم بخلقه من البدن، ونتيجة التجاوب بينا هي إنشاءه من البدن ثم نفخه فيه! هذا ومن ثم آيات النفخ[١] والبعض من روايات الروح «إنه جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً»[٢] «مادته من الدم». . . . «ليس لها ثقل ولا وزن»[٣]: ودليل

---

(١) فالتي تقول: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدَة: ٩] تدلنا على أن الروح تمكن في البدن، لا خارجه ولا دون مكان، والمجرد عن الجسم ليس له مكان، حيث المكان أياً كان محدود والمجرد لا محدود، ثم الروح الماكن في البدن له حدود وأبعاد مثل ما للبدن أم أقل ولا حدود وأبعاد للمجرد عن المادة.

(٢) نور الثقلين ج ٣: ٢١٧ ح ٤٣٣ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: أخبرني عن السراج - إلى قوله -: والروح جسم رقيق قد ألبس قالباً كثيفاً. . . قال: فأين الروح؟ قال: في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث قال: فمن صلب أين روحه؟ قال: في كف الملك الذي قبضها حتى يودعها الأرض، قال: فأخبرني عن الروح أغير الدم؟ قال: نعم الروح على ما وصفت لك مادته من الدم ومن الدم رطوبة الجسم وصفاء اللون وحسن الصوت وكثرة الضحك، فإذا جمد الدم فارق الروح البدن، قال: فهل توصف بخفة وثقل ووزن؟ قال: الروح بمنزلة الريح في الزق إذا نفخت فيه امتلأ الزق منها فلا يزيد في وزن الزق ولوجها فيه ولا ينقصها خروجها منه كذلك الروح ليس لها ثقل ولا وزن».

(٣) المصدر السابق نفسه.

العقل[١] شهود ثلاثة على عدم التجرد المطلق للروح الإنساني، وإنما تجرد نسبي يعني أنه طاقة عاقلة تنبثق من الهيكل الإنساني بعد اكتماله فهو مادي دون تجرد، سلالة من البدن تدبره وهي حياته كسائر الحياة في نشأتي البرزخ والقيامة، ثم لا نجد ولا إشارة أو تلميحة عن عقل أو كتاب أو سنة أنه مجردٌ عن المادة إطلاقاً، بل هو طاقة مادية تساكن بدناً مّا وبها حياته، مادي الولادة، ومادي البقاء، ومادي التعلق في مثلث الحياة:

وترى هل للروح ثقل وأبعاد ولون أم ماذا كما للجسم؟ لا ريب في أن له كل ما للجسم كجسم لا كأجسام خاصة، فالروح تشارك سائر المادة في أصل المادية الطاقة، وتخالفها في الحياة والتعقل أماذا من شؤون فلا هي مادة كسائر المواد، ولا طاقة كسائر الطاقات، بل هي طاقة خاصة حية شاعرة عاقلة، وطبعاً لها أبعاد وثقل وإن لم توزن بما عندنا من ميزان، ولا تُحدُّ بما عندنا من مقياسات، ولأنها لا تُحس ولا تلمس ولا تدرك بالحواس الخمس.

وما في الحديث أن «ليس لها ثقل ولا وزن» نفي لما عندنا من موازين الثقل والوزن، فكما أن الريح في الزق لها وزن، كذلك الروح في الجسم، مهما لم نسطع على وزنه!.

---

(١) المجرد في ذاته غني عن موجِدٍ أو محوِّل ومبدِّل فلا يُخلق وإنما يَخلق، فلو أن الله خلق الروح مجرداً عن المادة، جاز أن يكون هو أيضاً مخلوقاً، وعدم جواز الحدوث لذات الله ليس إلّا لتجرده عن مطلق المادة فأزلي غني عما سواه، فحدوث الروح إذاً يعني كونه مادياً، كما أزليته تعني تجرده، وتجرده يعني أزليته!...

وضرورة مجانسة العلة والمعلول ليست إلا في العلة الوالدة حيث تلد المعلول، إما بتحولها تماماً إلى المعلول أم بعضاً أما ذا، وأما العلة الخالقة فالضرورة فيها عدم المجانسة حتى يمكن إيجادها الشيء لا من شيء، والضابطة القائلة «الفاقد للشيء لا يعطيه» ليست إلا في العلة الوالدة، وأما الضابطة في العلة الخالقة فهي «أن تجد العلة القدرة على إيجاد المعلول لا من شيء أو من شيء هو خلقه» وأما أن تجد ذات المعلول في ذاتها فذلك يحيل خالقيها إلى الوالدية!

وفي حديث مجانسة الروح للريح تصريح أنهما مثلان في الطاقة المادية واللطافة، مهما اختلفا في الطاقة العقلية والحيوية ككل! كما وتؤيده آيات النفخ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾(١) (٢).

فالتجرد المطلق للروح هرطقة مطلقة، أن تكون مجردة الذات ولادة أو بقاء ومجردة التعلق، كذلك وأن الروح هي الهيكل الجسماني أو الدم أم ماذا مما يرى، ويتلوها تجرده في كونه وتعلقه في كيانه، بل هو طاقة عاقلة

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٩.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٦ ح ٤٢٩ في كتاب التوحيد بإسناده إلى عبد الحميد الطائي عن محمد بن مسلم قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحِجر: ٢٩] كيف هذا النفخ؟ فقال: إن الروح متحرك كالريح وإنما سمي روحاً لأنه اشتق اسمه من الريح وإنما أخرجت على لفظ الروح لأن الروح مجانس للريح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه اصطفاها على سائر الأرواح. كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال: «بيتي» وقال لرسول من الرسل: «خليلي» وأشباه ذلك وكل ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبر.

وفيه ح (٢٣٤) في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده عن محمد بن علي الثاني (الإمام الجواد عليه السلام) قال: أقبل أمير المؤمنين ذات يوم ومعه الحسن بن علي وسلمان الفارسي وأمير المؤمنين عليه السلام شك على يد سلمان فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجل حسن الهيئة واللباس فسلم على أمير المؤمنين عليه السلام فرد عليه السلام فجلس ثم قال: يا أمير المؤمنين عليه السلام! أسألك مسائل إلى أن قال في جواب السؤال: أخبرني عن الرجل إذا نام أين تذهب روحه -؟ والمكلف في الجواب الحسن عليه السلام: أما ما سألت عنه من أمر الإنسان إذا نام أين تذهب روحه؟ فإن روحه معلقة بالريح والريح معلقة في الهوى إلى وقت ما يتحرك صاحبها لليقظة فإذا أذن الله برد تلك الروح على صاحبها جذبت تلك الروح الريح وجذبت تلك الريح الهوى فرجعت الروح فأسكنت في بدن صاحبها وإن لم يأذن الله عز وجل برد تلك الروح على صاحبها جذب الهوى الريح وجذبت الروح فلم ترد إلى صاحبها إلّا إلى وقت ما يبعث...».

وفي الاحتجاج للطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل وفيه قال السائل: فأخبرني ما جوهر الريح؟ قال: الريح هواءٌ إذا تحرك سمي ريحاً فإذا سكن سمي هواء وبه قوام الدنيا ولو كفت الريح ثلاثة أيام لفسد كل شيء على وجه الأرض ونتن وذلك أن الريح بمنزلة المروحة تذب وتدفع الفساد عن كل شيء وتطيبه فهي بمنزلة الروح إذا خرج عن البدن نتن وتغير تبارك الله أحسن الخالقين».

متسللة عن البدن، يدبر البدن ولا يعيش إلّا في بدن أياً كان من الثلاثة، اللّهم إلّا أرواح عالية لا تحتاج إلى بدن إلّا تجربة وامتحاناً.

و﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ بيان لكيان الروح أنه من فعل الله وإرادته في كلمة التكوين «كن» فهو حادث دون تجرد مطلق، وأما ما هي حقيقته وملكوته فلا جواب إلّا أنه «من الملكوت» فليس الروح إذاً تجردي الحدوث والبقاء، ولا مادي الحدوث تجردي البقاء ولا عكسه بل هو مادي الحدوث والبقاء[1].

فالقول أن لا جواب في الآية إلّا اللّاجواب، فلأنكم ما أوتيتم من العلم إلّا قليلاً، إذ لا تتحملونه إلّا قليلاً فلا جواب إذاً عن الروح، إنه ليس في شيء من الصواب، فاللّاجواب يكفيه ﴿مَآ أُوتِيتُم﴾ و﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ جواب، حيث ينفي كونه أمراً مستقلاً دون الرب فأزلياً مجرداً، أم حادثاً بغير أمر الرب!.

كما القول: إنها جواب بتجرد الروح، حيث الأمر يقابل الخلق، كما ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾[2] فالأمر هو كلمة «كن» في إيجاد المجردات دون تدرج، والخلق في إيجاد الماديات بتدرج... ذلك أيضاً تأويل عليل خال عن الدليل.

فالقرآن يعبر عن كل حادث بالخلق ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾[3]

---

(١) في الاحتمال الثاني وعكسه تناقض، فمادية الحدوث تجعل كيانه طاقة مادية سلالة عن البدن، فكيف إذا بالإمكان انتقاله عن ماديته إلى تجرد، تحولاً لنقيض إلى نقيض آخر، أم ولأقل تقدير الآن المشترك بين المادية والتجرد وهو أن التحول هو مجمع النقيضين، فمهما تكامل الروح ولا يصل إلى حد التجرد وإنما يرقّ ويتلطف أكثر مما كان تقدماً في العلم والمعرفة دون طفرة وقفزة من نقيض إلى نقيض!.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢.

فهل الروح لا شيء، أم شيءٌ أزلي إلهي، أم شيءٌ حادث، والشيئية الحادثة مخلوقة دونما استثناء: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾﴾[(١)] ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾[(٢)] فكلُّ شيء مخلوق لله، وما أمره في خلق كلّ شيء إلّا واحدة. إرادة واحدة - كلمح بالبصر[(٣)] خلاف كل آمر ومريد سوى الله، حيث يحتاج في تحقيق مراده إلى مقدمات قد لا يقدر عليها، أو تحتاج إلى مضي زمن أم ماذا، ولكن الله ليس أمره إذا يأمر إلّا واحدة. إرادة واحدة لكل وحدة خلقية، دون حاجة إلى معدات أخرى.

ف ﴿أَمْرِ رَبِّي﴾ يعني فيما يعني: أن الروح «خلق من خلق الله، وأنه يزيد في الخلق ما يشاء»[(٤)].

وآية الخلق والأمر لا تعني إلا إيجاد الكون وتدبيره أنهما من الله، لا أنه الخالق والمدبر غيره، أو أنه المدبر والخالق غيره وكما تبينه الآية نفسها.

فعالم الخلق هو الإرادة التكوينية لأي شيء مكوَّن، وعالم الأمر هو الإرادة التدبيرية لأي مكون، دون تفلت وتخلف هنا وهناك.

إن تفسير الأمر بإيجاد المجردات تنافي اللغة والآيات، فالأمر شيء وفعل ومقابل النهي، ف ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ لا يعني أنه من شيء ربي، إنه جزء من الشيئية الربوبية، وإنما من فعل ربي وإرادته، كما أن العالم كله

(١) سورة الأنعام، الآيتان: ١٠١، ١٠٢.
(٢) سورة القمر، الآيتان: ٤٩، ٥٠.
(٣) راجع ج ٢٧ تفسير الآية ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠].
(٤) نور الثقلين ٣: ٢١٥ ح ٤٢٥ في تفسير العياشي عن زرارة قال سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: خلق...

من فعله وإرادته، سواء كان متدرج الكون أم دفعي الكون، فالمادة الأولية دفعية الوجود، وغير الأولية منها دفعية ومنها تدريجية، وتفسير الأمر التكوين لله بأنه كلمح البصر أو أقرب لا يعني إيجاد المجردات، وإنما الإيجاد أي إيجاد، فلا تدرج في حصول مرادات الله، مهما نرى تدرجاً في خلق الله! فـ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

هنا ملكٌ وهنالك ملكوت، والمُلك هو الظاهر من كل شيء، والملكوت هي حقيقة ملكه وتعلقه بالله وهي كلمة «كن» التكوينية، فكما أن لكل شيءٍ مُلكاً كذلك له ملكوت، ملكه ظاهر وملكوته باطن: أو أن الكون ينقسم إلى ملك هو الظاهر كالجسم، وإلى ملكوت هو الباطن كالروح.

أم أن المعنيين هما معنيان فالروح من عالم الملكوت أياً كان، ولها ملكوت هو حقيقة التعلق بالله.

وهنا ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ تفسير «من روحي» في آياتها[2] أن «من» هنالك نشوية لا جنسية، فليست الروح جزءاً من ذات الرب ولا متولدة منها إذ ليس للرب روح وجسم حتى يكون الروح من روحه، وإنما ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾: فعله وإنشاءه!

هذا روح الإنسان ومن ثم روح الإيمان[3] فإن كَتْبه وتأييده من الله مهما

---

(١) سورة يس، الآيتان: ٨٢، ٨٣.

(٢) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ [السّجدة: ٩] ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩] (٣٨: ٧٢) و(١٥: ٢٩) ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النّساء: ١٧١]. فالروح أياً كان هو من أمر الرب وليس من ذاته.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢١٦ و٤٢٦ تفسير العياشي حمران عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليه السلام عن قوله: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ [الإسراء: ٨٥] قالا: إن الله تبارك وتعالى أحد صمد والصمد الشيء الذي ليس له جوف، فإنما الروح خلق من خلقه بصر وقوة وتأييد يجعله في قلوب المؤمنين والرسل.

=

كانت عقيدته وعمله في البداية من الإنسان: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾.

كذلك وروح العصمة القدسية[١] وروح الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾[٢] ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ﴾[٣] ﴿يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ ٱلتَّلَاقِ﴾[٤] [٥].

وكذلك الروح الأمين ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ١٩٤﴾[٦] وهو روح القدس ﴿قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ﴾[٧] ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا﴾[٨] ومن ثم «الروح» زعيم الملائكة وليس منهم: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾[٩] ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗاۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَقَالَ صَوَابٗا﴾[١٠] ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ﴾[١١]. وكل هذه ﴿مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾.

= وفيه عن أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي أيوب الخزاز عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل لم يكن مع أحد ممن مضى غير محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو مع الأئمة يسددهم وليس كلما طلب وجد.

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢. (٣) سورة النحل، الآية: ٢.

(٤) سورة غافر، الآية: ١٥.

(٥) راجع لتفصيل آخر عن الروحين وسواهما إلى سورة الشورى عند الآية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢] وكذلك سورة القدر.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان: ١٩٣، ١٩٤.

(٧) سورة النحل، الآية: ١٠٢. (٨) سورة مريم، الآية: ١٧.

(٩) سورة القدر، الآية: ٤.

(١٠) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

(١١) سورة المعارج، الآية: ٤.

ففي وحي الرسالة المحمدية يتنزل الروح الأمين من أمر الله بأمر الله، وعلى روح الرسول الأمين من أمر الله بأمر الله، بالروح القدسي الرسالي من أمر الله بأمر الله، وبالروح الوحي القرآني من أمر الله بأمر الله، أرواح أربع كلها «من أمر ربي وبأمر ربي» كوناً وكياناً ونزولاً ونازلاً ومنزلاً:

فالروح القدسي الرسالي المحمدي بوحيها هي روح الأرواح كلها، وسائر الأرواح أبدان لها، من سفلي هو روح الإنسان ومن علوي هو روح الرسالات غيرها وبينهما متوسطات عوانٌ.

تلكم الروح القدسية في محمد ﷺ والمحمديين من عترته أعظم من جبريل وميكال ومن الروح زعيم الملائكة وهي كسائر الأرواح من أمر الله دون سواه.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

هنا مثلث من الاحتمالات في مخاطب ﴿وَمَآ أُوتِيتُم﴾ أنهم هم المشركون أم السائلون عن الروح أم العقلاء أجمع، ثم العلم قد يعني العلم المطلق، وأخرى مطلق العلم وحياً أو سواه. وثالثة العلم بحقائق الأشياء، ثم قليلاً قد يعني قليلاً من العلم وأخرى قليلاً منكم، فمجموعة المحتملات ثمانية عشر، قد تعنيها الآية كلها، على مراتبها في درجاتها أدبياً ومعنوياً! وقد تصدق بعضها روائياً.

فهم «الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم فوصفوا ربهم بأدنى الأمثال وشبهوه بالمشابهة فيما جهلوا به فلذلك قال ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فليس له شبه ولا مثل ولا عدل»[1] فتعالى أن تكون الروح شيئاً من ذاته المقدسة كما يهرفه الخارقون ويكذبه العارفون.

---

(١) نور الثقلين ح ٤٣٩ كتاب التوحيد بإسناده إلى حنان بن سدير عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه «ووصف الذين لم يؤتوا من الله فوائد العلم منهم».

وهم الخلق أجمعون فـ «لم يؤت من العلم إلّا أناس يسير فقال ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[(١)].

فـ ﴿قَلِيلًا﴾ من العلم قلة في قلة أوتيها العالمون أجمع مهما كان نصيب أصحاب الوحي على مراتبهم أوفر ثم من يليهم، و«قليل» أوتوا قلة واحدة هي «من العلم المطلق» هم رجالات الوحي وأضرابهم، إذ لم يؤتوا على عُلّاتهم إلّا قليلاً من علم الغيب، مهما كان كثيراً وجاه الآخرين، فإنه قليل وجاه رب العالمين «وما أوتيتم كثير فيكم قليل عند الله»[(٢)].

فأين هذه القلة القليلة من العلم والنيل من حقيقة الروح كما الله يعلم، وقد يعلم من حقيقتها أولياءه الخصوص بعضاً لا كلّاً، حيث العلم المطلق بحقيقة شيء هو القدرة المطلقة على إبداعها، و﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾[(٣)]؟ ثم لا يعلم هذه القلة سائر الخلق، وإنما يعلمون بما أوحى الله مثلثاً من علم الروح كما تفيده ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ حدوثاً ومادية في كونه وأنه ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ في كيانه.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢١٩ ح ٤٣٨ تفسير العياشي عن عمرو بن شمر عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥] قال: تفسيرها في الباطن أنه لم يؤت العلم إلا أناس يسير فقال: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ «منكم» أقول وقليلاً في نصبها استثناء عن العلم ورفعها استثناء عن ضمير الجمع في ﴿مَآ أُوتِيتُمْ﴾ [آل عِمرَان: ٧٣] ويجوز أن يرادا معاً واللفظ منصوب لرجاحة احتماله على الآخر.

(٢) المصدر ح ٤٣٧ تفسير القمي أن اليهود سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن الروح فقال: ﴿ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء: ٨٥] قالوا: نحن خاصة؟ قال: بل الناس عامة، قالوا: فكيف يجتمع هذان يا محمد! تزعم أنك لم تؤت من العلم إلا قليلاً ولقد أوتيت القرآن وأوتينا التوراة وقد قرأت ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] وهي التوراة ﴿فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة: ٢٦٩] فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ [لقمَان: ٢٧] يقول: علم الله أكبر من ذلك وما أوتيتم كثير فيكم قليل عند الله.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.

فإذ لا علم بالروح إلا قليلاً للأقلين ثم القليلين فبأحرى لا طاقة لخلقه وتحصيله لأحد من العالمين! فما الروح أياً كان ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾! ويروى «لقد قبض الرسول ﷺ وما يعلم الروح»[1] بحقيقته أياً كان، اللّهم إلّا قليلاً، وله في وحيه مثلث الروح: منزلاً هو روح العصمة في قلبه، ومنزلاً به هو روح القدس جبريل أم الروح عظيم الملائكة، ونازلاً هو روح الوحي قرآناً وسواه من وحي.

وكمثال على عدم استقلاله ﷺ على مكانته العليا، في تحصيل الروح أياً كان، من وحي وروح العصمة القدسية، يتهدده ربّه خطاباً بإياك أعني واسمعي يا جارة، أن ليس الوحي ومثيله حصيلة كمال العقل ونبوغه (وحي العقل) ولا أن ذلك علة تامة في حصوله لكي تقتضي بقاءه على أية حال، وإنما هو أمر من أمر الرب يهبه لمن يشاء ويصرفه عمن يشاء: ولئن...

﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾﴾:

لو أن هذه الروح أو تلك كان من أمرك ككل أمر منك، فلا تذهب إذاً عنك، حيث الاستقلال في الحصول على شيء يمنع الاستغلال في الذهاب به دون خيره المستقل - رغم أننا ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ من روح قدسية ومن وحي...

لقد شاء الله أن يحتبس الوحي عن رسوله لفترة قصيرة لحِكَم شتى، منها التبيين أنه من أمر الله لا من أمره دون وذع ولا قلى: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾[2]... ولئن شاء لذهب بكل الذي أوحى إليه من روح النبوة والوحي ولكنه لا يشاء حيث اصطفاه برسالته على علم.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٠٠ - أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن بريدة قال.
(٢) سورة الضحى، الآية: ٣.

فربه هو يُقرئه وحيه وهو الذي يبقيه ولا ينسيه ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾[(١)] وهو الذي يسدده دوماً حتى لا يكاد يركن إلى غيره ولو شيئاً قليلاً ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ إذا فـ ﴿ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ لا أمري فضلاً عن غيري!.

إن الروح الأمين هو من أمره وينزِّل بالروح إليك من أمره، فليس هنا وهناك في أمر الوحي إلّا أمره لا سواه.

إنه تعالى لا يريد ولن أن يذهب بالذي أوحى إليه «وقد يعلم ما لا يريده أبداً»[(٢)] «وإن كان قادراً على ما لا يريده أبداً»[(٣)].

وفيما لو ذهب بالذي أوحي إليه من روح النبوة أو روح الوحي ﴿لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾ توكله أو يتوكل عنك في استرجاعه ﴿إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ﴾ هي الوكيل لك لا سواها فـ «إن الله غالب على أمره» والروح من أمره! ﴿إِنَّ فَضۡلَهُۥ كَانَ عَلَيۡكَ كَبِيرٗا﴾ كما استمر في وحيه عليك بعد انقطاعه ردحاً من الزمن دون ودع ولا قلى.

(١) سورة الأعلى، الآية: ٦.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢١٩ ح ٤٤٠ في عيون الأخبار في باب مجلس الرضا عليه السلام مع سليمان المروزي حديث طويل وفيه قال الرضا عليه السلام: يا جاهل فإذا علم الشيء فقد أراده؟ قال سليمان: أجل - قال: فإذا لم يرده لم يعلمه؟ قال سليمان: أجل، قال: من أين قلت ذاك وما الدليل أن إرادته علمه وقد يعلم ما لا يريده أبداً وذلك قوله: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] فهو يعلم كيف يذهب ولا يذهب به أبداً؟ قال سليمان: لأنه قد فرغ من الأمر فليس يزيد فيه شيئاً، قال الرضا عليه السلام: هذا قول اليهود فكيف قال: ادعوني أستجب لكم قال سليمان: إنما عنى بذلك أنه قادر عليه، قال: أفيعد ما لا يفي به؟ قال: ﴿يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ﴾ [فاطر: ١] وقال عزّ وجلّ: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٣٩] وقد فرغ من الأمر؟ فلم يحر جواباً وفي كتاب التوحيد مثله سواء.

(٣) المصدر ح ٤٤١ في كتاب الاجتماع للطبرسي عن الرضا عليه السلام حديث طويل وفي آخره قال سليمان: إن الإرادة هي القدرة، قال الرضا عليه السلام وهو يقدر على ما لا يريد أبداً لا بد من ذلك لأنه قال تبارك وتعالى: ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الإسراء: ٨٦] فلو كانت الإرادة هي القدرة كان قد أراد أن يذهب به بقدرته، فانقطع سليمان...

وأما انقطاعه لوذعٍ أو قلى حيث هما في خيانة الرسالة لا سواها: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾[(١)] فإنه انقطاع دائب لا رجوع فيه ولا رحمة تعتريه: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[(٢)]...!

ولكنه ليس بالذي يخون في رسالته أو يزيغ[(٣)] أو يخطر بخلده، وليس الله ليبعث من يخون.

وحين يتهدد ربُّنا رسوله بذهاب ما أوحى إليه لو زاغ، فهل يشمل ذلك التهديد الأمة الإسلامية أن يذهب بالقرآن من بينهم وحتى من صدورهم إذا خانوا وزاغوا وكما يروى عن النبي ﷺ: «يُدرس الإسلام كما يُدرس وشي الثوب حتى لا يُدرى ما صيام ولا صدقة ولا نسك، ويُسرى على كتاب الله في ليلة فلا يبقى في الأرض منه آية ويبقى الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله. فنحن نقولها»[(٤)]. أو يأتي

---

(١) سورة الحاقة، الآية: ٤٤.

(٢) سورة الحاقة، الآيات: ٤٥-٤٧.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٠٠ - أخرج الحكيم الترمذي عن ابن عباس قال لما قدم وفد اليمن على رسول الله ﷺ فقالوا: أبيت اللعن؟ فقال رسول الله ﷺ: سبحان الله إنما يقال هذا للملك ولست ملكاً أنا محمد بن عبد الله! فقالوا: إنا لا ندعوك باسمك - قال: فإنا أبو القاسم، فقالوا: يا أبا القاسم إنا قد خبأنا لك خبيئاً - فقال: سبحان الله إنما يفعل هذا بالكاهن والكاهن والمكتهن والكهانة في النار فقال أحدهم فمن يشهد لك أنك رسول الله فضرب بيده إلى حفنته حصاً فأخذها فقال: هذا يشهد أني رسول الله، فسبَّحن في يده فقلن نشهد أنك رسول الله فقالوا: أسمعنا بعض ما أنزل عليك فقرأ والصافات صفاً حتى انتهى إلى قوله: فأتبعه شهاب ثاقب، فإنه لساكن ما ينبض منه عرق وأن دموعه لتسبقه إلى لحيته فقالوا: إنا نراك تبكي أمن خوف الذي بعثك تبكي؟ قال: بل من خوف الذي بعثني أبكي، إنه بعثني على طريق مثل حد السيف إن زغت عنه هلكت ثم قرأ ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦].

(٤) المصدر ١ - ٢ - أخرج الحاكم وصححه البيهقي عن حذيفة قال قال رسول الله ﷺ...

«على الناس زمان يرسل إلى القرآن ويرفع من الأرض»[١] أو «ينسج من القلوب والمصاحف»[٢] «فيصبح الناس ليس في الأرض ولا في جوف مسلم منه آية»[٣] أو «لا تقوم الساعة حتى يرفع الذكر والقرآن»[٤].

وترى ما هو الذنب الذي به يرفع القرآن؟ هل هو الكتب التي يكتبونها مع كتاب الله[٥] ومؤيد القرآن منه وشارحه من سنة أم ماذا يسانده، ومخالفه منه يعرض على الحائط وكما في أحاديث العرض، اللهم إلّا أن يُعنى الكتب التي تجعل القرآن منسياً!

أم إن رفعه يعني رفع علومه وتطبيق أحكامه؟[٦] وهو واقع في أمة اتخذت هذا القرآن مهجوراً، وقد يعنيه انسباخه عن القلوب حيث تنقلب عنه وعن المصاحف حين تهجر تفقهاً وتعلماً أم وقراءة.

وفي الحق أن القرآن منذ بعيد زمن منسبخ مرفوع عن أرض الإسلام وعن القلوب وحتى عن الحوزات العلمية، فدَرسه مندرس، وآياته لا تدرس، ومن أقبل إلى درسه يُرفض أو يتهم بالجهالة والباطلة وإلا فلماذا القرآن؟

---

(١) المصدر أخرج ابن عدي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ...

(٢) المصدر - أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن معاذ بن جبل قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: أطيعوني ما دمت بين أظهركم فإذا ذهبت فعليكم بكتاب الله أحلوا حلاله وحرموا حرامه فإنه سيأتي على الناس زمان...

(٣) المصدر - أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والديلمي عن حذيفة وأبي هريرة قالا قال رسول الله ﷺ يسري على كتاب الله ليلاً فيصبح.

(٤) المصدر أخرج ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ لا تقوم الساعة.

(٥) المصدر أخرج ابن مردويه عن ابن عباس وابن عمر قالا خطب رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس ما هذه الكتب التي بلغني أنكم تكتبونها مع كتاب الله يوشك أن يغضب الله لكتابه فيسري عليه ليلاً لا يترك في قلب ولا ورق منه حرفاً إلا ذهب به فقيل: يا رسول الله ﷺ فكيف بالمؤمنين والمؤمنات؟ قال: من أراد الله به خيراً أبقى في قلبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الصّافات: ٣٥].

(٦) كما أخرجه محمد بن نصر عن الليث بن سعد قال: إنما يرفع القرآن حين يقبل الناس على الكتب ويكتبون عليها ويتركون القرآن.

وهنالك كتب علمية عميقة هي التي تشكل علوم الحوزات وتنصب أعلامها! كما يهرفه الهارفون! وأما أن يرفع القرآن عن بكرته. فلا يوجد لمتحري الحق، فهذا رفع للحجة عن المؤمنين به والكافرين، وثم إذا استحق العصاة رفعه فما ذنب المؤمنين ألّا يبقى لهم منه إلّا ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؟! ولا تتهدد الآية برفع القرآن إلّا الرسول تدليلاً على أن الروح: القرآن وسواه، إنما هو من أمر الله لا سواه، وفي التي تتهدد الرسول أخذاً باليمين لو تقول على الله بعض الأقاويل، تدليل على عصمة القرآن وأنه حجة بالغة على المكلفين، ثم لا تجد تصريحة ولا تلويحة تهدد العصاة برفع القرآن. إلّا أن هذه الشفاء والرحمة للمؤمنين لا تزيد الظالمين إلّا خساراً، ومن ثم فالفضل الكبير للرسول هو للمؤمنين دونما انقطاع: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾[1] أو يُعقل انقسام القرآن في كونه بين المؤمنين فكائن وبين غير المؤمنين فغير كائن، اللهم إلّا في شفائه ورحمته.

ذلك الروح القرآن كسواه من أرواح ﴿مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ لا سواه، فلو تعاضد الإنس والجن - وأنت معهم دون وحي - لن يأتوا بمثل هذا القرآن! كما لن يحيط بعلمه روحاً ظاهرة كالقرآن أم خفية كروح الإنسان أو القدسي الرسالي أم ماذا؟:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[2]:

والمثل المتحدى فيه ليس فقط القرآن كله، وإن كان أعضله، بل وبأبعاضه ما يسمى قرآناً كسورة مثل الكوثر، أم وآية تامة، حيث الآية الإلهية

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٤٧.

(٢) راجع تفسير الآية ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا...﴾ [البَقَرَة: ٢٣] في البقرة. تجد فيه بحثاً مفصلاً عن إعجاز القرآن.

هي الدالة بنفسها على أنها إلهية، وكل جملة من القرآن آية فالتحدي بإتيان المثل تشمله كما تشمل سورة وعشراً وإلى كله.

كما المماثلة المتحدى فيها تعم جانبي اللفظ والمعنى، فإنه القرآن فيهما، وليس كلهم عرباً يتحدون به لفظياً!.

وطالما حاول الناكرون أن يأتوا بمثله فرجعوا خاسرين، ﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ بعض من الإنس مع إنسه[(١)]، وبعض من الجن مع جنه، أم إنس مع جن، ولو تظاهروا طول الزمان وعرض المكان، ولو كرسوا طاقاتهم كلها ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ أفليس إذاً الروح القرآن من أمر الله لا سواه[(٢)].

وقد تلمح الآية بإمكانية اجتماع الإنس والجن، وإن أحالت أن يأتوا بنتيجة الاجتماع بمثله، فلو استحال الاجتماع لم يكن هناك تحدٍّ، وإنما تحيل ما بالإمكان توفر وسائله لا المستحيل بداية ونهاية! وترى هذا الإنس عرفنا عيّهم عن الإتيان بمثله حتى الآن، فكيف لنا التعرف إلى عي الجن في هكذا إتيان؟.

---

(١) نور الثقلين ٣: ٣٢٠ ح ٤٤٤ في الخرائج والجرائح في أعلام أبي عبد الله عليه السلام أن ابن أبي العوجاء وثلاثة نفر من الدهرية اتفقوا على أن يعارض كل واحد منهم ربع القرآن وكانوا بمكة وعاهدوا على أن يجيئوا بمعارضة في العام القابل فلما حال الحول واجتمعوا في مقام إبراهيم قال أحدهم: إني لما رأيت قوله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هُود: ٤٤] كنفت عن المعارضة، وقال الآخر: وكذا أنا لما وجدت قوله: فلما استيأسوا منه خلصوا نجيًّا «أيست من المعارضة، وكانوا يسترون ذلك إذ مر عليهم الصادق عليه السلام فالتفت إليهم وقرأ عليهم ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ [الإسرَاء: ٨٨] فبهتوا.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٠٣ - أخرج ابن إسحاق وابن جرير ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمود بن سيحان ونعيمان بن اصماد ومجزئ بن عمرو سلام ابن مشكم فقالوا: يا محمد! هذا الذي جئت به حق من عند الله فإنا لا نراه متناسقاً كما تتناسق التوراة فقال لهم: أما والله لتعرفون أنه من عند الله قالوا: إنا نجيئك بمثل ما تأتي به فأنزل الله: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ﴾ [الإسرَاء: ٨٨] الآية.

نقول: لأن الإنسان مخلوق في أحسن تقويم فلا أحسن منه أياً كان، فعدم إتيانه بمثله دليل على عدم الإتيان ممن في مستواه، فضلاً عن الجان الذي هو أدنى من الإنسان! ثم لو كان للجن مثله لعارضوا القرآن بواسطة إخوانهم من الإنس ولمّا ولن! ثم والحكمة الهداية الإلهية قاضية أن لو كان بإمكان الجن الإتيان بمثله لوجب إظهاره للإنسان كما للجان حتى يتبين التدجيل في هذا القيل، ولمّا ولن!

إن معجزة القرآن كافية لكل إنس وجان في أي حقل من الحقول وأي عقل من العقول لمن ألقى السمع وهو شهيد ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾﴾[1] والشهادة الإلهية ظاهرة في آياته، باهرة في بيناته، دون حاجة ضرورية إلى غيرها وهم يطالبون الرسول غيرها وهو دونها خلواً من الخلود في حجتها، أم خلواً من حجة:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾:

التصريف هو التكرار والمثل هو مواصفة المقصود بما يمثله ويُقرّبه من الأفهام، والله يكرر الأمثال في ضربها دون تضارب، يضرب الأمثال تصريفاً لمزيد الانتباه، دون إبقاء على مَثَل لتمثيل الحق المرام تقريباً للأفهام إلّا وهو ضاربها مصرِّفاً إياها ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾: كفراناً بالأمثال وكفراً بالممثلات ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾! والأكثرية الكفور في مثلث الكفران بعد إيمان في ترك من شروط الإيمان، أم نكران بعد إيقان ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[2] وهو أعمق الكفر، أم تباعد عن آيات الإيمان كمن ﴿جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ٥١، ٥٢.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.

ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ﴾[١] كيلا يثبت لهم الحق مخافة أن يؤمنوا به وهو أحمق الكفر ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ عن اتجاه إلى الحقائق القرآنية بأمثالها ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ في زاوية من هذه الثلاث:

هكذا قصّروا في إدراكهم فقصرت عن التطلع إلى آفاق الإعجاز القرآنية تعنداً وتعنتاً. فأخذوا يتطلبون خوارق مادية في حسبانهم، متعنتين في اقتراحاتهم بكل طفولة ما لا يعنيهم. أم ويغويهم، أو يتبجحون في ذات الألوهية دون أدب ولا تحرُّج، لم ينفعهم أو يكفهم تصريف القرآن من كل الأمثال -:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾:

أربعة عشر شخصاً من صناديد قريش يطالبون الرسول ﷺ بسبع من المعجزات في زعمهم[٢]. بعد معجزة القرآن - وإن هي إلا هرطقات هارفة،

---

(١) سورة نوح، الآية: ٧.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٠٣ - أخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان بن حرب ورجلاً من بني عبد الدار وأبا البختري أخا بني أسد والأسود بن عبد المطلب وزمعة بن الأسود والوليد بن المغيرة وأبا جهل بن هشام وعبد الله بن أمية وأمية بن خلف والعاص بن وائل ونبيهاً ومنبهاً ابني الحجاج السهميين اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة فقال بعضهم لبعض ابعثوا إلى محمد وكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه فبعثوا إليه أن أُشراف قومك قد اجتمعوا إليك ليكلموك فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً وهو يظن أنهم قد بدا لهم في أمره بدء وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم ويعز عليه عَنَتهُم حتى جلس إليهم فقالوا يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذرك وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء وعبت الدين=

خلواً عن أية حجة لو جاءَ بها، أم فيها حجة ضئيلة أمام القرآن، هؤلاء الجهنميون يتطلبون في تعنت وتزمت هذه السبعة من أبواب الجحيم، والقرآن فاتح للعالمين أبواب الجنة والنعيم!

وفي الحق أن هؤلاء الحماقى الطغاة ما تطلّبوا هذه السبعة وأضرابها طلباً للحجة ووصولاً إلى المحجة، وإنما إفحاماً على الرسول فيما تعنتوا حيث يقول قادتهم «لقد استفحم أمر محمد وعظم خطبه فتعالوا نبدأ بتقريعه وتبكيته وتوبيخه والاحتجاج عليه وإبطال ما جاء به ليهون خطبه على أصحابه ويصغر قدره فلعله ينزع عما هو فيه من غيِّه وباطله وتمرده وطغيانه، فإن انتهى وإلّا عاملناه بالسيف الباتر»[1].

= وسفهت الأحلام وشتمت الآلهة وفرقت الجماعة فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا وإن تريد ملكاً ملكناك علينا وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رؤيا تراه قد غلب عليك وكانوا يسمعون النابع من الجن الرئي فربما كان ذلك بذلنا أموالنا في طلب الطلب حتى نبرئك منه أو نعذر فيك فقال رسول الله ﷺ . ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا فيئكم ولا الملك عليكم ولكن بعثني الله إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظُّكم في الدنيا والآخرة وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم -: أقول: ولما وصل أمره معه إلى هنا اقترحوا عليه مطاليب لهم مادية تحسبوها معجزات، تذكر الآيات أمهاتها السبع كالسبع أبواب الجحيم.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٢١ ح ٤٤٦ في كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري عليه السلام قال: قلت لأبي علي بن محمد عليه السلام هل كان رسول الله ﷺ يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: مراراً كثيرة - إن رسول الله ﷺ كان قاعداً ذات يوم بمكة بفضاء الكعبة إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش منهم الوليد بن المغيرة المخزومي وأبو البختري بن هشام وأبو جهل بن هشام والعاص بن وائل السهمي وعبد الله بن أمية المخزومي وكان معهم جمع ممن يليهم كثير ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه يقرأ عليهم كتاب الله ويؤدي إليهم عن الله أمره ونهيه فقال المشركون بعضهم لبعض: لقد استفحم أمر محمد. . . قال أبو جهل: فمن الذي يلي كلامه ومجادلته؟ قال عبد الله بن أمية المخزومي، أنا إلى ذلك، أما ترضاني له قرناً حسيباً ومجادلاً كفياً؟ قال أبو جهل: بلى - فاتوه بأجمعهم فابتدأ عبد الله=

١ - ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠﴾:

باب أولى من سبعهم «تفجير ينبوع لهم من الأرض»... و«لن» تصريحة قاطعة منهم أن إيمانهم للرسول مستحيل على ضوء القرآن العظيم وهو الشهيد الكافي إلهياً على رسالته، فاستحالة الإيمان على هذه الأضواء والبصائر الكافية لمتحري الحق تحيله في تحقيق متطلباتهم لو أمكنت وصلحت أكثر من بصائر القرآن! فلو أن الشمس لا تضيء لهم عن ظلماتهم، فهل أن القمر وأخفى منه نوراً أو ما لا نور له، هل أن هذه تضيء لهم؟

إنهم في قولة ﴿لَن﴾ أحالوا إيمانهم له على أية حال، فلو لم يكن في متطلباتهم محال، أم استجيبوا في التي تمكن على أية حال، ما كانوا ليؤمنوا كما بدأوا به المقال ﴿وَقَالُواْ لَن...﴾!

إذاً فإجابتهم في هذه السبع غلطة رسالية فيما أمكنت، إغراءً بجهلهم في غير الخارقة المعجزة، وإبقاءً على كفرهم في إجابة الخارقة حيث هي أدنى من معجزة القرآن التي أحالوا إيمانهم على ضوئه... ومن ثم يبقى

= ابن أمية المخزومي فقال: يا محمد! لقد ادعيت دعوى عظيمة وقلت مقالاً هائلاً! زعمت أنك رسول رب العالمين وما ينبغي لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا يأكل كما نأكل ويمشي في الأسواق كما نمشي، فهذا ملك الروم وهذا ملك الفرس لا يبعثان رسولاً إلا كثير مال عظيم حال له قصور ودور وفساطيط وخيام وعبيد وخدام، ورب العالمين فوق هؤلاء كلهم فهم عبيده، ولو كنت نبياً لكان معك ملك يصدقك ونشاهده، بل لو أراد الله أن يبعث إلينا لكان إنما يبعث إلينا ملكاً لا بشراً مثلنا، ما أنت يا محمد إلا مسحور ولست بنبي.

فقال رسول الله ﷺ: هل بقي من كلامك شيء؟ قال: بلى - لو أراد الله أن يبعث إلينا رسولاً لبعث أجل من فيما بيننا مالاً وأحسنه حالاً، فهلا نزل هذا القرآن الذي تزعم أن الله أنزله عليك وابتعثك به رسولاً على رجل من القريتين عظيم: أما الوليد بن المغيرة بمكة وأما عروة بن مسعود الثقفي بالطائف؟ فقال رسول الله ﷺ: هل بقي من كلامك شيء يا عبد الله؟ فقال: بلى: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا...

المستحيل رادعاً عن إيمانهم حيث الإجابة فيه مستحيلة، حتى ولو استجيبوا في ممكناته خارقة وغير خارقة.

إذاً فهذه السبع في مجموعاتها هرطقات هراءٌ وربنا في رسالته منها براءٌ! حيث تركوا وتغافلوا عن آماد بعيدة من معجزة القرآن الخالدة، وأخلدوا إلى أهوائهم المتطفلة الباردة المباردة، طلباً لآجن ماجن[١] بعدما أضاء عليهم معجز ماكن.

ترى وما هو المعني من تفجر الأرض ينبوعاً؟ أينبوعاً بمكة هذه، فإنها ذات أحجار وعرة وجبال، تكسح أرضها وتحفرها وتجري منها العيون فإننا إلى ذلك محتاجون»؟

فإنك سألت هذا وأنت جاهل بدلائل الله، لو فعلت هذا كنت من أجل هذا نبياً؟ لا! - أرأيت الطائف التي لك فيها بساتين، أما كان هناك مواضع فاسدة صعبة أصلحتها وذللتها وكسحتها وأجريت فيها عيوناً استنبطتها؟

بلى! وهل لك فيها نظراء؟ بلى!... فصرت بذلك أنت وهم أنبياء؟

لا!... فكذلك لا يصير هذا حجة لمحمد ﷺ لو فعلت على نبوته، فما هو إلّا كقولك: لن نؤمن لك حتى تقوم وتمشي على الأرض أو حتى تأكل الطعام كما يأكل الناس![٢].

---

(١) فإنك اقترحت على محمد رسول الله أشياء: منها ما لو جاءك به لم يكن برهاناً لنبوته ورسول الله يرتفع من أن يغتنم جهل الجاهلين ويحتج عليهم بما لا حجة فيه. ومنها ما لو جاءك به لكان معه هلاكك. وإنما يوفى بالحجج والبراهين ليلزم عباد الله الإيمان بها لا ليهلكوا بها، فإنما اقترحت هلاكك ورب العالمين أرحم بعباده وأعلم بمصالحهم من أن يهلكهم كما يقترحون، ومنها المحال الذي لا يصح ولا يجوز كونه ورسول رب العالمين يعرفك ذلك ويقطع معاذيرك ويضيق عليك سبيل مخالفته ويلجئك بحجج الله إلى تصديقه حتى لا يكون لك عنه محيد ولا محيص، ومنها ما قد اعترفت على نفسك أنك فيه معاند متمرد لا تقبل حجة ولا تصغي إلى برهان ومن كان كذلك فدواؤه عذاب النار النازل من سمائه أو في حميمه أو بسيوف أوليائه.

(٢) من حجج الرسول ﷺ في هذه المناظرة الطويلة البالغة.

فتفجير الأرض ينبوعاً، إظهاراً لما خفي تحته من ماءٍ لا يحتاج إلى معجزة رسالية، وإنما عمارة أرضية، أم هندسة تحت الأرضية، أفكل معمار أو مهندس - إذاً - هو من الأنبياء؟.

وإذا يعنى منه تفجراً بتفجّر الإرادة الخارقة، دون أية وسائل ظاهرية، فترى أن تفجر القلوب الميتة بمياه المعرفة القرآنية أرقى خارقة وأنبل، أم تفجر الأرض بهذه المياه؟ و«لن» البادئة في هذه الاقتراحات تحيل الإيمان ولو فجرت الأرض كما تطلبون، حيث أحلتم الإيمان بالقرآن لنبي القرآن وهو أهم المعجزات وأتمها!.

إن التفجر الأول من فعلي ولا حجة فيه، والثاني من فعل ربي ولا تؤمنون به حيث «لن» فيه، أحرى منها في حجة القرآن ألّا تصدِّقوها!

٢ - ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾﴾:

فإن كان كالأول فكالأول، أو كالثاني فكالثاني!... «أو ليس لأصحابك ولك جنان من نخيل وعنب بالطائف فتأكلون وتطعمون منها وتفجرون الأنهار خلالها تفجيراً؟ أفصرتم أنبياء بهذا؟ لا! فما بال اقتراحكم على رسول الله ﷺ أشياء لو كانت كما تقترحون لما دلت على صدقه، بل لو تعاطاها لدل تعاطيها على كذبه لأنه يحتج بما لا حجة فيه ويختدع الضعفاء عن عقولهم وأديانهم، ورسول رب العالمين يجل ويرتفع عن هذا»![1].

٣ - ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا...﴾:

في قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾[2] (فإن في

---

(١) من حججه ﷺ في نفس المناظرة.

(٢) سورة الطور، الآية: ٤٤.

سقوط السماء عليكم هلاككم وموتكم، فإنما تريد بهذا من رسول الله أن تهلك ورسول رب العالمين أرحم من ذلك، لا يهلكك ولكنه يقيم عليك حجج الله، وليس حجج الله لنبيه وحده على حسب اقتراح عباده لأن العباد جهال بما يجوز من الصلاح وما لا يجوز منه ومن الفساد، وقد يختلف اقتراحهم ويتضاد حتى يستحيل وقوعه والله لا يجيء تدبيره على ما يلزمه بالمحال..

وهل رأيت يا عبد الله طبيباً كان دواؤه للمرضى على حسب اقتراحهم وإنما يفعل به ما يعلم صلاحه فيه، أحبه العليل أو كرهه، فأنتم المرضى والله طبيبكم فإن أنفذتم لدوائه شفاكم وإن تمردتم أسقمكم -.

وبعد فمتى رأيت يا عبد الله مدعي حق من قبل رجل أوجب عليه حاكم من حكامهم فيما مضى بيّنه على دعواه على حسب اقتراح المدعى عليه؟ إذاً ما كانت تثبت لأحد على أحد دعوى ولا حق، ولا كان بين ظالم ومظلوم ولا بين صادق وكاذب فرق.

٤ - ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾:

يقابلوننا ونعاينهم! فإن هذا من المحال الذي لا خفاء به، لأن ربنا عَزَّوَجَلَّ ليس كالمخلوقين يجيء ويذهب ويتحرك ويقابل حتى يؤتى به، فقد سألتم بهذا المحال الذي دعوتم إليه صفة أصنامكم الضعيفة المنقوصة التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنكم شيئاً ولا عن أحد - يا عبد الله! أو ليس لك ضياع وجنان بالطائف وعقار بمكة وقوّام عليها؟ بلى! أفتشاهد جميع أحوالها بنفسك أو بسفراء بينك وبين معامليك؟

بسفراء! أرأيت لو قال معاملوك وأكرتك وخَدَمك لسفرائك لا نصدقكم في هذه السفارة إلّا أن تأتوا بعبد الله بن أبي أمية نشاهده فنسمع منه ما تقولون عنه شفاهاً كنت تسوِّغهم هذا؟ أو كان يجوز لهم عند ذلك؟

لا! - فما الذي يجب على سفرائك؟ أليس أن يأتوهم عنك بعلامة صحيحة تدلهم على صدقهم يجب عليهم أن يصدقهم؟ بلى! - أرأيت سفيرك لو أنه لمّا سمع منهم عاد إليك وقال: قم معي فإنهم اقترحوا عليّ مجيئك معي أيكون لك أن تقول له: إنما أنت رسول مبشر وآمر؟ بلى! فكيف صرت تقترح على رسول رب العالمين ما لا تسوّغ لأكرتك ومعامليك أن يقترحوه على رسولك إليهم، وكيف أردت من رسول رب العالمين أن يستندم إلى ربه بأن يأمر عليه وينهى وأنت لا تسوغ مثل هذا على رسولك إلى أكرتك وقوامك؟ هذه حجة قاطعة لإبطال كل ما ذكرته في كل ما اقترحته يا عبد الله!

٥ - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾:

وهو الذهب «أما بلغك أن لعظيم مصر بيوتاً؟ بلى! أفصار بذلك نبياً؟ لا! فكذلك لا توجب بمحمد ﷺ لو كانت له نبوة، ومحمد لا يغتنم جهلك بحجج الله - أم تعني تكوّن بيت من زخرف دون أسباب ظاهرية؟ فالرسول لا يبيت في بيت من زخرف! ولو كان له لم تكونوا لتؤمنوا إذ لم تؤمنوا ﴿وَلَن﴾ بآية القرآن وهي أكبر الآيات وأتمها، ثم لا تقف اقتراحاتكم لحدٍّ!

٦ - ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ﴾:

٧ - ﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ...﴾:

يا عبد الله! الصعود إلى السماء أصعب من النزول منها، وإذا اعترفت على نفسك أنك لا تؤمن إذا صعدت فكذلك حكم النزول ثم قلت ﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ﴾ من بعد ذلك، ثم لا أدري أؤمن بك أو لا أؤمن، فإنك يا عبد الله! مقر أنك تعاند حجج الله عليك، فلا دواء لك إلّا تأديبه على يد أوليائه البشر أو ملائكته الزبانية، وقد أنزل الله عليّ حكمة جامعة لبطلان كل ما اقترحه:

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾: ما أبعد ربي عن أن يفعل الأشياء على ما يقترحه الجهال بما يجوز وبما لا يجوز، و﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ لا يلزمني إلّا إقامة حجة الله التي أعطاني، فليس لي أن آمر على ربي ولا أنهى ولا أشير فأكون كالرسول الذي بعثه ملك إلى قوم مخالفيه فرجع إليه يأمره أن يفعل بهم ما اقترحوه عليه[١].

وثم إذا رقى في السماء بمحاولة بشرية أو معجزة إلهية فهل أن الله في السماء حتى تنزل منه كتاباً يقرؤونه؟ ومجرد الرقي إليها دون وسائل آية إلهية لا تفسح مجالاً لتنزل كتاب يقرؤونه! فهل من خط الله فيصدقونه، وكيف هم عارفون خطه؟ وهل هو كخط البشر فما هي ميزته التي تجعله خط الله، وإن لا فكيف يقرؤونه، وهنالك خطه التكويني «رقيه في السماء» لو رقى يقرأ وليسوا بمصدقيه، وهناك خطة التدويني «القرآن» وفيه الكفاية معجزة كاملة تقرأ ولا يصدقونه، ومن ثم لو نزل بخط من السماء يقرؤونه فكيف يعرفون أنه نزل من السماء ولم يأخذه معه في رقيه؟

الرسول هنا يؤمر أن يغلق الأبواب السبعة من جحيم المعارضات بكلمة مُخْتصرة محتصرة تحوي كل هذه التفاصيل ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟

﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أن يغريكم بجهلكم مواضع الحجة فيحتج بما لا حجة فيه، أم فيه حجة الإهلاك، أم هو من المحال، أم جائز فيه حجة أدنى من حجة القرآن، واستحالة الإيمان فيها أقوى منها في القرآن، ثم لا تقف هذه المقترحات لحدٍّ! ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ والخارقة ليست من صنع الرسول، إنما هي من أمر الله وفق تقديره وحكمته، ولا أن طلبها من شأن

(١) هذه الحجج كلها نقلها عن كتاب الاحتجاج للطبرسي عن أبي محمد الحسن العسكري عن أبيه علي بن محمد عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

الرسول فإن الله يعلم بماذا يرسل رسوله حتى تصدّق رسالته، فشأن الرسالة وأدبها يمنعانه أن يفعل ما يقترحون، أو يسأل ربه بما يقترحون.

إنني بشر ولست إلهاً، رسول من الله ولست إلهاً، وسبحان ربي أن يتخلى في إرساله عن ألوهيته، وسبحانه أن يتابع اقتراحات عباده أو رسوله فيها سبحانه سبحانه هل كنت إلا بشراً رسولاً؟

وأنتم تطلبون مني أن أفعل هذه الخارقات أم غيرها من محالات أم سِواها، وي كأنني إله أقدر على ما تطلبون، وهم لم يطلبوا إلّا منه، لا أن يطالب ربه[1] أو أنني فوق الإله أتحكَّم عليه ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾ ويكأن الله وملائكته تحت إمرتي، إن لو أمكن إتيانهم فأنا الآتي بهم دون استدعاء! فلا أن بشريتي تقتضي هذه أو تلك ولا رسالتي، حيث الرسول مؤَمَّر وليس آمراً، رسول فليس مرسلاً لمن أرسله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ...﴾! ولا تقتضي الرسالة إلا حمل آيتين من آيات الله: آية الوحي، والآية التي تثبت الوحي، آية ظاهرة تدل على آية غير ظاهرة، ثم لا يرسل بآية أخرى إلّا إذا اقتضت الضرورة الرسالية، فضلاً أن يأتي هو بآية أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً! ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ لا شأن لبشر إلّا كسائر البشر، ولا لرسول إلّا حمل ما حمّل من رسالة، لا تقلُّد القدرة الغيبية المطلقة ذاتياً ولا رسالياً، ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾ من ربّاني عبودية ورسالة، من أن أكون له شريكاً، أو أن أكون له رباً فأتحكم عليه، وعليه إجابتي! ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾؟ جواباً جامعاً يستأصل متطلباتهم الخاوية كلها!.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾:

(١) حيث قالوا: حتى تفجر... فتفجر خلالها... ترقى في السماء.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ﴾(١) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾(٢) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾(٣).

فلأنهم لم يدركوا قيمة البشر وأنه في أحسن تقويم، فاستكثروا على بشر أن يكون رسولاً إلى بشر! وهذه سنة الله الدائبة التي لا تتبدل: ضرورة المجانسة بين الرسول والمرسل إليهم، إتماماً للحجة وقطعاً للمعاذير، فهي رحمة ومِنَّة إلهية أن بعث الله إلى البشر بشراً كما إلى الجن جناً أم من ذا؟ ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾(٤). فإنما رسول الإنسان إنسان ورسول الجان جان كما رسول الملك ملك.

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾:

ومع غض النظر عن ضرورة المجانسة فالملك الرسول إلى بشر يجب أن يباشر البشر، والملك على كونه ملكاً لا يُرى فالواجب إذاً أن يظهر بمظهر البشر، فأنتم ترونه بشراً وليس ببشر! فماذا أفادكم هذا المظهر إلّا ضرراً في عدم المجانسة: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾(٥) فعادت النتيجة إلى ضرورة المجانسة رؤية وإتماماً للحجة.

وترى هذه ضرورة، فلماذا الجن يرسل له بشر، أليس محمد ﷺ رسولاً إلى الجن والبشر وسواهما من العاملين؟

إن رسالة الرسول إلى غير بشر ثانوية وبواسطة غير بشر، فكما أن

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.
(٢) سورة القمر، الآية: ٢٤.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٩.

الرسول إلى الرسول البشر ملك لا بشر، كذلك الرسول إلى رسول الجن بشر، كما الآيات في الجن والحاقة تحقق هذه الرسالة: إن رسل الجن مرسلون من جانب الرسول محمد ﷺ، وإن لم يكونوا رسل الوحي حيث انقطع به الوحي، ولكنهم قبل الرسالة المحمدية كأن يوحى إليهم على هامش الوحي إلى بشر!.

إن رسالة ملك إلى جن قد تصح وتصلح لولا مانع عدم المجانسة[1] أم أن الملك يرسل إلى رسول الجن كما إلى رسول الإنس، اللهم إلا في الرسالة الإسلامية!.

وقد تلمح الآية أن الحياة المطمئنة الأرضية تتطلب رسالة سماوية، فـ ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ اطمئناناً في مشيهم بقاء عليها لا نزولاً مؤقتاً لإبلاغ أمركما في رسل الوحي أم من ذا؟ واطمئناناً على الحياة الأرضية، فهناك ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لا من نفس الأرض ﴿مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ولكنما الماشون المطمئنون في الأرض ليسوا ملائكة، إنما هم إنس وجان، فليبعث إليهم بشرٌ رسولاً، مهما يتلقى هو وحيه من ملك رسول.

هنا لك فرق بين الرسول إلى الرسل، وإلى سائر المكلفين، فالمجانسة لازمة في الرسالة الثانية دون الأولى، ولتتم حجة الرسالة ويعيش المرسل إليهم رسولهم لكي يستطيعوا التلقي عنه دون وحي، بل برؤية وسماع[2].

---

(١) فالرسول الأول إنما هو حامل رسالة كالبريد دون أي مزيد من إنذار وتبشير فلا ضرورة ولا رجاحة في مجانسته للمرسل إليهم الرسل، ولكن الرسول الثاني بشير ونذير وحجة في رسالته بتطبيقه ما أرسل به ولا تطبيق على الرسول الأول إلا في الواجبات الأولية لاختلاف الجنس. فالملائكة لهم عقل بلا شهوة، والإنس والجن يجمعانهما فالتكليف إذاً غير التكليف إلا ما يعم عامة العالمين.

(٢) ولكن «رسلٌ مِنكُمْ» تصريحة أو تلميحة أن المجانسة بينهما رحمة ومنة إلهية، وما يرويه =

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

= العياشي في تفسيره عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] قالوا: إن الجن كانوا في الأرض قبلنا فبعث الله إليهم ملكاً، فلو أراد الله أن يبعث إلينا لبعث ملكاً من الملائكة وهو قول الله: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤].

هذه الرواية لا تدل على عدم المجانسة إلا قبل هذا النسل الإنساني أن بعث ملك إلى جن، ولكنه من كلام هؤلاء الناكرين ينقله عنهم الإمام عليه السلام وجوابه أولاً ألا دليل عليه ولو كان فرسالة الملك إلى رسول الجن لا إلى المرسل إليهم.

ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾﴾:

إنه لا بد من شهادة إلهية لإثبات رسالة إلهية، ولا تخلو عن إحدى زوايا ثلاث:

١ - أن يريهم الله نفسه ليشهد برسالة رسوله ﴿أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾؟ وهذه المقابلة مستحيلة حتى للرسل أنفسهم!

٢ - أم يوحي إليهم فيشهد كما يوحي إلى الرسل؟ ولو كانوا يستحقون وحياً لما احتاجوا إلى رسل! ولا تنحصر الشهادة الإلهية بوحي! فهل أن دلالة الكون الحادث على المكوّن المحدث هي دلالة الوحي، أم دلالة الفطرة والعقل بمساندة الحس، فهلا تكفي هذه الشهادة الإلهية على حدوث الكون إلّا أن يظهر الله بنفسه أو يوحي بهذه الشهادة؟!

٣ - أن يشهد لرسالة بأفعال تخصه دون سواه، حيث الأفعال الخاصة الإلهية باهرة لا تخفى على ذي حجى! ثم قد تكون هذه الشهادة حسية بآيات حسية عابرة كسائر المعجزات المحسوسة كشق البحر والقمر أم ماذا، وهي

آيات غير خالدة لا تناسب بوحدتها شريعة خالدة! أم شهادة علمية - عقلية - فطرية - فكرية، لفظية - معنوية أماهيه والقرآن يجمعها كلها وهذه شهادة الله الكافية بين محمد ﷺ وبين العالمين: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ ماذا تكفيهم وتغنيهم من شهادة خالدة تعيشهم وتعيشهم عبر الأجيال والزمن، ولا يزداد في خلوده إلّا ظهوراً وبهوراً كلما تقدمت العقول والعلوم في كافة الحقول.

فتلك إذاً شهادة إلهية خالدة كافية تعم الشهادات كلها وتطم، وسائر الشهادات هامشية تعبِّد الطريق لهذه الشهادة الكبرى: ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ...﴾[(١)] ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[(٢)] ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[(٣)].

إن القرآن هو أكبر الشهادات الإلهية لهذه الرسالة السامية، ثم الرسول نفسه، ثم كتابات الوحي المبشرة برسالته، ثم صنيعه وفصيله علي عليه السلام فهو إذاً في مربع من الشهادات متصلة ومنفصلة: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[(٤)].

ف ﴿بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ هو قرآنه ونفسه المقدسة و﴿شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ علي عليه السلام ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ كأم الكتابات الرسالية قبل القرآن.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٦٦.
(٣) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٤) سورة هود، الآية: ١٧.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ هداية ثانية بعد الأولى، فمن يتقبل هدى الله دلالة واستدلالاً يهديه الله إيصالاً إلى حق الهدى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾(١) ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾(٢) ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ حيث لا يضل بعد هدى الله.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ حيث لم يتقبل الهداية الأولى فعارضها وأنكرها، فإنه يُحرم بعد عن هذه الهداية الأولى ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾(٣) إذاً ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ﴾ يهدونه، إذ لا هادي ولا ضال إلّا الله ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾(٤) كلٌّ بما قدمه المهتدي والضال من هدى أولى أو ضلال!: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾(٥) ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ﴾(٦) ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ﴾(٧)!.

ولأن الناس يحشرون كما عاشوا فليحشر هؤلاء العمي البكم الصم ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ كما عموا تعامياً عن بصائر الله، وأبكموا خرساً لا يتكلمون عن آيات الله، وإنما لإبطالها وفصلها عن عباد الله، وصموا عن الاستماع إلى كلمات الله، فهم أولاء يحشرون كما عاشوا ولا يُظلمون نقيراً!.

إن الوجه ببصره ولسانه وأذنه مخلوق لحكمة المواجهة للحقائق أن

(١) سورة محمد، الآية: ١٧.
(٢) سورة مريم، الآية: ٧٦.
(٣) سورة الصف، الآية: ٥.
(٤) سورة النحل، الآية: ٩٣.
(٥) سورة الرعد، الآية: ٢٧.
(٦) سورة النحل، الآية: ٣٧.
(٧) سورة الروم، الآية: ٢٩.

يمشي به الإنسان سوياً على صراط مستقيم، فمن يمشي في حياته مكباً على وجهه في الأولى سوف يحشر مكباً على وجهه في الأخرى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(١) ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ. . .﴾ كما حشروا أنفسهم يوم الدنيا على وجوههم! فـ «الذي أمشاهم على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم»(٢) وترى إذ يحشرون هكذا فكيف الترائي والتسامع والتلاسن بين أهل الجنة والنار، وبين أهل النار أنفسهم مع بعض؟

إن حشرهم هكذا عذاب فوق العذاب، ومن ثم بعد حشرهم يتبدل عذابهم هذا بآخر فيه يبصرون ويسمعون ويتكلمون كعذاب آخر فوق العذاب، ففقدهم لهذه الثلاث يوم حشرهم عذاب، ووجدانهم لها بعد حشرهم في نارهم عذاب أخر فوق عذاب! وعلى أية حال فـ : ﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ : ﴿كُلَّمَا خَبَتْ﴾: سكن لهبها وصار عليها خباء وغشاء من رمادها أم ماذا ﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ كما الأوّل، فإن السعير بعد الخباء زيادة على الخباء، لا زيادة للسعير على ما كان قبله، زيادة العذاب! ولماذا يزيدهم سعيراً على سعيرهم؟ ألأنهم أخبؤوها؟ وليس منهم ولن! أم إنهم كانوا يستحقون هذه الزيادة من قبل؟ فلماذا لم تحق لهم من قبل؟ - فلتكن زيادة السعير زيادة بعد الخباء بإعادة مثل السعير!، وعلّه كما تعاد جلودهم التي نضجت لتنضج تلو الأخرى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم

---

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٢٠٣ أخرج أبو داود والترمذي وحسنه وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في البعث عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف صنف مشاة وصنف ركبان وصنف على وجوههم قيل يا رسول الله ﷺ! وكيف يمشون على وجوههم؟ قال: إن الذي. . . أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك أقول وأخرجه جماعات آخرون على اختلافات ولكنها متفقة فيما نقلناه في المتن.

بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾[١] ففاعلية كل سعير هي نضج الجلود، ثم تبدل جلوداً غيرها فزيدوا لنضجها سعيراً، سعير تلو سعير لنضج تلو نضج دون أن يخفف عنهم العذاب أو يفتّروهم فيه مبلسون! ولماذا تداوم السعير دون فتور في عذابهم؟:

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾﴾:

هنالك كفرٌ بآيات الله وكبراها القرآن، وقولة النكران للمعاد ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾ خلواً عن لحوم ﴿وَرُفَٰتًا﴾ حيث تتبدل العظام رفاتاً، فتصبح الأبدان رفاتاً فوق رفات ﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ كما كنا يوم الدنيا؟!

ذلك الكفر وهذا النكران جزاؤه مأوى الجحيم ومزيد السعير بعد الخباء...!

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ضمن ما رأوا، حيث الواو تعطف هنا لغير المذكور، فهم يرون الخلق الجديد ويلمسونه ليل نهار بموت ثم حياة ثم موت ومن ثم حياة، ثم رؤية عقلية تفوقها وتعمهم وإن لم يروا هذه وتلك ﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ لا «أن يخلقهم» فقد خلقهم وأفناهم وهم يتشككون في خلقهم الآخر الذي هو خلق لمثلهم، مماثلة في الصورة الإنسانية وعينية للمادة التي زالت عنها تلك الصورة، ويخلق لها مثلها مرة أخرى! ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[٢] ولا يعني الخلق الجديد وخلق أمثالهم إلّا الناحية البدنية من الإنسان حيث تفنى صورياً ثم تخلق

---

(١) سورة النساء، الآية: ٥٦.
(٢) سورة ق، الآية: ١٥.

صورة أخرى، وأما الروح فهو باق لا يفنى إلّا صعقة حتى يخلق البدن خلقاً جديداً، وهو المتكفل للوحدة بين الإنسان في النشأتين في حقيقة الإنسانية، كما أن الأجزاء المُعادة من بدنه يوم المَعاد هي المتكفّلة لوحدته البدنية، فلا يعني المُعاد إلّا عود الروح إلى مثل بدنه صورة وإلى عينه مادة! ثم و«مثلهم» في أصل الخلقة و﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1] فالمعنيان هنا معنيان من «مثلهم».

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾: أجلاً فرادى موتاً عن الحياة الدنيا إلى البرزخ، وجماعات: نقلة عن الحياة البرزخية إلى الحياة الأخرى، ولا ريب في أي منهما! ﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أنفسهم، المتهتكون عقولهم، المتغافلون عن ضمائرهم، العمي الصم البكم عن آيات الله. أبوا عن كلٍّ حق ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾ كفراً وكفراناً.

وهب أن أجل الموت لا ريب فيه عند أحد، ولكن أجل المعاد فيه مرتابون كثير فكيف ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ في مطلق الأجل؟

هنا نفي للريب لا نفي الشك، فمهما شك في المعاد شاكون، ليس لشكهم سناد مريب فلا يرتابون، فكما القرآن لا ريب فيه وفيه شاكون كثير، كذلك المعاد لا ريب فيه على شكه الكثير!

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾:

ترى وما هي الصلة بين خشية الإنفاق هنا، المحتفة بنكران الرسالة والمعاد مسبقاً، وبذكرى آيات الرسالة ملحقاً، والموضعان ليسا موضع إنفاق أو إقتار؟.

---

(١) سورة غافر، الآية: ٥٧.

نجد الجواب في ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾﴾[1].

فخزائن الرحمة المقصودة هناك هي الرحمة الروحية أصلياً وسواها فرعياً، وعلّها هنا هي الظاهرة فبأحرى الباطنة، فالخزائن هي المواضع التي جعلها الله تعالى جهات لدرور الرزق ومنافع الخلق، ترفع الأيدي عند السؤال والرغبات واستدراك الخير والبركات، ثم وأحرى منها بركات معنوية فلو أن هؤلاء المعترضين على الرسالة المحمدية وسواها كانوا يملكون ﴿خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ الرحمة الربانية الروحية الرسالية ﴿لَّأَمْسَكْتُمْ﴾ عن إنفاقه لمن يستحقها ﴿خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ﴾ الإفناء، ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا﴾ ممسكاً بخيلاً، لا بما لنفسه فقط بل وبرحمة الله، ولا بما يفنى فقط بل وربما لا يفنى من رحمة الله.

. . . ليست الآية الكافية القرآن تُنكر لأنها غير حسية، فمن قبل كفروا بآيات حسية أوتيت رسل الله رغم قولهم، ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ ۘ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ . . .﴾[2] ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ﴾[3]؟:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ۖ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾:

إن فرعنة النكران لآيات الله لا تميِّز بين آية حسية يعرفها كل من له إحساس، وبين آية معرفية يعرفها كل من له أدنى معرفة ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾[4].

---

(١) سورة الزخرف، الآيتان: ٣١، ٣٢.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة القصص، الآية: ٤٨.

(٤) سورة النمل، الآية: ١٤.

ترى وكيف تكون الآيات المرسل بها موسى تسعاً وهي حسب القرآن خمس عشرة[(١)] فهل تعني الآيات هنا آيات سوى المعجزات كما يسند إلى الرسول ﷺ؟[(٢)].

والآيات المذكورة في شتات الآيات هي المعجزات إلى فرعون وملئه أماذا، دون آيات؟؟ التوراة إحكامية؟؟ أماهيه! والحل أن التسع لا تستغرق كل ما أرسل به موسى من آيات، وإنما ﴿فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ﴾[(٣)] وهي التسع المذكورة في آيات[(٤)] ثم أربع أخرى هي خاصة ببني إسرائيل[(٥)].

---

(١) وهي اليد البيضاء ٢ - عصاه صارت حية تسعى ٣ - عصاه حيث صارت ثعباناً مبيناً تلقفت ما يأفكون ٤ - عصاه حيث شق بها البحر ٥ - عصاه حيث ضرب بها الحجر فانفجرت منه اثنتي عشرة عيناً - ومن ثم ٦ - الطوفان ٧ - والجراد ٨ - والقمل ٩ - والضفادع ١٠ - والدم ١١ - وإظلال الجبل فوقهم كأنه ظلّة كأنه واقع بهم ١٢ - أخذهم بالسنين ١٣ - أخذهم بنقص من الأموال ١٤ - الطمس على أموالهم ١٥ - المن والسلوى.

(٢) الدر المنثور ٤ : ٣٠٤ - أخرج الطيالسي وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأحمد والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن قانع والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه انطلق بنا إلى هذا النبي نسأله فأتياه فسألاه عن قول الله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۢ﴾ [الإسراء: ١٠١] فقال رسول الله ﷺ: ١ - لا تشركوا بالله شيئاً ٢ - ولا تزنوا ٣ - ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ٤ - ولا تسرقوا ٥ - ولا تسحروا ٦ - ولا تمشوا ببريء إلى سلطان فيقتله ٧ - ولا تأكلوا الربا ٨ - ولا تقذفوا محصنة ٩ - وقال ولا تفروا من الزحف شك شعبة وعليكم يا يهود خاصة ألا تعتدوا في السبت، فقبلا يديه ورجليه وقالا نشهد أنك نبي قال: فما يمنعكما أن تسلما؟ قالا: إن داود دعا الله أن لا يزال في ذريته نبي وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا اليهود.

(٣) سورة النمل، الآية: ١٢.

(٤) وهي اليد البيضاء ٢ - عصاه حية تسعى ٣ - عصاه ثعبان مبين ٤ - الطوفان ٥ - الجراد ٦ - القمل ٧ - الضفادع ٨ - الدم ٩ - ضرب الأموال بنقص وطمس وأخذهم بالسنين.

(٥) ١ - من نتق الجبل ٢ - والمن والسلوى وهما واحدة ٣ - وانفجار العيون من الحجر ٤ - وفلق البحر، وهذه الرابعة لا تمت بصلة إلى فرعون وملئه حيث أغرقهم والآية تقول: =

وهنالك روايات في تعديد التسع الآيات تتعارض بعضها البعض والكل تعارض القرآن[(١)]. !

هذه الآيات من صغراها وكبراها إلى فرعون وملئه كلها بينات، ولكنما الفرعنة الحمقاء لا تبقي ولا تذر: ﴿...فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾[(٢)].

ومن ظلم فرعون وعلوه قولته الفاتكة ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ ومجنوناً ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾[(٣)] ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[(٤)] ف ﴿سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ يفسر المسحور أنه المجنون، تعبيران عن حالة واحدة ثانيتهما أنه ساحر حيث الساحر ليس ليعني المسحور! فكلمة الحق وبصائره لا تصدر في عرف الطاغية إلّا عن ساحر أو مسحور: مجنون: لا يدري ما يقول أو يسحر فيما يفعل أو يقول!

= ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف: ٤٨] والعذاب هنا تخويفية الآيات ولا رجوع في آية الغرق.

(١) نور الثقلين ٣: ٢٢٩ ح ٤٥٧ في تفسير العياشي عن سلام عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألني نفر من اليهود عن الآيات التسع التي أوتيها موسى بن عمران عليه السلام فقلت: العصا وإخراجه يده من جيبه بيضاء والجراد والقمل والضفادع والدم ورفع الطور والمن والسلوى آية واحدة وفلق البحر قالوا صدقت و٤٥٨ في قرب الإسناد للحميري بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام في الآية قال: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والحجر والبحر والعصا ويده ورواه مثله في الخصال عن هارون بن حمزة الغنوي الصيرفي عن أبي عبد الله عليه السلام.

وبينهما اختلاف في رفع الطور والمن والسلوى المذكورة في الأولى دون الثانية وفي الحجر والطوفان المذكورين في الثانية دون الأولى، ثم التوافق في سبعة أخرى. ومن ثم بعض الآيات الخاصة ببني إسرائيل ليست إلى فرعون وملئه.

(٢) سورة النمل، الآيات: ١٢-١٤.

(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٧.

(٤) سورة الذاريات، الآية: ٣٩.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾﴾:

انظر إلى رب موسى في مناظرته مع أطغى الطغاة وأحمقهم، يستند لإبطال كونه مسحوراً إلى علم فرعون أن هؤلاء نازلة من رب السماوات والأرض بصائر[1] وإذ لا تبتصر أنت بهذه البصائر فلا بصر لك إذاً ولا بصيرة ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ هالكاً في بعدين من الأبصار، حيواناً في بصرك، وإنساناً في بصيرتك!.

يقول: ﴿لَأَظُنُّكَ﴾ حال أنه متيقن معلوم، رعاية لأدب المناظرة ألا يتجاوز الكلمة الفرعونية: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ ظناً بظن، ولا يملك ظن فرعون حجة، ولموسى الحجة البالغة في يقينه ولكنه يعبر عنه بالظن معارضة بالمثل!.

والمثبور هو الهالك المدمر بجهله وجهالته تقصيراً، حيث غربت بصيرته وعزب عنه عقله، بما أهلكه طغيانه، وأنساه إنسانه.

وترى لماذا «هؤلاء» وهي لمن يعقل؟ علّه لأنها بصائر للعقول، صادرة عن خالق العقول لمن يعقل.

ثم وسناد هؤلاء إلى رب السماوات والأرض تنبيه أنها ليست لتصدر

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٣٠ ح ٤٦٢ مجمع البيان وروي أن علياً عليه السلام قال في «علمت» والله ما علم عدو الله ولكن موسى هو الذي علم فقال: لقد علمت أقول: هل كذب موسى أو استند إلى علم نفسه فـ«علمت» بضم التاء، واستناد المناظر على المناظر بعلمه نفسه جهل، فهذه الرواية مختلقة مخالفة للقرآن كما وتعارضها أخرى في نفس المصدر ح ٤٦٣ في تفسير علي بن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء: ١٠٣] أراد أن يخرجهم من الأرض وقد علم فرعون وقومه ما أنزل تلك الآيات إلا الله عز وجل، وتؤيده الآية: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ...﴾ [النمل: ١٤] بعد الآية: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣].

عن غيره، فأنت أنت يا فرعون تدعي ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾[1] ولا تقدر على أصغر آية منها أو تدفع عنها، فكيف تعطف بها إلى سحر أم جنون، في حين أن العقلاء بأجمعهم لا يستطيعونها ولا أصغر آية منها، وحتى الأرضية فيها فضلاً عن السماء!

﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾:

إرادة استفزازية فرعونية، فراراً عن الحجج الموسوية بالبصائر الإلهية، ولجوءً إلى طغوى مادية هي سنة للطغاة، حيث يواجهون الحجة العقلية بالقوة المادية اللّاعقلية... فلأنه ما استطاع استفزازاً لحجته وصداً عاقلاً لمعَجته، أراد أن يستفزهم من الأرض استئصالاً عن الأرض كلها بقتلهم، أو إخراجاً عن أرض الفرعنة ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا﴾ دون إبقاء!:

﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا ۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾﴾[2].

﴿وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾:

الأرض هذه هي أرض مصر كما استضعفوا فيه: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[3]

(١) سورة النازعات، الآية: ٢٤.
(٢) سورة الشعراء، الآيات: ٦٠-٦٧.
(٣) سورة القصص، الآية: ٥.

فالمستضعفون من بني إسرائيل سكنوا أرض مصر وراثة عن فرعون وملئه، ولو كانت هي الأرض المقدسة لصرح بها، ثم ولا صلة بها لموقفهم إذ أغرق الله فرعون وجنوده في يمٍّ مصر ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: (عذابها لمن عصى) ﴿جِئۡنَا بِكُمۡ﴾: (أنتم وآل فرعون) ﴿لَفِيفٗا﴾: خلطاء مع بعض دون ميزة قومية إلّا بأعمالكم.

وقد يعني ﴿وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ هنا فيما يعنيه المرة الآخرة من مرتيهم كما في مفتتح الأسرى: ﴿. . .فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ ٱلۡأٓخِرَةِ لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمۡ وَلِيَدۡخُلُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوۡاْ تَتۡبِيرًا﴾[1] والجيئة اللفيف - إذاً - هي الجيئة السوداء لاسوداد في وجوههم أكثر وتبتيرهم بأيدي القائم المؤمل (عجل الله فرجه) وأصحابه.

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ١٠٥﴾:

هنالك إنزال للقرآن وهناك نزول له يختلفان فعلية وفاعلية مهما اتفقا في الحق، ففاعلية الحق هي أن الله أنزله في حالة الحق حيث الحق مادته وكيانه وقوامه، وبسبب الحق وغايته. . . فهل نزل كما أُنزل، دونما اصطدامه حين أنزل بصدامات الشياطين أمّن ذا، ودونما خطإٍ في منزله: قلب الرسول ﷺ ولا فيمن أُنزل به: الروح الأمين، ولا في مقامه في منزله الأوّل وسائر منازله حتى القيامة الكبرى؟

أجل ﴿وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَۗ﴾ وهنالك فعليته فلا تجد فيه إلّا الحق، ولا في منازله إلا نزول الحق، ولا في غاياته إلّا الحق: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾[2] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ به ﴿إِلَّا مُبَشِّرٗا﴾ ببشاراته

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٤٢.

«ونذيراً» بنذاراته دون أن تزيد فيه ولا أن تنقص عنه! فالحق إنزالاً ونزولاً سُداه ولحمته، مادته وغايته، صورته وسيرته، قوامه واهتمامه، ومكانه ومكانته بأحق ما يكون من معنى للحق، دون شوب للباطل فيه أو نقص ونسخ يعتريه!

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾:

هنالك قرآن غير مفروق هو النازل عليه ليلة القدر، وقرآن آخر مفروق هو النازل عليه طوال البعثة: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

فهذا الرسول ﷺ يعيه محكماً دونما فرق ولا مكث، ولكن الناس ليسوا ليعوه ويفهموه إلّا على مُكث، بل وليثبت قلب الرسول ﷺ على آياته البينات تطوراً وتنوراً: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾[2].

فهنالك فرق بين فرق القرآن للرسول تثبيتاً لفؤاده ما وعاه محكماً، وفرقه للمرسل إليهم ليعوه ومن ثم تثبت عليه أفئدتهم!.

ثم إن فرق القرآن له بعدان، بُعد الألفاظ حيث فرقت في نجوم عدة عبر الرسالة، فصلاً له في سور وآيات وذلك بمنزلة فرق الشعر وهو تمييز بعضه عن بعض حتى يزول التباسه ويتخلص التفافه.

وفرق المعاني أي بيناه للناس بنصوع مصباحه وشدوخ أوضاحه حتى صار كمفرق الفرس في وضوح مخطّه، أو كفرق الصبح في بيان مُنبَلَجه.

فمن واجب القراءة للقرآن أن يقرأ على مكث ويرتل ترتيلاً دونما

---

(١) سورة هود، الآية: ١.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

استعجال، ولقد كان أصحاب النبي ﷺ يتعلمون القرآن على مهل خمساً خمساً إمّا زاد أو نقَصَ دون أن ينثروه نثر الدقل أو يركموه ركم الركام!.

ثم من فرق اللفظ في القرآن كما أشرنا فرقه الصغير بالآيات ثم الكبير بالسور كما تذكر أن في عديد من الآيات، وأما الفرق بالركوعات والسجودات والأجزاء أمّا ذا مما اصطلح عليه القراء فلا أثر عنهما في القرآن.

صيغة السورة والسور نجدها في عشر، «منزَّلة» (٩: ٦٤) تدريجياً، أو «مُنْزَلة» (٩: ٨٦) دفعياً، والسور القرآنية لا تخلو عن إنزال أو تنزيل وإن كان تنزيلها أكثر[١].

ولأن السورة والآية من صنيع الوحي فعديدهما كذلك وحدودهما أيضاً من الوحي، ومهما اختلفت القراء في عدد السور والآيات فلا اختلاف في ألفاظ القرآن الموجودة بين الدفتين، والسور حسب الرسم المتواتر مائة وأربع عشرة، ومهما اعتبرت سورتا الضحى وألم نشرح وسورتا الفيل ولإيلاف سورة واحدة، فهذه الوحدة حكمية وليست واقعية.

ثم عديد الآيات، رغم الاختلافات الستة فيها[٢] لا تضر بالحفاظ على كلمات القرآن وحروفه وهي محدودة دونما اختلاف.

ومن أهم الخلافات بين الشيعة والسنة تحسب البسملات من السور وعدم تحسُّبها حيث البون بينهما يصبح في ١١٣ - آية وليس حسب الكتب القرآنى إلّا اختلافاً صورياً، وكون البسملة آية في النمل يحتم كونها آية أينما كانت من السور!.

---

(١) فالتنزيل في موردين ثانيهما ﴿لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞ﴾ [محمّد: ٢٠] والإنزال في خمسة، والثلاثة الباقية إتيان لها ﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

(٢) اختلفوا أن آياته ستة آلاف أم ومائتان وأربع أم وأربع عشرة، أم وتسع عشرة، أم وخمس وعشرون أم وست وثلاثون.

ومما لا يريبه شك أن ترتيب الآيات والسور كما الآن مثل تركيب السور والآيات كل ذلك من الوحي دون تدخل من غير الوحي فإن الكل من فرق القرآن ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾!

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾:

إن شرائط الإيمان به لزاماً حاصلة ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ أنتم الجدد في واجهة وحي الكتاب ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ﴾: علم الوحي الكتاب والبشارة فيه بحق القرآن، أولئك يؤمنون به ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1] يعرفونه في بعدين اثنين،

١ - فبالمقايسة بين الوحيين وحي القرآن يفوق سائر الوحي أم لا يقل عنه.

٢ - وبما بشر بنزول القرآن كما في كتاب اشعياء[2].

وكما يعرفون محمداً ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[3] بنفس البعدين.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: تخضعاً له وتواضعاً واحتراماً، ليس في آيات السجدة فحسب، بل والقرآن كله، وهذه قضية الإيمان الصادق.

وهذه ثالثة الآيات الدالة على وجوب الاستماع للقرآن ثانيتها كهذه:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٢٠.
(٢) راجع كتابنا «رسول الإسلام في الكتب السماوية».
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۝٢١﴾[١] وأولاها: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[٢] وأقل السجود للقرآن استماعه إذا قرئ، وأكثره السجود للأذقان في استماع سائر القرآن ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ وأوسطه واجب السجود عند استماع آيات السجود وهذه منها.

ولأن الخرور للأذقان سجود، فهو سائغ في الصلاة لمن لا يمكنه سواه[٣] ولعل «يخرون» الأول خرور الخضوع بالجوارح والثاني خرور الخشوع بالجوانح، تدرجاً من الجارح إلى الجانح، حيث البكاء من مظاهر خشوع الجارح كما الخشوع يختص بالجانح!.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١١٠﴾:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٤] ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٥] ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[٦].

آيات أربع في سائر القرآن أن لله تعالى الأسماء الحسنى فادعوه بها لا

---

(١) سورة الانشقاق، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

(٣) نور الثقلين ٣: ٣٣١ ح ٤٧٠ في تفسير علي بن إبراهيم حدثني أبي عن الصباح عن إسحاق بن عمار عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: رجل بين عينيه قرحة لا يستطيع أن يسجد عليها، قال: يسجد ما بين طرف شعره، فإن لم يقدر سجد على حاجبه الأيمن فإن لم يقدر فعلى حاجبه الأيسر فإن لم يقدر فعلى ذقنه، قلت: على ذقنه؟ قال: نعم أما تقرأ كتاب الله عز وجل: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ [الإسراء: ١٠٩]؟

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.

(٥) سورة طه، الآية: ٨.

(٦) سورة الحشر، الآية: ٢٤.

سواه، فهناك أسماء سيئة تختلق[١] وأخرى حسنة تخلط بين صالح وسواه[٢] لا تناسب أيٌّ من هذه أو تلك الساحة المقدسة الإلهية ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[٣] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[٤] حيث يصفونه بالحسنى التي وصف بها.

وقد يلوح من ﴿أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ أن أناساً كانوا معترضين على دعوة الرحمن كأنه غير الله فهذه ثنوية تنافي دين التوحيد وكما يروى أن الرسول ﷺ صلى بمكة ذات يوم فدعا الله فقال في دعائه: «يا الله يا رحمن» فقال المشركون انظروا إلى هذا الصابئ ينهانا أن ندعو إلهين؟ وهو يدعو إلهين؟ فأنزل الله ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية وكان رجل باليمن يسمى رحمن[٥].

إن هؤلاء الحماقى خيل إليهم بطبيعتهم الشركية أن عدد الاسم دليل لعديد المسمى، على غفلة أن أسماء الله تعالى هي تحبيرات اللغات وتعبيرات شتى عن صفاته الذاتية والفعلية دون تعديد في الذات أو في حقيقة صفات الذات، أو الذات وهذه الصفات، فإنما هذه الأسماء الحسنى التي تناسب ساحة الألوهية تعبيرات حسنى عن ذات واحدة بحقيقة الوحدانية.

---

(١) كالأسماء الخاصة بالمخلوقين مثل الآكل. الذاهب، الماشي، الخائف، الراجي أما ذا؟

(٢) كالأسماء التي تجمع بين اللائق بذاته وغير اللائق كـ «الواجب الوجود». الوجود المطلق مقابل الوجود المحدود حين يعنى منهما سنخ واحد في اعتقاد وحدة حقيقة الوجود.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٤٠.

(٥) الدر المنثور ٤: ٣٠٦ - أخرج ابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس قال: صلى رسول الله ﷺ . . . وفيه أخرج ابن جرير عن مكحول أن النبي ﷺ كان يتهجد بمكة ذات ليلة يقول في سجوده: يا رحمن يا رحيم فسمعه رجل من المشركين فلما أصبح قال لأصحابه: انظروا ما قال ابن أبي كبشة يزعم الليلة الرحمن الذي باليمن وكان باليمن رجل يقال له رحمن فنزلت الآية.

والاسم - أياً كان - ما يدل على مسمى، فهو إذاً غير المسمى، سواء أكان لفظياً كأسماء الله الحسنى التي ندعوه بها، أم عينياً كسائر الكون فإنها بذواتها تدل على خالقها، أم وخصوص الأولياء المكرمين ولا سيما أهل بيت الرسالة المحمدية ﷺ فإنهم من أسماء الله الحسنى ندعوه بها، ثم لا يكون لعديد الأسماء اللفظية عديد من معان في ذات الله، اللّهم إلّا أسماء الأفعال الدالة على عديد الأفعال، وهي حادثة بإرادة الله تعالى، منفصلة عن ذاته وليست في ذاته أو عينها. وأما أسماء الصفات الذاتية كالعلم والحياة والقدرة فهي تدل على حقيقة واحدة مجردة عن أي تركب دون حقائق هي عين الذات أو عارضة على الذات! وهذه الثلاثة أركان لسائر أسمائه الحسنى(١).

وترى «هل كان الله عزّ وجلّ عارفاً بنفسه قبل أن يخلق الخلق؟ نعم! فهل يراها ويسمعها؟ ما كان محتاجاً إلى ذلك، لأنه لم يكن يسألها ولا يطلب

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٣٣ ح ٢٧١ عن الكافي بإسناده عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير مصوت وباللفظ غير منطبق وبالشخص غير مجسد وبالتشبيه غير موصوف وباللون غير مصبوغ منفي عنه الأقطار، مبعد عنه الحدود، محجوب عنه حس كل متوهم، مستتر غير مستور، فجعله كلمة تامة على أربعة أجزاء معاً ليس واحد قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماء لفاقة الخلق إليها، وحجب منها واحداً وهو الاسم المكنون والمخزون، فهذه الأسماء التي ظهرت، فالظاهر هو الله تبارك وتعالى، وسخر سبحانه لكل اسم من هذه الأسماء أربعة أركان، فذلك اثني عشر ركناً، ثم خلق لكل ركن منها ثلاثين اسماً، فعلاً منسوباً إليها فهو: الرحمن - الرحيم - الملك - القدوس - البارئ - الخالق - المصور - الحي - القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم - العليم - الخبير - السميع - البصير - الحكيم - العزيز - الجبار - المتكبر - العلي - العظيم - المقتدر - القادر - السلام - المؤمن - المهيمن - المنشئ - البديع - الرفيع - الجليل - الكريم - الرزاق - المحيي - المميت - الباعث - الوارث: فهذه الأسماء وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلثمائة وستين اسماً فهي نسبة لهذه الأسماء الثلاثة وهذه الأسماء الثلاثة أركان وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة وذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠].

منها، هو نفسه ونفسه هو، قدرته نافذة، فليس يحتاج أن يسمي نفسه، ولكنه اختار لنفسه أسماء لغيره يدعوه بها لأنه إذا لم يدع باسمه لم يُعرف فأوّل ما اختاره لنفسه «العلي العظيم» لأنه أعلى الأشياء كلها فمعناه الله واسمه العلي العظيم هو أوّل أسمائه علا على كل شيء»![(١)].

فأسماء الله الحسنى بثلاثتها الأركان وسائر الفروع، أنها ليست إلا لحاجة الخلق لا لحاجته، ولا أنها تحكي عن عديد من الحقائق المختلفة في ذاته وحتى الثلاثة الأركان، اللهم إلّا ذاتاً واحدة بحقيقة الوحدة، مجردة عن أي تركيب بأي معنى!.

فـ «من عبد الله بالتوهم فقد كفر، ومن عبد الاسم ولم يعبد المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي يصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلانيته فأولئك هم المؤمنون حقاً»[(٢)].

فذات الله تعالى غير هذه الأسماء وهي غيرها[(٣)] وإنما هي تحبير اللغات عن الذات المقدسة بصفاته الذاتية والفعلية.

﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ﴾ الاسم الأعظم الظاهر للذات المقدسة ﴿أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ﴾ أعم الأسماء الشاملة للرحمة الإلهية ﴿أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ﴾ من أسمائه التي

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٣٣ ح ٤٧٢ عن أصول الكافي بإسناده عن ابن سنان قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام هل كان الله... أقول: فالسائل ابن سنان والمجيب الإمام الرضا عليه السلام كما في المتن.

(٢) في التوحيد للصدوق عن ابن رئاب عن غير واحد عن أبي عبد الله عليه السلام قال...

(٣) في التوحيد مسنداً وفي الاحتجاج مرسلاً عن هشام بن الحكم قال: سألت أبا عبد الله عن أسماء الله عز ذكره واشتقاقها فقلت: الله مم هو مشتق؟ قال يا هشام الله مشتق من إله وإله يقتضي مألهاً والاسم غير المسمى - ذكر مثل ما عن ابن رئاب إلى أن قال -: فقلت زدني فقال: إن لله تبارك وتعالى تسعة وتسعين اسماً فلو كان الاسم هو المسمى لكان كل اسم منها إلهاً ولكن لله معنى يدل عليه بهذه الأسماء وكلها غيره.

تعنيه وحده ﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ التي يدعى بها... ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾[١] إلحاد النكران أو الشرك بالله، إلحاداً في مثلث الأسماء، ففي اللفظية كأن تختلق ما يعني معنًى تحيد عنه ذاته أو صفاته وأفعاله، من اسم ذات أو صفة ذاتية أو فعلية، وفي العينية أن تتخذ آلهة من دون الله أو تشرك بها الله كالملائكة والنبيين أمن ذا من المقربين إليه، أم من الطواغيت.

وكذلك اعتبار صفاته - وحتى الذاتية - معاني زائدة على ذاته، أو تعني منها مثل ما تعنيه من صفات غيره.

لله اسماء لذاته تعالى فمن ظاهرها «الله» ومن باطنها «هو» وأسماء لصفات ذاته وهي الحياة والعلم والقدرة، ثم أسماء لصفات فعله كسائر أسمائه الحسنى، والإلحاد في شيء منها لفظياً أو معنوياً، كما في الإلحاد في الأسماء العينية المنفصلة كسائر الموجودات، أو التي يوصف هو بها، فالإلحاد في كل ذلك محظور محظور[٢]!

ومن الإلحاد في أسمائه تعالى المنهي عنه في آيته (٧: ١٨٠) أن تتخذ معاني زائدة على ذاته، أم ولها مظاهر من خلقه هي مواليد تلكم الأسماء فتُعبد من دون الله، والمناهي المؤكدة عن عبادة الاسم أو مع المسمى أنها كفر وشرك، لا تعني الأسماء اللفظية حيث لا يعبدها أحد، وإنما تعني المعاني الزائدة على ذاته سبحانه أن تُعبد هي أو مظاهرها إلحاداً أو إشراكاً - يجمعها ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾! إلحاداً لفظياً أو معنوياً أو عينياً[٣].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٠٨.

(٢) من اللفظي أن تسميه بأسماء خاصة لخلقه سواء في اسم الذات أو صفة الذات أو صفة الفعل. ومن العيني أن تظن أحد من خلقه أنه إله في شريكه أو جزئه، ومن المعنوي أن تعني مثلاً من «العالم» علماً كعلم خلقه، أو تتصور له معنى أياً كان، أو تنزهه عن أن تعلم معنى علمه ولكنك تظن أنه زائد على ذاته!

(٣) المصدر السابق.

فلا أن أسماءَه معاني زائدة على ذاته سواء في ذلك الصفات الذاتية والفعلية، ولا أن لها مظاهر تُعبد، كل ما هنالك تجير اللغات كما أسلفناه، أو أسماء عينية هم أفاضل خلقه من رسله وأوليائه حيث يُدعى الله بهم كما أمر: ﴿وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾[1] دونما استقلال لهم في دعائهم، ولا عبادتهم من دون الله!.

فاختلاق أسماء له تعالى قد يعني إلحاداً في أسماء أو إشراكاً، فما التوحيد في أسمائه إلّا التي سمى بها نفسه المقدسة، ولأن أسماءه صفاتُه و﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[2] ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾[3] فإنهم لا يصفونه إلّا بما وصف به نفسه، فأمثال العلة والواجب وأضرابهما من أسماء فلسفية أمّا هيه؟ من أسماء غير مقتبسة من مشكاة الوحي كلها أسماء إلحادية مهما اختلفت دركاتها! ولسنا نعرف من أسمائه معاني إيجابية كالتي نألفها ونعرفها لأنه باين عن خلقه وخلقه باين منه، وإنما نعني نفي مقابلاتها وهو تسبيح بالحمد فلا الحمد والتوصيف فقط، ولا التسبيح فقط، وإنما تسبيح بالحمد يعني نفي المقابلات للصفات الثبوتية، وإذاً فالصفات الإلهية كلها سلبية مهما اختلفت سلبية سالبة عن سلبية موجبة في تحبير اللغات.

﴿... وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾:

الجهر والإخفات وصفان متضايفان، أترى بعدُهما مطلقاً منهيان، والنتيجة ألّا تصلي أصلاً، حيث القراءة لا تخلو عن جهر ما أو إخفات! أم المنهي عنه من الجهر أعلاه ومن الإخفات أدناه؟ وهذا هو السبيل الوسط المأمور به ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾! فلا سبيل وسطاً في قراءة الصلاة إلّا عواناً بين عالي الجهر وداني الإخفات.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٩١.
(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٠.

فالجهر المأمور به في جهرية الصلوات، والإخفات المأمور به في إخفاتيتها هما في السبيل الوسط، جهر دون العال وإخفات فوق الدان، فقد يُخفِت لحدٍّ لا يسمع نفسه بأدنى أذن؟ فلا! أو يجهر لحد يسمع البعيدين عنه في أعلى الجهر؟ فكذلك لا[1]، بل ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ و«المخافتة ما دون سمعك والجهر أن ترفع صوتك شديداً»[2].

ولماذا الجهر العال في صلاتك؟ ألتُسمع ربك؟ وهو أقرب إليك من حبل الوريد: و﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[3] أم تُسمع المؤمنين معك؟ فلا عليك إلّا السبيل الوسط[4]. أم ولتسمع الكافرين؟ وهم بسماعهم أو استماعهم يؤذونك![5].

---

(١) العياشي عن سليمان عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: الجهر بها رفع الصوت والمخافتة ما لم تسمع أذناك.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٣٣ ح ٤٧٦ في الكافي عن سماعة قال سألته عن قوله الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾ [الإسراء: ١١٠] قال. . . .

(٣) سورة طه، الآية: ٧.

(٤) المصدر ح ٤٧٧ القمي عن عبد الله بن سنان قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أعلى الإمام أن يسمع من خلفه، وإن كثروا؟ قال: ليقرأ قراءة وسطاً يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا﴾.

(٥) تظافرت الرواية عن طريق الفريقين أنه «كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إذا كان بمكة جهر بصوته فيعلم بمكانه المشركون فكانوا يؤذونه فأنزلت هذه الآية «نور الثقلين عن العياشي عن أبي جعفر وابن عبد الله عليه السلام.

وفي الدر المنثور ٤: ٢٠٦ - أخرج سعيد بن منصور وأحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن جرير وابن أبي حاتم وابن حبان وابن مردويه والطبراني والبيهقي في سننه عن ابن عباس في الآية قال: نزلت ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكة متوار فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن. ومن أنزله ومن جاء به فقال الله لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ. . .﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسبوا القرآن، ولا تخافت بها عن أصحابك فلا تسمعهم القرآن حتى يأخذوه عنك ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ١١٠] يقول: بين الجهر والمخافتة وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجهر بالقراءة بمكة فيؤذى فأنزل الله: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ﴾.

ثم ولماذا الإخفات الدان، لحد تحرم نفسك عن سماعه، وأقل السماع في صلاتك أن تسمع نفسك، أم تحرم الذين معك؟ فلماذا وهم في صلاتك صامتون لا يقرؤون، أفحرماناً لهم عن قراءتهم وعن قراءتك؟، فـ ﴿وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا﴾ وإن كانت تختلف السبيل في جهريتها وأقلها إسماع من بجنبك، وفي إخفاتها فلتسمع فيه نفسك دون جوهرية لصوتك لتسمع، وإنما همسٌ سَمِعه غيرك أم لم يسمع، وكما ثبت في السنة المقدسة الإسلامية.

وترى أن الحكمة في ترك الجهر العال هي فقط التقية عن أذى المشركين، فلا نهي إذاً فيما لا تقية، بل وفيه تعظيم شعائر الله، ولا سيما إذا أسمعت الصلاة بالسماعات والإذاعات؟ علّه نعم! حيث الوارد في الروايات هو هي لا سواها! إذاً فلا محظور في الجهر العال.

أو ترى أن هناك حكمة أخرى على من يجهر علّ الله يسمعه أكثر وأوفى، فقضي على سنة الجهر العال لهذه وتلك لا وحدها ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾[1] ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[2]، ولكنهما تلمحان بالتنديد لمن يجهر عالياً أم غير عال إسماعاً لربه وهو في حد الكفر بالله! وأما الجهر أياً كان لغرض إسماع المؤمنين دون تقية عن الكافرين، ولتعلو كلمة الله وتعظم شعائر الله فلا منعة فيه حسب الآيات! اللهم إلّا ما تلمحه آية الأعراف: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[3] ولكنما الأمر بهكذا ذكر ليس نهياً عن الجهر، والمنهي عنه في آيتنا هو الجهر العال لا مطلق الجهر، إذاً فالجهر الذي لا يخرج المصلي عن حالة الصلاة ممنوح، اللهم إلا الطوارئ تقية أمّا ذا فممنوع.

---

(١) سورة طه، الآية: ٧.

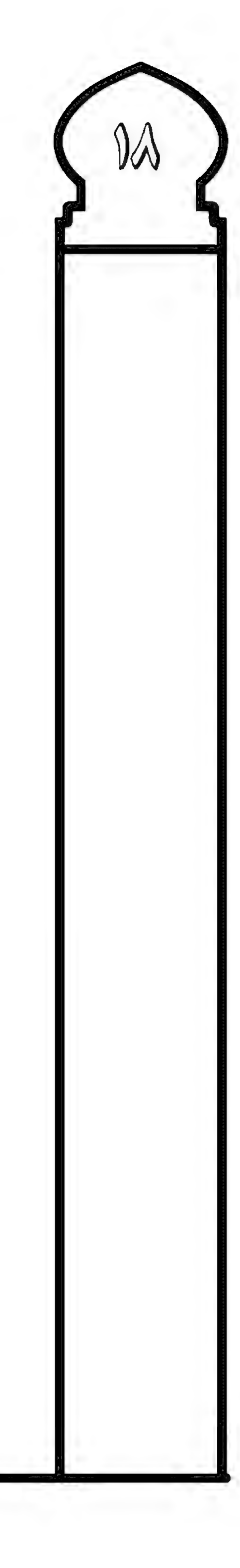
(٢) سورة الملك، الآية: ١٣.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

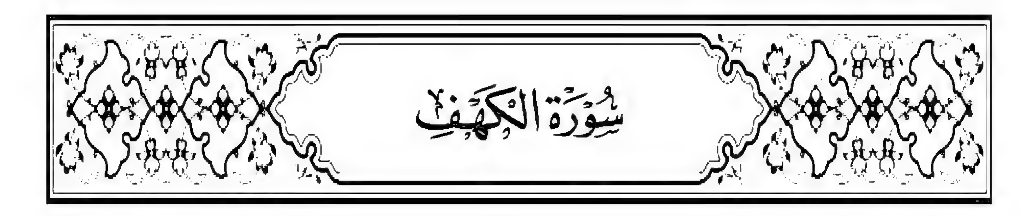
﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾:

﴿وَقُلِ﴾ في نفسك وجهراً، إظهاراً لهذه الحقيقة وإجهاراً ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كل الحمد مني ومن كل حامد ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ بأي معنى من الولادة، حقيقية وتشريفية. لا فقط إنه ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ بعد الأزل، بل ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ منذ الأزل اللّاأول، ولداً وغير ولد، ولماذا شريك في الملك؟ ألعجز عن ملكه، أم ذلك في وحدته؟ ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ﴾ منذ الأزل اللّاأوّل ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ في نفسك توحيداً ناصعاً خالصاً، وفي الآخرين الذين صغروه باتخاذ ولد أم شريك في الملك أو ولي من الذّل ﴿تَكْبِيرًا﴾ يجتث جذور الإشراك عن بكرتها، ويبلور التوحيد عن كل شائبة آئبة من مختلقيها.





سُورَةُ الْكَهْفِ



سورة الكهف

مكية وآياتها عشر ومائة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥) فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)﴾

المحور الرئيسي في الكهف هو تصحيح العقيدة وتثبيتها وإصلاح المنهج الفكري والنظري وإقامة القيم القيّمة بميزان الله، فيها ابتداء بالحمد لله منزل الكتاب القيم الحاوي تلكم القِيَم، وانتهاء بالعمل الصالح ونفي الشرك، وبينهما قصص منقطعة النظير في سائر القرآن ترأسها الكهف وتختمها قصة ذي القرنين وبينهما قصة الجنتين، وقصة موسى مع خضر، وإشارة إلى قصة آدم وإبليس، وهذه القصص تستغرق إحدى وسبعين من عشر ومائة من آي

السورة، ثم وما تتبقّى منها تعقيبات على قصصها وإلى بعض مشاهد القيامة وسائر الحياة أم ماذا من مذكرات هذه القصص، فإنها ليست مجرد قصص تروى، بل هي حقائق تاريخية تُلقى كدروس منضجة للعقول منتجة في كل الحقول لمن ألقى السمع وهو شهيد.

ولماذا قصة الكهف بين قصصها تختص اسم السورة بنفسها؟ لأنها كهف لمن يفر بدينه، كهف للمتمسكين بالتوحيد، المستقيمين فيه، المحافظين عليه، والتوحيد هو حجر الأساس فيما يتبناه القرآن في سوره كلها، فلتكن هذه كهفاً بينها.

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢)﴾:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تستغرق كل حمد من كل حامد ولكل محمود فتحصره في الله، لأنه الله، وتحسره عمن سوى الله لأنه سوى الله، ثم لأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ كما في فاتحة الكتاب، ربوبية تكوينية وتشريعية للعالمين ككل، وهنا لأنه ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ فإنه كأنه هو ربوبيته كلها، فإنه الغاية القصوى من خلق الكون بمن فيه العالمون، فالحمد لله لأنه ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ كالحمد لله لأنه ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾!

و﴿أَنزَلَ﴾ اللّامحة بنزول دفعي كما التنزيل هو التدريجي - لا يعني هنا نزوله في ليلة القدر حيث الغاية المعنية هنا ﴿لِّيُنذِرَ... وَيُبَشِّرُ﴾ لا تناسب إلّا تفصيل الكتاب المنزل، اللهم إلّا اعتباراً للكتاب المفصل أمراً واحداً طيّاً عن طول الزمان وعديد النزول، بل ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾ ككل.

ولماذا ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ لا محمد ولا الرسول؟ علّه للتدليل على الشرط الأصيل في ذلك الإنزال التنزيل وهو العبودية القمة، فبإنزال الكتاب على عبده تحصل الرسالة!.

ثم و﴿عَبْدِهِ﴾ مفرداً كأنه هو عبده لا سواه، دون عبد من عباده؟ تلميحاً لأنه في قمة العبودية، لا يساوى ولا يسامى ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾.

فمحمد ﷺ ﴿عَبْدِهِ﴾ كأنه فقط لا سواه، فلا نجد ﴿عَبْدِهِ﴾ في أشرف المواقف إلّا إياه ﴿نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ اللّهم إلّا ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾﴾(١) ولكن «زكريا» هنا تبين أنه لولاه لما عرف بـ ﴿عَبْدِهِ﴾.

وكذلك القرآن كتابه ﴿الْكِتَابَ﴾ كل الكتاب كأن لا كتاب سواه، كتاب في القمة ينزل على (عبد) في القمة ولأنه يحوي كل كتابات الوحي وزيادة! ثم ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا﴾ حالان وصفيتان، أولاهما سالبة تسلب عنه كل نقص وانحراف، وأخراهما إيجابية تثبت له كل كمال، وهذه طريقة مثلى في كل تعريف كامل وكما في أسس الإسلام ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ تخلية ثم تجلية.

والعوج فتحاً هو ما يدرك بالبصر سهلاً، وكسراً ما يدرك بالبصيرة، فلا يرى أرباب البصيرة في القرآن ونبيه انحرافاً واعوجاجاً وفطوراً:

﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾(٢) ﴿قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ﴾(٣) وحقيقته أن يكون فيما يصح عليه أن ينتصب، ويميل ويضطرب ويستقيم، فقد يجعل الله ما يتوارد عليه الحالتان فهو غير معصوم، أم لا يتوارد له إلا حالة واحدة كما القرآن ونبي القرآن، فالعصمة لزامهما دون نكوب عن المنهاج ولا هوة الاعوجاج.

---

(١) سورة مريم، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) على الترتيب ٢٥: ١ - ٥٢: ١ - ٥٧: ٩ - ٢٩: ٢٦ و١٩: ٢.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٢٨.

والقيم هو مؤكد القيام والقوام، تعنيهما ﴿قِيَمًا﴾ أياً كان، قواماً في نفسه إذ يهدي للتي هي أقوم، وقياماً في دعوته إذ يقوّم القاعدين ويستيقظ النائمين، في سائر القرآن لا نجد قيوماً إلّا الله ولا قيما إلّا القرآن وقد يقرنان: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[١] فمن قيموميته نزل ذلك الكتاب القيّم، فهو قيّم كما الله منزله قيوم، باقٍ يدوم ما بقي الدهر دون تحرّف أو نسخ.

فالقرآن قيّم كما نبي القرآن، والدين منهما وبينهما قيّم ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ﴾[٢] ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝٢ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾[٣] ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[٤] وأقوم القيّم في هذا الدين والكتاب قمة التوحيد القيمة ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[٥] وكما ينبو من الفطرة التي فطر الناس عليها، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٦].

ثم «له» في الحال الأولى تعني ﴿عَبْدِهِ﴾ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على البدل، كما الجملة حال عن الإنزال، فتعني: انزل ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾: إنزال دون عوج، كما ومُنزل دون عوج: الكتاب، ومَنزِل دون عوج ﴿عَبْدِهِ﴾ حال مثلثة عن ثلاث: إنزالاً ومُنزَلاً ومنزلاً!

و﴿قَيِّمًا﴾ حال مربعة، هذه، والله، فإنه قيّم وإنزاله قيّم وكتابه قيّم وعبده قيم!

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ٢، ٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤٣.
(٣) سورة البينة، الآيتان: ٢، ٣.
(٤) سورة البينة، الآية: ٥.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٤٠.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ومن العوج في إنزال الكتاب الوحي أن يشتبه بوحي الشيطان أو ينسى، ومن العوج في ﴿عَبْدِهِ﴾ نقصان في مثلث العصمة: تلقياً وإلقاءً وتطبيقاً لوحي الكتاب، ومن العوج في الكتاب، تعرضه لتحريف أو نسخ، أو عوج له في دلالة أو مدلول أما ذا ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾.

وكما الله قيم، فإنزاله ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ قيم وكتابه قيم ورسوله قيم بقمة العبودية وقوامتها أمّاذا من لزامات الرسالة بالوحي.

فكل عوج من العوج عن الثلاث منفية، وكل قوامة وقيام للأربع مثبتة.

ولماذا ﴿وَلَمْ يَجْعَل﴾ والعبد دون اتصال بالوحي أعوج دون أن يجعل له عوج، وهو متصلاً بالوحي ليس له عوج؟

وهكذا الأمر في الكتاب، وأما الإنزال فطالما العبد متصلاً بالوحي ليس له عوج؟

علّ جعل العوج في ﴿عَبْدِهِ﴾ أن ينقص من كماله الرسالي كما في الكتاب من كماله في الوحي، فلأن الوحي والرسالة يقتضيان كمالاً دون عوج، فلا يتصور لهما عوج إلّا أن يجعل لهما عوجاً.

وما هو الهدف في ذلك الإرسال مختصراً لا محتصراً؟: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾.

وترى ما هو البأس الشديد؟ ومن لدن من هو؟ إنه بأس شديد من الله عذاباً في الدنيا وأشد منه في الأخرى، وبأس شديد من رسول الله ﷺ حرباً منه ومحارباً هو من لدنه كعلي عليه السلام فإنه من رسول الله وحربه منه فمن لدنه: الله، يعم عذابات الله، ومن لدن رسول الله: يعم لدنه متصلاً: حربه، ومنفصلاً محاربه الذي هو من لدنه[1].

(١) فضمير الغائب راجع إلى الله أصالة، وإلى الرسول رسالة، رجوعاً بدلياً إلى كل على حدّه،=

﴿مِن لَّدُنْهُ﴾ تتعلق بالمستقر المحذوف «كائناً» لينذر بأساً كائناً من لدنه، لا لينذر من لدنه لأنه من توضيح الواضح!

فنتيجة عدم القوام بهذا القيّم، بأس في الحياة الدنيا ومعيشة ضنك: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾[1] ثم بأس أشد في الأخرى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾[2].

﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ﴾ فغير المؤمنين التاركين الصالحات يُنذرون بأساً شديداً، والمؤمنون العاملون الصالحات يبشرون أجراً حسناً، فأين هم المؤمنون التاركون الصالحات؟ طبعاً هم عوان بين ذلك، لا إلى بأس شديد ولا أجر حسن. لهم بأس قدر ترك الصالحات، ولهم أجر قدر الإيمان والحسنات ﴿مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

هؤلاء في بأس شديد وأولاء في أجر حسن.

ومن بين المنذرين من هم من أنحسهم وأسوئهم أدباً لرب العالمين:

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)﴾:

﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ولادة أو تشريفاً ﴿مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ جنس العلم أياً كان ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين هم على آثارهم مقتدون، مقلدٌ جاهل ومقلَّد جاهل

= ومن بأسهم في الأولى في التأويل أم عموم الدلالة كمصداق جلي وفي بأس الحرب الإمام علي عليه السلام وهو من لدن رسول الله كما في تفسير العياشي عن البرقي عمن رواه رفعه عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام لينذر بأساً شديداً من لدنه قال: البأس الشديد علي وهو لدن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قاتل معه عدوه فذلك قوله: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢].

(١) سورة الحشر، الآية: ١٤.

(٢) سورة النساء، الآية: ٨٤.

في قوله جاهلة قاحلة ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ولا ترتبط بعقولهم وأفكارهم فلا تتجاوز الأفواه، فالكلمات العاقلة العالمة تخرج من نبعة العلم ومصدر العقل ثم تصل إلى الفم، فـ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ذا بُعدين، حيث تناحر كلمتهم تلك لا فقط الواقع بل وعقولهم إذ ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾!

فهناك صدق مطلق: قول يوافق مثلث العقيدة والعمل والواقع مسنوداً إلى دليل بارع، وكذب مطلق: لا يستند إلى علم نفسي ولا علم تقليدي ولا يوافق الواقع، ومن أكذبه ما يستحيل دليلاً وواقعاً كالقول ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ فـ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ تحصر قولتهم تلك في كذب على كل أبعاده، عريقاً في الكذب حيث يستحيل صدقه لاستحالة واقعه والدليل عليه.

وبينهما صدق وكذب نسبيان، كمن يقول ما لا يعتقده ولا يعمل وفقه رغم أنه واقع كقولة المنافقين ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(١) فإنها صادقة بجنب الواقع وكاذبة في نفسه إذ لا يعتقده.

أو يقول ما يعتقده ويخالف الواقع، وافقه عملياً أو خالفه، وهو يعاكس قول المنافقين، فأردأ دركات الكذب هو المطلق المستحيل، ثم المطلق الممكن، ثم ما يخالف العقيدة ثم المخالف للواقع، ثم ما خالفه عمله.

كما وأصدق الصدق هو المطلق الواجب ثم ما بعده نازلاً فنازلاً.

والقائلون اتخذ الله ولداً، كاذبون في ابعاده كله: ١ - لا علم لهم شخصياً، ٢ - ولا تقليدياً، ٣ - فلا يعتقدون ما يقولون، ٤ - ولا يوافق الواقع، ٥ - ولن يوافقه، ٦ - ولن يجدوا له ولداً، ٧ - ولن يجدوا لقولهم برهاناً، فهم في دركاتهم السبعة الجهنمية من كذبهم فـ ﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾! وإنها كلمة خاوية المدلول لا تحوي معنى بأي معنًى، إذ لا تدل

(١) سورة المنافقون، الآية: ١.

على واقع معتمد ولا الواقع المطلق، إذاً فهي ﴿كَبُرَتْ﴾ في الأكاذيب إذ ليس فيها إلّا كَذِبٌ، معناها فظيع، وفحواها عظيم، فكبرت الكلمة كلمةً تخرصاً في ذات الله دون تحرّس.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦﴾:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾[1] ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[2] وبخوع النفس هو قتلها غماً وهماً، وكان الرسول ﷺ يتحسر على تركهم الإيمان كأنه باخع نفسه، فنهاه الله تعالى عن ذلك تحنناً عليه وتلطفاً، وما «لعل» هنا إلّا موضع ترج لموقف الرسول ﷺ من دعوته لو خلي وطبعه والله ينهاه تحنناً وتعطفاً عليه لا أنه تعالى يترجّاه وحاشاه!.

و﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ هو القرآن كما ونبي القرآن حديث ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ. . .﴾[3] ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾[4] وكما الله ثالث اثنين حديث: ﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ﴾[5] والقرآن ونبيه من آياته، أحاديث ثلاثة لا تعني حدثاً ولا سيما في الله، وإنما ما يتحدث عنه ناصعاً مبرهَناً لاخفاء فيه، إلّا في القرآن ونبيه فإنهما من حديث حادث إضافة ناقصة عن حديث الله غير الحادث، ومن الطريف الظريف أن هذا الحديث القرآن يعم الثلاثة في بُعدين، ثانيهما أنه أهم حديث في القرآن حيث يتحدث عن الله، ويتحدث عن نفسه وعن رسول الله، تعريفات ثلاثة بمثلث الحديث!

و﴿ءَاثَٰرِهِمْ﴾ هي الأثرات السيئة في الحياتين فهي من مخلّفات ﴿لَّمْ

(١) سورة الشعراء، الآية: ٣.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ١٨٤، ١٨٥.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٨٥.

(٥) سورة الجاثية، الآية: ٦.

﴿يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تبخع على آثارهم أسفاً!.. أو أن آثارهم خلفهم، تلاحقهم لتلحقهم قاتلاً نفسك خلفهم ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ...﴾ ألا يا صاحب الرسالة السامية؟ أنت تؤدي واجبك ثم وما عليك ألا يهتدوا فـ ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[1] ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾[2].

وفي الحق حقيق لحامل رسالة ودعوة أن يبخع نفسه إذا قصّر في رسالته، والرسول ﷺ ما قصر ولن: فلماذا البخوع أسفاً؟.

وغير حقيق له أن يبخع لماذا الله ما حملهم على الهدى وهم مصرون على الردى، فإن الله لا يحمل أحداً لا على هدى ولا ردى، فلماذا البخوع أسفاً؟؟

وغير صحيح أن يبخع لماذا هم مصرون على الضلالة، وهو تقصير منهم لا منه فلماذا البخوع أسفاً على آثارهم: خلفهم - وعلى آثارهم بأعمالهم فـ ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ﴾[3] ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[4]؟

وقد بلغت وما اهتدوا وليس الله ليهدي قوماً يخالفونه إلى الردى ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[5]!

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾:

والناس بالنسبة لما على الأرض الزينة منقسمون إلى ناس إنسان،

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٧.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٤٠.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧٢.
(٤) سورة الشورى، الآية: ٤٨.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٨.

ونسناس حيوان: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾[١].

وهؤلاء يعلمون ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[٢] «فمن أبصر إليها أعمته ومن أبصر بها بصرته»[٣] ف ﴿مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا﴾ لا هي غاية للحياة عليها ولا باقية وإنما «متاع قليل ثم إلينا يرجعون»!

فلماذا ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ معاصرة للعائشين عليها دائرة؟ ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾! إبصاراً لها فإخلاداً إليها أو إبصاراً بها فزهداً فيها! «ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرعكم في طاعة الله»[٤] حيث العاقل ينظر إلى هذه الزينة الفانية إبصاراً بها إلى ما وراءها، لا إبصاراً إليها كغاية قصوى، فهو إذاً فيها وَرِع عن محارم الله سَرِع في طاعة الله! لا هَلِع ولا هَرِع في زينتها! ولماذا ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ وهم القلة القليلة، لا «أسوأ عملاً» وهم الكثرة الكثيرة؟ لأن الهدف الرئيسي من البلاء بزينة الحياة الدنيا هو التسابق في حسنات الأعمال مهما قل أصحابها، دون سيئاتهما مهما كثر أصحابها.

ومن آيات اندثارها واندحارها ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

الصعيد هو المرتفع الصاعد حيث تصبح الأرض بما عليها يوم قيامتها كتلة مرتفعة كلها، ﴿جُرُزًا﴾ لا نبات فيها[٥]، قاحلة لا ماء فيها ولا كلاء: ﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾﴾[٦].

---

(١) سورة الروم، الآية: ٧.

(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٦٤.

(٣) من وصف الإمام علي عليه السلام للدنيا بين الناظرين إليها.

(٤) الدر المنثور ٤: ٢١١ أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في التاريخ عن ابن عمر قال: تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الآية: ﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] - فقلت: ما معنى ذلك يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ قال..

(٥) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨] قال: لا نبات فيها.

(٦) سورة طه، الآيتان: ١٠٦، ١٠٧.

فالجرز مأخوذ من «ناقة جُروز» إذا كانت كثيرة الأكل لا يكاد لحياها يُسكنان من قضم الأعلاف ونشط الأعشاب، كـ«سيف جُراز» إذا كان يبري المفاصل ويقطُّ الضرائب، فسميت أرض القيامة جرزاً إذ كانت كأنها أكلت نبتها فلم تدع منه نابغة ولا تركت طالعة!.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ﴾ تلمّح أن أفعال الله تعالى مغيّاة لحكم وأغراض، وهنا ﴿زِينَةً لَّهَا﴾ لغرض الابتلاء، فالدنيا دار بلاء برخائها وعنائها وأكثرها عناء، والغرض الأسمى من الابتلاء التسابق في الحسنى أن يتذرعوها إلى الله زلفى ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فليست السوأى أو التسابق فيها من أغراضها.

وترى أن الله يبلو عباده اختباراً واستعلاماً وهو علام الغيوب، فإنه يعلم السّر وأخفى؟ كلا! وإنما الابتلاء بالخير والشر كدحاً إلى ربهم كدحاً ليتكاملوا، وليعلموا هم أنفسهم مَن هم، فعند الامتحان يكرم المرء أو يُهان!

فالله يعلم مسايرهم ومصائرهم ولكنه يبلوهم لكي يزهد من يزهد، ويزهو من يزهو، فيجزي على ما يصدر منهم فعلاً، بما يحصل منهم في هذه البلوى عملاً، وهنا يسكت عمن لا يحسنون صنعاً حيث الهدف الأسمى ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾؟ فلهذه الزينة نهاية محتومة، ستعود الأرض عنها جرداء لا ماء فيها ولا كلاء!.



﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾
إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ
أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾
ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ
نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ
إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ
لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ
إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ
ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا
وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ
بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾
وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟
لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم

بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾﴾:

ثماني عشرة آية تنزل تعريفاً بقصة أصحاب الكهف، تتقدمها آية الاستعجاب من عَجَب قصتهم في حُسبان، فآيات الله كلها عجب وليست فقط قصة أصحاب الكهف وفيها أعجب منها، ومنها حسب الروايات رأس الحسين عليه السلام المجذوذ حيث تكلم وقرأ آيات من الكهف إلى ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ فقيل: «أمرك اعجب»![1].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٤٢ ح ١٥ في الخرايج والجرايح عن المنهال بن عمرو قال: والله أنا رأيت =

ولأن ﴿عَجَبًا﴾ مصدر تلمح إلى أن القصة كانت في حسبان من أعجب العَجَب، وعلّ من عجبها ترك الرسول ﷺ الاستثناء بمشيئة الله لما سئل عنها فقال: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾[1] اطمئناناً بربه أنه يوحي إليه بها، واستعجالاً لجوابهم، لذلك تتقدم القصة بعد احتباس الوحي ردحاً من الزمن آية التأنيب بهذا العجب ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ فـ «أم» عطف على محذوف يناسب المقام كـ «أحسبت أنك تملك وحي ربك فقلت: ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ دونما استثناء بمشيئته؟ ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾. عجباً»؟ فأسرعت في وعد الجواب أم ماذا؟[2].

= رأس الحسين عليه السلام حين حمل وأنا بدمشق وبين يدي رجل يقرأ الكهف حتى بلغ قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] فأنطق الله تعالى الرأس بلسان ذرب طلق قال: أعجب من أصحاب الكهف حملي وقتلي وفي ١٦ في كتاب المناقب لابن شهر آشوب وروى أبو مخنف عن الشعبي أنه صلب رأس الحسين عليه السلام بالصياف في الكوفة فتنحنح الرأس وقرأ سورة الكهف إلى قوله: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وسمع أيضاً يقرأ: ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾.

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٣.

(٢) المصدر ح ٢٩ في تفسير علي بن إبراهيم القمي حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول سورة الكهف أن قريشاً بعثوا ثلاثة أنفار إلى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن المعيط والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود والنصارى مسائل يسألونها رسول الله ﷺ فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود فسألوهم فقالوا: اسألوه من ثلاث مسائل فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق ثم سلوه عن مسألة واحدة، فإن ادعى علمها فهو كاذب - وهي مسألة وقت الساعة - إلى أن قال: فرجعوا إلى مكة واجتمعوا إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يزعم أن خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فإن أجابنا عنها علمنا أنه صادق وإن لم يخبرنا علمنا أنه كاذب فقال أبو طالب: سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث (أصحاب الكهف - موسى وخضر - ذي القرنين) فقال رسول الله ﷺ: غداً أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عليه أربعين يوماً حتى اغتم النبي ﷺ وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به وخرجت قريش واستهزؤوا وآذوا وحزن أبو طالب فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل لقد أطأت! فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلّا بإذن الله تعالى فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ حَسِبْتَ - يا محمد - أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ثم قص قصتهم فقال: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ...﴾ [الكهف: ١٠].

لا هذا ولا ذاك ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى...﴾.

وإن في احتباس الوحي عن الرسول ﷺ لطف خفي، وآية هي أعظم وأدل على نبوته من إخباره بقصة أصحاب الكهف أم ماذا؟ فلو لم يكن رسولاً ما أخرهم في طائل من الزمن[1] فوحي القرآن وآياته أعجب من هذه القصص!

وتسلية لخاطره الأقدس تنزل عليه سورة الضحى ﴿...مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى...﴾[2] وإنما احتباس الوحي كنفس الوحي وجهة من التربية الربانية.

فلقد كان الرسول زمن الاحتباس في حالة مزرية مضرعة مريبة، إذ بدر الوحي الحبيب من الحبيب مسلياً خاطر الحبيب ومربيّاً له ﴿أَمْ حَسِبْتَ...﴾ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۝٢٤﴾[3] وهذا في أخريات القصة لكيلا يفاجأ في بدايتها بنص التنديد، اللهم إلّا تلميحاً مليحاً مريحاً: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾؟

لا تحسب أنها عجب وفي آياتنا ما هي أعجب، فأنت بقرآنك ورسالتك في قمة العجب[4] ولذلك تفتتح السورة بما افتتحت تقييماً للكتاب ونزوله ومنزله «قيماً» من منزِّله القيّوم فحمداً له كل الحمد[5]!

---

(١) اختلفت الروايات في أنه احتبس يومين أو ٣ - ٤ - ١٢ - ١٥ - ٢٥ - أو ٤٠ والأخير هو الأقرب كما يأتي عن تفسير القمي عن الإمام الصادق عليه السلام.

(٢) سورة الضحى، الآية: ٣.

(٣) سورة الكهف، الآيتان: ٢٣، ٢٤.

(٤) الدر المنثور ٤: ٣١٢ - أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في آية العجب: يقول الذي آتيتك من العلم والسنة والكتاب أفضل من شأن أصحاب الكهف والرقيم وبنفس رواه عن مجاهد كانوا بقولهم ١ عجب آياتنا ليسوا بأعجب آياتنا.

(٥) لم يكن ذلك الحسبان من الرسول ﷺ بل ممن سألوه فهو من باب إياك أعني واسمعي يا جارة، فقد كان الرسول يعيش أعجب آيات ربه ومنها نفسه المقدسة بقرآنه وسنته!.

ترى وَمَن هم أصحاب الكهف والرقيم، هل هم أصحاب الكهف وآخرون أصحاب الرقيم، وقد أهمل عن ذكر الآخرين؟ وهذا خلاف البلاغة في أدناها فضلاً عن أعلاها! فهم جماعة واحدة تعرف بالكهف والرقيم.

ثم الكهف معروف فما هو الرقيم؟ إنه المرقوم وعلّه على باب الكهف[١] تعريفاً بحالهم، ويؤيده قرن الكهف بالرقيم، رقيماً للكهف بأصحابه فهما واحد كأصحابهما جماعة واحدة، لا اسم القرية التي خرجوا منها[٢] فإنهم تركوا صحبتها إلى الكهف فليسوا من أصحابها! اللهم إلّا إشارة إلى الحالتين المختلفتين، ولكن لا تعرف لحد الآن بلدة الرقيم! أو قد تجمعهما الرقيم! رقيماً على باب الكهف رُقم فيه مبدأهم ومأواهم!

وأما أن الرقيم هو كلبهم، فذلك هتك لساحتهم أنهم أصحاب كلب، أو الكلب صاحبهم، ثم لا يعرف كلب رقيم، أَبَعْدَما أهمل عن أسمائهم هنا يبرز كلبهم باسمه وهم صحبوه؟!

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

هذه الثلاث بين الثماني عشرة في قصتهم إجمال عن تفصيل، يضم ما

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٤٤ ح ٢١ العياشي عن محمد عن أحمد بن علي عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال: هم قوم فروا وكتب ملك ذلك الزمان بأسمائهم وأسماء آبائهم وعشائرهم في صحف من رصاص وفي الدر المنثور ٤ : ٢١١ عن ابن عباس قال: الرقيم الكتاب وعن أبي صالح قال: الرقيم لوح مكتوب وعن سعيد بن جبير قال: الرقيم لوح من حجارة كتبوا فيه قصة أصحاب الكهف وأمرهم ثم وضع على باب الكهف وعن السدي قال: الرقيم حين رقمت أسماؤهم في الصخرة كتب الملك فيها أسماءهم وكتب أنهم هلكوا في زمان كذا وكذا في ملك ريبوس في سور المدينة على الباب قول هذا قول جميع أهل المعاني والعربية ثم كما يأتي احتمال آخر للرقيم أنهم ثلاثة من أصحاب الكهف رقموا خالصات أعمالهم!.

(٢) الدر المنثور عن ابن عباس قال: الرقيم واد دون فلسطين قريب من آيلة.

فعلوه وقالوه: ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ...﴾ وما فعله الله أوّلاً ﴿فَضَرَبْنَا...﴾ وأخيراً ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ...﴾ طياً لهما باختصار دون احتصار: ﴿أَمْ حَسِبْتَ...﴾ ﴿إِذْ أَوَى...﴾[1] استعراضاً لخطوطها الرئيسية كبراعة استهلال ومن ثم التفصيل.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[2].

---

(١) ﴿إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ دون ومن الرقيم من الشاهد أنه ليس البلدة التي خرجوا منها ثم ولم يأت ذكرها في تفصيل القصة وعلى أية حال فالروايات مختلفة في أنهم جماعة واحدة أم جماعتان وظاهر القرآن الوحدة.

ثم مختلف الروايات في ﴿وَٱلرَّقِيمِ﴾ أهو اسم البلد الذي خرجوا منه أو الوادي الذي فيه الكهف أو جبله أو اسم كلبهم، أو هو لوح من حجر أو رصاص أو نحاس أو ذهب رقم فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم وقصتهم ووضع على باب الكهف أو داخله أو معلقاً على باب المدينة أو في بعض خزائن الملوك، أو أنه لوحان، اثني عشر وجهاً في الرقيم وما في المتن هو الأنسب والله أعلم.

(٢) في قصة أصحاب الكهف روايات متضاربة بعضها خلاف نص القرآن أو ظاهره، وبعضها لا توافق القرآن ولا تخالفه وثالثة توافق نص القرآن أو ظاهره ومن الثالث إلا في البعض من مواضيعها ومن أسلمها ما رواه القمي في تفسيره حدثنا أبي عن ابن أبي عمير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول سورة الكهف - إلى قوله في القصة -: سألوا رسول الله عن الثلاث المسائل فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: غداً أخبركم ولم يستثن فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً حتى اغتم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به وفرحت قريش واستهزؤوا وآذوا وحزن أبو طالب فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا جبرئيل لقد أبطأت؟ فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلا بإذن الله فأنزل الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ثم قص قصتهم فقال: إذ أوى الفتية إلى الكهف..

قال: فقال الصادق عليه السلام: إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبار عات وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله وكان هؤلاء قوماً مؤمنين يعبدون الله عز وجل ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع أحداً يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلة الصيد وذلك أنهم مروا براعٍ في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم. =

تطلبوا من الله رحمة لدنية في البداية ورشداً في النهاية، وكأن ﴿رَحْمَةً﴾ أو منها ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ...﴾: تخلصاً من جبّارهم وهم أحياء دونما حاجة إلى شراب وغذاء! وكأن ﴿رَشَدًا﴾ أو منه ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ...﴾ رشداً لهم ولمن عثروا عليهم!

= قال عليه السلام: فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد هرباً من دين الملك فلما أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف والكلب معهم، فألقى الله عليهم النعاس كما قال الله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١] فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك وأهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون، ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوماً أو بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم خذ هذه الورق وادخل المدينة تنكراً لا يعرفونك فاشتر لنا طعاماً فإنهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردونا في دينهم، فجاء ذلك الرجل فرأى مدينته بخلاف التي عهدها ورأى قوماً بخلاف أولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له: من أنت؟ ومن أين جئت؟ فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف وأقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم وقال بعضهم خمسة سادسهم كلبهم وقال بعضهم سبعة وثامنهم كلبهم، وحجبهم الله بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنه لما دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكونوا أصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم أنهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وأنهم آية للناس فبكوا وسألوا الله أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا.

ثم قال الملك: ينبغي أن نبني هاهنا مسجداً نزوره فإن هؤلاء قوم مؤمنون فلهم في كل سنة تقلبان ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى وستة أشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف وذلك قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] إلى آخر الآيات.

وهذه الرواية وهي أسلم روايات القصة قد تخالف آياتها في مواضيع:

منها: أن المختلفين في عدتهم هم الذين اعثرهم الله عليهم! وهم برؤيتهم على أية حال عارفون عدتهم، و﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ...﴾ [الكهف: ٢٢] تحول الاختلاف في عدتهم عنهم إلى الآتي!.

ومنها: نومتهم الثانية، وهم لم يموتوا ولا تحمل نومتهم حكمة والقرآن يحيل اطلاع الرسول عليهم وهم نائمون ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا...﴾ [الكهف: ١٨]!!

ومنها: تقلبهم في كل سنة مرتين، وماذا يفيدهم ذلك التقلب البعيد، وإن كان لا تضاد آية التقلب، إلا أنها لا تلائمها، ثم هي بعيدة في الواقع!.

﴿أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ كما أمرهم الله «وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويُهيِّئ لكم من أمرهم مرفقاً» وطبعاً بإلهام دون وحي، والأوي تلمح بفرارهم في اعتزالهم عما سوى الله وإيمانهم بالله ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَآ . . .﴾ التماساً مما وعدهم وقد حقق لهم، ولم تكن تلك الرحمة وذلك الرشد بالإمكان وهم بين الطغاة المستكبرين.

هنا ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ تدل على مدى هيمانهم لرحمة بعدما لاقوا من ضغط بغيض ونقمة، رحمة لدنية عن نقمة شيطانية، ثم تهيئة فيها من أمرهم الإمر رشداً: لهم ولمن سواهم، ومن رحمته ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ ﴿وَرَبَطۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ومن الرشد من أمرهم هدى من اهتدى بذكراهم واقتدى بهداهم!

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴿١١﴾﴾:

هنالك مثلث من زوايا الحياة وراء اليقظة التامة ١ - نعسة يسمع فيها الأذن ضرباً على البصر وهو نوم نسبي، ٢ - ونومة لا يسمع فيها الأذن، والقلب حيّ ضرباً على الأذن، حيث ينام بعد البصر، وهو نوم مطلق.

و٣ - موتة عن الحياة الدنيا إلى حياة برزخية ضرباً على القلب، والحياة في مثلثها هذه باقية على درجاتها، وهنالك موتة مطلقة ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[1] ومن ورائها حياة مطلقة ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾[2]!.

﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ﴾ هي النومة المطلقة ولكن لا كالعادة المستمرة وإنما ﴿سِنِينَ عَدَدٗا﴾!

وترى ماذا تعني ﴿عَدَدٗا﴾ و﴿سِنِينَ﴾ وهو جمع، لا محالة عدد؟ قد

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

تعني استقلالاً لما استكثر من سنيِّهم ﴿ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ فهنالك رَقدات وموتات أم ماذا من خوارق العادات أكثر من هذا العدد.

فالسنين العدد هنا كدراهم معدودة في يوسف (٢٠) ونفياً عن عجب القصة، ﴿أَمْ حَسِبْتَ...﴾ أم وزيادة هنا هي أن سنيّهم معدودة معلومة كعددهم!.

إن الضرب التام على الأذن يسبقه نوم البصر ويقارنه نوم القلب دون موته، وقد يعبر عنه بتغشية النعاس التي هي حدث صغير من الأحداث: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ...﴾[1] واليقظات الثلاث في الإنسان: بصراً وأذناً فقلباً لمّا تُغَشّى بالنعاس فهنالك يتم النوم ويطّم، وقد يستمر باستمرار سببه عادياً كما في سائر النوم، أم خارقاً للعادة كما في ذلك النوم، حيث ضرب فيه على آذانهم سنين عدداً حين يضرب على آذان الآخرين ساعات، فلم يكن موتاً ولا كنوم الآخرين وإنما نومة خارقة العادة[2].

فالضرب على آذانهم سنين إبطال لمفعولياتها في سنين دون صمم، ولكنما الضرب على القلب يبطل حياته فهنالك الموت وإن كان إلى أمد كما في عزير والمختارين من قوم موسى أمن ذا، فهذا أحسن تعبير وأشمله لرقدتهم في سنين، في حين ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ كأن لم يضرب على أبصارهم وهم مضربون عن الإبصار! فإنما ﴿عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ فأصبحوا كمن ضُرِبَ سماخه فهو موقوذ مأموم ومشدوده مغمور[3].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٢) وقد يعنيه «أماتهم» فيما يرويه الطبرسي في الاحتجاج عن أبي عبد الله عليه السلام حديث طويل يقول فيه: وقد رجع إلى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم أصحاب الكهف أماتهم الله ثلاثمائة عام ثم بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم وليريهم قدرته وليعلموا أن البعث حق (نور الثقلين ٣: ٢٥٢ ح ٢٩).

(٣) هذه الخمسة تعني على الترتيب خرق الأذن - ضرب يشرف إلى الموت - مشجوج - المشدوخ الرأس، المغمى عليه، ننقل هذه الجملة الجميلة عن السيد الشريف الرضي من كتابه مجازات القرآن ص ٢٠٨.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾﴾:

﴿بَعَثْنَٰهُمْ﴾ عن نومهم فالبعث ضروب شتى وهو منها: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾[1].

﴿لِنَعْلَمَ﴾ أبعدَ جهل؟ ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾! أم تحققاً لمعلومه؟ وغير فصيح ولا صحيح أن يعبر عنه بـ «نعلم»! وهما إذا كان من العِلم، أم هو من العَلم لنجعل مبعثهم علامة: ﴿أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ...﴾ كما في أمثالها العشرة الأخرى في سائر القرآن[2]؟.

وهذا هو الصحيح الفصيح.

وترى من هما الحزبان؟ أهما حزب الإيمان أصحاب الكهف وحزب الكفر المختلفان في أمد لبثهم إحصاءً؟ ولم يسبق ذكر عن حزب الكفر، ولا أنهم بقوا إلى بعثهم، ولا أنهم عرفوا كهفهم حتى يحصوا لبثهم! أم هما من أصحاب الكهف أنفسهم حيث افترقوا فيما أحصوا من لبثهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...﴾.

و﴿أَحْصَىٰ﴾ فعلاً من الإحصاء، فأيهما أحصى وأيٌّ ما أحصى، فالمحصي ﴿قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ عالمين أنهم لبثوا ردحاً بعيداً من الزمن يعلمه الله، وغير المحصي ﴿قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ثم الأولون كملوا إحصاءهم حيث بعثوا أحدهم بورقهم فتبين لهم كم لبثوا؟

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.

(٢) وهو من علَم يعلَم علَماً يعني جعل علامة (لسان العرب)، ومن الشاهد عليه إضافة إلى الآيات المحكمات في الحيطة العلمية الإلهية أن «نعلم يعلم» في مواردها الإحدى عشر تدخل إما على مفرد «لنعلم الصابرين منكم» أو جملة كمفرد كما هنا، وهو بكسر العين يدخل على مفعولين.

ثم و﴿أَحْصَىٰ﴾ أفعل تفضيل فهما أحصيا والأولون أحصى من الآخرين، ولكن الآخرين لم يحصوا اللّهم إلّا ظاهراً من نومتهم بآية الشمس غاربة فيوم أم زائلة فبعض يوم![1].

وجهان أولهما أوجه ولثانيهما وجه بعيد أو علّهما معنيان أن الآخرين أحصوا وإن كان إحصاؤهم لا يحسب بشيء، والإحصاء الصحيح العِلم أنهم لبثوا أمداً بعيداً لا نعلمه، ثم الأصح الأعلم ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ إحصاء أو لا إحصاء غلط، ثم إحصاء صحيح، ومن ثم إحصاء أصح هو من الله.

﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾﴾:

إلى مشهد التفصيل من قصتهم شرحاً لما أجمل، أترى هنا تفصيلاً عن كل ما حصل من غث وسمين؟ وهذه حكاية تاريخية وليست قصة! وإنما ﴿نَقُصُّ﴾ قصاً ﴿نَبَأَهُم﴾ فالنبأ خبر ذو فائدة عظيمة، والله يقص أنباء ما قد مضى من غيرها، اصطفاء للمفيد منها نبراساً ينير الدرب على العالمين.

هنالك في التأريخ مزيج مما يفيد: «أنباء» وما لا يفيد أو يقل، ومن المفيد ما هو حق وما هو باطل[2] والقرآن يقص منها أنباء الحق ﴿نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ قصا بالحق عما هو حق مصاحباً لذكرى الحق[3] حقٌّ صُراح لا يشوبه باطل في أي حقل!

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ...﴾: مربع من التعريف برجال القصة: «فتية - آمنوا -

---

(١) قال أبو علي الفارسي: «أحصى» ليس من باب أفعل التفضيل لأن هذا البناء من غير الثلاثي المجرد ليس بقياس.

(٢) فقد يختلق أمر فيه تقوية لجانب الحق ولكن الغاية لا تبرر الوسيلة.

(٣) بالحق هنا حال من القص ومن النباء وظرف للقص بباء المصاحبة.

زدناهم - وربطنا» كل ذلك يربطها برباط القيام في كلمة التوحيد: ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ. . .﴾ ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ ثم تزييف الشرك في ربوبيته ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾!

١ - ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾: الفتى هو الطري من الشباب وقد يطلق على كل طريٍّ شاباً أم غير شاب، وكما يروى أن أصحاب الكهف كانوا كهولاً[1]، ولفتوتهم في طراوة حريتهم ورجولتهم سموا فتية، وإلّا لماذا ﴿فِتْيَةٌ﴾ لا أناس أم رجال؟ ثم ولا أثر هنا عن مشاغلهم ومناصبهم[2]. إلا أنهم فتية الإيمان والقيام.

٢ - ﴿ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ في قلوبهم بصرامة وصراحة.

٣ - ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ كما هي سنة الله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾.

٤ - ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ رباطاً يحجزهم عن الشتات، تثبيتاً لأقدامهم في هذا القيام والإقدام ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾[3] مزيداً للإيمان: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[4].

---

(١) نور الثقلين (٣: ٣٤٥ ح ٢٥) في روضة الكافي علي بن إبراهيم رحمه الله قال: قال: أبو عبد الله عليه السلام لرجل: ما الفتى عندكم؟ فقال: الشاب، فقال: لا الفتى المؤمن، إن أصحاب الكهف كانوا شيوخاً فسماهم الله عز وجل فتية بإيمانهم.
وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحاب الكهف أعوان المهدي عليه السلام وفي البرهان عن ابن الفارس قال الصادق عليه السلام وسبعة من الكهف يعدهم من أصحاب المهدي عليه السلام.

(٢) في بعض الروايات إن الفتية كانوا من أولاد الملوك، وفي أخرى من أولاد الأشراف وفي ثالثة: من أولاد العلماء وفي رابعة أنهم كانوا حماميين يعملون في بعض حمامات المدينة وفي خامسة أنهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في أموره وفي سادسة أنهم سبعة سابعهم كان راعي غنم لحق بهم هو وكلبه في الطريق.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١١.

(٤) سورة القصص، الآية: ١٠.

فالربط هو الشد بالرباط كربط الأسير: شده بالحبل والقِدِّ، فـ «ربطنا» هنا يعني شددنا على قلوبهم كما تُشد الأوعية بالأوكية فتنضم على مكنونها، ويؤمَن التبدُّد على ما استودع فيها، شددنا عليها لكيلا تنحل معاقد اصطبارها وتهفو عزائم جلدها، ولماذا ﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ﴾ وهي متعدية بنفسها؟ لأن ربط القلوب وهو رفع التمزق والتقلب في معترك الأحوال، لا يكفي استقامة ناصعة، فليربط على قلوبهم سكينة من ربهم بعد ربطها، ولكي يقوموا في معركتهم الصاخبة ضد الطاغوت ومتطلباته، لا فحسب أن يظلوا على عقيدة التوحيد قاعدين فيها دون قائمين..

فكما سألوا الله ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ تعني رحمة خاصة بعد رحمتي الهدى وزيادتها، فالله ربط على قلوبهم بهذه الرحمة اللدنيّة ولكي يقوموا:

﴿إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾:

أقياماً في قولة جوفاء؟ ولا تحتاج هكذا قولة إلى ربط على قلوبهم وإلى قيام والله منها براءٌ! بل قياماً في العمق في قولة صادقة عن قلب مربوط بالايمان في توحيد الله لحد يُحيل الإشراك بالله: ﴿لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا﴾ ولا في لفظة قول ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾: مفرطاً في البعد عن الحق[1] أفبعد الإيمان ومزيده وبعد أن ربط الله على قلوبنا نفرط في ذلك البُعد السحيق من اللاإيمان؟ كلّا ولن...

ولأن قول ﴿رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ ومعه قمة الإيمان لا يحتاج إلى قيام، فليكن قولاً جاهراً بين جماهير الناكرين، في ظرف تذوب فيه القلوب وتتفتت فيه الأكباد وترتاع له النفوس وتقشعر الجلود إذاً فهو قيام في بعدي

---

(١) في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا﴾ [الكهف: ١٤] يعني جوراً على الله أن قلنا له شريك.

الإيمان إعلاناً بعد إسرار بكل صمود وإصرار، يحيل الارتجاع إلى الشرك: ﴿لَن نَّدْعُوَاْ مِن دُونِهِۦٓ...﴾ قاطعين آمال المشركين، منقطعين عن كل عمل إلّا لله وعن كل أمل إلّا في الله! وقد تلمح ﴿لَن﴾ إن هناك كانت عليهم ضغوط تحملهم على الإشراك بربهم!.

ولكن ذلك توحيد قائم متجاهرٌ باهرٌ لا يقصمه أي جابر ولا يفصمه أي مكابر، وما يروى في إسرار إيمانهم بتقية في ظاهر الشرك مؤول[1] أو مطروح إذ لا توافق الكتاب، أم وتخالفه.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾﴾:

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المناكيد الأوغاد ﴿قَوْمُنَا﴾ الذين نعاشرهم ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ دون رب السماوات والأرض ﴿ءَالِهَةً﴾: طواغيت وسواهم من ملائكة أو جن أو إنسان ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ﴾؟ قضية القاعدة العقلية إن كل دعوى بحاجة ضرورية إلى برهان عليها وسلطان يقنع العقول

(١) نور الثقلين ٣: ٢٤٢ ح ١٧ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشرك فأتاهم الله أجرهم مرتين.

أقول: علّه ينظر إلى الحالة قبل قيامهم وإظهارهم، وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُواْ...﴾ [الكهف: ١٤] يلمح إلى حالتهم قبل قيامهم وبعده وهم فيها كانوا موحدين، وقد يدل عليه ما رواه العياشي عن عبيد الله بن يحيى عن أبي عبد الله عليه السلام أنه ذكر أصحاب الكهف فقال: لو كلفكم قومكم ما كلّفهم قومهم؟ فقيل له: وما كلفهم قومهم؟ فقال: كلفوهم الشرك بالله العظيم فأظهروا لهم الشرك وأسروا الإيمان حتى جاءهم الفرج - وقد يعني من فرجهم قيامهم بتوحيدهم جهاداً.

وفي بعض الروايات أنهم أظهروا المخالفة وعلم بها الملك قبل الخروج، رغم البعض الآخر أنه لم يعلم إلا بعد خروجهم، وفي ثالث أنهم تواطؤوا على الخروج فخرجوا وفي رابع أنهم خرجوا على غير تعارف وعلى غير ميعاد ثم تعارفوا وأنفقوا خارج البلد، وفي خامس أن راعي غنم لحق بهم وهو سابعهم وفي بعضها أنه لم يتبعهم وتبعهم كلبه وسار معهم.

غير المدخولة أياً كان، وكلما ازداد المدعي محتداً ومكانة يزداد السلطان عليه بياناً وبرهاناً، فدعوى الألوهية بحاجة إلى «سلطان بين» وليس عندهم أي سلطان على آلهتهم فضلاً عن ﴿بَيِّنٍ﴾ وكفاهم كذباً وظلماً على الحق ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؟

إن قيامهم في مقالة التثبيت للتوحيد والتنديد الشديد بكل جبار عنيد، كل ذلك كان جهاراً وبين الجماهير قبل انعزالهم عنهم، فقرروا بينهم قرارهم لِما بعد انعزالهم:

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾﴾:

هنالك اعتزال عنهم وما يعبدون حيث لا تنفع دعوتهم إلّا ملاحقتهم والضغط عليهم، فاعتزال الاختفاء احتفاظاً على أنفسهم ثم أوياً إلى الكهف ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ﴾ رحمته اللّدنّية التي التمسوها منه، وهل رحمة مطوية تُنشر ومكنونة تظهر، والرب لا يكنُّ ويطوي رحمته عمن يأهل، وإنما إسباغها ظاهرةً منشورة لا مستورة، إذاً فنشرها هو إيتاؤها كما تطلّبوها ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ ثم ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: ما يُرتفق به ويُعتمد عليه فيكون لظهوركم عماداً ولأعضادكم سناداً.

أجل وإن الكهف الضيق الخشن المظلم لهؤلاء الفتية هو منتشر الرحمة ومرتفق النعمة، إذ يأوون إليه ويلجأون بإيمانهم، ولكنما البلد وهم بين أهليهم في بحبوحةٍ من عيشة الحياة الدنيا، هو لهم نقمة ومصيبة إذ ليس لهم فيه راحة الرَّوح والرضوان وفسحة الإيمان! فإذا الكهف الضيق البعيد عن الحياة لهم فيه فسحة وحيوية تتسع خيوطها وتمتد ظلالها ويشملهم بالرفق واللين والرخاء، حيث الحدود الضيقة تنزاح والجدران الصلدة ترق والوحشة الموغلة تشف.

ذلك الكهف الحصين أملهم كما يوسف الصديق يفر من البلاط إلى السجن: ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾(١).

هنا في قصة الآوين إلى الكهف روايات، تقول طائفة منها إنهم كانوا ثلاثة هم أصحاب الرقيم، وهي لا تلائم القرآن إلّا أن يكونوا هم من أصحاب الكهف وقد رقموا خالصات أعمالهم نجاةً من الحجر المؤصد عليهم من كهفهم، ثم لحقهم الآخرون بعدما نجوا، فكلهم أصحاب الكهف والأوّلون يزيدهم أنهم أصحاب الرقيم، وقد يعمهم الرقيم بعد اختصاصه في وجوه مضت أمّا ذا؟(٢).

وفعلاً نشر لهم ربهم في فجوة الكهف من رحمته اللدنيّة وهيّأ لهم من أمرهم مِرفقاً، حيث آمنهم في كهفهم وضرب على آذانهم بكل تلطُّف وتعطُّف، ثم بعثهم ليعرفوا رحمته ويلمسوا مِرفَقه، وليعلم آخرون ﴿أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ رحمة ومرفق يتخطاهم إلى أعماق الزمان والمكان، طيّاً لبعديهما، وهدياً بقصتهم في إذاعات كتابات السماء والقرآن العظيم.

لا يهمنا أين كهفهم وأيان؟ وقد نتلمح ما لمحنا إياه القرآن:

﴿وَتَرَى ٱلشَّمۡسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهۡفِهِمۡ ذَاتَ ٱلۡيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقۡرِضُهُمۡ

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٣٣.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٤٦ ح ٢٨ في كتاب كمال الدين وتمام النعمة بإسناده إلى محمد بن إسماعيل القرشي عمن حدثه عن إسماعيل بن اعبل عن أبيه عن أبي رافع عن النبي ﷺ حديث طويل قال فيه بعد أن ذكر عيسى ثم يحيى بن زكريا ثم العزيز ثم دانيال ثم مكيخا ابن دانيال - وملوك زمانهم فعند ذلك ملك سابور بن هرمز اثنتين وسبعين سنة وهو أوّل من عقد التاج ولبسه وولى أمر الله عزّ وجلّ يومئذ وهو الشواء بن مكيخا وملك بعد أردشير أخو شابور سنتين وفي زمانه بعث الله الفتية أصحاب الكهف والرقيم وولي أمر الله في الأرض يومئذ دستجا بن لشوا بن مكيخا.

ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾:

تعريفان اثنان بكهفهم ثانيهما ﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾: فسحة من كهفهم، وفسحة من طلوع الشمس وغروبها، دون أن تؤذيهم بنورها ونارها، فإنما تفيدهم بضوئها، فجوة وفسحة دون تضايق لا بكهفهم ولا شمسهم، رحمة ومرفقاً من أمرهم!

وأوّلهما ﴿إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ...﴾ ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾: وهنا نتلمح موقعهم من الكهف وموقع الكهف نفسه.

والتزاور أصله الميل من الزَّور: الصدر - لا الزيارة، فترى الشمس تميل عن كهفهم كما يميل المتزاور عن الشيء بصدره ووجهه؟ يبين بذلك عن موضع الكهف المشار إليه من جهات المشرق والمغرب أن الشمس لا يلحقه ثوبها عند شروقها، ولا ينفض عليه عند غروبها حيث تجوزهم عادلة بمطرح شعاعها عنهم، أو أنها تعطيهم القليل من شعاعها عند مرّها بهم ثم تسترجعه عند انصرافها عنهم، تشبيهاً بقرض المال الذي يعطيه المعطي ليسترده، ويقدمه ليرتجعه.

فلم يكن الكهف - إذاً - شرقياً ذات اليمين فتُشرق في العمق، ولا غربياً ذات الشمال فتغرب عن العمق، وإنما طلوع تزاور ذات اليمين ميلاً عنه، وغروب قرض لهم ذات الشمال، إذاً فليكن له باب نصف شرقية وأخرى نصف غربية، الشرقي الشمالي، والغربي الجنوبي، ولكي ينطبق على الجغرافية المستفادة من الآية. فلا تحرمهم الشمس ولا تحرقهم، وإنما تشرقهم، دون حدة المقابلة لا شرقية ولا غربية. وهذا ينطبق على الكهف الواقع قرب عمان الأردن[1].

(١) هو على ما في الميزان ١٥ : ٢٩٧ كهف رحب على مسافة ثمانية كيلو مترات من عمان الأردن =

أم كان شرقياً وغربياً حسب البابين، ولكنه لطوله وهم في فجوة منه تشرق فيه الشمس ذات اليمين ولا تصلهم، وتغرب عنهم الشمس قرضاً وقد مستهم بخفيف ضوئها ولطيفه، فينطبق على كهف آخر[١].

= قرب قرية رجيب، في جبل محفور على الصخرة في السفح الجنوبي منه وأطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها وباب الكهف يقابل جهة الجنوب وفي داخله صفة صغيرة قرابة ثلاثة أمتار في مترين ونصف متر على جانب من سطحه المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريباً وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنها ثمانية أو سبعة، وعلى جدرانه نقوش وخطوط باليوناني القديم والشمردي منمحية لا تقرأ وصورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزويقات أخرى.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود والآثار الأخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الأول ٤١٨ - ٤٢٧ وآثار أخرى تدل على أن الصومعة بدلت ثانياً مسجداً بعد استيلاء المسلمين على الأرض، مشتملاً على المحراب والمئذنة والميضأة، وفي الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر الإسلام ثم عمروه وشيدوه مرة بعد أخرى، وهو مبني على أنقاض كنيسة بيزنطية كما أن المسجد الذي فوق الكهف كذلك.

وكان هذا الكهف بالرغم من الاهتمام بشأنه كما تدل آثاره متروكاً منسياً متهدماً حتى اهتمت دائرة الآثار الأردنية أخيراً[١] بحفره وتنقيبه فاكتشفته فظهر بعد خفائه قروناً عدة، وهنالك أمارات وشواهد أثرية على كونه هو كهف أصحاب الكهف:

يقول في اكتشاف الكهف إنه الكهف الذي ورد ذكره في الكتاب العزيز ويذكر انطباق الأمارات المذكورة فيه وسائر العلائم التي وجدت هناك على هذا الكهف دون كهف افوس والذي في دمشق أو البتراء أو اسكاندنافيه واستقرب فيه أن الطاغية الذي هرب منه أصحاب الكهف فدخلوا الكهف هو «طراجان الملك ٩٨ - ١١٧ م لا دقيانوس الملك ٢٤٩ - ٢٥١ الذي ذكره المسيحيون وبعض المسلمين ولا دقيانوس الملك ٢٨٥ - ٣٠٥ الذي ذكره بعض آخر من المسلمين في رواياتهم واستدل عليه بأن الملك الصالح الذي بعث الله أصحاب الكهف في زمانه هو «ثئودوسيوس» الملك ٤٠٨ - ٤٥٠ بإجماع مؤرخي المسيحيين والمسلمين وإذا طرحنا زمان الفترة الذي ذكره القرآن لنوم أصحاب الكهف وهي ٣٠٩ سنين من متوسط كلم هذا الملك الصالح وهو ٤٢١ بقي ١١٢ سنة وصادف زمان حكم طراجان =

---

(١) (سنة ١٩٦٣ م المطابقة (١٣٤٢) وألف في ذلك متصدية الأثري الفاضل «رفيق وفا الدجاني» كتاباً سماه اكتشاف كهف أهل الكهف نشره سنة ١٩٦٤ - ١٣٤٣).

وأياً كان كهفهم فموضوع البحث هم أنفسهم إذ كانوا من آيات الله في قيامهم ولبثهم في كهفهم وتزاور الشمس عن كهفهم إذا طلعت وقرضهم إذا غربت وتقليبهم ذات اليمين وذات الشمال: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

وتُرى من ذا تعني «ترى»؟ أهو الرسول ﷺ ولم يطلع عليهم عياناً كما تلمح «لو»: في ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾! أم غيره؟ فأحرى ألّا يطلع فيرى! أم هو بيان الحال إن كان هناك من يرى لرأى الشمس.. أو «ترى» خطاب لمن يرى، تلميحاً أن هناك من سوف يكشف الكهف فيرى، أو أن الرسول رآه ولم يُطلع عليهم ولعله أحرى، إضافة إلى من يرى، مهما لن يروا ﴿أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ بعدما أعثر عليهم فيما مضى، فإن رؤية الشمس تزاور تكفيها رؤية الكهف، وهي بسيطة للرسول ﷺ وهي غير رؤيتهم المستحالة بـ «لو» فإنهم قضوا نحبهم.

= الملك وقد أصدر طراجان في هذه السنة مرسوماً يقتضي أن كل عيسوي يرفض عبادة الآلهة يحاكم كخائن للدولة ويعرض للموت.

(١) وهنالك كهوف أخرى مثل كهف بجبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب إلى أصحاب الكهف وأنا زرته وعله في الدرجة الثانية من محتملات الكهف، وثالث بالبتراء من بلاد فلسطين ينسب إلى أصحاب الكهف ورابع هو كهف أفسوس مدينة خربة أثرية واقعة في تركيا على مسافة ٧٢ كيلومتراً من بلدة أزمير والكهف على مسافة كيلومتر واحد من إفوس قرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينايرداغ» وهو كهف وسيع فيه - على ما يقال - مئات من القبور مبنية من الطوب وهو في سفح الجبل وبابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية وليس عنده أثر من مسجد أو صومعة أو كنيسة، وهو الأعرف عند النصارى وورد ذكره في عدة روايات إسلامية، وخامس اكتشف - على ما قيل - في شبه جزيرة اسكاندنافيه من أوروبا الشمالية عثروا على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن أنهم أصحاب الكهف.

وربما يذكر كهوف أخرى منسوبة إلى أصحاب الكهف كما يذكر أن بالقرب من بلده نخجوان من بلاد قفقاز كهفاً يعتقد أهل تلك النواحي أنه كهف أصحاب الكهف وكان الناس يقصدونه ويزورونه، والكهوف غير الرومانية من هذه الست نقطع أنها ليست لأصحاب الكهف لأن القصة رومانية ولم تبلغ سلطتهم في أيام مجدهم نواحي أوروبا الشمالية والقفقاز.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (١٨)﴾:

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ حيث العيون مفتحة لا غامضة، مهما كانت حالتهم غامضة، ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ حيث ضربنا ﴿عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ﴾ ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ طول مكوثهم المديد ﴿ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ من شمائلهم ﴿وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ من إيمانهم، تقلباً دائباً جنباً إلى جنبه كيلا تأكلهم الأرض بطول المكوث، كيقظة أوتوماتيكية، و«كلبهم» طول هذه المدة ﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ﴾: فناء الكهف وبابه، أحيّاً يرصدهم؟ أم راقداً كأمثالهم؟ لا أثر عن رقدته في آياتها، فليكن يقظاناً يرقبهم وهو آية في هذه الآيات[١]!

حالتهم المنقطعة النظير بين موت وحياة ويقظة ورقدة تولّي المطّلع عليهم فراراً وتملأه رعباً.

وترى ذلك الحسبان مستمر إلى زمن الرسول ﷺ ولحد الآن حيث ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾[٢] فهم حتى الآن وحتى متى! ولا ندري! نائمون؟ ولماذا تلك النومة الطويلة بعد القومة عن الأولى ولا خبر عن هكذا نوَّم ليستدل بهم علي ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾[٣]! أم إنه حكاية لحال ماضية؟ قد تلمح لها ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾ حيث تُحيل ذلك الاطلاع، ولو

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٥١ ح ٣٦ - القمي حدثني أبي عن الحسين بن خالد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال: لا يدخل الجنة من البهائم إلا ثلاثة: حمارة بلعم وكلب أصحاب الكهف والذئب وكان سبب الذئب أنه بعث ملك ظالم رجلاً شرطياً ليحشر قوماً من المؤمنين ويعذبهم وكان للشرطي ابن يحبه فجاء ذئب فأكل ابنه فحزن الشرطي عليه فأدخل الله ذلك الذئب الجنة لما أحزن الشرطي.

(٢) في رواية القمي عن الإمام الصادق عليه السلام الماضية: «فأخبرهم صاحبهم أنهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل وأنهم آية للناس فبكوا وسألوا الله أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا»..

(٣) سورة الحج، الآية: ٧.

كانوا في حالتهم إلى زمنه كان ﷺ أحرى من يطّلع عليهم، وإلّا فما هي الحكمة في بقائهم نائمين ولن يطلع عليهم الرسول ﷺ المطَّلِع على كل مطّلع هو مطلع لرسالته كسائر مطالعها! والهدف من هذه الآية الإلهية الإعثار علـيـهـا ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾ ولا عثور عليهم بعدهم لحد الآن، فلا حكمة في نومتهم حتى الآن ومنذ أعثر عليهم![1] .. ثم الآية ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ...﴾ تتحدث عن حالتهم قبل بعثهم فتنقطع إذاً ببعثهم، وأما أنهم أرجعوا إلى نفس الحالة أم ماتوا فلا دلالة هنا على أي منهما، إلّا استدلالاً على موتهم بما استدللنا، والكهوف المكتشفة لحد الآن دليل واقعي على أنهم ليسوا بنائمين[2].

---

(١) في الدر المنثور عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله ذلك عمن هو خير منك فقال: ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾ [الكهف: ١٨] فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم فبعث رجالاً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف، فانظروا فذهبوا فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم فبلغ ذلك ابن عباس فأنشأ يحدث عنهم...
أقول: لو كانت الرواية منسوبة إلى المعصوم لما كنا نصدقها حيث لا توافق القرآن أو تخالفه، فضلاً عن ابن عباس!

(٢) في كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلاً عن تفسير أبي إسحاق إبراهيم بن محمد القزويني بإسناده إلى أنس بن مالك قال: أهدي لرسول الله ﷺ بساط من قرية يقال لها بهندف فقعد عليه علي وأبو بكر وعمر وعثمان والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد فقال النبي ﷺ لعلي: يا علي! قل يا ريح احمل بنا فقال علي ﵇: يا ريح احمل بنا فحمل بهم حتى أتوا أصحاب الكهف فسلم أبو بكر وعمر فلم يردوا السلام ثم قام علي ﵇ فسلم فردوا عليه السلام فقال أبو بكر: يا علي ما بالهم ردوا عليك ولم يردوا علينا؟ فقال لهم علي ﵇ فقالوا: إنا لا نرد بعد الموت إلا على نبي أو وصي نبي ثم قال علي ﵇: يا ريح احملنا فحملنا ثم قال: ضعينا فوضعتنا فركز برجله الأرض فتوضأ علي ﵇ وتوضأنا ثم قال: يا ريح احملينا فحملتنا فوافينا المدينة والنبي ﷺ في صلاة الغداة وهو يقرأ ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] فلما قضى النبي ﷺ الصلاة قال: يا علي أخبروني عن مسيركم أم تحبون أن أخبركم؟ قالوا: بل تخبرنا يا رسول الله ﷺ قال أنس بن مالك: فقص القصة كأن كان معنا. (هامش نور الثقلين ٣: ٢٤٨ - ٢٢٤٩).

وقد يعني ﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ﴾ غير الرسول ﷺ فإنه لا يولي فراراً من آية إلهية ولا يملأ منها رعباً[١] أم إنها تُحيل الاطلاع عليهم لأنهم أموات وليسوا نياماً، ثم تولّي الفرار والرعب على فرض الاطلاع لسواه دونه!

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾﴾:

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي فعلنا من آيات خوارق للعادات في الضرب على آذانهم سنين عدداً وتقليبهم فيها ذات اليمين وذات الشمال، وتزاور الشمس عنهم، وقرضها إياهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ آية أخرى ﴿لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ﴾ عن مكثهم وبعثهم كغاية أولى لأنفسهم، ومن ثم لمن سواهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ...﴾!

تساؤلاً بينهم ينبِّههم بإجابة المقال والحال أن للحق دولة وللباطل جولة، أنهم يفركون أعينهم من هذه النومة الطائلة الثقيلة فيسأل سائلهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾؟ ولأنه لا يدري كم لبثوا، فيأتي الجواب ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ تردداً لهم كلهم، أو اختلافاً بينهم في «يوم أو بعض يوم» إجابة دون تعمق وتأنّق، تلوح من ظاهر النوم: ثقيلاً بعض يوم، أم أثقل فيوم أو أن ﴿يَوْمًا﴾ بتخيل أنهم استيقظوا في مثل الوقت الذي ناموا فيه صباحاً أو مساءً فـ ﴿يَوْمًا﴾ أو أخطأوا المثل فظنوا المساء صباحاً أو الصباح مساء وقد ناموا خلافه فـ ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ والنوم يقتضي هكذا تردُّد في أمده وحدِّه، أو أنهم

---

(١) في تفسير العياشي عن محمد بن سنان البطيخي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في الآية قال: إن ذلك لم يعن به النبي ﷺ إنما عنى به المؤمنون بعضهم لبعض لكن حالهم التي هم عليها.

ناموا غدوة وبعثوا آخر النهار فظنوا أنهم لبثوا يوماً، فلما رأوا الشمس باقية قالوا ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ ولذلك تقدم ﴿يَوْمًا﴾ على ﴿بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أم ماذا؟

﴿قَالُوا﴾ جماعة آخرون وعلّ السائل منهم فطرفان، أم ليس منهم فثلاثة ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فلسنا نحن له بعالمين، إذ نتلمّس خارقة في نومتنا لم نلمسها في سائرها حيث الشعور طويلة كما الأظفار، والوجوه متغيرة، ما لا يحصل في أية نومة، فلا يوم ولا بعض يوم! وليس «وأعلم» هنا فقط تأدباً فإنه ليس قولاً ورأياً ثانياً يجعل قائليه حزباً ثانياً، ولا أنه إحصاء ثان ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى﴾ وإلّا لقالوا «ربكم أعلم بما لبثنا» لا ﴿رَبُّكُمْ﴾!

إنما «أعلم» لأن لنا بعض العلم بأمد لبثنا اعتباراً بمظاهرنا، ثم لا نعلم أمدنا إحصاء تاماً بل ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا...﴾.

ومن لطيف الأمر في هذه الحوار أنها تلمح أنهم لم يكونوا أقل من سبعة: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ فواحد ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أقلهم ثلاثة فإنها أقل الجمع ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ كذلك إضافة إلى جمعي «كم وتم» حيث يؤكدان جمع الأوّل كما أن ﴿قَالُوا﴾ دليل الجمع الثاني! وإذا حصرت الأقوال في عدتهم في: ثلاثة - خمسة - سبعة، فالأولان مرفوضان والثالث متعين، ولا سيما بما يأتي من رجم الغيب لهما دونه[1] وهذا هو شأن المؤمن: «ربنا أعلم» فيما لا يعلم، أم يعلم ولا

(١) هنا احتمالات سته - ١ - ﴿قَالَ قَائِلٌ﴾ [الكهف: ١٩] واحد ﴿قَالُوا لَبِثْنَا...﴾ [الكهف: ١٩] ثلاثة ﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ [الكهف: ١٩] ثلاثة والمجموع سبعة - ٢ - ﴿قَالُوا﴾ في كل اثنان، أحدهما في الثانية هو القائل الأوّل فالمجموع أربعة، أم ليس هو هو فخمسة، أو ﴿قَالُوا﴾ في أحدهما اثنان وفي الآخر ثلاثة، واحد من الثاني هو الأول فخمسة أم لا فستة، فالأربعة والستة خلاف الأقوال الثلاثة في الآية (٣٢) والخمسة تخالف ظاهر الجمع أنه ثلاثة فما فوق، فالمتعين هو السبعة حيث الأول ﴿قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ [يوسف: ١٠] ليس في ﴿قَالُوا﴾ الثانية وهو لا ينافي في ﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ [الكهف: ١٢] فإنه ليس حزباً ولا داخلاً في أي الحزبين تأمل.

يستيقن، وكيف يعلم ما يعلمه الله من أمره الذي لا يعلم؟ يحاول بما عنده من وسائل ليعلم ومنها هنا: ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ. . .﴾ يتبين لكم من نومكم ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ أم دهراً طويلاً قضي على السلطات الطاغوتية في المدينة، فإن كانت السلطة باقية ف ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: والظاهر إنها باقية باغية! وإن لا، فلا حائطة ولا تقية!

ترى وماذا يحملهم أن يبعثوا أحدهم بورقهم ليأتهم برزق من المدينة وهم يحذرون أن ينكشف أمرهم؟ فهلا صبروا على جوع حفاظاً على أنفسهم جميعاً! وهم يعلمون ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ وإنها للخسارة الكبرى!

علّهم وصلوا من الجوع لحد لا تصبّر عليه إلّا الموت صبراً، فهم إذاً بين موت معمّد جماعي قاطع، وبين تعريض واحد منهم لخطر يُحتمل، وهو طبعاً ممن يتستر في أمرهم ويسترّهم دون إشارة إليهم مهما بلغ أمره، حيث التلطّف هو التخفي الكامل، ومن ثم لو عرفوه فلا يتجاوز نفسه إليهم: ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

رأي صائب ثاقب حصيلة شورى بين هؤلاء الأكارم القائلين: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ فيه كل حائطة على المبعوث بورقهم وعليهم، تتبين من ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ أيّ المدينة أزكى. . حيث يحمل سيراً رفيقاً حثيثاً في المدينة يتعرف فيه إليها وإلى أهليها ليطمئن إليها هل هي كما كانت فحذراً، أم تغيرت إلى الإيمان فأماناً، ومن ثم ليحصل على أزكى طعام فيها إذا ظلت في إشراكها بالله، فليس لموحد أن يتطعم من مشركين طعاماً يحلّلونه خلاف شرعة الله، وأما عند الضرورة ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ تقليلاً لرجاسة الطعام الشركية كتقليل الطعام لبلغة الحياة: فالضرورات تبيح المحظورات وتقدر بقدرها!

ومن جهة أخرى فالأزكى طعاماً من المدينة هو الأزكى أخلاقاً فلا يتجسس عن خبايا الناس، ولا يتحسس لصالح الطاغوت مهما كان مستضعفاً في حكم الشرك، فهذه أبعاد ثلاثة من المصالح في ﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ . . . !.

و﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾ هنا تشمل زكاة الحل وزكاة الطهارة والطيبة قدر الإمكان فما لا يُدرك كلُّه لا يترك كله ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1] ومنه في ﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ﴾ راجع إلى الورق وإلى الطعام، رزق من الورق دون زيادة عليه وإن كان النقص منه، ورزقٍ من الطعام كبلغة الحياة دون زيادة عليها ولا أقل منها.

ومن ثم تتبين هذه الحائطة من ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ تكلُّفاً لإخفاء أمره، ورفقاً وليناً في المعاملة تجنباً عن المشاجرة التي هي من أسباب التفتيش عنه فعنهم وواويلاه! ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ إن شعروا به أم ماذا؟ فليكن صَلِباً صلداً لا يمد إلى أحد شعرة وإشعاراً فشعوراً مهما أفرغت عليه الضغوط ولحد الموت، حفاظاً على إيمانه وعلى دماء ونفوس الآخرين:

﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾:

الظهور على هو التطلع علماً وواقعاً، فليس العلم بهم دون الوصول إليهم ظهوراً عليهم، ولا الوصول إليهم دون علم بهم ظهوراً عليهم، إنما هو الوصول المطلع كما ﴿ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾[2] تعنيه، فلا علم الطفل دون بلوغ الحلم بعورات النساء يكفي فرض الحجاب عنهم، ولا الوصول إلى عوراتهن دون علم أنها مواضع الشهوات يكفي، وإنما الظهور على العورات علماً بها وإمكانية الوقاع!

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة النور، الآية: ٣١.

إن أشعر هذا المبعوث بكم، تخللوه إلى العلم بكم اطلاعاً عليكم وهم بعاد، ثم التطلّع عليكم حتى تصبحوا في قبضتهم فيقع المحظور بين أن ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ قتلاً فضيحاً منفوراً مطروداً، ولكي يشتركوا فيه كلهم إذا كانوا كلهم مشركين، أم وأشد تنكيلاً ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ حملاً على الإشراك وإن في ظاهر الحال حيث العقيدة لا تقبل الإكراه.

هنا يتقدم الرجم لأنه ظاهر الحال العاجلة من السلطة المشركة التي كانت في طلبهم وهم على ما هم من تصلّب العقيدة وتصلّدها، ومن ثم لو نجوا عن الرجم فإعادة إلى ملتهم وهي أشد من الرجم وأنكى!.

ترى وإذا اتقوهم في ظاهر الحال مسايرة عملية مع الحفاظ على إيمانهم أليسوا إذاً مفلحين؟ ولكنما الدخول في جوّ التقية دونما إكراه ضلال، حيث يقضي على عمل الإيمان، ومن ثم القضاء يتسرب للقضاء على نفس الإيمان، حيث التعوّد المسيِّر على ترك واجبات الإيمان وفعل محرماته، مما يجرف تدريجياً إلى ترك الإيمان وليسوا هم بطبيعة الحال ممن يكتفي منكم بظاهر ادعاء العودة في ملتهم بعدما قمتم قومتكم في رفضها، إلّا أن يراقبوكم رقابة تامة في القيام بطقوس الشرك وترك التوحيد بكل مظاهره.

فــ ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ... وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾ أن ﴿يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ وكذلك أن ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ حيث الظهور عليكم المخلَف وراءه رجمكم إلقاءً لأنفسكم بأيديكم إلى التهلكة! فلو ماتوا جياعاً خير لهم من أن يذهبوا ضياعاً: رجماً انتهارياً أم عوداً في ملة الشرك اختيارياً حيث الامتناع بالاختيار لا ينافي الاختيار!

وليس طلب البلغة والبُقية للحياة مما يسمح لإلقاء النفس إلى التهلكة رجماً أم عوداً في ملة الشرك، اللّهم إلا بحائطة قاطعة أن ﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾، ولو شعروا فلا نتحمل إلّا رجماً!

وإعادتهم في ملتهم دليل على أنهم كانوا على ملتهم ثم استبصروا وكما نتلمحه من «إذ قاموا فقالوا ربنا الله لن نشرك به أحداً» أو أنهم كانوا لردح من الزمن يسايرونهم في ظاهر الشرك تقية نقية اضطرارية، والعودة إلى هذه الحالة اختيارياً عود في ملة الشرك وإن كان ظاهرياً وهذا أظهر من العودة قضية كونها كالبدأة ولا عودة اضطرارياً إلى عقيدة.

فعلى المؤمن الفرار من جو الضلال والتقية، ثم ليس له الرجوع إلى ذلك الجو إلّا لمرجح أهمّ، أو الإقدام على ما يحتمل الرجوع اضطرارياً لواجب أهم رعاية للحائطة، فلا تقية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1] وهنا يذهب الإيمان ويذوب وليست تقية إكراه حيث التسبب إلى الانحصار في مجتمع الكفر والانحسار عن خالص التوحيد كان نتيجة الاختيار، وأرض الله واسعة تفرض على المؤمن الفرار بإيمانه، فكيف الرجوع إلى جو اللّاإيمان: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ﴾[2].

هكذا نشهد مشهد فتية الإيمان إذ يتناجون فيما بينهم حذرين غير عارفين بكرور الأيام ومرور الأعوام، فقد دارت عجلة الزمان فتعاقبت أجيال واختلفت أميال، فمدينتهم التي هاجروها تغيرت عوالمها ومعالمها، ودالت دولات المتسلطين عليها وقصة الفتية تناقلتها الأخلاف عن الاسلاف على تعارض الأقاويل حولهم.

ومن ثم الآن أهل المدينة مؤمنون، شديدو الحفاوة بالفتية المؤمنين، وبعدما رأوا واحداً منهم بصورة وسيرة أخرى وبورق آخر مرت عليه الزمن:

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) سورة النساء، الآيات: ٩٧ - ٩٩.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾:

الإعثار هو الاطلاع مضمَّناً مصادفة الشيء من دون طلب له ولا إحساس به وأصله أن الساعي في طريقه إذا صك قدمه أو نكب إصبعه شيءٌ ففي الأغلب أنه يقف عليه متأملاً له فكأنه استفاد علمه دون أن تتقدم معرفته به، وكذلك أعثرهم الله عليهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الذي حصل من آيات أصحاب الكهف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1] تتلوها آية أخرى هي أن ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أهل المدينة ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لأمرين اثنين للذين عثروا، بعد أمر هام لأصحاب الكهف «ليتساءلوا» أمرٌ أوّل ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ وثانٍ: ليعلموا ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ...﴾[2].

وهل ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ أصحاب الكهف؟ وهم كانوا على علم بحق الوعد لهم وأن الساعة آتية! اللهم إلّا عين اليقين بما رأوا من وعد الله الحق في أمرهم الرشد والمرفق، وعين اليقين بما رأوا من بعثهم بعد نومتهم التي هي كانت كموتة!

كذلك و﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ من أعثروا عليهم نفس العلم مهما اختلفت الدرجات، وليعلم من يسمعها، فـ ﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾ يشملها وسائر من يعلم قصتهم على مر الزمن.

ترى أنه أعثر عليهم وهم أحياء؟ فلماذا ﴿يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ولهم أن يسألوا أصحاب الكهف أمرهم! وكيف قالوا ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾ وهم بعدُ أحياء!

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٦.

(٢) سورة طه، الآية: ١٥.

أم أعثر عليهم بعدما ماتوا فقد سدل الستار على مشهدهم لعرض مشهد آخر وبينهما فجوة متروكة فيها موتهم؟ فللتنازع في أمرهم هنا موقع، ولبناء بنيان عليهم هنا معنى!

أم بين ذلك عوانٌ، أعثر على أحدهم المبعوث إلى المدينة حياً وهو طبيعة الحال المعلومة من القصة، ومن ثم أعثر على الباقين ميتين و﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ﴾ إنما غلبوا بمبعوثهم على أمرهم من طول شعوره وأظفاره ومن قديم ملابسه وقديم ورقه ولهجته ومواجهته دون أن يشعر هو بشيء من ذلك اللّهم إلّا حالته الظاهرة التي لا تخفى على ذي حجى!، أم أعثر عليهم وهم أحياء، وفور العثور أماتهم الله، فلم يبق لغلب على أمرهم مجال اللّهم إلّا من مبعوثهم لجماعة خصوص اختصوا بالغَلَب به على أمرهم؟

حقاً لا يستفاد من آيات القصة أنهم أعثروا عليهم بعد موتهم! وليس في هكذا إعثار عِلمٌ ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾(١) إلا أن يروهم أحياءً عن نومتهم، ثم أماتهم عن حياتهم في رقدتهم.

ولا نعلم بموتهم فور العثور عليهم دون إمهال إلّا من خلال ﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ و﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا﴾!

وذلك إعثار مثمار أن يشهدوا مشهد أصحاب الكهف أحياءً وأمواتاً، فيعلموا ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيما حقق لهم وفي إتيان الساعة، ويعلموا ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾.

وأما أن يشهدوهم أمواتاً فلا مَعْلَمة فيها، اللّهم إلّا إعثارهم على مبعوثهم فقط حيّاً، وهذا لا يلائم تنازع أمرهم بينهم وبناء بنيان عليهم أم هو بعيد!(٢).

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧.

(٢) في بعض روايات القصة أنهم لما هربوا واطلع الملك على أمرهم افتقدهم ولم يحصل منهم =

ترى وما هي مادة التنازع في أمر أصحاب الكهف بين هؤلاء الذين أعثروا عليهم؟ هل هي أمر مكوثهم الخارق للعادة؟ فطائفة منهم تغامضوا عن كونها آية للبعث وأن الساعة آتية لا ريب فيها فقالوا: ﴿ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ﴾ بنياناً يخفي أمرهم، فنحن لا ندري من أمرهم شيئاً فلنجعله في زمرة المجاهيل المغافيل ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ ليكونوا عبرة للزائرين ومعبداً للساجدين، دليلاً على التوحيد ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَآ﴾ وهم الموحدون الذين عرفوا أمرهم، لا السلطة الزمنية إذ لا تختص بهذه الغلبة دون الشعب، والسلطات الزمنية في الأغلبية الساحقة مهدمة المساجد لا معمرتها، ثم ومن يجرؤ على المنازعة مع السلطة مع تقديم الرأي ضد السلطة، فإنما هم الغالبون على أمر أصحاب الكهف قضية قوة الإيمان!

ومادة أخرى بين الذين غلبوا على أمرهم، وتنازعوا فيها رغم الوحدة في آية نومهم، هي أمد لبثهم أمّاذا من أمرهم ومن ثم التنازع في عدتهم، وطبعاً لمن لم يغلب على أمرهم ومن أظهره عدتهم:

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾:

= على أثر، وفي بعض أنه وجدهم نياماً في كهفهم فأمر أن يبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جياعاً عطشى فبقوا على حالهم حتى إذا أراد الله أن ينبههم بعث راعي غنم فخرب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه وعند ذلك بعثهم الله أيقاظاً وكان من أمرهم ما قصه الله، وفي بعض أنه لما ظهر أمرهم أتاهم الملك ومعه الناس فدخل عليهم الكهف فكلمهم فبينا هو يكلمهم ويكلمونه إذ ودعوه وسلموا عليه وقضوا نحبهم وفي بعض أنهم ماتوا أو ناموا قبل أن يدخل عليهم الملك وسدّ باب الكهف وغاب عن أبصارهم فلم يهتدوا للدخول فبنوا هناك مسجداً يصلون فيه - أقول ولا نقول إلّا ما يوافق القرآن وقد نتحمل ما لا يخالفه.

فيما مضى عرفنا من حوار أصحاب الكهف في ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ أنهم لم يكونوا بأقل من سبعة، وهنا نتأكد أنهم سبعة، فإن ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ ترجم القولين دون السبعة، ثم لا رجم على ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ﴾ فلو كان مثلهما، لردف بهما في ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ أم لو كان المرجوم أحد الأولين فقط لاختص هو بالرجم دون الآخر، وهذه من بلاغة الكلام القمة ولباقته أن يذكر القول الحق بين الأقاويل دونما تصريح به لكي يحث على التفكير، ويبتعد عن التنكير النكير، حيث الاصطدام بين القائلين والاحتدام بين الأقوال لا يخلي أي مجال لقول صراح، اللّهم إلّا تلميحة هي أبلغ من تصريحة.

والرجم بالغيب أصله الرمي بالحجارة إلى مرمى مجهول لا يدري الرامي أيصيب هدفه أم يخطىء، وقد لا يكون له هدف، ثم استعير لكل قذف بالظن والحسبان، والقول بغير علم، ومن عادة العرب أن تسمي القائل من دون علم راجماً وقاذفاً، كما تُسمي السابّ الشاتم رامياً راجماً، ويقال: هذا الأمر غيب مرجَّم، أي: يرميه الناس بظنونهم ويقدرونه بحسبانهم.

فالراجم بالغيب كالراجم الذي لا يعلم مواقع أحجاره المرمية أين وقعت، فتارة يمنة وأخرى يسرة، وهنا ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ يرجم «ثلاثة وخمسة» على ما في القولين من سوء التعبير ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ... سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ كأن كلبهم منهم، فالأربعة أو الستة كلهم كلاب، أم كلهم أو أدِم، دونما عطف لكلبهم عليهم، يدل على المغايرة، كما يدل على ردفه بهم، ولكنما القول الثالث ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ فيه رعاية الأدب بواو العطف، فردف الكلب بهم دون عطف يجعل جملة الكلب صفة لهم أو حالاً منهم فـ «رابعهم كلبهم وسادسهم» وصفان لـ «ثلاثة وخمسة» أو حالان، وفيه إزراء بساحة فتية الإيمان ومس من كرامتهم، والعطف يخرجها عن وصفهم أو حالهم حيث يفيد الردف بين متغايرين متوافقين، تغايراً في الكيان وتوافقاً في

المكان، فكلبهم منهم حيث ردفهم يرصدهم، وليس منهم فهم فتيةٌ آمنوا بربهم وهو كلبهم! فحيث وقعت الواو انقطعت العدة وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلبهم بالقطع والثبات! حيث العطف يجعل المعطوف عليه مستقلاً عنه، محوراً أصيلاً للكلام، وترك العطف يجعلهما في نطاق واحد!

وكأن الأقوال حول عدد أصحاب الكهف منحصرة في هذه الثلاث أم هي أشهرها، في غابر الزمن وحاضر الرسول ﷺ وقد عثر على عدة من الكهوف والغيران وعلى جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ومعهم كلب.

وُصف القولان الأولان بـ ﴿رَجْمًا بِالْغَيْبِ﴾ والأخير إضافة إلى العطف العطوف بـ ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ تدليلاً على أن قائله من هذا القليل، وكيف عرف القليل هذا الغيب إلّا بوحيه وها هو وحيه يلمح لمحة مليحة بعدتهم - فإن ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ تجهيل لجماعة وهم القائلون ﴿ثَلَٰثَةٌ... خَمْسَةٌ﴾ وتبجيل لآخرين عالمين ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وإنهاءٌ لعلمه إلى رب العالمين: ﴿رَّبِّىٓ أَعْلَمُ﴾.

كما و﴿مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ تبجيل لهذا القليل ثانياً، والرسول أفضل هذا القليل كما ويلمح إليه ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فلم يقل الله اعلم، إنما ﴿رَّبِّىٓ﴾ بما علمني ورباني!

ومن ثم آخرون يتبعونه، ونحن من هذا القليل، وكما بعض الأصحاب الأقدمين يعد نفسه منهم[1] ونفي العلم بـ «ما» دون «لا» في ما يعلمهم إلا قليل. نفي للحال فاستثناء للقليل في الحال: إن القليل يعلمونهم الحال.

---

(١) منهم ابن عباس كما أخرج عنه عبد الرزاق والفريابي وابن سعدون ابن جرير وابن المنذر وأبي حاتم من طرق وأخرج مثله عن الطبراني في الأوسط بسند صحيح عنه ومنهم أبو مسعود كما أخرج عنه ابن أبي حاتم (الدر المنثور ٤ : ٢١٧).

فضلاً عن الاستقبال! فأحرى من يعلمه هذا القليل هو الرسول ﷺ حيث أوحي إليه ﴿وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

ثم وعلم القليل قد يشمل عدتهم وأسماءهم، كما يروى عن علي عليه السلام أسماؤهم(١) والله أعلم بعدتهم وأسمائهم، وهذا القليل يعلمهم بما علمهم ربهم، وكما علمنا هنا عدتهم.

وإذا القائلون عن عدتهم بين راجم بالغيب وبين صادق ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا...﴾ فلماذا المراء الباطن وأنت من هذا القليل العالمين بهم بما علمك ربك، ولماذا تستفتيهم، والراجم منهم بالغيب لا يستفتي والصادق يستفتيه إذ لا يعلمهم وأنت تعلمهم! والمراء الظاهر هو الخالي عن العمق والاستبطان، وأصل المراء من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها للحلب، وتسمى الجدال مراءً لما فيها من إصرار المماري بالبحث ليفرغ خصمه كل ما عنده من الكلام فينتهي عنه.

فترك المراء معهم فيهم تجهيل لنفسه، والمراء الباطن المستبطن استعلامٌ ممن يجهل، أو وممن يعلم وهو ﷺ يعلم فلماذا يستعلم؟ والمراء الظاهر مماراة ومداراة احتساباً لما أوحى إليه ربه فحسبه ربه تعليماً له ومراءً معهم!.

ثم المراء غير ممدوح في باطنه دون ظاهره، وإن كان في حق والرسول ﷺ زعيم بيوتاً في الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً(٢)

---

(١) في تفسير روح المعاني ج ١٥: ٢٤٦ وروي عن علي كرم الله وجهه أن أسماءهم: يمليخا ومكشلينيا ومثلينيا وهؤلاء أصحاب يمين الملك، ومرنوش ودبرنوش وشاذنوش وهؤلاء أصحاب يساره وكان يستشير الستة والسابع الراعي واسم كلبهم قطمير وذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي أن الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط بإسناد صحيح.

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٥٣ ٤٤٦ في كتاب التوحيد بإسناده إلى إسماعيل بن أبي زياد عن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال قال رسول الله ﷺ: أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة وبيت في =

فـ «إياكم والمراء والخصومة فإنهما يمرضان القلوب على الإخوان وينبت عليهما النفاق»[١] و«لا تمارين حليماً ولا سفيهاً فإن الحليم يغلبك والسفيه يؤذيك»[٢].

والتماري حول عدد الفتية لا طائل وراءه فسواء أكانوا ثلاثة أو خمسة أو سبعة أما زاد أو نقص، فما يعلم عدتهم إلا الله والقليل الذين حضروا محضر الكهف في زَمَته، والذين عرفهم الله، فلماذا التماري إذاً إلا مراءً ظاهراً، والعبرة في أمرهم حاصلة بالقليل والكثير، والقرآن يلمح بعدتهم دون تصريح، تنبيهاً بعدم العناية بعددهم وإنما المعني به عُدَدهُم، صيانة للطاقة العقلية أن تبدد في ما لا يفيد، وتوجيهاً لها إلى ما يفيد، وألّا يمارى راجم الغيب إلا مراءً ظاهراً دون تعميق ولا تعقيب، فهذا حدث تاريخي طواه الزمن وهو من الغيب الموكول إلى علم الله أو مَن علّمه الله، فلماذا التماري فيه أو الاستفتاء!؟.

فالمراء محظور وإن كان في حق، اللهم إلّا مراءً ظاهراً يقف على حق ويقطع دابر الباطل بمرونة وليونة، بمطالبة الدليل، فإذا لا دليل فلا مدلول، حيث المدعي لشيء بحاجة إلى دليل دون النافي سناداً إلى عدم الدليل.

= وسط الجنة وبيت في رياض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً وفيه عن أصول الكافي بإسناده قال: قال النبي ﷺ ثلاث من لقي الله عز وجل بهن دخل الجنة من أي باب شاء: من حسن خلقه وخشي الله في المغيب والمحضر وترك المراء وإن كان محقاً وفي كتاب الخصال عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من يضمن أربعة بأربعة أبيات في الجنة.. وترك المراء وإن كان محقاً.

(١) المصدر ح ٤١ في أصول الكافي بسند عن أبي عبد الله عليه السلام قال قال أمير المؤمنين عليه السلام: ...

(٢) أصول الكافي بإسناده إلى عمار بن مروان قال قال أبو عبد الله عليه السلام: ...

وفي كتاب الخصال عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: أربع خصال تميت القلب: الذنب على الذنب وكثرة مناقشة النساء يعني محادثتهن ومماراة الأحمق تقول ويقول ولا يرجع إلى خير أبداً الحديث.

كما الرجم بالغيب محظور في قياس وسواه، فآية الرجم ترجم القياس في الأحكام وأحرى من القياس كل ظنة في غير الأحكام، وكما الآيات الحاصرة كل اتباع بعلم أو أثارة من علم، الحاذرة كل اتباع بغير علم إلّا إذا كان مسنوداً إلى علم.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

موضوع النهي هنا ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ استقلالاً للمشية فيما يعده الإنسان ويريده في مثلث من التأكيد: «إني - فاعل - غداً» تحديداً لزمن الفعل وتأكيداً ذا بعدين في أصله، ف «إن» توكده و﴿فَاعِلٌ﴾ الدالة على الثبات تثبته، وأما أن يقول «سأفعل غداً» أم «سأفعل» أو «أفعل» على مختلف مراتب التحتم في هذه الثلاث نازلة، فالنهي لا يشمله، اللهم إلا أن «لا تقولن» تنهى مؤكداً عن هذه الصيغة المؤكدة، فيبقى النهي دون تأكيد في هذه الثلاث متدرج النزول ف «لا تقولن - أم - لا تقل. . . إلا أن يشاء الله».

فلا يعمه ﷺ لا تصريحة النهي المؤكد إذ لم يقل ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ولا نهيه دون تأكيد في الثلاث الأخرى إذ لم يقل: سأفعل أو أفعل، وإنما تلميحة في خامسة الأضلاع «تعالوا غداً» وحسنات الأبرار سيئات المقربين!

ف ﴿وَلَا تَقُولَنَّ. . .﴾ مهما شملت رسول الهدى، ليس إلا نهياً في تصريحته ألّا يفعل، لا أنه فعل وهنا ينهى.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ. . . إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ. . .﴾: ربطاً لمشيئتك بمشية الله، وأنت أياً كنت وفي أي موقف لا تملك إنفاذ مشيئتك المعلومة عندك إلا بسناد مشيئة من الله الغائبة عنك ف ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾!

في أفعالك الاختيارية لست مفوَّضاً تستقل في إرادتك دونما رادع أو مؤيد من الله، ولا مجبوراً يستقل ربك في إرادتك فأنت كصورة الفاعل والله هو الفاعل! فـ «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين» فـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ أم حالاً أماذا، ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾.

أنت في حاضر مشيئتك وقوتك وإرادتك غائب عن حول الله وقوته، لا تدري أهو مؤيدك فيها أم رادعك عنها فـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾!

أنت لا تستقل بنفسك إغماضاً عن ربك ولا تستقل نفسك فيما تريد كأنك لا حول لك ولا قوة اتكالاً «فاشلاً على ربك كأن الفاعل هو ربك دونك أنت، وإنما أنت في حولك وقدرتك عوان بين ذلك، تكرس طاقاتك كلها فيما تعنيه وهو مرضي لربك توكلاً لا اتكالاً. فلا تحس بالتبطر والغرور وأنت مفلح ناجح، ولا تستشعر القنوط وأنت فاشل مخفق، فإنما عليك تجنيد ما عندك من طاقات وإمكانيات فيما يرضي ربك وفي حالك ومقالك وأفعالك ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فـ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾!.

ليستشعر قلبك معنى ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وليلفظ لسانك قول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولتتَّسِم أفعالك بسمة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فـ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]!

لا يملك المخلوق أياً كان لنفسه نفعاً ولا ضراً باستقلال إلا ما شاء الله وحتى رسول الله ﷺ ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ﴾[2] فضلاً عن أن يملك لغيره أو يملك من الله ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾!

(١) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٨.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هي من كلمات رسل الله كما في يوسف ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾(١) وموسى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾(٢) ويعقوب ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾(٣) وإسماعيل: ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٤).

لا فحسب رسل الله وعباده الصالحون بل وكذلك الله تعليماً لعباده وإعلاماً أن يستمروا في قول: إن شاء الله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ...﴾(٥).

ونحن نسمع كلمة إن شاء الله من الله نفسه فيما هو مقطوع من فعل أو ترك من الله: ﴿۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾(٦) فرغم أن عطاء الجنة غير مجذوذ عن أهلها يستثني خلودهم بمشيئته تشريفاً لها وإعلاماً أنها غير محصورة بشيء ولا محسورة عن شيء - كما وأن الآلهة من دون الله لا يخاف منها قطعاً ومع الوصف: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا﴾(٧) ولا يشاء الرب ولن أن يخاف من دونه شيء! وكما العود في ملة الشرك لمن لا يشاءها ولا سيما نبي الله، إنه من المستحيل إن يشاء الله ولكن: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا...﴾(٨).

ترى - بعد ذلك كله - كيف يترك أوّل العابدين قولة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهو يعد السائلين جوابهم عن الله، وليس جوابهم إلّا وحياً من الله والرسول لا يملك وحي الله كما لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله؟!

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٩.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٩.
(٣) سورة القصص، الآية: ٢٧.
(٤) سورة الصافات، الآية: ١٠٢.
(٥) سورة الفتح، الآية: ٢٧.
(٦) سورة هود، الآية: ١٠٨.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ٨٠.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

إنها لا تعني الرسول ﷺ فيمن تعنيه نصاً، وإنما هي تأنيب على التاركين لها، وتأديب لهم ألّا يتركوها[١] فهي لهم تصريحة وللرسول ﷺ تلميحة.

أم وإذا تعنيه فيمن تعنيه فهناك بون بينه ﷺ وبين من سواه في وعد الفعل وإن جمع بينهم في ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ نهياً على الأبدال، حيث الرسول ﷺ وهو أول العابدين لا يشاء إلّا أن يشاء الله، وكما يخاطب أهل بيت الرسالة المحمدية وهم إنسان الدهر في «الإنسان - الدهر»: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[٢] إذاً فهو هو نفسه مشيئة الله، لا تجد فيه إلّا ﴿أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ في عقله وصدره وقلبه وسره وخفيه وأخفاه، في حلة وترحاله، في فعله وأقواله.

فمهما يترك لفظة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فيما يعد السائلين دون أي تأكيد خلاف ﴿إِنِّي فَاعِلٌ﴾ إجابة بوحي الله، فلا يعدهم إلّا بمشيئة الله ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ كرسول من الله، لا كمن يعرف الجواب دون وحي الله، أو يملك وحي الله، وإنما رسول من الله، ما يشاء إلا أن يشاء الله.

فقد شاء فوعدهم أن يأتوه تلميحاً لوعد الإجابة، ولكنه عليه كسنة رسالية وتعليماً لهذه السنة قولة ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وإن في لمحة ودون تأكيد ولم يتركها إلا هذه المرة طول حياته المنيرة، فليحتبس عنه الوحي أربعين يوماً لماذا ترك ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ولكي يعرف السائلون من خلال ذلك الاحتباس أنه حتماً رسول الله[٣].

---

(١) نور الثقلين ٣: ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن أبي جعفر عليه السلام ذكر أن آدم لما أسكنه الله الجنة فقال له: يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال: نعم ولم يستثن فأمر الله نبيّه فقال ﴿وَلَا تَقُولَنَّ... إِلَّآ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ولو بعد سنة». أقول فلم يكن ترك الاستثناء إذاً من الرسول نفسه وهو وجه كما وفي تركه أيضاً وجه ذكرناه.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٣٠.

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٥٤ ح ٥٣ في من لا يحضره الفقيه روى حماد بن عيسى عن عبد الله بن=

إنه لم يكن تاركاً لواجب رسالي يستوجب باحتباس وحيه ودعاً أو قلى: ﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ...﴾[1] بل هو من ألطاف ربه الخفية مهما كان في ظاهره ودع أو قلّى، اللهم إلّا أن يتركه متناسياً ومؤكداً في وعده ولم يؤكد ولن!

إذاً فاحتباس وحيه كان رمية ربانية إلى هدفين، أهمهما تثبيت وحيه ورسالته، أن لو كان من عنده لما احتبس عن الجواب، ثم وعلى هامشه ﴿وَلَا تَقُولَنَّ...﴾ فقط للقولة المتروكة لا سواها من حول وقوة وإيمان وعقيدة فإنه ﷺ كله ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ مهما يترك لمرة واحدة قولها الذي يخلف تثبيتاً. لوحيه باحتباسه ردحاً من الزمن!.

ذلك الاحتباس في ظاهره ليلٌ إذا سجى وفي باطنه ضحى، فكما الضحى رحمة كذلك الليل إذا سجى، فليل احتباس الوحي كضحى الوحي فرقد إن متتابعان يتناصران في هامة الرسالة المحمدية السامية.

ثم ﴿وَلَا تَقُولَنَّ﴾ تشمل ما مضى من الرسول ﷺ وما يقبل، كما ويشمل غير الرسول ﷺ فقوله ﷺ حين سألوه عن أمر أصحاب الكهف وذي القرنين والروح: تعالوا غداً أحدثكم ولم يستثن، فنص النهي في الآية في مثلث التأكيد لا يشمله إذ لم يقل إني فاعل، وإنما «تعالوا غداً» تلميحاً كأنه يجيبهم غداً دونما تصريح ولا تأكيد إلا زمناً: ﴿غَدًا﴾:

ثم قول إن شاء الله لا يردد القائل فيما يشاء ولا يفصم إرادته وإنما تردد في مشيئة الله على حتمه في مشيئته.

= ميمون عن أبي عبد الله عليه السلام.. أن رسول الله ﷺ أتاه أناس من اليهود فسألوه عن أشياء فقال لهم: تعالوا غداً أحدثكم ولم يستثن فاحتبس جبرئيل عليه السلام عنه أربعين يوماً ثم أتاه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

(١) سورة الضحى، الآيات: ١-٣.

فمن حلف وقال إن شاء الله ليس له الرجوع[١] إلّا أن يقول إن شئت، ولا فرق بين موصوله ومفصوله[٢].

و﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يعم باطن العقيدة والإيمان والنية وظاهر القول والكتابة أماذا، فالكتابة قول كتبي يكتب فيها إن شاء الله[٣] كما النية قول منوي ينوي معها ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾!

---

(١) خلاف ما أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: من حلف فقال إن شاء الله فإن شاء مضى وإن شاء رجع غير حانث (الدر المنثور ٤: ٢١٨) أقول: ليس غير حانث إلا إذا تردد في مشيئة نفسه كأن يقول: إن شئت، فللمحلوف عليه حتمية نسبية له ولا يفصمه إلا إرادة الله إن أراد خلافه! فالرواية مختلقة عليه ﷺ والصحيح ما أخرجه البخاري ومسلم والنسائي والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: قال سليمان بن داود ﷺ: لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقال له الملك: قل إن شاء الله فلم يقل فطاف فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لم يحنث وكان درج/ لحاجته -

أقول وهو صحيح إلا «فقال له الملك.. فل يقل» حيث ينافي الإيمان فضلاً عن العصمة، ثم لم يحنث لأنه حلف على فعله وهو الطواف على تسعين امرأة لا على فعل الله «تلد كل امرأة» فلا حنث فيما ليس من فعله ولا حلف عليه!

ومثله ما في نور الثقلين ٣: ٢٥٤ ح ٥٢ عن أصول الكافي أحمد بن محمد عن علي بن الحسين عن علي بن أسباط عن الحسن بن زرارة قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن قول الله ﷻ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فقال: إذا حلفت على يمين ونسيت أن تستثني فاستثن إذا ذكرت.

(٢) خلاف ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن عمر قال: كل استثناء موصول فلا حنث على صاحبه وإذا كان غير موصول فهو حانث (الدر المنثور ٤: ٢١٨).

(٣) نور الثقلين ٣: ٢٥٣ ح ٤٧ في أصول الكافي علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن مرازم بن حكيم قال: أمره أبو عبد الله ﷺ بكتاب في حاجة فكتب ثم عرض عليه ولم يكن فيه استثناء فقال ﷺ: كيف رجوتم أن يتم هذا وليس فيه استثناء انظروا كل موضع لا يكون فيه استثناء فاستثنوا فيه.

وفي تهذيب الأحكام بإسناده إلى علي بن حديد عن مرازم قال دخل أبو عبد الله ﷺ يوماً إلى منزل معتب وهو يريد العمرة فتناول لوحاً فيه تسمية أرزاق العيال وما يخرج لهم فإذا فيه لفلان وفلان وفلان وليس فيه استثناء فقال: من كتب هذا الكتاب ولم يستثن فيه كيف ظن أنه يتم؟ ثم دعى بالدواة فقال: الحق فيه إن شاء الله فالحق في كل اسم إن شاء الله.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناء عن نفي القول لشيء ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ فتقول لشيء إني فاعل ذلك غداً أم أي وقت كان إن شاء الله والشيء المفعول يعم المقال والفعال وتبديل الحال، ولتكن لائقاً لمشيئة الله تشريعاً حتى يربط بمشيئته تكويناً، و﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ يخص التكوين، حيث المشيئة التشريعية واجبة الإحراز قبل الإرادة والفعل، فلا تقبل أي تردد، وإنما التردد في التكوينية.

فالقول لمحرم أم ومشتبه إني فاعل ذلك إن شاء الله مس من كرامة الله، وإن كانت المحرمات غير خارجة عن مشيئة الله كما تناسب ساحته دونما إجبار، وإنما تلحق مشيئته تعالى مشيئته المختار! فإن ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ترج لمشيئة التأييد من الله وليس إلا فيما يرضاه الله.

وإذا نسيت الاستثناء بمشيئة الله فاذكره إذا ذكرت مهما طال الزمن ولما تفعل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ وإن كان بينك وبينه أيام أو أشهر أو سنون[1]!

وهل القول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ يطم عامة الأقوال لأي فعل يعزمه فيتم فيها أياً كان؟ فإن قيل لك أتأكل وأنت جوعان وعلى خوان الطعام: تقول إن شاء الله؟ ولا شيء غائباً عنك خارجاً عن حولك وقوتك هنا تحوله إلى حول الله وقوته؟.. أجل فإنك لا تضمن حياتك حتى الأكل، ولا صحتك وفقدان أي رادع يردعك! فـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ آت في كل ما لم يحصل بعد أو لم يتم وأنت فاعله، إن قولاً فقولاً وإن فعلاً فعقداً في الضمير ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾!

(١) نور الثقلين ٣: ٢٥٥ ح ٥٥ في تفسير العياشي عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام ذكر أن آدم لما أسكنه الله الجنة فقال له يا آدم لا تقرب هذه الشجرة فقال: نعم ولم يستثن فأمر الله بنبيه فقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَۚ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ولو بعد سنة.

ليس هنا حذف كما أطالوا طائلات، وإنما باء الملابسة على «إن...» فتأويلاً للمصدر: «إلا بمشيئة الله»، فـ «لا تقولن لشيء أياً كان وأيان إني فاعل ذلك غداً إلا مصاحباً بمشيئة الله إن أفعله أو لا أفعله فالفعل والترك لمن يعزم على فعل أو ترك بحاجة إلى إذن تكويني وتوفيق من الله»[١].

ثم وملابسة القول هذا ليست بواقع المشيئة فإنها مجهولة للفاعل وإنما بقول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فـ «لا تقولن.. إلا بقول مشيئة الله ترجياً»: ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾!

وقد يعني ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ منقطع الاستثناء: أن القول ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ممنوع على أية حال فإن فيه تأكيد الاستقلال، ولا يجبره الاستثناء، أترجياً وتردداً بعد تحتم! إذاً فقل ما شئت غير متحتم، واقرنه بـ ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تأييداً أنه غير محتوم وترجياً لمشيئة الله.

وقد يحتمل اتصال الاستثناء بوجه آخر أن القول ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ ممنوع كمنع الدخول في ملة الشرك إلا أن يشاء الله ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[٢] حيث العودة هذه ولا سيما لنبي مستحيلة الإذن من الله!.

---

(١) المصدر ٢٥٤ ح ٤٩ عن الكافي عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] قال: فقال: إن الله عز وجل لما قال لآدم: ادخل الجنة قال له: يا آدم لا تقرب هذه الشجرة. قال: وأراه إياها فقال آدم لربه: كيف أقربها وقد نهيتني عنها أنا وزوجتي؟ قال: فقال لهما: لا تقرباها يعني لا تأكلا منها فقال آدم وزوجته: نعم يا ربنا لم نقربها ولم نأكل منها ولم يستثنيا في قولهما نعم فوكلهما الله في ذلك إلى أنفسهما وإلى ذكرهما، قال وقد قال الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وآله في الكتاب: ﴿وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فاعِلٌ ذلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ﴾ أن لا أفعله فتسبق مشيئة الله في أن لا أفعله، فلا أقدر على أن أفعله، فلذلك قال الله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤] اي استثنى مشيئة الله في فعلك.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

وقد يعني الاستثناء كل ذلك حيث يلائمها اللفظ والمعنى وهو أجمل وأكمل!

وترى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ يخص فقط تركه نسياناً، فإن كان ذاكراً ربه وترك الاستثناء فلا جيران بعدئذٍ؟ بلى حيث الأمر السماح كتوبة خاص بـ ﴿إِذَا نَسِيتَ﴾! وكلا حيث النسيان يعم النسيان المعمَّد وسواه، تناسياً ونسياناً، بل ولا عصيان إلا تعمّد (عن) نسيان وإذ لا عمد فلا عصيان: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[1] ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[2]! ثم وباب التوبة مفتوحة بمصراعيها في كل عصيان فضلاً عن ترك الاستثناء فإنه أياً كان ليس محرماً فيه عصيان!

﴿وَٱذْكُر... وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

وكما أن ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ترج للرحمة من الله، فـ ﴿عَسَىٰٓ... لِأَقْرَبَ﴾ ترج ثان التماساً للارتفاع على هذا المرتقى، وضرورة المحاولة للاستواء عليه في كافة الأحوال.

إنه ليس يهمني - فقط - رجاء الإجابة عن أسئلتكم هذه وإن كان فيها رشد، بل و﴿عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ أجل ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾[3] فليس حاضر علم الوحي واقفاً على حده ليوقفني على حدّه، فإنني التماساً من ربي وترجياً لزائد رحمته غائص في خضم عنايته، رحمات بعضها فوق بعض!.

ومهما لمحت ﴿وَلَا تَقُولَنَّ... وَٱذْكُر... وَقُلْ عَسَىٰٓ﴾ أن المخاطب فيها هو الرسول ﷺ ولكن ﴿إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ لم يكن من قوله بل هو «آتوني غداً» فإن تشمله «لا تقولن» فهو على البدل، وبالنسبة للمستقبل.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١٥.
(٢) سورة طه، الآية: ١٢١.
(٣) سورة طه، الآية: ١١٤.

ثم و﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ نسيان لذكر الرب وليس إلا بسلطان الشيطان و﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[1] وهو أوّل العابدين والمخلصين ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾[3] اللهم إلّا أن يكون نسياناً لاستثناء غير لازم كما في قوله «آتوني غداً» فراجع هنا قول ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ والله يعلمه لكي يتأدب به فإنه ربه ومؤدبه، فلم يك ناسياً لربه إن تركه، أم إن نسيه فنسيانه من الله لكي يعرِّفه موقفه أنه في معرض النسيان لولا تثبيت من الله.

ثم ترى أنها نص على عدد لبثهم هو ثلاثمائة وتسع سنين، وصيغته الصحيحة هي هذه دون المذكورة في الآية!

أو تعني لهم مجموعاً من اللبثين فالأصل ثلاثمائة والتسع الزائد عليها يلحقها حيث ازدادوها تطلباً من الله بعد بعثهم عن نومتهم الأولى؟ ولا طائل تحت هذه الزيادة المزعومة حيث القصد من بعثهم الأول عن نومتهم الأولى حاصل ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ... وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ...﴾ وقد حصلت هذه الثلاث فماذا بعد! ولماذا بعد «تسعاً»؟!.

أو أن التسع المزداد إنما تعني توفيق حساب الأعداد، أن الثلاثمائة هي الشمسية فتتحول إلى إضافة التسع حسب القمرية[4]؟ وهذا لا يصح في أي

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٤٢.

(٢) سورة ص، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الحجر، الآية: ٤٠.

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٥٦ ح ٦٢ عن مجمع البيان وروي أن يهودياً سأل علي بن أبي طالب عليه السلام عن مدة لبثهم فأخبر بما في القرآن فقال: إنا نجد في كتابنا ثلاثمائة فقال عليه السلام ذاك بسني الشمس وهذا بسني القمر -.

أقول وهذا حديث مختلق كما بيناه في المتن وفي احتجاج الطبرسي عن أبي عبد الله عليه السلام وقد رجع إلى الدنيا ممن مات خلق كثير منهم أصحاب الكهف أماتهم الله ثلاثمائة عام وتسعة وبعثهم في زمان قوم أنكروا البعث ليقطع حجتهم ويريه قدرته وليعلموا أن البعث حق أقول: بين الروايتين تناقض في تسعاً ثم هنا الموت وفي القرآن النوم فهما مختلقان مطروحان!.

حساب! فإن كانت الثلاثمائة شمسية فإضافة التسع القمرية لا تحولها إلى (٣٠٩) قمرية، وإن كانت قمرية فإضافة التسع قمرية وشمسيةً لا تحولها إلى (٣٠٩) شمسية ولا قمرية[1] وإن كانت مجملة فإضافة أحدهما لا تزيدها إلا إجماعاً! ثم من ذا الذي ازداد الثلاثمائة تسعاً إلا الله في هذا الحساب التحويل، ومن ثم فليس القرآن كتاب حساب يحول عدداً إلى آخر، ولو كان لكان التعبير هنا، «ثلاثمائة سنين هي بالقمرية (٣٠٩) دون ﴿وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا﴾ ثم القرآن لا يذكر السنين إلا قمرية كما هي الأصل في أحكامه الشرعية، فأيا كانت تلك السنين تتحول في مستعمل القرآن إلى القمرية! ثم هذه الثلاث قد تنافي ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟...﴾ أفبعد التصريح هكذا بعددهم تجهِّل غير الله وتخص علمه بالله؟!.

أو أن الثلاثمائة وتسعاً هما من مقالات المتنازعين أمرهم بينهم؟! ولا شيء منهما مما يقوله الله[2]؟ وذلك عطف بعيد أن تعطف ﴿وَلَبِثُوا۟...﴾ بـ ﴿سَيَقُولُونَ...﴾ وبينهما الفصل بجملات في الآية وآيتين بعدها وهو خلاف الفصيح! ولكنه ليس فصلاً بينهما بأجنبي حتى يخالف الفصيح، و﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ...﴾ تكفي قرينة على ذلك العطف مهما كان بعيداً بفصله عن أصله!

---

(١) وهي حسب الشمسية ٢٩١ سنة إلا (١٥) يوماً وبزيادة التسع (٣٠٠) سنة إلّا (٩٥) يوماً!.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢١٨ - أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: إن الرجل ليفسر الآية يرى أنها كذلك فيهوى أبعد ما بين السماء والأرض ثم تلا ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٥] الآية ثم قال: كم لبث لقوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين، قال: لو كانوا لبثوا كذلك لم يقل الله: قال الله أعلم بما لبثوا ولكنه حكى مقالة القوم فقال سيقولون ثلاثة إلى قوله رجماً بالغيب وأخبر أنهم لا يعلمون قال سيقولون ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة قال: في حرف ابن مسعود: وقالوا لبثوا في كهفهم الآية يعني إنما قاله الناس ألا ترى أنه قال: قل الله أعلم بما لبثوا - أقول ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ تفسير بيان العطف وليست من الآية وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في الآية قال: هذا قول أهل الكتاب فرد الله عليهم: قل أرى أعلم بما لبثوا.

أو أن الثلاثمائة هي قول الله ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ نقل الزيادة عليه تأنيباً يؤيده ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ...﴾ فكما أن عدتهم ذكرت في تلميحة، كذلك سنيّهم العدة؟ وهذا أوفق أدبياً ومعنوياً! ثم إنهما من أقوال المتنازعين بلمحة أن الأول مصدَّق دون الثاني، ولولا صدقه دونه لكان التعبير «ويقولون ثلاثمائة ويقولون بزيادة تسع...»!

﴿قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ﴾ ممن ازدادوا تسعاً، أم وقالوا ثلاثمائة فإن ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وعدة لبثهم من الغيب لا يعلمها إلا هو، «أبصر به» في عجاب «وأسمع» فلا يبصر أحد ما يبصره ولا يسمع ما يسمعه ﴿مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرهم تعليماً لغيب، تكويناً أو تشريعاً فله الولاية المطلقة لا سواه، وله الحكم مطلقاً لا سواه ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا﴾ اللهم إلا حكماً شرعياً وليس بإشراك وإنما برسالة وسواها من تبليغ رسالة أماهيه.



الفهرس

سورة الإسراء

سورة الكهف